علاء الأسواني

رواية

جمهورية كأنّ

دار الآداب

جمهوريَّة كانَّ

علاء الأسواني

جمهوريَّة كأنَّ

رواية

دار الآداب - بيروت

جمهوريّة كأنّ

علاء الأسواني / كاتب مصري

الطبعة الأولى عام 2018

ISBN 978-9953-571-0

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء من أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، ن دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: rana@daraladab.com

info@daraladab.com

/Dar.Al.Adaab @DarAlAdab daraladab.com

إهداء

إلى زوجتي إيمان تيمور

وأبنائي:

سيف ومعتزّ ومي وندى

(١)

لا يحتاج اللواء أحمد علواني إلى جرس المنبِّه.

ما إن يؤذّن لصلاة الفجر حتى يستيقظ وحده. يظلّ مستلقيًا في الفراش مفتوحَ العينين يهمس بكلمات الأذان، ثم ينهض إلى الحمّام فيتوضّأ على عَجَلٍ ويصفّف شعره الأسود المصبوغَ بعناية (ما عدا شريطين ضيِّقين متساويين من الشَّيْب يتركهما على جانبَيِ الرأس)، ثم يرتدي بدلته الرياضيَّة الأنيقة ويتوجَّه إلى المسجد المجاور. طلب منه قائد الحرس، أكثر من مرَّة، إنشاء مسجد داخل الفيلّا حتى تسهل حمايته، لكنَّ اللواء علوان يرفض. يحبّ دائمًا أن يصلّي وسط الناس، مثلَ أيّ شخص عاديّ. يجتاز الشارع سائرًا على قدميه وهو محاط بأربعة من أفراد الحراسة يرقبون الطريق وأسلحتُهم جاهزةٌ للإطلاق في أيّ لحظة، ثم يتفرَّقون عند باب المسجد، فيبقى اثنان في الخارج بينما يظلّ الحارسان الآخران واقفَين داخل المسجد يحرسانه وهو يصلّي... في تلك اللحظات النورانيَّة المباركة، يفارق اللواء علواني

عالمنا إلى دنيا أخرى، يستغرقه خشوع عميق صادق، فلا يرى أفراد الحراسة ولا المصلّين، ولا يفكّر في منصبه ولا أولادِه وزوجته. يحمل حذاءه تحت إبطه، مثلَ أيّ مصلٍّ، ويمشي مُطرِقًا حتى يصل إلى ركن بعيد، فيؤدّي ركعتين تحيَّةَ المسجد، ثم ركعتين سُنَّةَ الصبح، ويستمرّ في التسبيح والاستغفار حتى تُقام الصلاة. على الرّغم من إلحاح المصلّين، فإن اللواء علواني رفض دائمًا إمامتهم، وهو يُصرّ على الصلاة في الصفّ الأخير. يُطرِق خاشعًا، وكثيرًا ما تنهمر دموعه عندما يتلو الإمام آيات القرآن بصوته العذب الرخيم. تحرِّره الصلاة، فيحسّ بأنّه إنسان جديد. تصفو روحه وتنقشع عنه الهمومُ وتنتابه سكينةٌ كأنّما الصلاة شربةُ ماء بارد قُدّمت إليه وهو ظمآن وقتَ القيظ. تهون الدنيا في عينيه فلا تساوي جناح بعوضة. يتعجَّب من صراع البشر على المصالح، وتلهُّفهم إلى المُتَع الزائلة. علامَ هذا التكالب والتنافس، وما فائدة كلّ الكذب والحسد والتآمر؟ أوَلسنا جميعًا عابري سبيل؟ أوَلسنا جميعًا ميّتين في النهاية؟ ألن نرقد يومًا، إلى الأبد، في التراب الرطب، وتصعدَ أرواحنا إلى بارئها ليحاسبنا على أعمالنا؟!

يومئذ لا ينفعنا جاه ولا مالٌ، ولا ينجّينا إلّا العملُ الصالح.

ثمانية وخمسون عامًا عاشها سيادة اللواء علواني متديّنًا ملتزمًا، لا يفوته فَرْضٌ ولا سُنَّة، ولا يخطو خطوة إلّا بعد أن يتأكّد من أنّها حلال شرعًا. لم يَذُقْ في حياته قطرةَ خمر ولا نَفَسًا واحدًا من الحشيش. لم يدخّن قطُّ، ولم يعرف المرأةَ إلّا في فراش الزوجيّة (باستثناء بضع مغامرات جنسيَّة غير مكتملة في مراهقته، يسأل الله المغفرةَ عنها). لقد حجَّ، والحمد لله، إلى بيت الله مرَّتين، واعتمر ثلاث مرَّات. أمَّا عن إحسانه للفقراء، فالحديث يطول. عشر أُسَر

كاملة تعيش على الإعانات الشهريَّة التي يُخرجها من جيبه الخاصّ. وعندما يشكره أحدهم يبتسم اللواء علواني، ويهمس:

ـ أستغفر الله، يا ولدي. أنا لم أُعطِك شيئًا من جيبي. المال مال الله، وأنا مجرَّد حارس عليه. أمانة عليك يا أخي، تذكَّرني في دعائك، لعلَّ الله يعفو عنّي.

إنَّ اللواء علواني، بعكس كثيرين من أصحاب المناصب الرفيعة في بلادنا، يفضِّل أن يناديه الناس بلقبه الدينيّ، «الحاجّ»، أكثر من «سيادة اللواء»، أو «الباشا». ها هو يعود إلى بيته بعد الصلاة، فيجلس كعادته في البهو الفسيح على الأريكة الوثيرة ليقرأ القرآن. بدأ بالمعوِّذتين وسُوَرٍ قصار، ثم قرأ ما تيسَّر من «سُورة البقرة» التي جاء في الحديث الشريف «أنَّ من قرأها نهارًا في بيته لم يدخله الشيطان ثلاثة أيَّام». بعد التسبيح والاستغفار، استقلّ اللواء علواني المصعد إلى جناحه في الدور الثاني، ثم أخذ حمَّامًا ساخنًا وارتدى البُرنُس على جسده العاري، ودخل المطبخ الصغير ليُعِدّ إفطاره بنفسه:

ملعقتان كبيرتان من عسل النحل الجبليّ الفاخر الذي يهديه إليه ـ بانتظام ـ سفيرُ اليمن في القاهرة، ثم بضعُ قِطَع من التوست المدهون بطبقة سميكة من الجبن السويسريّ الذي يحبّه، وأخيرًا صفائحُ «بانكيك» مغطَّاةٌ بالفراولة والشوكولاتة السائلة يشرب معها كوبًا عملاقًا من الشاي بلبن، يعقبه بفنجان من القهوة المضبوط.

ماذا يفعل سيادته بعد ذلك؟!

لا حرج في الحديث عن الحلال: سيادة اللواء أحمد علواني من الذين ينشطون جنسيًّا في الصباح. وربَّما يرجع ذلك إلى عمله الطويل

في ورديَّات الليل، على نحو أكسبه عادة الممارسة الصباحيَّة. ها هو قد جلس على حافَّة الفراش بينما الحاجَّة تهاني، زوجتُه، مستغرقة في النوم. مدَّ يده إلى «ريموت» الدشّ وفتح إحدى القنوات الجنسيَّة، وقام بضبط الصوت بحيث يكون مسموعًا داخل الحجرة لا خارجَها. راح يحملق في المضاجعة الساخنة على الشاشة، حتى صار عاجزًا عن احتمال الإثارة، فخلع البُرنس وألقاه على الأرض، وهجم على زوجته يقبِّلها بلهفة وهو يتحسَّس جسدها الهائل، وقد فوجئ باستجابتها الفوريَّة الحارَّة (على نحو يرجِّح أنَّها كانت تتفرَّج على الفيلم من تحت الغطاء). إنَّ استقامة اللواء علواني، وبُعدَه عن الرذائل، وتربيته العسكريَّة، وحرصَه على الرياضة، واتِّباعَه نظامًا غذائيًّا سليمًا، كلُّ هذه العوامل حافظت على قدرته الجنسيَّة (من دون منشِّطات)، فهو يحتفظ في ذهنه بصور الفيلم الفاحشة، ثم يصول ويجول في الفراش كأنَّه ابن الأربعين.

قد يسأل سائل: كيف لمسلم وَرع مثل اللواء علواني أن يتفرَّج على أفلام البورنو؟!

يا له من سؤال سخيف لا يطرحه إلَّا جاهلٌ أو حاقد... صحيح أنَّ مشاهدة البورنو من الأفعال المكروهة شرعًا، لكنَّها ليست من الكبائر، مثلِ القتل والزنا وشرب الخمر. والشرع الحنيف قد يسمح أحيانًا بإتيان المكروه إن كان سيمنع المؤمن من ارتكاب الكبائر، وفقًا للقاعدة الفقهيَّة: «الضرورات تبيح المحظورات».

إنَّ اللواء علواني، بحكم منصبه الرفيع كرئيس للجهاز، يتعامل يوميًّا مع أجمل النساء في مصر، وكثيرات منهنَّ يتمنَّين إقامة علاقة معه ليستغللن نفوذه. أضف إلى ذلك أنَّ أجهزة المخابرات الأجنبيَّة كثيرًا ما

تدفع بنساء فاتنات في طريقه للتأثير فيه، أو ابتزازِه، أو التجسُّسِ على أسرار الدولة. كلّ هذه مَخاطر جدِّيَّة تلاحقه. وهو في مواجهة فتنة النساء الملحَّة والطاغية ليس لديه إلّا زوجتُه الفاضلة، الحاجَّةُ تهاني تليمة التي جاوزت الخمسين من عمرها وغزت التجاعيد وجهها، وقد رفضت إجراء عمليَّة تجميل لأنَّها محرَّمة شرعًا. لقد ترهَّل جسد الحاجَّة تهاني واكتسى بالشحم حتى جاوز وزنها مئة وعشرين كيلوغرامًا، وصار لها كرشٌ هائل يبدأ مباشرة من تحت ثدييها المرهقين المتهدِّلين ويصل إلى أقصى بروزه عند الصرَّة، ثم يهبط مرَّة أخرى منحدرًا إلى أسفل ليكمل نصف الدائرة. هذا الكرش الفريد من نوعه، الذكوريّ تقريبًا، كان كفيلًا بالقضاء نهائيًّا على شهوة اللواء علواني الجنسيَّة لولا أفلامُ البورنو التي يستعين بها لإثارة خياله. قال سيادته مرَّة لأصدقائه:

ـ إذا كنتَ مُجبَرًا على أن تأكل صنفًا واحدًا من الطعام لمدَّة ثلاثين عامًا، فيستحيل أن تتحمَّله بغير أن تُضيف إليه بعض البهارات...

اكتملت الدورة الصباحيَّة: الصلاةُ وتلاوةُ القرآن، ثم الإفطارُ والجماع الحلال، وحان وقت العمل. ما إن خرج اللواء علواني من باب الفيلَّا حتى أدَّى جنود الحراسة التحيَّةَ العسكريَّة وهرع أحدهم ففتح باب السيَّارة المرسيدس السوداء المصفَّحة. استقرَّ سيادته في المقعد الخلفيّ، وتحرَّكت السيَّارة ببطء تُحيط بها سيَّارتان للحراسة، وأربعُ درَّاجات بخاريَّة يقودها ضبّاط مسلَّحون. المسافة من البيت إلى مبنى الجهاز لا تتعدَّى نصف ساعة، لكنَّه يقطعها في ضعف ذلك الوقت، حيث يعمد قائد الحراسة إلى تغيير الطريق يوميًّا تحسُّبًا لأيّ

ترصُد أو هجوم إرهابيّ. انهمك اللواء في مطالعة التقارير التي صدرت في أثناء الليل، وأعطى هاتفيًا تعليماتٍ عاجلةً، وما إن اجتازت السيّارة بوّابة الجهاز حتى دوّت صيحة عالية، «انتباه»، أعقبتها أصوات البنادق وهي ترتطم تباعًا بالأرض، بينما يؤدّي حاملوها التحيّة العسكريّة. قفز اللواء علواني برشاقة من السيّارة وردّ التحيّة لمساعديه الذين كانوا في انتظاره عند باب المبنى، من طول عملهم مع سيادته. وصار في إمكانهم قراءةُ وجهه، وقد أدركوا هذا الصباح، من اللحظة الأولى، أنّه معكّر المزاج. تطلّع إليهم عابسًا وقال:

ـ الولد تكلّم؟!

قال أحدهم:

ـ المقدّم طارق بيستجوبه يا فندم.

بان الامتعاض على وجه اللواء علواني وصرف مساعديه. وبدلًا من أن يصعد إلى مكتبه في الدور الثالث، أمر عامل المصعد فنزل به إلى غرف التحقيق. لفحه هواء القبو الرطب العطن، وانفتحت البوّابة الحديديّة فأصدرت صريرًا كئيبًا. تقدّم اللواء وهو يردّ تحيّات الجنود، واحدًا بعد الآخر، حتى دخل قاعة فسيحة، نوافذُها ضيّقة ومرتفعة تغطّيها قضبان حديديّة، بينما تنتشر في أنحائها أجهزةٌ معدنيّة لها أذرع وعجلات، حتى يظنّها المرء، لأوّل وهلة، أجهزةً رياضيّة... كان هناك رجل معصوبُ العينين معلّقًا من يديه بحبل غليظ في حلقة معدنيّة تتدلّى من السقف، عارٍ تمامًا إلّا من لباسه، وقد غطّت الكدمات والجروح جسده، بينما تورّم وجهه وتجلّط الدم حول شفتيه وعينيه. في مواجهته وقف أربعةُ مخبرين، وجلس إلى المكتب ضابط برتبة مقدّم،

ما إن لمح اللواءَ علواني حتى انتفض وأدَّى التحيَّة العسكريَّة. انتحى اللواء علواني بالضابط جانبًا وتبادلا حديثًا هامسًا، ثم عادا إلى حيث الرجلُ المعلَّق والذي ارتفع أنينه فجأة كأنَّما يستعطف القادم الجديد. سأله اللواء علواني بصوت أجشّ:

ـ اسمك إيه يا وَلَه؟!

ـ عربي السيِّد شوشه.

ـ ارفعْ صوتك. مش سامع.

ـ عربي السيِّد شوشه.

ـ زعَّق أكتر.

في كلِّ مرَّة يطلب فيها اللواء من الرجل أن يرفع صوته، كان المخبرون ينهالون عليه ضربًا بالعصا، وظلّ الرجل يرفع صوته أكثر فأكثر، وفجأة أجهش بالبكاء. أشار عندئذ اللواء إلى المخبرين، فكفُّوا عن الضرب، ثم قال بنبرة هادئة خبيرة كتلك التي يستعملها الطبيب في نُصح مرضاه:

ـ اسمع يا عربي... لو عاوز ترجع البيت لأولادك لازم تتكلِّم... إحنا مش حنسيبك... حنضرب فيك لغاية لمَّا تموت، وحندفنك هنا ولا حدّ يدرى بك.

صاح الرجل بصوت باكٍ:

ـ يا باشا، والله العظيم ما اعرف حاجة...

قال اللواء بما يشبه الحنان:

ـ والله العظيم أنا حزين على وضعك دَه. اعقل يا بني بدل ما تضيَّع نفسك.

صرخ الرجل:

ـ ارحمني يا باشا.

ـ ارحمْ إنت نفسك وتكلّمْ.

ـ سيادتك، ما اعرفش حاجة.

صاح هنا المقدّم طارق بعصبيَّة:

ـ وحياة أمّك يا ابن الزانية؟!

كانت هذه إشارة. انحنى أحد المخبرين على جهاز أسود كبير يُشبه جهاز التكييف، وشدّ سلكًا غليظًا ينتهي بطرفين مستديرين من المعدن، ألصقهما بخصيتَيِ الرجل، ثم ضغط على زرّ في الجهاز فارتعد الرجل بشدَّة وأطلق صرخاتٍ حادَّةً متلاحقة دوَّت في أنحاء القاعة... تكرَّر الصعق عدَّة مرَّات، ثم أوقفه اللواء علواني بإشارة من يده، وصاح بصوت كالرعد:

ـ إحنا جبنا مراتك مروة... قسمًا بالله يا ابن القحبة لو ما تكلّمت حاخلّي العسكري ينطّ عليها قدّامك.

صرخ الرجل:

ـ حرام عليكم...

نظر اللواء علواني إلى المخبرين، فهرعوا خارجين ثم عادوا وهم يمسكون بامرأة ترتدي جلبابًا منزليًا ممزَّقًا، مشعَّثة الشعر وعلى وجهها آثارُ الضرب. راحت تصرخ والمخبرون يضربونها، وتعرَّف الرجل إلى صوتها فصرخ:

ـ عِرْضي يا ناس...

صاح اللواء:

ـ قلّعوها.

انقضّ عليها المخبرون وقاومت هي ببسالة، لكنَّهم كانوا أقوى فتمكَّنوا من تمزيق جلبابها تمامًا. ولمَّا بدت ملابسها الداخليَّة، ضحك اللواء علواني، وقال:

ـ إيه الحلاوة دي؟! يا بختك يا عربي. سوتيان مراتك قطن مبطَّن. النوع ده كان موضة زمان. اسمه السوتيان العنتري.

ضحك الحاضرون لدعابة سيادة اللواء، وتداخلت تعليقاتهم الساخرة، ثم قال اللواء بمرح:

ـ قلّعوها السوتيان. حلمة مراتك شكلها إيه يا عربي؟! بصراحة، أنا أحبّ الحلمات الكبيرة الغامقة.

مزَّق المخبرون السوتيان وانكشف ثديا المرأة، فأطلقت صرخة واحدة طويلة...

انتفض عندئذ الرجل وصرخ:

ـ خلاص يا باشا حاتكلّم. حاتكلّم.

اقترب منه المقدّم طارق وصاح:

ـ حتتكلّم يا ابن الزانية، ولّا أخلّي العساكر يحبّلوها!

ـ حاتكلِّم، واللهِ العظيم.

ـ إنت عضو في التنظيم؟!

ـ أيوه.

ـ منطقتك؟

ـ شبرا الخيمة.

ـ مسؤولك؟

ـ عبد الرحمٰن متولّي...

ساد الصمت لحظات. ابتعد اللواء علواني خطوات نحو الباب، ثم أشار مناديًا المقدّمَ طارقًا، وقال له:

ـ لو جبت مراته من الأوّل كنت وفّرت على نفسك التعب.

ابتسم المقدّم طارق ممتنًّا، وقال:

ـ ربّنا يخلّيك يا فندم. كلّ يوم بنتعلّم من سيادتك درس جديد.

تطلّع إليه اللواء علواني بنظرة أبويّة، وقال:

ـ سجّل الاعتراف صُوت وصورة واكتب تقريرك. أنا منتظرك في المكتب.

* * *

كان الرجل متخفّيًا في زيٍّ امرأة منقّبة. تمَّ القبض عليه في محطّة مترو دار السلام، وجرى ترحيله إلى قسم الشرطة، وكاد يُعرَض على النيابة التي كانت ستُخلي سبيله حتمًا، ولكن تبيَّن من خلال فحص بصماته، أنّه مسجَّل باسم آخر، فأحضروه إلى الجهاز حيث أدلى باعترافات كاملة. قال إنّه عضو في تنظيم منتشر في عدّة محافظات، وأنّه يرتدي النقاب ليتمكّن من زيارة أُسَر المعتقلين بغير أن يُثير الشكوك. أعطى اللواء علواني تعليماته للضبّاط بمتابعة أفراد التنظيم وكتابةِ تقاريرَ يوميّة بما يستجدّ من معلومات. كانت القضيّة بمثابة إنجاز جديد للجهاز ورئيسه اللواء علواني. لكن سيادته، كما لاحظ ضبّاطه، بدا مهمومًا طوال النهار، حتى إنّه بعد أن صلّى العصر أراد أن يختلي

بنفسه، فطلب من مدير مكتبه ألّا يدخل أحد إليه. استلقى على الأريكة وراح يحرّك أصابعه على مسبحته ويستعيذ من الشيطان الرجيم. لماذا يحسّ بالضّيق؟! لقد كان فضل الله عليه عظيمًا: أنعم عليه بحلاوة الإيمان، وعزِّ الطاعة، والتوفيقِ في عمله. إنَّ السيِّد رئيس الجمهوريَّة نفسه قد أشاد أكثر من مرَّة بأداء الجهاز في مجلس الوزراء. في العام الماضي، عندما أجهض الجهاز محاولةً لاغتياله في الإسكندريَّة، وقبض على المتآمرين جميعًا، أمر سيادة الرئيس بصرف مكافآت كبيرة لكلِّ ضبّاط الجهاز، ثم استدعى اللواء علواني إلى القصر الجمهوريّ، وهنّأه قائلًا:

– برافو يا علواني. على فكرة، أنا فكَّرت في أن أعيِّنك رئيس وزراء، لكنَّ المشكلة أنَّني لن أجد من يحلّ محلَّك في الجهاز، بكفاءتك نفسها.

ردَّ اللواء علواني بحماسة:

– سيادتك القائد، وأنا جنديّ مهمَّتي تنفيذ الأوامر. تعلَّمت من سيادتك أن أخدم بلادي في أيِّ موقع.

لقد مَنَّ الله على اللواء علواني بصحَّة جيِّدة ورِزْق وفير، فهو يعيش مع أُسرته في فيلّا، هي في الواقع قصرٌ ضخم مُقام في التجمُّع الخامس على مساحة عشرة فدادين، يضمّ حمَّام سباحة وملعبَ تِنِس وحديقةَ فواكه. وهو يملك أيضًا عدَّة ڤيلّات فاخرة في الساحل الشماليّ وشرم الشيخ والعين السخنة والإسكندريَّة ومطروح والغردقة والأقصر، بالإضافة إلى شقَّة مساحتها ٢٥٠ مترًا مربَّعًا في حيّ سان جرمان في پاريس، ومنزلٍ أنيق مكوَّن من دورين وحديقة جميلة في

منطقة كوينز غيت في لندن، إلى جوار حديقة هايد بارك، وشقّةٍ فخمة فسيحة في حيّ مانهاتن في نيويورك. كما أنّ لديه حساباتٍ بنكيّة عديدة، معظمها خارج مصر (تحسُّبًا للطوارئ). لقد بارك الله في أسرة اللواء علواني، فصار ابنه الأكبر عبد الرحمٰن قاضيًا، والأوسط بلال ضابطًا في الحرس الجمهوري، والبنت الصغرى دانية طالبة في كلّيّة طبّ القاهرة. أمّا زوجته الحاجّة تهاني، رفيقةُ الكفاح وقَدَم السعد، فهي، على الرّغم من تقدُّمها في السنّ وبدانتها المفرطة، تتمتّع بطاقة لا تتوفّر لنساء أصغر منها سنًّا وأخفّ وزنًا. إنّها زوجة تلبّي حاجة زوجها في العلاقة الحميمة مرّتين على الأقلّ أسبوعيًّا، وهي أمّ ربّت أولادها حتى وصلوا إلى برّ الأمان، وهي أيضًا رئيسة مجلس إدارة جمعيّة «ابدأ» التي تُعنى بإيواء أطفال الشوارع وإعادة تأهيلهم ليكونوا مواطنين صالحين. وهي مسلمة ملتزمة، تنظّم دروسًا للدين في بيتها، وكانت ـ بفضل الله ـ سببًا في هداية الكثيرين... بالإضافة إلى كلّ ذلك، تملك الحاجّة تهاني شركةَ «زمزم»، وهي من أكبر شركات المقاولات في مصر. صحيح أنّها سجّلت الشركة باسم أخيها الحاج ناصر تليمة، لكنّها أخذت منه ورقة «ضدّ»، عبارةً عن وثيقة تنازُل عن الشركة سجّلتها في الشهر العقاريّ، ثم احتفظت بها في خزانة حجرة النوم، وأخبرت زوجها بمكانها لأنّ الأعمار في يد الله، ولا تدري نَفْسٌ بأيّ أرض تموت. ولم يستغلّ اللواء علواني ـ والحقّ يُقال ـ منصبَه قطّ ليحصل على أيّ مزيّة لنفسه أو لأسرته... إذا أخبرته الحاجّة تهاني، مثلًا، بأنّ شركتها تسعى للحصول على قطعة أرض من إحدى المحافظات، فإنّ اللواء علواني يسارع إلى الاتّصال بالمحافظ ليقول:

ـ يا سيادة المحافظ، أنا طالب منك خدمة.

يردّ المحافظ فورًا:

ـ تحت أمرك يا فندم.

هنا يقول اللواءُ بحزم:

ـ شركة زمزم تقدّمت إليك بطلب تخصيص أرض. الشركة دي مملوكة لصهري الحاجّ ناصر تليمة. خدمتك لي يا سيادة المحافظ هي أن تُعامل الحاجّ ناصر زيّ غيره من المقاولين. من فضلك نفِّذ القانون من دون أيّ مجاملة.

يسكت المحافظ لحظة، ويقول:

ـ سيادتك تعطينا درسًا في التجرُّد والنزاهة.

يقاطعه عندئذ اللواء قائلًا:

ـ أستغفر الله... أنا مصريّ أعشق تراب بلدي، ومسلم لا أقبل الحرام على أولادي.

بعد ذلك، عندما يتمّ تخصيص الأرض لشركة زمزم، لا يحسّ اللواء علواني بأدنى حرج. لقد اتّصل بالمسؤول وطلب منه ألّا يجامله. ماذا يستطيع أن يفعل أكثرَ منذ لك؟!

عندما تقدَّم ابنه الأكبر، عبد الرحمٰن، للتعيين في النيابة، اتَّصل اللواء علواني بوزير العدل وطلب منه أن يُعامل ابنه مثل بقيَّة المتقدِّمين من دون أيّ تمييز. وقد تمّ قبول عبد الرحمٰن في النيابة، وهو الآن قاضٍ في محكمة جنوب القاهرة. وعندما تقدَّم ابنه بلال ليلتحق بالحرس الجمهوريّ، اتَّصل اللواء علواني بوزير الدفاع ورجاه أن يطبِّق القواعد على ابنه بلا محاباة، وقد تمَّ قبوله في الحرس الجمهوريّ،

وهو الآن برتبة رائد. هكذا، يبرِّئ اللواء علواني ذمَّته أمام ربّنا، سبحانه وتعالى. ليس هناك ما يُخفيه أو يخجل منه. لماذا يحسّ بالضِّيق، إذن، منذ الصباح؟

كان، في أعماقه، يُدرك السبب، لكنَّه يتجنَّب التفكير فيه: ابنته الوحيدة دانية، «سموّ الأميرة»، كما يُناديها. بعد أن أنجب ولدين تمنّى من الله أن يرزقه ببنت، فحملت زوجته، ثم أصابها نزف مفاجئ في الشهر الخامس أجهضها على نحو أثَّر في نفسيَّتها فترة، ثم حملت من جديد وأنجبت دانية. كانت فرحته بها لا توصف. اختار لها اسمًا استعمله القرآن الكريم لوصف أشجار الجنَّة. بعثتْ فيه دانية مشاعرَ لم يعرفها من قبل، كأنَّه يعيش الأبوَّة للمرَّة الأولى. مَن يصدِّق أنَّ اللواء علواني ترك عمله في الجهاز يومًا كاملًا ليرافق ابنته دانية في يومها الأوَّل في حضانة مدرسة «العير دو ديو» (Mère De Dieu). سلَّمها يومئذ إلى الراهبة المسؤولة، ولم يطاوعه قلبه على تركها وحدها في الحضانة. ظلَّ قابعًا في سيَّارته أمام المدرسة يتابع العمل في الجهاز بالتليفون ويتَّصل بالراهبة بين الحين والحين ليطمئنّ على دانية. آخر النهار، وقف اللواء علواني في حديقة المدرسة يتطلَّع إلى باب الخروج، حتى ظهرت دانية في زيّ الحضانة الورديّ ذي المربَّعات الصغيرة والياقة البيضاء. بدت كالملاك. نادته، ثم مدَّت ذراعيها وركضت بأقصى سرعة لترتمي في حضنه. كاد اللواء علواني، عندئذ، يجهش بالبكاء. صدِّقْ أو لا تصدِّقْ. الرجل الفولاذيّ الذي يقرِّر مصير أسرة بأكملها، بكلمة أو حتى بإشارة من يده، يتحوَّل أمام دانية إلى محبٍّ رقيق الإحساس، في وسعه أن يعمل المستحيل حتى يرى الابتسامة على وجهها. كلّ ليلة بمجرَّد عودته من الجهاز، كان يهرع

إلى حجرتها وهي طفلة ليتأمَّلها وهي نائمة. يتطلَّع مليًا إلى أناملها الصغيرة وأنفها وفمها ووجهها البريء... حتى حقيبة المدرسة وجواربها وملابسها. كلُّ ما يتعلَّق بها كان يُثير في نفسه إحساسًا عميقًا بالحنان والشفقة.

هو مثل كلّ أب، طبعًا، يحبّ ولديه بلال وعبد الرحمٰن، لكنَّ ابنته دانية مصدرُ البهجة الأصيل في حياته. كثيرًا ما يتحدَّث إليها في شأن عابر، وفجأة تغلبه العاطفة فينقطع عن الكلام ويحتضنها ويقبِّلها. لم تخذله دانية قطّ، وهي ممتازة علمًا وخُلُقًا. حافظت على تفوُّقها في الدراسة، وبعدما حصلت على الثانويَّة العَّامة من «الميردو ديو» أرادت أن تدرس الطبّ، فاتَّخذ اللواء علواني الترتيبات لإرسالها إلى جامعة كمبردج، لكنَّ الحاجَّة تهاني راحت تبكي وتستعطفه ألَّا يحرمها من أن تكون قرب ابنتها الوحيدة، حتى أذعن في النهاية وألحقها بطبّ القاهرة، واشترى لها سيَّارة مرسيدس، لكنَّه منعها من قيادتها خوفًا عليها، وعيَّن لها سائقًا خاصًّا. حرص اللواء علواني، كعادته، على عدم استغلال نفوذه، فكان يتَّصل بعميد كلِّيَّة الطبّ قبل الامتحانات ليؤكِّد له ألَّا يمنح دانية أيَّ معاملة خاصَّة، وقد حافظت ابنته دائمًا على تقدير امتياز حتى بقي لها عام على التخرُّج. يتخيَّل فرحته يوم تخرُّجها، ويفكِّر دائمًا في الخطوة التالية: هل يفتح لها عيادة في القاهرة، أم يُرسلها إلى الخارج للحصول على الدكتوراه... إنَّ حبّه لدانية يبلغ حدًّا غريبًا، إلى درجة أنَّ فكرة زواجها تزعجه.

كيف يأتي يوم تترك فيه دانية البيت لتعيش مع رجل غريب وتشاركه في الفراش؟! كيف تتعلَّق برجل سواه ويصبح محور حياتها؟!

يعرف أنَّها سُنَّة الحياة، وأنَّ سعادة المرأة لا تكتمل إلَّا بالزواج

والأمومة، لكنَّه كثيرًا ما يتساءل: هل يوجد في مصر شابٌّ يستحقّ أن يكون زوجًا لدانية؟ هل يوجد رجل واحد سواه يستطيع أن يقدِّرها حقّ قَدْرها؟! إنَّ الشرع الحنيف قد أمر الزوجة بطاعة زوجها، وجعله قوّامًا عليها، فأين ذلك الزوج الذي يستحقّ أن يكون قوّامًا على دانية؟! إنّها أرقى كثيرًا من كلّ الشبّان الذين رآهم. إنَّها مستقيمة لا تعرف اللؤم واللوعة مثل البنات، وهي صادقة في تديُّنها، حتى إنَّها طلبت من نفسها ارتداء الحجاب وهي في الصفّ الثاني الإعداديّ... إنَّها طيِّبة نقيَّة تفترض الخير في كلّ الناس، وتُجهد نفسها لتقدِّم المساعدة إلى كلّ من يحتاج إليها. وما يُقلقه أنّ براءة دانية (التي قد تصل إلى حدّ السذاجة) ستجعلها صيدًا سهلًا لأيّ ولد ابن حرام يخدعها بابتسامة وكلمتين، وبعد ذلك يفعل بها ما يشاء. كم ندم اللواء علواني لأنّه استجاب لدموع زوجته ولم يرسل دانية لتتعلّم في كمبردج. وها هي تختلط بأولاد الرعاع في جامعة القاهرة، وقد صاروا زملاءها لمجرَّد أنَّهم حصلوا على مجموع مرتفع في الثانويَّة. ها هو يدفع ثمن خطئه... لم يعد في إمكانه تجاهل الحقيقة. دانية تغيَّرت. ما زالت رقيقة ومهذَّبة، لكنَّها لم تعد تلك الابنةَ المطيعة والمبهورة به، والتي توافقه على كلّ ما يقوله، وتتلقَّف آراءه لتحفظها وتعمل بها... لقد كلَّف أحد ضبَّاطه الثقات بكتابة تقارير منتظمة عن تحرُّكاتها، وقد قرأ هذا الصباح ما أفسد عليه نهاره. ظلّ يؤجِّل الحديث معها ليعطي نفسه فرصةً للتفكير، لكنَّه الآن لم يعد يحتمل. هبَّ واقفًا، وأمر مدير مكتبه بتجهيز السيَّارة، وبعد دقائق كان في طريقه إلى المنزل، وقد قرَّر أن يواجه دانية مهما تكن النتيجة.

(٢)

عزيزي القارئ...

لن تعرفني أبدًا لأنني سأوقّع هذا الكتاب باسم مستعار. لست خائفًا. أنا، والحمد لله، شجاعٌ أبًا عن جدّ. كلُّ ما في الأمر أنّنا نعيش في مجتمع متخلّف كذّاب يعشق الأوهام، ولست مستعدًّا لدفع ثمن غباء الآخرين. عشت خمسة وخمسين عامًا أمضيت معظمها في التأمُّل العميق، حتى توصّلت إلى عدّة حقائق، فصار واجبي أن أُعلنها وأوثّقها... إنَّ النظريّات التي سأقدّمها، في هذا الكتاب، جديرة بالتدريس في الجامعات، لو كنّا في دولة محترمة. لكنّنا، للأسف، في مصر، حيث لا كرامة لمفكّر جادّ أو عالِم نابغ، بينما المَجْد، كلّ المجد، للأفّاقين والأدعياء... سأبدأ نظريّتي بهذا السؤال:

- ما جوهر العلاقة التي تربط الرجل بالمرأة في مصر؟

ما الغَرَض من كلّ هذه النظرات الساهمة والابتسامات المتودّدة واللمسات المشتاقة ورسائل الغزل والغرام؟! ما الهدف من كلّ هذه

المكالمات الليليَّة الهامسة والجلسات العاطفيَّة على الشواطئ؟ لماذا تتفنَّن المرأة في ارتداء الأكسسوار ووضع الماكياج الذي يؤجِّج فتنتها، وما الهدف من تلك الأحذية «الحريمي» ذات الكعب العالي، والتي ترجرج جسد المرأة لتُبرز طراوته؟

لماذا كلّ تلك الفساتين والبناطيل «الحريمي» والجيبات والتايّيرات؟ لماذا تتنوَّع الموديلات والألوان بلا نهاية؟ حتى المحجَّباتُ المتديِّنات، لماذا ترتدي كثيرات منهنّ ثيابًا ضيِّقة مثيرة كأنَّهنَّ يُردن ـ لولا الملامةُ ـ أن يُطلعن الرجال على تفاصيل أجسادهنَّ؟

أيُّها السادة...

كلّ هذا الكرنفال العظيم المُبهِر، له هدف واحد: اصطياد الرجل وجرُّه إلى قفص الزواج. منذ البلوغ يعاني الرجل شبقًا ملحًّا مؤلمًا يدفعه إلى مطاردة المرأة حتى يضاجعها ويستريح من ضغط هرمونات الذكورة على أعصابه. على الجانب الآخر، تنشأ المرأة عندنا وهي تعتبر عضوها التناسليّ جوهرتها المكنونة...

في بلادنا فقط، تصف الصحف البنت التي فقدت بكارتها بأنَّها «فقدت أعزّ ما تملك».

تأمَّلْ، يا عزيزي القارئ: ليس أعزُّ ما تملكه الفتاة المصريَّة عقلَها أو إنسانيَّتَها أو حتى حياتَها. أعزّ ما تملكه هو بكارتها. ذلك الغشاء الذي يغطِّي عضوها التناسليّ ليضمن أنَّه لم يُستعمل من قبل. من أجل حقّ الانتفاع بهذا العضو البكر، يطارد الرجل المرأة فتتدلَّل عليه: تطلب هدايا ومجوهرات ومَهْرًا وأثاثًا فاخرًا وشقَّة فسيحة في حيّ راقٍ، ويخضع الرجل لكلّ شروطها، وهو يتلمَّظ حالِمًا بتذوُّق اللؤلؤة

المخبوءة في المحارة، ثم يتزوّجان وتنقضي فورة الأيّام الأولى، فيكتشف الرجل أنَّ ممارسة الجنس مع زوجته ليست متعة الدنيا كما توهَّم. سيفاجأ الرجل - غالبًا - بأنَّ زوجته بليدة في الفراش، أو أنَّها تقرف من الجنس وتعتبره شيئًا قذرًا، مثل التبوُّل والتبرُّز، فهي لا تمارسه إلَّا مضطرَّةً، كأداءِ واجب، وربَّما - وهذا الأسوأ - تستعمل الزوجة الجنس أداةَ ابتزاز، كأنَّما تقول لزوجها:

«إذا أردت أن تستمتع بجسدي، فيجب أن تغمرني بالهدايا، وتمنحني كلّ المبالغ التي أطلبها، وتنصرني دائمًا في مشاجراتي مع أمّك وإخوتك»...

عندئذ فقط، يُدرك الزوج حجمَ الخديعة: لقد دفع كلّ ما يملك وهو يحلم باللؤلؤة، ثم اكتشف أنَّ المحارة فارغة. وقبل أن يتمكَّن من الهرب، تكون الزوجة أنجبت. المصريَّة أسرع النساء إنجابًا على وجه الأرض. إنَّها تستعمل الأطفال أسلحةً فعَّالةً للاحتفاظ بالزوج وتطويعه لإرادتها. هذه أوَّل حقيقة يعرفها كلّ زوج مصريّ (حتى لو أنكرها). أمَّا الحقيقة الثانية، فهي أنّ أنوثة المرأة المصريَّة تتناسب عكسيًا مع مستواها الاجتماعيّ. نساء الطبقة الراقية - غالبًا - لسن إلَّا دمًى عقيمة مزيَّفة، شبيهاتِ إناث، عرائسَ حلاوةٍ بلا شهوة ولا روح.

المرأة الشعبيَّة وحدها هي الأنثى الطبيعيَّةُ المكتملة التي لم تفسد فطرتها بالتصنُّع، ولم تعرف أكاذيب الهوانم ولا ألاعيبَهنَّ ولا النفاقَ الذي يرضعنه مع لبن الأمّ. انظر إلى لوحات محمود سعيد. هذا الفنَّان العظيم تربَّى في قصر أبيه، رئيس وزراء مصر، وتعلَّم في فرنسا، وعمل قاضيًا حتى سنّ الخمسين، ثم تفرَّغ للفنّ، لكنَّه عندما رسم لم يجد أمامه إلَّا المرأةَ الشعبيَّة نموذجًا للأنوثة. إنَّ الأنوثة المتفجِّرة التي

تطلّ علينا من لوحة «بنات بحري»، لن تعرفها أبدًا بناتُ الطبقة الراقية.
باختصار، المرأة الشعبيَّة هي المرأة، وكلُّ ما عداها مزيَّف ومصطنع،
تمامًا كالفارق بين الوردة الطبيعيَّة والبلاستيكيَّة.

الحقيقة الثالثة: إنَّ فتنة المرأة الشعبيَّة تتجلَّى في أروع صُوَرها
عندما تكون خادمة، عندئذ تضيف إلى أنوثتها الطازجة الفوَّارة طابَعًا
لذيذًا من الاستكانة يؤجِّج غوايتها...

من فضلك، أجب بصراحة:

... ماذا يحدث إذا دعوتَ خطيبتك الأرستقراطيَّة إلى الغداء في
مطعم أنيق فخم، ثم قلت لها فجأة:

ـ جسمك مثير جدًّا يا حبيبتي. مؤخِّرتك البارزة لها فلقتان
ترجرجان بطريقة بديعة، وصدرك الريَّان يجعلني أتخيَّل نفسي وأنا
أمصّ حلمتيك فينتصب عضوي بقوَّة، وأتمنَّى لو أنكحك فورًا.

ماذا ستفعل خطيبتك عندئذ؟!

ستغضب قطعًا. ستلعنك. ستهرع إلى بيتها لترتمي باكية في حضن
أمّها، وهي تنعَى حظَّها الذي أوقعها في حبائل رجل سافل منحطّ
مثلك. وغالبًا ستفسخ الخطوبة. إنَّها صادقة في غضبها، لأنَّك
صارحتها بخيالك الجنسيّ. لن تفكِّر خطيبتك أبدًا في أنها عندما
اختارت ثوبها الضيِّق كان هدفها فعلًا أن تلفت نظرك إلى استدارة
مؤخِّرتها وبروزِ نهديها. إنَّ قواعد المسرحيَّة تقضي بأن تُثير خطيبتك
شهوتَك كأنَّها لا تقصد، بينما تُخفي أنت هيجانك وتتكلَّم في
موضوعات أخرى. إنَّ السبب الحقيقيّ في غضب خطيبتك، هو أنَّك
أفسدت المسرحيَّة بصراحتك. الغزل الجنسيّ نفسه الذي أغضب

خطيبتك، لو أنّك وجّهته إلى خادمتك، فسوف نعتبره غالبًا إطراءً لطيفًا. ستتأوّه وتضحك بخلاعة محبَّبة وامتنان لعوب... حقًّا، إنَّ الخادمات عاشقات لا يعوّضن لمن يعرف كيف ينهل من ينابيعهنَّ الطبيعيَّة العذبة.

يا معشر الرجال...

«من لم يعشق خادمة لم يعرف العشق»...

أنا، مثل معظم الأزواج في مصر، تمرَّضت للخديعة. عندما أمارس الجنس مع زوجتي، أحسّ كأنَّني آكل سندوتشًا محشوًّا بمسحوق الصابون. مهما أكن جائعًا فستعافه نفسي بعد القضمة الأولى. بعد أن بلغت الخمسين، انقطعت تقريبًا عن مضاجعة زوجتي. أظنّها استراحت لأنّها لم تحبّ الجنس قط، ولم تمارسه إلّا في أضيق الحدود، بعد أن تستنفد كلّ الأعذار الممكنة. سأقدّم، في هذا الكتاب، تجربتي مع الخادمات، لعلّها تُفيد ملايين الأزواج الذين يتعذّبون، في صمت، بعدما خُدعوا بقسوة ونذالة. أيُّها الزوج الهائج البائس...

ـ «الخادمة هي الحلّ»...

ماذا يريد الرجل أكثر من أنثى شهيَّة تقيم معه بالبيت نفسه، يستمتع بها متى شاء؟ يضاجعها مباشرة بلا لفّ ولا دوران ولا تضييع وقت في مكالمات ولقاءات عاطفيَّة خائبة؛ امرأة حقيقيَّة تقدّر قيمة الجنس، وتستمتع به وتتوق إليه... ألم يكن أجدادنا، حتى القرن التاسع عشر، يشترون المحظيّات من أجل المتعة الجنسيَّة؟! ألم تكن الزوجة الشرعيَّة في ذلك العهد تُهدي زوجها محظيَّةً جميلة فيشكرها

الزوج على هديئها، ويضاجع المحظيَّة فتهدأ نفسه وتزول همومه؟!

إذا تخلَّصنا من عُقَد الطبقة المتوسِّطة، فإنَّ علاقة الزوج بالخادمة تعزِّيه عن توتُّرات علاقته بزوجته، وتؤدِّي بالتالي إلى استقرار الأسرة... بالطبع، قد تسبِّب الخادمة مشكلات، لكنَّها كلّها قابلة للحلّ. هناك، مثلًا، خشونة اليدين والقدمين التي تعانيها الخادمة بسبب ظروف العمل. هذه يمكن علاجُها بإعطائها مبلغًا شهريًا لتشتري الكريمات الكفيلة بتنعيم الأطراف (مع عدم الإفراط في التنعيم حتى لا تثير شكّ زوجتك)...

مشكلة أُخرى شائعة: قد تنتاب عشيقتَك الخادمةَ حالةٌ من التَّبُّ تدفعُها إلى استفزاز زوجتك ومخالفة تعليماتها. عندئذٍ، يجب أن تحذِّرها من عواقب تحدِّي زوجتك، لأنَّها لو قرَّرت طردها فلن يمكنك حمايتها. هُناك، أيضًا، مشكلة الخادمة الطمّاعة المتلهِّفة إلى المال... حقًّا، ما أيسر ذلك. إنَّ ما تنفقه على عشيقتك الخادمة في عام كامل قد تنفقه على زوجتك في ليلة واحدة إذا دعوتها مع أسرتها إلى العشاء في مطعم فخم، أو اشتريت لها عقدًا أو خاتمًا في عيد ميلادها... هكذا، بأقلِّ تكلفة، ستحظى بعشيقة رائعة تُنسيك بؤسك مع الهانم ذات المحارة الفارغة، ولكنْ حذارِ، ثم حذارِ... إنَّ عشق الخادمات ليس ارتجاليًّا ولا خبطَ عشواء، وإنَّما هو فنّ وعلم يحتاجان إلى دراسة وخطوات محسوبة، تتلخَّص فيما يلي:

أوّلًا: الاستكشاف

منذ اليوم الأوَّل، يمكنك أن تكتشف شخصيَّة الخادمة... لو

احسست بأنّها تسعى للفت نظرك؛ لو أكثرتْ من المرور أمامك بلا داعٍ؛ لو فوجئت بك عند باب المطبخ فشدَّت طرحتها وشهقت بفزع وميوعة؛ لو انحنت أمامك لتمسح الأرض بالخيشة ثم تقهقرت وهي تُبرز موخّرتها باعتزاز؛ لو تدلَّت أمامك من النافذة لتنشر الغسيل فوضعت المشابك في فمها ثم انحنت فبدا ثدياها الكبيران ملتصقين بحافَّة النافذة... كلّ هذه علامات على أنَّ خادمتك صالحة للعشق. انتقل إلى الخطوة التالية.

ثانيًا: المناورة الأولى

بمجرَّد أن تنفرد بالخادمة بعيدًا عن زوجتك، ابتسم واسألها عن أحوالها، ثم تطلَّعْ إليها بشهوة. تفحَّصْ جسدها مليًّا بوقاحة. هذه لحظة فارقة. اختبار حاسم. الخادمة الممتنعة ستتجاهل نظرتك تمامًا، أو تخاطبك بجدِّيَّة، أو تنادي زوجتك لتسألها عن أيّ شيء. أمَّا الخادمة المتجاوبة، فستبتسم وتكلِّمك بدلال، وربَّما منحتك نفحة كريمة: كأن تُريك رجَّة لذيذة من ثدييها، أو تمرّ أمامك وهي تحرِّك موخّرتها بطريقة بندوليَّة خلَّابة (من اليسار إلى اليمين، وبالعكس)... أنت، إذن، في الطريق الصحيح. تقدّمْ.

ثالثًا: صناعة السرّ

في أوَّل فرصة لا يراكما فيها أحد، أَخرج مئة جنيه، ودسَّها في يد الخادمة، واهمس في أذنها:

- إيّاك تقولي للمدام إنّي أعطيتك حاجة.

ستهزّ رأسها وتشكرك بحرارة. هذه الخطوة لها غَرَضان: أوّلًا. إفهامُ الخادمة أنَّ عشقها لن يكون مجّانيًّا، وثانيًا صناعةُ سرّ تشتركان فيه، تمهيدًا لعلاقتكما التي بدأت فعلًا، ولم يتبقَّ أمامك إلّا الخطوةُ الأخيرة.

رابعًا: الهجوم

قبل الهجوم توخَّ الحرص. قد تجاريك الخادمة، وما إن تلمسها، حتى تثور وتهدِّدك بالفضيحة، أو تعطيكَ درسًا في الأخلاق. مثل هذه الخادمة معقَّدة ولئيمة الطباع، لديها إحساس بالنقص تريد تعويضه بضبطك متلبِّسًا بالتحرُّش. إنَّها تُرضي غرورها كامرأة، وفي الوقت نفسه تستمتع كخادمة بممارسة التفوُّق الأخلاقيّ على مخدومها. هذا النوع الرديء من الخادمات، لحسن الحظّ، نادر جدًّا، ومن الممكن اكتشافُه باختبار بسيط:

عندما تحين ساعة الصفر، اطلب منها الحركة الأولى. ادعُها إلى الجلوس إلى جوارك، أو تظاهرْ بأنَّ ظهرك يؤلمك، واطلبْ منها أن تدلّكك. الخادمة اللئيمة سترفض، أمّا الخادمة المنفتحة، فستُقبل عليك. احتضنها عندئذٍ بقوّة، وقبِّلها واعتصرْ صدرها بكفّيك. قد تستهجن بميوعة، أو تتظاهر بمحاولة التملُّص منك وهي تلتصق بك. لا تلتفت إلى هذا الاستنكار الهشّ الكاذب، إنَّه مجرَّد تسجيل موقف. شدِّد الهجوم. انقضَّ عليها. افترسْها... أهلًا بك في نادي السعادة.

توقَّف أشرف ويصا عن الكتابة، وأشعل سيجارة ملفوفة وراح يحتفظ بالدخان في فمه ليضاعف من تأثير الحشيش. الآن، أصبح

موضوع الكتاب واضحًا في ذهنه. سيكون الفصل الأوّل بعنوان «دليل اللذّات في نكاح الخادمات»، والفصل الثاني بعنوان: «يوميّات حمار مبتهج». أمّا الفصل الثالث، فسيكون بعنوان «كيف تصبح قوّادًا ناجحًا في خمس خطوات». سوف يضيف فصلًا كاملًا ليصف ما يحدث من مهازل في الوسط السينمائيّ. سيقول، في هذا الكتاب، كلّ شيء. سوف يطبع، على نفقته، ألفَ نسخة ويوزّعها سرًّا. لن يعرف أحد أبدًا أنّه مؤلّف الكتاب. ستكون المخطوطة مكتوبة على الكومبيوتر وليس بخطّ يده، وسيطبع الكتاب في مطبعة أحمد مأمون صديق عمره وكاتم أسراره منذ أن كانا تلميذين في مدرسة الليسيه الفرنسيّة. اكتشف أشرف ويصا أنّ التأليف أصعب كثيرًا من التمثيل. بعد شهور من العمل، ما زال الكتاب في بدايته وقد بذل جهدًا كبيرًا حتى توصّل إلى تلك النبرة المتهكّمة واللاذعة في الكتابة. إنّه لا يسعى إلى إقناع قرّائه بأيّ شيء. سيكشف لهم فقط كمّيّة الأكاذيب التي نعيش فيها... سيُسعده للغاية أن يرى تأثير الكتاب في أولئك النسوة المتغطرسات المصطنَعات عديماتِ الأنوثة، وفي هؤلاء الرجال المتأفّفين والمتأنّقين والذين ينضحون بالتفاهة والغباء.

«نعم... اقرأوا كتابي، أيُّها الأفّاقون، لتعرفوا حقيقتكم. أنا أشرف نجيب رمزي ويصا، الكومبارس الفاشل والحشّاش والذي تحتقرونه وتستخِفّون به، أو حتى تتفضّلون بالعطف عليه. بقدر ما سبّبتم لي من ألم وإحباط، وبقدر كذبكم وحقارتكم، سيكون كتابي صفعة مدوّية على وجوهكم».

سأترك نسخة من الكتاب في مكتب لمعي الريجيسير القوّاد والذي لطالما أذلّني وفرض عليّ أتاواتٍ لأحصل على أدوار تافهة لا تستغرق

دقائق. سأترك نسخًا من الكتاب في البلاتوه ليقرأه الممثلون المشهورون، حتى يدركوا أنّني أعرف تمامًا كيف وصلوا إلى النجوميّة. سأبعث بالكتاب إلى كلّ أقربائي «الناجحين» ليفهموا أنّ النجاح في المجتمع الفاسد الذي نعيش فيه، لا يستحقّ كلّ هذا الرضا عن النفس. سأترك نسخة من الكتاب على التسريحة في حجرة النوم حتى تقرأه ماجدة زوجتي... يُسعدني جدًّا أن أصدمها في أفكارها الخائبة التي تقدّسها باعتبارها حقائقَ الحياة. ماجدة زوجتي هي جلّادتي التي تولّت تعذيبي على مدى ربع قرن. لو كنت مسلمًا لطلّقتها بعد شهور من زواجنا، لكنَّ الطلاق لا يجوز عندنا نحن الأقباط إلّا لعلّة الزنا... كانت ماجدة آخر امرأة تصلح لي. رأيتها في يوم أغبر في حفل للكنيسة، فوقعت في الشَّرَك. كم حذّرتني المرحومة أمّي من هذه الزيجة، لكنّي كنت ذَكَرًا هائجًا أحمق، فسعيتُ لهلاكي بنفسي. بـ يسوع الربّ، تمجّد اسمك. كأنّما خُلقت ماجدة عدلي برسوم بهدف واحد: أن تنغّص حياتي، لا أكثر ولا أقلّ».

أحسّ أشرف بتوتّر مفاجئ، فأشعل سيجارة ملفوفة أخرى، وجذب نَفَسًا عميقًا واستعاد ذكرياته مع ماجدة. ما أكثر المشاكل التي سبّبتها. لمّا أنجبت، أرادت أن تُسمّي الولد «باتريك» والبنتَ «كريستينا»، حتى تسهّل اندماجهما في المجتمع الغربيّ عندما يكبران ويهاجران. رفض أشرف اقتراحها بشدّة، لأنّ جدّه رمزي باشا ربما كان رفيقَ الزعيم سعد زغلول في ثورة ١٩١٩، وقد باع أطيانًا عديدة وأنفق ثروة طائلة على دعم الحركةَ الوطنيّة. هذا المصريّ العظيم لا يجوز أبدًا أن يحمل أحفاده أسماء أجنبيّة. بعد مشادّات عنيفة، استطاع أشرف أن يفرض على زوجته اسمين مصريّين: «سارة» و«بطرس».

إنَّ حياته مع ماجدة ليست إلَّا سلسلة من الخلافات والمشاجرات، تتخلَّلها فتراتٌ طويلة من الصمت العدوانيّ والتعليقات المسمومة والتجاهل المتغطرس. ألحَّت عليه حتى يبيع عمارة جدِّه في شارع طلعت حرب حيث يسكنون، ويشتري ڤيلًا في أكتوبر أو التجمُّع، لأنَّ وسط البلد تحوَّل في رأيها إلى منطقة شعبيَّة لا تليق بهم. يا لها من فكرة غبيَّة... معركة أُخرى مزعجة اضطر إلى خوضها. كيف يبدِّد دخل العمارة الذي يعيش عليه مع إيرادات أخرى من ميراثه؟! أين سيجد شقَّة مثل التي يسكنون فيها؟ سبع حجرات فسيحة سقفها شاهق على الطراز القديم، وحمَّامان ومطبخان وشرفة كبيرة تكفي لجلوس عشرة أشخاص مرتاحين، بالإضافة إلى ثلاث شرفات صغيرة ملحَقة بغرف النوم. سيكون مجنونًا إذا ترك شقَّة كهذه، بالإضافة إلى أنَّه لا يتخيَّل حياته في مكان آخر. هنا وُلد وعاش صباه وشبابَه، وكلُّ ركن في هذه الشقَّة شهد جزءًا من حياته. كلّ هذه معانٍ إنسانيَّة دقيقة يستحيل أن تصل إلى ماجدة. إنّها لا تفهم أيَّ شيءٍ في الدنيا ما لم يتحوَّل إلى أرقام. في أوَّل الزواج، ألحَّت عليه ليهاجرا إلى كندا مثل الكثير من أقربائهما. كانت تتشاجر معه وتصيح:

ـ قُلْ لي سببًا واحدًا يجعلنا نعيش في هذا البلد.

وكان يردّ بجملة واحدة:

ـ أنا مثل السمكة في الماء، لو خرجتُ من مصر أموت.

نجح، بعد عناء، في صرفها عن فكرة الهجرة، لكنَّها، للأسف، أقنعت الولد والبنت فهاجرا إلى كندا بمجرَّد تخرُّجهما. لن يسامحها على ذلك أبدًا. كم يحتاج الآن إلى صحبة بطرس وسارة. إنَّه يتقدَّم

في العمر، وهو وحيد تمامًا. ماجدة تخرج من الصباح ولا تعود من عملها قبل السابعة مساءً، وتترك مهام البيت كلّها للخادمة. حتى وهي في البيت، تتجنَّب الحديث معه إلَّا للضرورة. ماجدة لم تحبّه قطّ، وتعاملت معه باعتباره «أفضلَ مشروع متاح للزواج والإنجاب»...

لا يضايقه ذلك لأنَّه أيضًا لم يحبّها. ما يُحزنه حقًّا أنَّها لا تحترمه. إنَّها تُعَيِّره بفشله. وكثيرًا ما تلمِّح إلى أنَّها اجتهدت وصارت محاسبة قانونيَّة لها مكتب ناجح شهير، بينما هو عاطل، على الرَّغم من ثرائه، ويجلس في البيت بالأسابيع وأحيانًا بالشهور حتى يصل إليه أمرُ تصوير، فيمضي أيّامًا في عمل منهِك مهين ليظهر في مشهد أو اثنين ككومبارس في فيلم أو مسلسل. منذ أيّام، صرَّح لها بأنَّه يفتقد بطرس وسارة، فقالت بلهجة ذات مغزى، وهي تتجنَّب النظر إليه:

ـ لا بُدَّ من أن يكافحا حتى ينجحا في الحياة.

وكأنَّها تريد أن تقول:

ـ اتركهما وشأنهما حتى لا يكونا مثلك.

كم آلمته هذه العبارة. ماجدة تعتبره مدلَّلًا وفاشلًا. وما أبعد ذلك عن الحقيقة. صحيح أنَّه يعيش على إيراد أملاكه، لكنَّه ليس كسولًا ولا منعدمَ الطموح. إنَّه ممثِّل يحبّ فنّه، وقد شهد بموهبته كبار النقّاد والمخرجين، لكنّه للأسف لم يعثر على فرصته لأنَّ مجال التمثيل في مصر، مثل كلّ شيء فيها، عبارةٌ عن مستنقع مغطّى بالعفن يعجُّ بالحشرات والديدان. لو كان ممثّلة لعوبًا تمنح جسدها للمنتج، لكان وصل إلى النجوميَّة من زمان. ولو كان قوّادًا يجلب النسوان إلى المخرجين لمنحوه أدوار البطولة. لكنَّه ببساطة، مثل مصريين كثيرين،

يدفع ثمنًا باهظًا لموهبته واحترامه نفسه. أحسّ أشرف بالتعب، فأطفأ أنوار مكتبه، وعبر الردهة الطويلة إلى حجرته، وتمدَّد في الظلام إلى جوار ماجدة، وسرعان ما استغرق في النوم. انتبه في الصباح إلى الجَلَبة اليوميَّة المعتادة، واستمع، وهو مغمض العينين، إلى زوجته تخرج من الحمَّام وترتدي ملابسها وتتزيَّن وتتحرَّك بسرعة في كلّ اتِّجاه، ثم تُراجع لمرَّة أخيرة أوراقَ العمل التي تحملها في حقيبتها. تظاهر بأنَّه نائم. لم يكن يرغب في الحديث معها... ها هي تطفئ النور ثم تغلق باب الحجرة وتنصرف... عاود أشرف النوم، ولمَّا صحا كانت الساعة قد جاوزت العاشرة. دخل الأوفيس المجاور لحجرة النوم، وصنع لنفسه سندوتشًا كبيرًا من العسل الأبيض بالقشدة، أكله بتلذُّذ، ثم أعدَّ لنفسه فنجانًا من القهوة السادة رشف منه وهو يدخِّن الاصطباحة... أوَّل سيجارة حشيش يكون تأثيرها رائعًا. صَفا ذهنه تمامًا وانتابه انسجام مدهش. حلق ذقنه بعناية، ثم استسلم للماء الساخن المنهمر من الدشّ. ولمَّا فرغ من الحمَّام، ارتدى الروب الكشمير على جسده العاري وبخّ بضع زخَّات من عطره المفضَّل «بينو سيلفستر»، ثم توجَّه إلى المطبخ حيث تبدأ حياته الأخرى الرائعة

(٢)

مساء الخير يا مازن،

أنا أسماء زناتي... كنت قاعدة قدّامك في اجتماع حركة كفاية يوم السبت... شعري أسود طويل، وكنت أرتدي بلوفر أبيض بياقة وبنطلون جينز أخضر... افتكرتني؟! أردت أن أكلّمك بعد الاجتماع، لكنّي انكسفت. أخذت إيميلك من السكرتارية وقرَّرت أن أكتب إليك... أعبِّر عن نفسي دائمًا أفضلَ بالكتابة. أنا حاصلة على ليسانس أدب إنكليزي، ولي محاولات في الكتابة رُبما أُطلعك عليها يومًا... أتريد أن تعرف ماذا أريد منك؟

أنا أمرّ في ظروف صعبة وأحتاج إلى صداقتك. أعرف أنّني أخاطر بسمعتي، لأنَّ البنت المصريَّة إذا طلبت صداقة شابّ فإنَّها تدمغ نفسها بالانحلال. أنا متأكّدة من أنَّك ستفهمني. لست منحلَّة، يا مازن، لكنَّني مختلفة، وهذا الاختلاف هو السبب في كلِّ مشاكلي.

أنا من أسرة مصريَّة تقليديَّة. أبي، الأستاذُ محمَّد زناتي، يعمل

محاسبًا في السعوديَّة منذ ربع قرن. لم أعرفه إلَّا في الإجازات. شهر أو شهران سنويًا يكون لي فيه أبٌ حقيقيّ «ملموس»، وبقيَّةُ العام يتحوَّل إلى ضمير محذوف، مجرَّد فكرة، معنًى غائم... يستحيل أن ألوم أبي على الهجرة التي اضطرَّ إليها كي ينفق علينا، لكنَّه، باستثناء المبالغ التي يرسلها لنفقاتي، لم يؤثِّر في نشأتي إطلاقًا. جدِّي كارم ـ والد أمِّي ـ هو الذي ربَّاني وشكَّل تفكيري. لقد تعلَّقت به إلى درجة أنِّي كثيرًا ما كنت أترك بيتنا في شارع فيصل لأقيم معه بشقَّته في السيِّدة زينب، حيث عاش وحيدًا بعد وفاة جدَّتي وهجرة خالي ـ ابنه الوحيد ـ إلى بريطانيا. كان جدِّي كارم أديبًا ومثقَّفًا، وهو الذي حبَّبني في القراءة والفنون، ومنحني الثقة بنفسي. كان يصطحبني إلى الأوبرا والمسرح والسينما، وعلَّمني أنَّ المرأة إنسان كامل الأهليَّة، وليست مجرَّد أداة للمتعة الجنسيَّة وآلة إنجاب أطفال. وظلَّ يساندني ضدَّ التفكير الرجعيّ لأسرتي حتى توفِّيَ منذ خمسة أعوام وتركني أخوض معاركي وحدي. أعيش مع أمِّي وحدنا. حياتنا عبارة عن مشاحنات لا تنقطع. أمِّي هي مندوب أبي في البيت. تتحدَّث بلسانه، وتؤمن بأنَّ آراءه كلَّها عينُ الصواب وخلاصةُ الحكمة. أنا أحبّ أبي، وهو قطعًا يحبّني، لكنَّني أختلف معه دائمًا، وأتسبَّب بمعاناته إلى درجة أتخيَّل معها أحيانًا أنَّه نادم على إنجابي... أبي يستريح أكثر مع أخي الأكبر مصطفى وأختي سُندس التي تصغرني بعامين. إنَّهما، في نظره، شخصان طبيعيَّان. مصطفى تخرَّج في كلِّيَّة الهندسة وحصل على عَقْد في السعوديَّة. وسُندس محجَّبة ومطيعة لأهلها، حصلت على بكالوريوس تجارة، وتزوَّجت ابن الحلال وسافرت إلى السعوديَّة، وأنجبت ولدًا، وهي الآن حامل للمرَّة الثانية... أمَّا أنا، فقد رفضت

ارتداء الحجاب، ورفضت العمل في الخليج، ورفضت مبدأ الزواج لمجرَّد الستر. لا أتخيَّل أن أنام مع رجل لا أعرفه، لمجرّد أنه دفع المَهر، واشترى الشَّبْكة، ووقَّع مع أبي على أوراق رسميَّة.

تقدَّم إليَّ كثيرون، وكلَّ مرَّة يضغط عليَّ أهلي حتى أقبل رؤية العريس. أرفض وأتشاجر، وفي النهاية أضطرّ إلى رؤيته. يأتي العريس عادة إلى بيتنا متأنِّقًا، مزهوًّا، مطمئنًّا إلى جيبه العامر بالمال. يعاجلنا بعدَّة جمل إخباريَّة عن ممتلكاته: سيَّارةٍ فاخرةٍ (مرسيدس أو بي أم دبليو) وشاليه في الساحل الشماليّ وآخر في العين السخنة، بالإضافة إلى شقَّة فخمة (غالبًا في مدينة نصر) مساحتها ٣٠٠ متر على مستويين. بعد استعراض الثروة، يبدأ العريس في معاينة البضاعة (التي هي أنا)... أحسّ بعينيه تتفحَّصان جسدي، جزءًا جزءًا، على مهل. لا يمكن أن نلومه. الرجل سيدفع مهرًا كبيرًا حتى أمكِّنه من الاستمتاع بجسدي (هكذا تعريف عقد الزواج في بعض كتب الفقه)... أليس من حقِّه أن يعاين جسدي ليطمئنّ إلى أنَّه سيضع ماله في المكان الصحيح؟! الا يمكن أن تكون قدمي معوجَّة مثلًا، أو أكون مصابة بمرض جلديّ، أو يكون صدريّ صناعيًّا؟ من حقّ العريس أن يتأكَّد من أنَّ البضاعة سليمة، وأنَّه لا يوجد غشّ تجاريّ...

كم أحسّ بالمهانة عندئذٍ، يا مازن. أحسّ بأنَّني رخيصة؛ بلا كرامة؛ مجرَّدُ بضاعة معروضة في فاترينة أنتظر الزبون الذي سيدفع ثمني ويأخذني. عندئذٍ يدفعني الإحساس بالإهانة إلى التصرُّف بعدوانيَّة. أحاول أن أثبت أنَّ قيمتي اكبر من جسدي المعروض للبيع... أسأل العريس عن كتَّابه المفضَّلين والروايات التي قرأها مؤخَّرًا (العريس غالبًا لم يقرأ كتابًا في حياته، باستثناء تفسير القرآن

والمقرَّرات الدراسيَّة)... أحسّ بسعادة عندما أكشف جهله أمام الجميع. أستدرجه بعد ذلك إلى مناقشة سياسيَّة... أسأله، مثلًا، هل هو راضٍ عن تعذيب الأبرياء في أمن الدولة وتزوير الانتخابات؟ وهل يوافق على توريث الحكم من مبارك إلى ابنه جمال، كأنَّ مصر مزرعة دواجن؟!

يتطلَّع إليَّ العريسُ عندئذٍ مذهولًا كأنَّني مخلوق فضائيّ مجنَّح هبط لتوِّه من المرِّيخ. العريس مواطن مصري عاديّ، يعتبر نفسه محظوظًا لأنَّه يعمل في الخليج، وهو ـ غالبًا ـ يتحمَّل إهانات الكفيل، ويتعايش مع الظلم حفاظًا على أكل العيش. إنَّه لا يفهم فعلًا، إطلاقًا، كيف يهتمّ إنسان بأيِّ شيء في هذا العالم غير جمع المال، مع المواظبة على شعائر الدين خوفًا من زوال النعمة.

بالرَّغم من مقاطعات أبي وأمِّي ومحاولاتهما اليائسة تغييرَ الموضوع، فإنَّني أستمرّ في خطَّتي. أحكي للعريس عن مشاركتي في مظاهرات حركة كفاية ومجلَّات الحائط التي كنت أحرِّرها في الجامعة ضدَّ النظام. أتعمَّد بعد ذلك، فتحَ موضوع الدين لأعلن أنَّني لن أرتدي الحجاب أبدًا، وأستعرض الآراء الفقهيَّة التي تؤكِّد أنَّ الإسلام لم يفرض الحجاب على النساء.

تكون هذه الضربة القاصمة. يذهب العريس ولا يعود. وبعد هروب كلّ عريس، أتشاجر مع أسرتي، أبي وأمّي وأختي سُندس وأخي مصطفى، كلّهم يعتبرونني مختلَّة وعبيطة ولا أعرف مصلحتي. أنا مقتنعة تمامًا بما أفعله، لكنَّني أحيانًا أتعب... أتمنَّى أحيانًا أن أتواءَم مع المجتمع بدلًا من الاصطدام به. لكنَّني، ببساطة، لا أستطيع أن أكون إلَّا نفسي... آسفة على الإطالة، يا مازن، لكنِّي أريد أن

أحكي: بعد حصولي على الليسانس، ظللتُ عامين من دون عمل. وبعد وساطات كثيرة من أصدقاء أبي، تمَّ تعييني في ستعبر العافي مدرِّسةَ لغة إنكليزيّة في مدرسة النهضة الإعداديّة (بنات) في المنيرة. لو شفت المدرسة، يا مازن، فستخرج بانطباع ممتاز. المبنى أنيق. والجدران مطليّة، ودورات المياه نظيفة. هذا المظهر الجميل، النادر في مدارس الحكومة، يعود إلى مجهود الناظر الأستاذ عبد الظاهر سلامة الذي يتابع بنفسه كلَّ صغيرة وكبيرة في المدرسة، ويهتمّ أيضًا بأخلاق التلميذات ومدى التزامهنّ بتعاليم الدين.

الأستاذ عبد الظاهر يمنع أيَّ تلميذة مسلمة غير محجَّبة من دخول المدرسة، ويُوقف الدراسة لأداء صلاة الظهر، بحيث يؤمّ بنفسه المدرِّسين والعمَّال في فناء المدرسة، بينما تؤدِّي التلميذات والمدرِّسات الصلاة في الفصول. هذا التديُّن الصارم لا ينفرد به حضرة الناظر، فالمدرِّسون جميعًا ملتزمون دينيًّا ويحملون علامة السجود على جباههم، وبعضهم مُلتحٍ، والمدرِّسات جميعًا محجَّبات ولدينا ثلاث مدرِّسات منقَّبات... لعلَّك تتساءل: ماذا فعل هؤلاء المتشدِّدون معي وأنا غير محجَّبة؟

منذُ اليوم الأوَّل، قالت لي المدرِّسة الأولى أبلة منال، وهي تبتسم بلطف:

- شكلك بنت حلال يا أسماء وتستاهلي نعمة الطاعة. ربّنا يرزقك بالحجاب. والله العظيم، حتبقي زيّ القمر وأنت محجَّبة.

أمَّا الأستاذ عبد الظاهر، فقد استقبلني بترحاب، وطاف معي في أنحاء المدرسة، وعرَّفني إلى زملائي المدرِّسين. وفي اليوم التالي،

استدعاني إلى مكتبه وأعطاني كُتَيِّبًا صغيرًا عن الحجاب، ثم ابتسم وقال:

ـ اسمعي يا بنتي. بالنسبة للتلميذات أنا أفرض عليهنَّ الحجاب لأنهنَّ صغيرات، وأنا مسؤول عنهنَّ أمام ربّنا، سبحانه وتعالى. أمّا المدرِّسات، فواجبي تجاهنَّ يقف عند النصيحة. أنا جمعت لك كلّ الأدلَّة الشرعيَّة على وجوب الحجاب. اقرئيها بتركيز، وربّنا يفتح عليك إن شاء الله.

شكرته، وقلت له إنَّني سأقرأ الكُتَيِّب، لكنَّني أعرف أدلَّة شرعيَّة أخرى تؤكِّد أنَّ الإسلام فرض الحشمة بشكل عام، ولم يفرض زيًّا معيَّنًا.

ضحك الأستاذ عبد الظاهر ساخرًا، وقال:

ـ الله، الله. أنت فقيهة كمان؟!

حاولت أن أذكر الآراء الفقهيَّة التي أستند إليها، لكنَّه قاطعني قائلًا:

ـ اسمعي يا أسماء، الحجاب فرض زيّ الصلاة والصوم. أيّ كلام غير كده غلط.

أدركت أنَّ مناقشته لن تجدي، فشكرته وانصرفت. لم يتكلَّم أحد معي على الحجاب بعد ذلك... كنت أضع غطاءً على رأسي فقط عندما أصلِّي الظهر مع البنات، ثم أنزعه بعد ذلك فلا يعترض أحد... أعتقد أنَّهم كانوا مستعدِّين للتعايش معي. أكاد أسمعك تسأل:

ـ ماذا تريدين أكثر من ذلك، يا أسماء؟ مدرسة نظيفة نموذجيَّة

وناظر وزملاء متديِّنون، لكنَّهم غير متعصِّبين؟!

هكذا هي صُورتنا من الخارج، يا عزيزي، أمَّا الحقيقة، فإنَّ مدرسة النهضة الإعداديَّة (بنات) ليست إلَّا وكر عصابة، بمعنى الكلمة، تضمّ المدرِّسين جميعًا، برئاسة الأستاذ عبد الظاهر نفسه. هذه العصابة هدفها الوحيد ابتزاز التلميذات وإجبارهنّ على الدروس الخصوصيَّة. مدرستي في حيّ المنيرة، حيث التلميذات فقيرات... إذا زادت تكاليف الدراسة على أُسرهنَّ فسيتركن التعليم، وزملائي المدرِّسون المتديِّنون لا يعرفون معنى الرحمة. إنَّهم يقسمون التلميذات إلى ثلاث طبقات: بنات يأخذن دروسًا خصوصيَّة، وهؤلاء يحظين بمعاملة ممتازة، ويحصلن على الدرجة النهائيَّة في أعمال السنة. وفي الامتحانات بتدخُّل المدرِّسون لمساعدتهنّ على الغشّ. ويتمّ ذلك بعلم الأستاذ عبد الظاهر وتشجيعه. الغشّ في المدرسة سلوك طبيعيّ ويسمُّونه «مساعدة». الطبقة الثانية من التلميذات ممَّن لا يستطعن دفع مصاريف الدروس، لكنَّهنَّ يشتركن في مجموعات التقوية. وهؤلاء لا يتمتَّعن بمعاملة ممتازة، ولكنَّ الإدارة ملتزمة بإنجاحهنَّ في الامتحانات، لأنَّهنَّ لو رسبن فلن تشترك بقيَّة التلميذات في مجموعات التقوية. أمَّا تلميذات الطبقة الثالثة، فهنَّ فقيرات إلى درجة لا يقدرن معها على نفقات الدروس الخصوصيَّة ولا مجموعات التقوية. وهؤلاء طبقة المنبوذات الراسبات دائمًا... لا أستطيع أن أصف لك كيف يتفنَّن المدرِّسون في التنكيل بهنَّ وإذلالهنَّ. في البداية، لم أفهم سرّ هذه القسوة، ثم أدركت أنَّها دفاع عن الرزق. إنَّ التنكيل بالفقيرات ضرورة حتى تستمرّ ماكينة الدروس الخصوصيَّة ومجموعات التقوية. ولا بدَّ من أن يفهم أولياء الأمور أنَّه من دون دروس أو مجموعات،

فإنَّ بناتهنَّ سيتعرَّضن للإهانة والعقاب والسخرية، وسوف يتكرَّر رسوبهنَّ حتى يُطْرَدن من المدرسة. بدأت مشكلتي عندما رفضت إعطاء دروس ومجموعات تقوية. لست بطلة ولا قدِّيسة، لكنِّي، ببساطة، في وضع أفضل من زملائي. لست متزوِّجة، وليس لديَّ أطفال. كما أنَّ احتياجاتي بسيطة، وأبي يساعدني بمبلغ شهريّ. منذ اليوم الأوَّل، قرَّرت أن أبذل مجهودي كاملًا في الشرح، فتحسَّن مستوى تلميذاتي، شيئًا فشيئًا، حتى نجحن جميعًا في اختبار نصف السنة. من الفصول الثلاثة التي أدرِّسها لم ترسب تلميذة واحدة في اللغة الإنكليزيَّة. وتُعتبر هذه النتيجة إنجازًا لأيّ مدرّس. استدعاني الأستاذ عبد الظاهر إلى مكتبه، وبدلًا من أن يشكرني استقبلني بفتور وقال:

ـ إذا لم تغيِّري طريقتك في التدريس فسأعاقبك. أنت لا تتركين للبنات الفرصةَ كي يفكِّرن بأنفسهنَّ. ومن الناحية التعليميَّة هذه طريقة مضرّة جدًّا.

حاولت أن أناقشه، لكنَّه أصرَّ على رأيه، ثم قال بطريقة مستفزَّة:

ـ اسمعي، ليس لديَّ وقت أضيِّعه معك. اعتبري كلامي إنذارًا لك. إذا لم تغيِّري طريقتك في التدريس أعاقبك. تفضَّلي، مع السلامة.

لا تتخيَّل، يا مازن، مدى صدمتي. تصوَّرْ أن تجتهد حتى تنجح في عملك، فيتمّ عقابك... أبلة منال، المدرِّسة الأولى، كان موقفها أوضحَ من الناظر. قالت لي بوقاحة:

ـ بُصِّي يا حبيبتي: إذا كنت غنيَّة ومستغنية عن فلوس الدروس الخصوصيَّة، فأنت حرّة... إنّما زملاؤك، كلّ واحد في رقبته كُوم

عيال. لمّا تشرحي كلّ حاجة في الفصل يبقى بتقطعي عيش المدرّسين. ما حدش حيسمحلك أبدًا.

بالطبع، لم أهتمّ بهذه الإنذارات، وواصلت أداء عملي بما يُرضي ضميري. بعد أسبوعين، استدعاني الأستاذ عبد الظاهر إلى مكتبه، حيث وجدت عنده أبلة منال ومجموعة مدرّسين... وما إن دخلت حتى بادرني الناظر، قائلًا بغضب:

ـ يا أسماء، أنا قرّرت أن أحذّرك لآخر مرّة أمام زملائك.

قبل أن أردّ صاحت أبلة منال باستهزاء:

ـ هو أنت مسلمة ولّا قبطيّة يا أسماء؟

قلت:

ـ مسلمة.

قال الناظر:

ـ ما فيش مسلمة من غير حجاب.

حاولت أن أتناقش بحججي المعتادة، لكنَّ الناظر قاطعني:

ـ اسكتي، بلاش كلام فارغ. إحنا هنا وظيفتنا تعليم وتربية. لا يمكن أن أسمح لك بإفساد عقول البنات. ناوية تتحجّبي ولّا لأ؟!

صحت في وجهه:

ـ الحجاب موضوع شخصيّ، وليس من حقّ أحد أن يفرضه عليّ.

هزّ رأسه كأنّما استراح لهذا الردّ، وقال بهدوء:

ـ خلاص. تفضّلي على الفصل.

في اليوم التالي، قدَّم الأستاذ عبد الظاهر شكوًى رسميَّةً إلى مدير الإدارة التعليميَّة، يتَّهمني فيها بارتداء ملابس غير لائقة في المدرسة. وأكَّد أنَّه قام بتنبيهي أمام زملائي أكثر من مرَّة، لكنَّني تعاملت معه باستهتار. وطالب في نهاية الشكوى باتِّخاذ إجراءٍ حازمٍ ضدِّي حفاظًا على أخلاق التلميذات. طبعًا، مثل هذه الشكوى، ستفتح عليَّ أبوابَ جهنَّم. سأذهب غدًا إلى الشؤون القانونيَّة في الوزارة للتحقيق معي. لست خائفة، يا مازن، لكنِّي أحسّ بظلم ومهانة. في أيِّ بلد في الدنيا يعاقبون الإنسان على نجاحه! ثمَّ، ما هذه القدرة الغريبة على الكذب عند الناظر والمدرِّسين المتديِّنين؟

اليوم، في الفصل، أدركت من نظرات البنات أنَّهنّ قد عرفن بموضوع التحقيق... في ساعة الخروج اعتاد أولياء الأمور أن يحيُّوني، ويسألوني عن بناتهم. اليوم، تجنَّبوني تمامًا. أمٌّ واحدة لتلميذة في السنة الأولى صافحتني وجذبتني بعيدًا عن الواقفين، وهمست:

- ولا يهمِّك يا أبلة أسماء. ربِّنا معك. إحنا عارفين أنّهم بينتقموا منك عشان عندك ضمير. كلّنا بندعيلك، لكنَّ الأهالي خايفين يقفوا معك يقوم المدير يضطهد بناتهم.

تصوَّر، يا مازن، أنَّ تصرُّف الأهالي ضايقني أكثر من إحالتي على التحقيق. أنا أُدافع عن حقِّ بناتهم في التعليم، وهم يتخلُّون عنِّي خوفًا من المشاكل...

هل أصبح المصريُّون: إمّا فاسدين وإمَّا جبناء؟

ما هذا المستنقع الذي نعيش فيه؟

أحسّ بالغثيان من كلّ هذا الكذب والنفاق والفساد. أرجوك قُلْ لي رأيك، لأنّي فعلًا محبَطة. شكرًا على وقتك.

أسماء

ـ ملحوظة:

أنا أكتب من إيميل آخر غير إيميلي الأصلي. ممكن نفتح إيميل جديد نخصّصه لمراسلاتنا؟! أنت عارف أنّنا جميعًا مراقبون من الأمن.

ـ ملحوظة أهمّ:

إذا كنت أزعجتك فلا تردّ على هذه الرسالة. سأتفهّم الأمر ولن اكتب إليك مرّة أخرى.

(٤)

لمّا اقترب الموعد، تململوا، كأنّهم لم يعد في احتمالهم الانتظارُ. خرجوا يترقّبون وصول الشيخ شامل على بوّابة الفيلّا، الرجال في المقدّمة، وخلفهم النساء... كانوا جميعًا من كبار الشخصيّات: رجال أعمال وأطبّاء ومهندسين مشهورين ووزراء سابقين وحاليّين وألوية شرطة وجيش في الخدمة أو على المعاش. معظمهم اصطحبوا زوجاتهم وبناتهم، بالإضافة إلى ممثّلات معروفات، بعضهنّ تحجّبن وتبن عن التمثيل، وبعضهنّ ما زلن في أوّل طريق التقوى، فهنّ يرتدين ثيابًا محتشمة من دون حجاب. ما إن لاحت سيّارة المرسيدس السوداء حتى دبّت الحماسة في الجمع. الشيخ شامل يجلس دائمًا إلى جوار السائق، ويحتفظ بالمقعد الخلفيّ للحريم، إذ يصطحب عادة اثنتين من زوجاته الأربع المنقّبات. وما إن يهمّ الشيخ بالنزول، حتى يندفع الرجال إلى مصافحته، وينحني بعضهم لتقبيل يده الكريمة، لكنّه يسحبها بسرعة، ويستغفر الله بصوت مسموع. يعتقد مريدو الشيخ أنّ

الرائحة الزكيّة التي تفوح بمجرّد نزوله من السيّارة، ليس مصدرَها نقط المسك الثمين الذي يضمّخ به ثيابه، وإنّما هي بركة يمنُّ بها الله على من يُحبّ من عباده. إلى هذا الحدّ يؤمن المريدون بشيخهم... ولا يعرف كثيرون أنّه لم يتلقَّ تعليمًا دينيًّا منتظمًا، وإنّما هو حاصل على الليسانس في آداب اللغة الإسبانيّة من جامعة القاهرة، وقد سعى، عقب تخرُّجه، لأن يكون مرشدًا سياحيًّا، لكنّ السياحة تعرَّضت للكساد نتيجة الأعمال الإرهابيّة. عندئذٍ، حصل الشيخ على عَقد عمل في السعوديّة ليعمل مشرفًا إداريًّا في نادٍ رياضيّ هناك، وفتح الله عليه، وتعرَّف في المسجد إلى الشيخ الغامدي الذي توسَّم فيه خيرًا وأفاض عليه من علمه. عاش الشيخ شامل عشر سنوات في السعوديَّة، ثم عاد إلى مصر، وقد آلَ على نفسه أن يكرِّس حياته للدعوة إلى الله. ويقول بابتسامة حنين ونبرة ممتنَّة:

ـ أكرمني الله فجلست تحت قدمَي العلّامة فضيلة الشيخ الغامدي، ونهلت العلوم الشرعيَّة من نبعها الصافي حتى ارتويتُ، ثم أجازني شيخي الفاضل، جزاه الله خيرًا على إخلاصه في خدمة الدين.

أحبَّ المصريُّون الشيخ شامل عندما ظهر لأوَّل مرَّة في برنامجه الأسبوعيّ على قناة «التقوى». ولمَّا زادت شعبيَّته انسحب منها وأنشأ قناة «الصراط» التي فتحت عليه أبواب الخير. يتحدَّث الشيخ شامل دائمًا بنعمة الله عليه (كما أمرنا القرآن)، فهو يمتلك ثلاث سيَّارات سوداء حديثة فارهة، وسيَّارةً رابعة رياضيَّة يقودها بنفسه في نزهاته العائليَّة. كلّ سيَّاراته ماركة مرسيدس التي يفضِّلها، لمتانتها وأناقتها. كما أنَّ مدير شركة مرسيدس في مصر من مريديه، فيمنحه دائمًا أسعارًا خاصَّة. ومن نِعَم الله على الشيخ شامل، أنّه يسكن في فيلَّا كبيرة في

مدينة أكتوبر. تسكن ثلاث زوجات في طوابقها الثلاثة، كلّ واحدة مع عيالها، بينما يحتفظ الشيخ بالطابق الرابع للزوجة الجديدة التي تكون دائمًا بِكْرًا يستمتع بها في الحلال، ثم يصرفها بإحسان، ويمنحها حقوقها الشرعيّة كاملةً، من نفقة ومؤخّر وخلافهما. ويتردَّد أنَّه قد افتضّ بكارة ثلاث وعشرين فتاةً في الحلال... لا عيب ولا حرام في ذلك، لأنّه لم يخالف شرع الله، وهو دائمًا ينصح مريديه من الرجال:

ـ يا إخواني، إذا سمحت قدرتكم الماليّة وصحّتكم، أنصحكم بتعدُّد الزوجات لأنّه وقاية من الحرام، وسترٌ لبنات المسلمين.

لا يعيب الشيخَ شامل حبُّه للنكاح ما دام لا يكشف ذَكَره على حرام، كما أنّه ـ وقد جاوز الخمسين ـ ما زال يجتذب النساء. فهو ضخم الجسم، عريض المنكبين، وجهه أبيض وسيم وعيناه واسعتان عسليّتان مكحولتان سُنَّةً عن رسول الله ﷺ. إنَّه يجسّد أناقة السَّلَف الصالح الأصيلة المختلفة عن أناقة الجاكيت والبنطلون التي نقلناها عن الغرب، فهو يرتدي جلبابًا من أفخر الأقمشة المستورَدة (ما عدا الحرير لأنَّه محرّم)، ويغطّيه بإزار يُصنَع من أجله خصّيصًا في مراكش. ولديه عشرات الأحذية الإيطاليّة الأنيقة، والتي قد يصل ثمن الزوج منها إلى أرقام فَلَكيّة. الغترة البيضاء التي يغطّي بها رأسه تكون بمثابة الكلمة الأخيرة في جملة الأناقة... لا يتحدَّث الشيخ شامل أبدًا عن جاذبيّته للنساء، لكنَّه يشعر بها ويسيطر عليها بحزم اتّقاءً للحرام، والعياذ بالله. خلال البرنامج الذي يقدّمه، كثيرًا ما تتَّصل به إحدى المشاهِدات، وتصيح بصوت مضطرم:

ـ أحبّك في الله يا شيخ شامل... أحبّك في الله.

حينئذ، يكون قلب الشيخ دليله. إذا أحسّ بأنّ المتّصلة تقصد الحبّ بالمعنى الحلال، انفرجت أساريره بابتسامة عذبة، وقال:

ـ بارك الله فيك وعليك وحولك يا أختي في الإسلام.

أمّا إذا أحسّ برجفة مُريبة في صوتها تنمّ عن شهوة، والعياذ بالله، فإنّ وجهه الجميل يربدّ فورًا فيما يشبه الغضب، ويقول وهو يُنهي الاتّصال بحزم:

ـ أدعو الله يا أختي الكريمة أن يجمعنا على خير يوم القيامة، بإذن الله.

إنَّ التعفُّف والاستقامة وتقوى الله خصالٌ أصيلة في شخصيّة الشيخ شامل. ها هم المريدون يتبعونه بفرحة إلى حيث يُلقي الدرس حول حمّام السباحة. هذا الدرس يعقده الشيخ في السبت الأوّل من كلّ شهر في قصر اللواء علواني. يجلس الرجال إلى اليمين، والنساء إلى اليسار، بينما يعتلي الشيخ مقعدًا مرتفعًا عريضًا من خشب الأرو المطعّم بالصّدَف، منقوشةٌ عليه أسماءُ الله الحسنى بحروف دقيقة آية في الجمال. هذا المقعد تحفة فنّيّة صنعته الحاجة تهاني خصّيصًا للشيخ، حتى يربّع ساقيه ويحسّ بالراحة وهو يلقي الدرس. بدت الحاجّة تهاني عملاقة بجسدها البدين وثوبها الأسود الفضفاض، وقد علّقت على صدرها سلسلةً سميكة من الذهب الأبيض تتدلّى منها كلمةُ «الله» مصنوعةٌ من الماس الخالص... وانحنت وأسرَّت إلى الشيخ ببضع كلمات، ثم ناولته ورقة صغيرة فدسّها في جيب الإزار وابتسم، وبدا كأنّه يشكرها. ستظلّ الخادمات الإندونيسيّات المحجّبات يطفن بالمشروبات الساخنة والباردة حتى ينتهي الدرس، فتُقام عندئذ وليمةٌ

كبرى يُجلَب فيها الطعام الفاخر من سلسلة محالّ «القمة هنيّة» التي تملكها الحاجّة تهاني. وراح الشيخ شامل يردّد الأدعية بصوت هامس أمام الميكروفون، ثم ابتسم وقال:

ـ السلام عليكم.

ردَّ الحاضرون السلام بأصوات حماسيّة مختلطة. بدأ الشيخ شامل حديثه بحمد الله، عزَّ وجلّ، على نِعَمه وآلائه والصلاة والسلام على المصطفى سيِّد الخلق أجمعين، ثم قال:

ـ إخوتي في الإسلام. سأتحدَّث اليوم عن الحجاب، وهو فرض على كلّ امرأة مسلمة بلغت المحيض بإجماع الفقهاء وأهل السُّنَّة والجماعة... الحجاب معلوم من الدين بالضرورة، لا يحتاج إلى شرح أو جدل. لكن ما يدفعني إلى الحديث عنه هو تلك الحملة المسعورة التي يتعرَّض لها دينُ الله من العلمانيين، عملاء الصهيونيَّة والغرب الصليبيّ. بفضل الله أوَّلًا، وبفضل مشايخنا الأجلّاء المخلصين، انتشر الحجاب وساد بين نساء المسلمين، الأمر الذي أصاب العلمانيين بصدمة شديدة جعلتهم يترنَّحون ثم يرقصون رقصة الموت. هؤلاء العلمانيُّون المتآمرون على أمَّتنا لا يطيقون أن يروا امرأة مسلمة مزدانة بالعفاف والحياء. إنَّ المسلمين يتعرَّضون لمؤامرة كبرى لإبعادهم عن دينهم، فانتبهوا يا إخوتي واحذروا مكائد النصارى عَبَدَةِ الصليب، واليهودِ أحفاد القِرَدة والخنازير، وعملائهم العلمانيِّين الذين يحملون أسماء إسلاميَّة ويعيشون بيننا ويطعنوننا في ظهورنا. هؤلاء العلمانيُّون، على تعدُّد مذاهبهم ومشاربهم، ليبراليِّين وشيوعيِّين واشتراكيِّين، كلُّهم معدومو النخوة، فاسدو الفطرة، عبّاد لشهوتهم كالبهائم، بل واللهِ إنَّ من البهائم ما يتمتَّع بالحياء الذي لا يعرفه هؤلاء

المنهتّكون المدافعون عن الشذوذ والجنس الجماعيّ، والعياذ بالله.

نحن نقول لهؤلاء الديُوثين: لماذا تكرهون الحجاب؟! إنَّ حجاب المرأة قد فرضته الفطرة السليمة قبل أن يكون أمرًا إلٰهيًّا. تأمّلوا المخلوقات حولنا إن كنتم تعقلون. أوَليس الكون محفوظًا في غلاف، ولولاه لفسدت الحياة كلها؟ أوَليست الثمرة مصونةً بغلاف يحفظ نضارتها؟ أوَليس السيف البتّار محفوظًا في غمد؟ أوَليست قشرة التفّاحة هي التي تحفظها من الفساد؟ أوَليست قشرة الموزة هي التي تحفظها من الاسوداد والتعفُّن؟ أوَلا نغلّف نحن الكتابَ والكرّاسة لنحفظهما من القذارة؟ فما بالكم إذا جئنا إلى نساء المسلمين؟ يريد العلمانيُّون تعطيل الناموس الطبيعيّ ويدعونهنّ إلى السفور والفحش.

لا إلٰه إلّا الله، فأنّى تؤفكون؟!

إنّي أسألك يا أختي في الإسلام:

إذا ذهبت لشراء الحلوى، فوجدت قطعة حلوى مكشوفة تنتهكها الأيدي ويعفّ عليها الذباب، وقطعةَ حلوى أخرى مغلّفةً جيّدًا بغطاء سميك وأنيق... أيهما تشترين؟ بالطبع ستفضّلين قطعة الحلوى النظيفة المغلّفة على تلك الحلوى المكشوفة القذرة... الله أكبر... الله أكبر. أنت، يا أختي المسلمة، مثلُ قطعة الحلوى، وأراد الله، سبحانه وتعالى، أن يحفظك من الدَنَس ويُتّم عليك كرامتك وحياءك وعفافك، فهل ترفضين هذه المكرمة من ربّ الكون، سبحانه وتعالى... هل تقابلين فضل الله بالرفض والعقوق؟

ارتفعت التكبيرات من الحاضرين. وأطرق الشيخ شامل قليلًا، ثم استطرد قائلًا:

ـ رُبّ بنتٍ من بناتنا تقول لي:

ـ «لست مقتنعة بالحجاب. أَقنعوني بالحجاب أوّلًا، أرتدِه»...

سبحان الله... أنا سأسأل هذه البنت سؤالًا واحدًا:

ـ هل أنت مسلمة؟!

سترِدّ ابنتي الفاضلة:

ـ نعم، أنا مسلمة، أشهد ألّا إلٰه إلّا الله وأنّ محمّدًا رسول الله.

عندئذ سأسألها:

ـ هل تحبِّين الله ورسوله؟!

ستقول الفتاة:

ـ طبعًا أحبّهما.

وأنا أقول لها: إذا كنت تحبِّين الله ورسوله، فأطيعي أمر الله ورسوله. أنت مأمورة بالحجاب. ليس لك إلّا أن تطيعي. إذا كنت تعيشين في بلد، ألا تطيعين قانونه الذي وضعه بشر مثلك؟! يا بنيَّتي الحبيبة، إذا كنت تعملين في شركة ألا تطيعين أوامر مديرك فيها؟! كيف، إذن، تعصين أمر الله، سبحانه وتعالى؟ هل المَولى، سبحانه وتعالى، أقلّ شأنًا عندك من مدير شركة؟! واحسرتاه على العباد. هل قُدَّت قلوب بعض المسلمين من صخر، فهم لا يحسُّون ولا يتوقون إلى حلاوة الطاعة. واحسرتاه على بعض المسلمين الذين يرتعشون خوفًا من بشر مثلهم، وإذا أمرهم الله بشيء جادلوا وطلبوا الحجَّة في غير موضعها. هذا أمر الله الذي خلقنا ورزقنا وأغدق علينا من نِعَمِه ما لا يُحصى. هل تطيعون ربّنا، عزّ وجلّ، أم تستكبرون على أوامره وتظلمون أنفسكم؟

استغفر الحاضرون الله بصوت مسموع، وبدا عليهم التأثّر، حتى إنّ المذيعة الشهيرة نورهان أجهشت بالبكاء على نحوٍ جعل السيّدة الجالسة إلى جوارها تحتضنها لتهدّئها... واستطرد الشيخ بصوت متهدّج:

ـ إخوتي في الإسلام، ردّدوا خلفي هذا الدعاء، واحفظوه عنّي. فوالذي نفسي بيده، لا أبتغي به إلّا وجه الله، سبحانه وتعالى.

«اللّهمّ اجعل نساء المسلمين وبناتهم صالحاتٍ تقيّاتٍ قانتات تائبات، وحبّب إليهنّ السترَ والحجاب، واغرس فيهنّ الحياءَ والعفاف. اللّهمّ احرسهنّ من دعوات المُفسدين ودعايات المُضلِّلين، واجعل قدوتهنّ أمّهاتِ المؤمنين، برحمتك يا أرحم الراحمين».

وردّد الحاضرون خلفه «آمين»، بأصوات جلجلت في أنحاء المكان... وتطلّع فجأة الشيخ شامل حوله، وتهلّلت أساريره وقال:

ـ الله، الله. أبشروا يا إخوتي. والله، إنّي أرى الملائكة تحفّ بنا من كلّ جانب، لأنّنا في مجلسنا نذكر الله ونعبده، كما أمرنا عزّ وجلّ.

ـ الله أكبر.

ـ الله يفتح عليك يا مولانا.

هكذا ردّد الحاضرون بحماسة. وسكت الشيخ، ثم مدّ يده وأخرج ورقة من جيب الإزار، وقال:

«إخوتي في الإسلام. أبشّركم بأنّ ابنتنا مروة محمّد الجيوشي قد ودّعت المعصية إلى غير رجعة، بإذن الله، وأنعم الله عليها بنعمة الطاعة، وقرّرت أن تلتزم بالحجاب الشرعيّ... تعالي يا مروة».

خرجت فتاة في العشرينيّات، ترتدي ثيابًا أنيقة فضفاضة. بدت مرتبكة، وراحت تبتسم بخجل. سحبتها الحاجّة تهاني من يدها وأوقفتها إلى جوار الشيخ شامل الذي تهلّل وجهه، وقال:

ـ ما شاء الله. تعالي يا مروة.

اقتربت مروة وأعطاها الشيخ الميكروفون. ولمَّا ارتبكت، أمسكت به الحاجّة تهاني، ووضعته أمام فمها. وراح الشيخ يرتّل الدعاء، ومروة تردّد وراءه بصوت خافت متقطّع:

«اللهمَّ أنت ربّي لا إلٰه إلّا أنت

خلقتني وأنا أمَتُك

أعوذ بك من شرّ ما صنعتُ.

اللّهمّ إنّي أستغفرك من كلّ ذنب يخلّف الحسرة ويورث الندامة.

اللهمَّ إنّي قابلت نعمتك بمعصيتي وفضلَك بجحودي.

اللّهمَّ إنّي ظلمت نفسي فاغفر لي وتقبَّلْني في طاعتك».

بكت الفتاة، في أثناء الدعاء، فاحتضنتها الحاجّة تهاني، ثم وضعت الحجاب على رأسها وعقدته من أسفل، وتأمّلتها لحظةً ثم قبّلتها على خدّها، فلعلعت الزغاريد وارتفع التكبير عاليًا وتردَّدت صيحات فرح:

ـ ما شاء الله.

ـ مبروك عليك، يا مروة.

ـ زيّ القمر، يا مروة.

* * *

عندما اقترب اللواء علواني من البيت، لمح سيَّارات المدعوِّين أمام البوَّابة. كان يعرف أنَّ اليوم هو موعد ندوة الشيخ شامل، لكنَّه لم يرغب في رؤية المدعوِّين، فأمر السائق بالدَّوَران حول القصر، ودخل من الباب الخلفيّ. استقلَّ المصعد إلى الدور الثاني. توجَّه إلى حجرة دانية، ونقر بأصابعه على الباب. وسرعان ما ظهرت دانية بابتسامة مشرقة أثارت في نفسه مزيجًا من الحنان والكآبة. كانت ترتدي بنطالًا فضفاضًا وجاكيتًا من الساتان الأزرق، وقد خلعت حجابها فانسدل شعرها الناعم الأسود حول وجهها الجميل. شبَّت وقبَّلته برقَّة على خدِّه، ثم نظرت إلى ساعتها وزمَّت شفتيها مداعبةً، وقالت:

ـ يا سيادة اللواء، أنت رجعت من الشغل بَدْري. ممكن أعرف السبب؟!

ارتبك اللواء علواني، ثم تنحنح وقال بجدِّيَّة:

ـ عارز أكلِّمك في موضوع مهمّ.

اتَّسعت ابتسامتها، وقالت وهي تُفسح له ليدخل:

ـ تحت أمر سيادتك يا فندم.

قرَّر ألَّا يجاريها في حالة المرح. لن تؤثِّر فيه ابتسامتُها. يجب أن يواجهها الآن. كانت حجرة دانية الفسيحة أشبهَ بجناح فندقيّ فاخر، مقسَّمةً إلى حجرة نوم وحجرة مكتب وحمَّام... قطع الأثاث والديكورات كلّها مستورَدة من إيطاليا، وتتراوح ألوانها بين الأبيض والأخضر، على نحو يُعطي انطباعًا مريحًا بالبهجة والاتِّساع. جلس اللواء علواني على الأريكة، وتطلَّع إلى دانية، وقال بلهجة المحقِّق:

ـ لماذا لم تحضري درس الشيخ شامل؟!

ـ دروسه مكرَّرة.

ـ الشيخ شامل عالِم إسلاميّ كبير لازم نحترمه.

ـ أحترمه، لكن أختلف معه.

ـ ممكن أعرف السبب؟!

ـ الشيخ شامل بيحصر الإسلام في حجاب وصلاة وصوم... عمره ما تكلَّم على مشاكل الناس الحقيقيَّة.

ـ رجل الدين مهمَّته يعرّف الناس أحكام الدين.

ـ رجل الدين لمَّا يشوف الظلم قدَّام عينيه ويسكت، يبقى مشارك فيه.

تطلَّع اللواء علواني إليها بغضب، وقال:

ـ أفكارك بقت غريبة.

ـ حضرتك عوّدتني أعبّر عن أفكاري بصراحة.

ـ الموضوع تجاوز الأفكار... تصرُّفاتك نفسها بقت غير مقبولة.

ـ عملت إيه؟

ـ صفحتك على فيسبوك عليها ڤيديوهات مسيئة للشرطة.

ـ حضرتك بتراقبني؟

سكت، فنظرت إليه بعتاب، وقالت:

ـ كنت أتمنَّى بدل ما تراقبني تسألني وأنا أقول لك... حضرتك عوّدتني على الثقة.

ـ طبعًا بثق فيك يا دانية، لكن دِه شُغلي. واجبي أنّي أُدافع عن بلدنا. إحنا تابعنا اللي بينشروا الڤيديوهات المسيئة للشرطة، وللأسف

أنت طلعت منهم. أنا بصراحة انصدمت.

ـ الفيديوهات فيها ضبّاط بيعذّبوا أناس أبرياء ونشرها على فيسبوك ممكن يساعد على تقديمهم للمحاكمة.

ـ عشرات الألوف من ضبّاط الشرطة بيعملوا ليل نهار وبيستشهدوا لأجل حماية مصر. لا يمكن أن نسيء لهم لأنَّ ضابط ولّا اثنين أو حتى عشرة ارتكبوا أخطاء.

ـ التعذيب مش خطأ. دَه جريمة. كما أنَّ كشف الحقيقة عمره ما يسيء لأيّ حدّ. اللي يسيء للشرطة وجود ضبّاط مجرمين بيعذّبوا الناس ويفلتوا من العقاب.

قال اللواء ساخرًا:

ـ إيه الفصاحة دي كلّها!

ردَّت بحماسة:

ـ الرسول ﷺ قال «أحِبَّ لأخيك ما تحبّ لنفسك».

أظنّ ما فيش حدّ يحبّ أنّ ابنه أو أخوه يتعذّب في قسم بوليس.

ـ ضابط البوليس بيضرب المجرمين بسّ.

ـ حتى لو مجرمين، مش من حقّه يضربهم.

ـ أُمّال نوزّع عليهم شوكولاتة؟

ـ لا. يتحاكموا بالقانون.

ـ القانون عندنا مَنقول من القانون الفرنسيّ وغير مناسب لبلدنا، ولو طبّقناه بحذافيره لن يعترف مجرم واحد.

ـ لو أفلت عشرة مجرمين من العقاب أحسن من ظلم بريء واحد.

ـ ده كلام نظريّ ما ينفعش في بلدنا.

ـ مصر زَيّ أيّ بلد في الدنيا لازم تتحكم بالعدل.

تصاعد غضب اللواء فجأة، وصاح:

ـ أنت بتعطيني دروس على آخر الزمن؟ الغلط مش عليك. دِي غلطتي إنّي سمعت كلام أمّك، وبدل ما أبعثك كمبريدج دخّلتك جامعة القاهرة مع العيال الرعاع اللي سمّموا أفكارك. أنا لا أسمح لك تكلّميني بالوقاحة دِي... فاهمة؟

ـ متأسّفة.

هكذا قالت بصوت خافت، لكنَّ اللواء علواني قرّر أن يمضي إلى النهاية. أخرج فلاشة من جيبه ووضعها في اللاب توب وضغط على أزرار الكيبورد، وسرعان ما ظهرت دانية على الشاشة وهي جالسة مع بعض الشباب يتحدّثون إلى سيّدة مسنّة ترتدي السواد. سألها:

ـ إيه ده، يا دانية؟

بدا عليها الارتباك، ثم قالت:

ـ دي زيارة قمت بها مع زملائي لوالدة الشهيد خالد سعيد[1].

ـ هو إللي يموت من المخدّرات يبقى شهيد؟

ـ المرحوم خالد سعيد مات من التعذيب.

ـ حتى لو مات من التعذيب. أنت مالِكْ؟!

ـ إحنا بنطالب بمحاكمة عادلة لقَتَلة خالد سعيد.

(١) شابّ من مدينة الإسكندريّة، مات من الضرب على أيدي أفراد من الشرطة المصريّة، وأثار مقتله موجة واسعة من الغضب الشعبي.

ـ أنتم مين؟

ـ أنا وزملائي في الكلِّيَّة.

ـ أنا مش فاهم. أنت محاميَّة ولّا تلميذة في الطبّ؟

ـ أنا مسلمة.

ـ كلّنا مسلمين.

ـ الإسلام أمرني أدافع عن الحقّ.

ـ الإسلام قال: الفتنة أشدّ من القتل.

ـ الإسلام كرَّم الإنسان وحرَّم إهانته وتعذيبه.

ـ دَه كلام جمعيَّات حقوق الإنسان اللي بيقبضوا من الاتّحاد الأوروبي. من قال لك إنَّ الإسلام حرَّم التعذيب؟! هو الجَلد والرجم وقطع اليدين مش تعذيب؟! الإسلام يسمح بتعذيب بعض الأفراد أو حتى قتلهم من أجل استقرار البلد. سمعتي عن عقوبة اسمها التعزير؟ في التعزير، الحاكم وحده من حقّه يقدّر الجريمة ويقرِّر العقوبة وينفِّذها في المتَّهم... يعني لو الحاكم اعتبر أيّ شخص بيهدِّد استقرار المجتمع، من حقّه أن يعاقبه بالجَلد والحبس، أو حتى القتل عند بعض الفقهاء. اقرئي دينك قبل ما تتكلّمي عنه.

أطرقت، فأحسّ بإشفاق مفاجئ عليها، وقال:

ـ راجعي نفسك يا دانية. أنت بتندفعي وتعملي تصرُّفات بدون تقدير للعواقب.

قالت، كأنَّها تسترضيه:

ـ أنا زرت ستّ ابنها مات من التعذيب. مجرَّد موضوع إنساني.

ردّ اللواء علواني بانفعال:

ـ لأ، مش إنساني. دَه عمل سياسي. الدولة متّهَمة بقتل خالد سعيد. يبقى تضامنك مع أمّه عمل ضدّ الدولة.

لم تردّ، فاستطرد بنبرة هادئة:

ـ أنا متأكّد من حُسن نيّتك، لكن ضروري تقدّري خطورة تصرُّفاتك. أوّلًا، بحكم منصبي في الدولة، أؤكّد لك أنّ فيه مؤامرة كبيرة ضدّ مصر. وزملاؤك اللّي بيحرّضوا الناس ضدّ الشرطة بيساعدوا على نجاح المؤامرة بقصد أو بدون قصد. ثانيًا، أنت غير زملائك يا دانية. في النهاية هم مجرّد طَلَبة لا طلعوا ولا نزلوا. أنت وضعك مختلف... مصر كلّها عارفة إنّك بنتي. عارفة كمّ جهة مراقبة صفحتك على فيسبوك؟ عارفة كمّ جهة صوّرتك في بيت خالد سعيد؟ عارفة إنّ عندي خصوم وأعداء هدفهم يشوّهوا صورتي عند القيادة السياسيّة؟ أنت بتصرُّفاتك دي بتقدّمي هديّة لأعدائي. ما فكّرتيش إنّ لك أخ قاضي وأخ ضابط في الحرس الجمهوري ممكن ترقيتهم تتأخّر وممكن يُستبعدوا نهائيًّا من شغلهم بسببك؟!

بدا عليها التأثُّر، فاحتضنها وقبّل رأسها، وهمس:

ـ دانية... إذا كنت بتحبّيني أوعديني أنّ الموضوع ده ما يتكرّرش.

(٥)

اجتاز أشرف ويصا الردهة وهو يدندن من فرط الانسجام، كأنّ عصفور يحلّق عاليًا في سماء زرقاء صافية. تطلّع إلى السجّادة، ثم السقفِ العالي ومصابيحِ الإضاءة واللوحاتِ المعلّقة على الجدران. كلّ شيء حوله بدا مبتهجًا كأنّما يهنّئه على السعادة الوشيكة. ولمّا وصل إلى المطبخ، أطلّ برأسه عبر الباب فرأى إكرام أمام الحوض تغسل الأكواب والصحون. بدت، في تلك اللحظة، خادمةً عاديّة في ملابس الشغل: خمارٍ فضفاض يغطّي الرأس والصدر، وجلبابٍ قديم حال لونه واهترأ عند الكوعين، وحذاءٍ قماشيّ من دون جوربين... تظاهرت بأنّها لم تنتبه لوجوده، واستغرقت في غسل الصحون بالماء الساخن. حركةُ يدها وهي تدعك الصحن، بدت له جنسيّة على نحو ما. ومن فرط التسطيل والهيجان، وثب نحوها بخطوة واسعة احتفاليّة كأنّه يعلن نهاية التمثيل. التصق بها، وقبض على ثدييها فتأوّهت وهمست:

ـ لا والنبي يا أشرف بك. . . مدام ماجدة ترجع على سَهْوة تبقى مصيبة.

هذا الاعتراض الهشّ، الإجرائيّ بلغة القانون، لم يعتدّ به أشرف، فالتصق بها أكثر، وراح يقبّل رقبتها وأذنيها ببطء وحرارة، حتى صدرت عنها أنّة حارّة خافتة. التفتت نحوه وابتسمت بعذوبة (كأنّها لم تعترض منذ لحظة)، ثم همست:

ـ طيِّب. اسبقني على المكتب.

جفَّفت يديها وخرجت، فشرع أشرف ـ فورًا ـ في تجهيز مسرح العمليّات: أغلق باب الشقَّة بالمزلاج من الداخل، وفتح التليفزيون (حتى يغطّي صوته على أصوات الغرام، فلا يسمعها أيّ متطفِّل يصادف مروره أمام الشقَّة)، ثم دخل مكتبه الفسيح، فأحكم إغلاق الستائر، وخلع الوسائد من المقاعد ورصَّها على أرض الحجرة ثم غطّاها بفوطتين كبيرتين مؤسّسًا بذلك فراشَ الحبّ. . . أشعل سيجارة ملفوفة دخَّنها على مهل، حتى ظهرت إكرام عند الباب. أشرقَتْ، هلَّت عليه بقميص نوم أسود ضيِّق أبرز استدارات جسدها، وانفتح عند الصدر فكشف بياضها الشاهق. زيَّنت وجهها بمكياج خفيف، وتركت شعرها الأسود الناعم يتهدَّل على كتفيها. سيظلّ تحوُّل إكرام من خادمة إلى عشيقة فاتنة بهذه السرعة، موضوعًا لا يفهمه أشرف تمامًا. أين تخبّئ أدوات الزينة وقميصَ النوم؟! متى تعتني بجسدها لتُكسبه كلّ هذه النعومة؟ وكيف تنجح، بعد الغرام، في دفن فتنتها من جديد تحت جلباب الخدمة؟

كما يداعب عازف الكمان المخضرم الأوتارَ قبل أن يبدأ العزف،

راح أشرف يطبع قبلاتٍ رقيقةً ومتلاحقةً على خدّيها وأذنيها ورقبتها، ثمّ التقم شفتيها في قبلة حارّة وهو يتحسّس جسدها على مهل. كان يعرف ـ بخبرته الطويلة ـ كيف ينظّم أمواجَ الشهوة حتى لا تقذف به على شاطئ اللذّة قبل الأوان. على كثرة تجاربه، لم يرَ خادمةً بهذه النظافة. حتى ملابسُها الداخليّة كانت أفضل ما يمكن للصناعة المصريّة أن تقدّمه. على أنَّ فتنتها الكبرى، في رأيه، تكمن في كونها brut (كلمة فرنسيّة بمعنى خامّ أو غير مصقول). إنّه يحسّ معها كأنّه عاد إلى الطبيعة الأولى... إلى الغابة أو الصحراء؛ مجرَّد رجل يضاجع امرأة ليُشبِعا شهوتيهما بلا ادّعاء ولا أكاذيب. كانت تعبّر عن نفسها بصراحة تامّة: تطلب أوضاعًا معيّنة، وتهمس بأسماء الأعضاء التناسليّة بلا حَرَج. كان سلوكها الفاحش يؤجِّج شهوته ويجدِّدها. فرغا من جولة الحبّ الأولى، وظلّا مستلقيين عاريين. عندما تفور اللذّة ويهبط الصمت الثقيل يكتشف أشرف مشاعره الحقيقيّة نحو المرأة... عندئذ، كثيرًا ما يتحوّل الجسد العاري الذي فتنه وأمتعه منذ لحظات، إلى كتلة رخوة مبلّلة بالعرق ومقزّزة... كانت إكرام مختلفة. تنقضي اللذّة معها، فتخلّف إعجابًا هادئًا، وبعضَ الدهشة، وشعورًا يشبه الامتنان. يتطلّع إلى وجهها المتورّد من أثر الحبّ. يستمتع بضمّها، ويحسب أنفاسها الحارّة على صدره ويدفس أنفه في شعرها ليستنشق رائحة الصابون. هذا الجسد الدافئ الطيّب الحميم، كأنّه يعرفه من قبل؛ كأنّه عاشرها في حياة سابقة وفقدها ثم وجدها من جديد بصدفة رائعة... لم تكن مجرَّد خادمة يضاجعها، كانت حياتهما زوجيّةً على نحو ما. زوجته ماجدة، المشغولة دائمًا بميزانيّات الشركات الكبرى، تخرج من الصبح ولا تعود قبل السابعة مساءً. إكرام هي التي ترعاه: تغسل ثيابه،

وتُشرف على كيِّها، وتطبخ أطباقه المفضَّلة. تذكِّره بدواء ضغط الدم إذا نسي تناوله، وتشتري أمواسَ الحلاقة قبل أن تنفد، وتنبِّهه إلى أنَّه يحتاج إلى غيارات ثقيلة قبل دخول الشتاء. كانا يمضيان النهار معًا، يتحدَّثان ويأكلان ويمارسان الحبّ، وآخر النهار يُزيلان آثارَ الجريمة بعناية. تستعيد إكرام هيئة الخادمة، ويجلس أشرف لمشاهدة التليفزيون في الصالة، ليبدو كلّ شيء عاديًّا عندما ترجع زوجته. كانت شخصيَّة إكرام تعجبه. صحيح أنَّها تقرأ وتكتب بصعوبة، وتتحدَّث باللهجة الشعبيَّة، فتضغط على الحروف وتنطق بعض الكلمات بطريقة خاطئة، فتقول مثلًا «أوشعة» بدلًا من «أشعَّة»، و«مرشيدس» بدلًا من «مرسيدس»، لكنَّها، مع ذلك، إنسانةٌ حسَّاسة ذكيَّة العقل والقلب، تلتقط فورًا أدقَّ المعاني. كما أنَّها تتمتَّع بعزَّة نفس حقيقيَّة، فلا تطلب منه المال أبدًا. هو الذي يلحّ عليها حتى تقبل نفحاته... لم تستغلّ علاقتهما لترفع الكلفة بينهما كما تفعل الخادمات... عندما طلب منها أن تناديه باسمه مجرَّدًا، فعلت مرَّة واحدة، ثم ضحكت بخجل وقالت:

- مش حاقدر. حضرتك اسمك أشرف بك.

- قولي لي أشرف بس.

- حاضر، بس اصبرْ عليّ. عاوزة وقت...

هذه الخادمة البسيطة غير المتعلِّمة تتصرَّف بطريقة أرقى من هوانم كثيرات يعرفهنّ... كانت مبهورة به. تؤمن بأنَّه يعرف كلّ شيء. تسأله في أيّ موضوع، ثم تتَّسع عيناها السوداوان وتستمع إليه بانتباه كأنَّها تلميذة صغيرة تصغي إلى شرح المدرِّس... بعد شهور قليلة، صارت

علاقته بإكرام أفضل من علاقته بزوجته بعد مضيّ ربع قرن عليها. بنظرة واحدة، تفهمه إكرام، وتحسّ به، وتُدرك إذا كان جائعًا أو هائجًا أو مكتئبًا أو متعبًا من التسطيل. مرّة في عقب نوبة حبٍّ رائعة، وضعت رأسها على صدره وهمست:

- ممكن أسأل حضرتك سؤال بسّ ما تزعلش؟!

- تفضّلي.

- حضرتك مش بتحبّ مدام ماجدة؟

- لا.

- ليه؟

- طباعنا مختلفة.

تطلّعت إليه صامتة، فضحك وقال:

- طبعًا عاوزة تسألي إيه إللي يعيّشني مع واحدة مش بحبّها؟! صحّ؟

- صحّ.

- أنا قبطيّ يا إكرام ما عندناش طلاق... لو كنت مسلم كنت طلّقت ماجدة وتزوّجتك.

ابتسمت، وسألته بدلال:

- يا سلام؟! يعني كنت ترضى تتزوّج خدّامة؟!

احتضنها وطبع قبلة سريعة على شفتيها، وهمس:

- من فضلك ما تقوليش كده. أنت أحسن من ستّات كتير عاملين هوانم.

احتضنته بقوّة كأنّما تعبّر عن امتنانها. لن ينسى أوّل مرّة عرض

أمامها أحد الأفلام التي مثَّل فيها. كانت جالسة إلى جواره على الأريكة، ثم صاحت:

ـ يا خبر أبيض... دَه حضرتك بتمثِّل في الفيلم؟

ضحك من دهشتها الطفوليَّة، وأخبرها بأنَّه ممثِّل. بعد ذلك، راح يعرض عليها المشاهد التي مثَّل فيها، وكلّ مرَّة كانت تُبدي إعجابها بدوره الذي لا يتعدَّى دقائق. سألته مرَّة:

ـ حضرتك تمثيلك جميل جدًّا... ليه ما تعملش دور البطولة وتبقى ممثِّل مشهور؟!

فكَّر قليلًا، وقال:

ـ وأنت يا إكرام حلوة وصغيرة وذكيَّة. ليه ما تتجوِّزيش رجل محترم يعرف قيمتك بدل الشقا اللي إنت فيه؟!

ردَّت بحزن:

ـ نصيبي كده.

ابتسم أشرف، وقال:

ـ وأنا كمان نصيبي كده.

شرح لها، بعد ذلك، التركيبة الفاسدة للوسط السينمائيّ، ورأى في عينيها أنَّها تفهمه. إنَّها تُدرك أنَّ فشله ليس ذنبه. لو أنَّه يملك هذه الموهبة في بلد محترم، لكان قد وصل إلى الشهرة منذ سنوات. انتظر مرَّةً نهارًا كاملًا في موقع التصوير حتى يصوِّر مشهدًا مدَّته دقيقتان. في اليوم التالي، مارسا الحبّ كالعادة، ثم تمدَّد إلى جوارها، وحكى لها ما حدث، ثم قال بمرارة:

ـ أنا تعبت وقرفت يا إكرام. لولا إنّي بحبّ مصر ما كنتش قعدت فيها يوم واحد.

قبّلت جبينه، ثم أخذت رأسه على صدرها، وهمست كأنّها تهدهده:

ـ والنبي ما تزعَّل نفسك يا أشرف بك. حضرتك في نعمة. مستور وصحّتك كويّسة وربّنا يخلّيلك سارة وبطرس. . . الحمد لله إحنا أحسن من غيرنا بكثير.

في بداية علاقتهما سألها عن حياتها، فتهرَّبت من الإجابة، لكنّه ألحّ عليها حتى حكت: نشأت في الحوامديَّة. كانت الابنة الكبرى لأسرة فقيرة تعيش مع أبيها وأمّها وخمسة أخوة، صُبْيانٍ وبناتٍ، محشورين في شقَّة من حجرتين وصالة. أخرجها أبوها من المدرسة قبل أن تحصل على الابتدائيَّة، ودفعها إلى الخدمة في البيوت. ولمّا بلغت السادسة عشرة، أرغمها على الزواج عرفيًّا من شيخ خليجيّ، وقبض بضعة ألوف من الجنيهات. اختفى الزوج آخر الصيف، ثم تبيَّن أنّه ترك ورقة الطلاق في مكتب المحامي. في العام التالي، زوَّجها أبوها مرَّة أخرى بمبلغ أقلّ. وتكرّر الأمر، فطلّقها زوجها بعد شهر واحد ودفع المؤخَّر. وعندما أراد أبوها تزويجها للمرَّة الثالثة، هربت من البيت وسكنت عند صديقة لها، وبدأت تخدم باليوميّة في البيوت حتى تزوَّجت من منصور المكوجي، وأنجبت ابنتها شهد، ثم اكتشفت أنّه مزواج ولديه أولاد من ثلاث زيجات سابقات لم يخبرها عنهم؛ كما أنّه لا يعمل إلّا بالقَدْر الذي يوفِّر له ثمن البرشام وحُقَن الماكس التي أدمنها. وساد الصمت بينهما لحظات، ثم تنهَّدت إكرام وقالت:

ـ فيه نسوان مجرمة حظّها حلو، ونسوان طيّبة ربّنا خالقهم بختهم مايل زيّ حالاتي.

قال أشرف:

ـ أبوك أجرم في حقّك.

تطلّعت إليه بعتاب، وقالت:

ـ لازم نعطي له عذره.

قال بحدَّة:

ـ ما لوش عذر. ما فيش حدّ يبيع بنته.

صمتت لحظة، ثم قالت بهدوء:

ـ ما حدِّش عاوز يبيع بنته. أبويا كان نجَّار مسلَّح. أرزقي. يوم شغل وعشرة في البيت. وإحنا ستَّة عيال غير أمِّي. يصرف علينا منين؟! الفقر وِحِش يا أشرف بك.

حتى حزنها كان يزيد في فتنتها. مارسا بالأمس الغرامَ بشكل رائع. حلَّقا عاليًا حتى وصلا إلى القمَّة معًا، ثم ظلَّا ملتصقين فترة حتى نهض جالسًا وأشعل سيجارة ملفوفة، فضحكت وقالت:

ـ على فكرة، أنا باشمّ مع حضرتك الحشيش إللي بتشربه، وآخر النهار بابقى مسطولة مش عارفة أعمل حاجة في البيت.

سحب نَفَسًا ونفخه في وجهها مداعبًا، وقال:

ـ ربّنا أنعم علينا بالحشيش عشان نستحمل غباوة البشر.

فرغ من السيجارة وتأمَّل جسدها العاري. مسح بيده على ذراعها البضَّة، ثم تحسَّس صدرها الممتلئ والناعم، فتفتَّحت براعم شهوته من جديد. احتضنها وأدخل لسانه في فمها ليبدأ جولة غرام جديدة. لكنَّهما، فجأة، سمعا خبطًا شديدًا على باب الشقَّة.

(٦)

عزيزتي أسماء،

أشكرك على ثقتك. يُسعدني طبعًا أن أكون صديقك. أنا أيضًا أحتاج إلى صديق يفهمني. كثيرًا ما أحسّ بغربة حتى وأنا وسط الناس. هل ستصدّقينني إذا قلت إنّني كنت أنتظر الفرصة لأتعرَّف إليك؟ شيء ما جعلني أرتاح إليك... بعد أن قرأت رسالتك. ازددت إعجابًا بك، شابّة مثقّفة متحرِّرة تناضل من أجل التغيير في حركة كفاية. قضيّتها ليست عَقْدَ عمل في الخليج، ولا الزواجَ من عريس غنيّ. تحارب الفساد وتطالب بالعدل والحرّيّة... بالإضافة إلى ذلك ـ طبعًا ـ جمالك المصريّ الصميم. شعرك الأسود وعيناك السوداوان وابتسامتك الرقيقة التي تُظهر نغّازتين رائعتين. كلّ ذلك منحك جاذبيّة لا تُقاوَم (إذا انزعجتِ من هذا الكلام، احذفيه واقبلي اعتذاري). تعوَّدت أن أقول بصراحة كلَّ ما أفكّر فيه... تشي غيفارا لديه جملةٌ رائعة:

«الشرف هو أن تقول دائمًا ما تعتقده، وأن تفعل دائمًا ما تقوله».

هذا ما أسعى إلى تحقيقه. أحبّ أن أعرّفك بنفسي...

أنا ابن وحيد ولديّ أخت واحدة اسمها مريم؛ طالبة في كلّيّة الحقوق. تركتُ بيت أهلي في العبّاسيّة، وأعيش في شقّة ستديو في شارع الشريفين في وسط البلد، إلى جوار الإذاعة القديمة. طبعًا أزور أهلي كلّ أسبوع، وأطمئنّ عليهم بالتليفون يوميًّا، لكنّ انفصالي عنهم وفّر عليهم متاعب كثيرة يسبّبها نشاطي السياسي... أبي المرحوم جمال السقّا، كان محاميًا ومناضلًا اشتراكيًّا. أنا خرّيج هندسة القاهرة ـ قسم كيمياء، وأعمل مهندسًا في مصنع «بيلّليني» للإسمنت... كان اسمه الأصلي مصنع «الشرق». أكبر وأقدم مصنع للإسمنت في الشرق الأوسط. كان يحقّق أكثر من مليار جنيه أرباحًا سنويّة... تمّ بيع مصنع «الشرق» للشركة الإيطاليّة «بيلّليني»، واحتفظت الحكومة المصريّة بحصّة ٣٥ في المئة، بينما تملك «بيلّليني» ثلاثة مصانع مصريّة أخرى للإسمنت ملكيّةً كاملة. الشركة الإيطاليّة أهملت مصنعنا عمدًا حتى بدأ يخسر، وأحالت كلّ الماكينات الجديدة على مصانعها الأخرى لأنّ أرباحها فيها خالصة. بالنسبة إلى زملائي خرّيجي كلّيّة الهندسة، أُعتبر محظوظًا لأنّني بعد التخرّج وجدت عملًا في تخصُّصي، والفضل في ذلك لوساطة مدير المصنع عصام شعلان الذي كان صديقًا للمرحوم أبي ورفيقه في النضال... معركتك في المدرسة أخوض مثلها كلّ يوم كعضو في اللجنة النقابيّة، أدافع عن حقوق العمّال ضدّ الإدارة الإيطاليّة التي تسرقهم ببجاحة، وتستعين بأمن الدولة لقمعهم. أتّفق معك: نحن فعلًا نعيش في مستنقع، لكن لا يجب أبدًا أن نستسلم أو نيأس. سنغيّر هذا البلد يا أسماء. أقسم بالله سنغيّره. لكنّ التغيير لن يكون سهلًا. سنواجه صعوبات كثيرة، لكنّنا سننتصر في النهاية.

سأحكي لك واقعة غيّرت حياتي:

كنت، ذات ليلة، في الميكروباص عائدًا من زيارة صديق في إمبابة. استوقفنا الضابط في كمين للشرطة وأنزل الركّاب جميعًا، وطلب منّا بطاقاتنا الشخصيّة. كان أمامي شابّ جذبه الضابط من القميص بعنف؛ فاعترض بكلمة لم أسمعها. غضب الضابط وانهال عليه بالصفعات، حتى سال الدم على وجهه. لم أتمالك نفسي. نصحت في الضابط:

ـ حضرتك مش من حقّك تضربه.

استدار الضابط نحوي، وصاح:

ـ عاوز إيه يا روح امّك؟!

تقدّمتُ نحوه، وأطلعته على كارنيه نقابة المهندسين، وقلت:

ـ من فضلك تكلّمني بأسلوب محترم. باقولك مش من حقّك تضربه. إذا خالف القانون اقبض عليه وحوّله للنيابة، لكن ما تضربوش...

تطلّع إليّ الضابط لحظة، ثم تناول كارنيه النقابة ومزّقه وألقى به على الأرض. صحت معترضًا، فانقضّ عليّ المخبرون وضربوني حتى وقعت، ثم حملوني وألقوا بي في سيّارة الشرطة، ولم يتوقّفوا عن ضربي وإهانتي بشتائم بذيئة حتى وصلت إلى القسم، حيث تلقّيت فاصلًا جديدًا من الضرب والإهانة في حجرة المباحث. بتُّ ليلتي في الحجز. وعندما عرضوني على النيابة في الصباح، طلبت إثبات الإصابات التي في جسدي. ابتسم وكيل النيابة، وقال:

ـ اسمع، يا مازن. أنت رجل مهندس وباين عليك ابن ناس. أنا

ممكن أثبت إصاباتك في المحضر. دَه حقَّك، لكن أنا باكلِّمك كأخ أكبر. لو دخلت أيّ صراع مع وزارة الداخليَّة أنت الخسران. الداخليَّة لا يمكن تعاقب ضابط من أولادها حتى لو قَتَل. لو اتَّهمت الضابط حينكر الواقعة وحيلفَّق لك قضيَّة ويجيب شهود، وساعتها أكون مضطرّ احبسك احتياطيًّا، وحتِفْضَل في السجن لغاية لمَّا المحكمة تطلّعك وممكن تحكم عليك. أنصحك تقبل اعتذار الضابط وننهي الموضوع بدل ما الأمور تتعقَّد.

وافقت على الصلح، فأخذوني إلى مكتب الضابط. وعندما رآني، ابتسم وقال:

ـ خلاص، يا مازن. المرَّة دي جت سليمة، لكن دَه درس لك عشان تتربَّى... إيّاك تتحدَّى ضابط شرطة... فاهم؟

هكذا كان اعتذار حضرة الضابط. تصوَّري يا أسماء. لمجرَّد أني دافعتُ عن كرامة مواطن، يتمّ ضربي وإهانتي وإلقائي مع المجرمين في الحجز. وفي النهاية أذهب إلى الضابط. وبدلًا من أن يعتذر إليَّ يُلقي عليَّ درسًا. أحسست بمهانة رهيبة؛ بأنَّني بلا قيمة ولا حقوق. لم أخرج من البيت لمدَّة أسبوع. فكَّرت طويلًا، فوجدت أمامي حلًّا من اثنين: إمَّا أن أهاجر إلى بلد آخر يحترم آدميَّة الإنسان، وإمَّا أن أسعى للتغيير... قرّرت الانضمام إلى حركة كفاية حيث وجدت مجموعة من أشجع المصريين وأنبلهم. كلّهم يفكِّرون مثلي... بعد ذلك حدثت مأساةُ خالد سعيد، لتؤكِّد أنَّ القمع يمكن أن يطال أيّ شخص بغضّ النظر عن طبقته الاجتماعيَّة. أنا طبعًا مقدِّر غضبك ممّا حدث في المدرسة، لكن بصراحة لا أرى سببًا لإحباطك. دعينا نتَّفق على ثلاثة أشياء:

أوَّلًا: إنَّ معركتنا ليست مع ضابط الشرطة أو مدير المدرسة أو الشركة الإيطاليَّة، وإنَّما مع نظام قمعيّ فاسد جثم على أنفاس المصريين طويلًا، ولا بُدَّ من إسقاطه حتى نبني بلدًا نظيفًا ومحترمًا.

ثانيًا: إنَّ الناس في مصر قد عاشوا تحت الحكم الاستبداديّ سنواتٍ طويلةً، وفقدوا بالتالي الأمل في تحقيق العدل، فلا تلوميهم إذا تجنَّبوا أيّ مواجهة مع السلطة، وآثروا السلامة...

ثالثًا: أنت يا أسماء تُخلصين في عملك أساسًا لإرضاء ضميرك، فلا تنتظري تقديرًا من أحد.

للأمانة، هذه ليست أفكاري وإنَّما دروس تعلَّمتها من أبي المناضل الذي تمَّ حبسُه وفصله من عمله وتشريده، لكنَّه لم يندم لحظة واحدة على مواقفه. سألته مرَّة، بحماقة وقسوة:

ـ أنت ضيَّعتَ من عمرك عشرَ سنين في السجن، ومع ذلك، لم يتغيَّر شيء في مصر. ألستَ نادمًا؟

ابتسم أبي وقال:

ـ لقد قمت بواجبي فاستفدتُ احترامي نفسيَ. ثم من قال لك إنَّ شيئًا لم يتغيَّر؟ كلّ يوم يزداد وعي الناس وتتَّضح أمامهم الحقيقةُ. يومًا ما، سيبلغ غضبهم الحدّ الذي يدفعهم إلى الثورة. حتى لو لم أرَ الثورة، فسأموت مرتاح الضمير لأنَّني بذلت كلّ ما في وسعي لخدمة القضيَّة.

القضيَّة، في قاموس أبي، تعني النضال من أجل دولة ديموقراطيَّة ومجتمع اشتراكيّ... لا تغضبي من ردَّة فعل أهالي التلميذات، يا أسماء. إنَّهم يعلمون جيِّدًا بأنَّك تدافعين عن حقوقهم، لكنَّهم ببساطة

خائفون من الناظر. اصبري عليهم. شيئًا فشيئًا، سيثقون بك ويتخلَّصون من الخوف. كان أبي يقول:

ـ الناس لن يحبُّوك إلّا إذا صدَّقوك، ولن يصدِّقوك إلّا إذا اقتربت منهم ووضعت نفسك مكانهم.

عندما بدأت العمل في المصنع، اكتشفت أنَّ العمَّال لا يثقون بالإداريِّين والمهندسين، لأنَّهم دائمًا ينحازون إلى الإدارة ضدَّهم. أمضيت عامًا كاملًا أتقرَّب إليهم، حتى كسبت ثقتهم، فانتخبوني في اللجنة النقابيَّة، ومنعوا الإدارة بالقوَّة من تزوير الانتخابات. إذا حكمتِ على العمّال بسرعة فلن تحبِّيهم أبدًا. إنَّهم يتصرَّفون بخشونة، وأحيانًا بعدوانيَّة. لكنَّك إذا عشت معهم فستُدركين أنَّهم أبطال حقيقيُّون. إذا كان الفساد يضايقنا، فإنَّه يقتلهم. عامل الإسمنت يقف كلّ يوم ٨ ساعات أمام فرن شديد الحرارة، لا نستطيع أنا وأنت البقاء أمامه دقائق. عامل الإسمنت يُصاب بتحجُّر رئويّ وسرطان الرئة من استنشاق عادم الإسمنت، لأنّ الإدارة غالبًا لا تشتري فلاتر للمداخن. وإذا اشترتها فلا تركبها دائمًا لأنّها تؤثِّر في كثافة الإنتاج؛ هذا العامل البسيط الذي يواجه الموت كلّ يوم في معركة شريفة من أجل تربية أولاده، هو، في نظري، أشرفُ من أساتذة جامعات باعوا أنفسهم للسلطة فتحوَّلوا إلى عاهرات. المصنع كان يضمّ ٦ آلاف عامل. تصوَّري أنّ الإدارة الإيطاليَّة أجبرت ألفي عاملٍ على المعاش المبكر... وبالرَّغم من كون عصام شملان صديقًا لأبي وصاحبَ فضل في تعييني، فإنَّه، للأسف، أدّى دورًا مُشينًا في موضوع المعاش المبكِّر. كان يستدعي العمَّال ويهدِّدهم ليجبرهم على طلب المعاش. كان يقول للعامل:

ـ أنت قدّ الحكومة؟ الحكومة عاوزة تطلّعك معاش. لو قلت لأ حتفصل من غير مكافأة، وممكن يتقبض عليك وتترمي في السجن.

تصوَّري، يا أسماء... عمّال في الأربعينيَّات من العمر لديهم أُسر وأطفال، يجدون أنفسهم في الشارع وفي أيديهم مبلغٌ ضئيل يتبخّر بعد شهور... ماذا يفعل العامل بعد ذلك؟! إمَّا أن يتسوَّل وإمَّا أن يسرق. مأساة بجدّ... عندنا ظاهرة غريبة في المصنع: عمَّال كثيرون من الذين أُجبروا على المعاش المبكِّر، يجيئون كلّ صباح ويجلسون أمام بوَّابة المصنع حتى نهاية الورديَّة، ثم ينصرفون... حاولت الإدارة صرفهم بكلِّ طريقة. تحدَّث معهم عصام شعلان بالذوق، ثم استعان بالأمن لتهديدهم بلا جدوى. ظننت، في البداية، أنَّ جلوسهم أمام المصنع نوعٌ من لفت الأنظار إلى مأساتهم. ظننت أنَّهم يتوقَّعون أن تستعين الإدارة بهم مرّة أخرى... ذهبتُ إليهم وسألتهم عن سبب جلوسهم بهذا الشكل. قال أحدهم ببساطة:

ـ المصنع بيوحَشنا. إحنا قضينا عمرنا كلّه هنا.

وقال عامل آخر:

ـ دَه مصنعنا. إحنا لنا فيه أكثر من عصام شعلان والإدارة الإيطاليَّة... طردونا ومستكترين علينا نقعد قدّام مصنعنا؟!

هؤلاء هم العمَّال. اصبري على الناس يا أسماء. لا تتعجَّلي في الحكم عليهم. اعذريهم واقتربي منهم، وعندئذٍ ستكتشفين طاقتهم الإنسانيَّة الرائعة. أنا فخور بك، يا صديقتي. اذهبي للتحقيق مرفوعةَ الرأس لأنّك تقفين وحدك أمام مؤسَّسة فساد كاملة. أنت أقوى منهم، لأنّك تدافعين عن الحقّ. إيَّاك أن تهتزّي أو تفقدي الثقة لحظة واحدة.

أرجوك طمئنيني على ما جرى في التحقيق... وحياة النبي، يا شيخة، ما تزعلي. ممكن تبتسمي من فضلك؟ عاوز أشوف النغّازتين. أيوه كده. سلام يا جميل.

مازن

ملحوظة:

سامحيني على أخطاء اللّغة. لست أديبًا مثلك. أنا مهندس، وفي المدرسة كنت أنجح بالعافية في اللغة العربيَّة.

ملحوظة أهمّ:

إذا أردت الاتصال. رقم تليفوني ٠١٢٧٣٣٤٤٢٨٨.

طبعًا التليفون مراقَب، فاختصري في الكلام، ولا تذكري أيّ معلومات. اكتبي إليّ براحتك على هذا الإيميل، لأنّه أضمن.

(٧)

المصريُّون يعرفون نورهان كمذيعة في التليفزيون، لكنَّهم لا يعرفونها كإنسانة. بل إنَّ سيرتها الشخصيَّة، تُحيط بها حكايات كثيرة، بعضها حقيقيٌّ، وبعضها أكاذيبُ تروِّج لها نسوان تنهشهنَّ الغيرة من جمال نورهان وذكائها وأناقتها وشهرتها، وقبل ذلك جاذبيَّتها السحريَّة للرجال... فيما يلي ما يتردَّد من أقاويل:

أوَّلًا: يقولون إنَّ نورهان تحضر دروس الشيخ شامل من باب التظاهر بالتديُّن، وإنَّها تبكي في أثناء الدرس ليس خشوعًا، وإنَّما لتلفت الأنظار...

ـ الحقيقة أنَّ نورهان، منذ أن بلغت المحيض، وهي تلميذة في مدرسة المنصورة الثانويَّة، خرطها خراط البنات فلانت واستدارت وبرزت مفاتنها، وصارت محطّ الأنظار في أيِّ مكان تذهب إليه. وهي لم تبكِ في درس الشيخ شامل، إلَّا عندما تحدَّث عن الحجاب الذي اضطرّت إلى خلعه كي تظهر على الشاشة، الأمر الذي سبَّب لها

إحساسًا عميقًا بالذنب، حتى إنَّها حاولت أكثر من مرَّة إقناع المسؤولين بالسماح لها بالظهور محجَّبةً لكنَّهم رفضوا... نورهان، إذن، صادقة في بكائها وفي تديُّنها، وهي لا تُقْدِم على أيِّ تصرُّف في حياتها ـ مهما يكن بسيطًا ـ قبل أن تتأكَّد من موافقته للشرع الحنيف. لعلَّنا نذكر حلقة شهيرة من برنامجها قدَّمتها بعنوان «الحجاب... عادة أم عبادة؟!».

يومئذٍ، انتصرت نورهان للحجاب. أكّدت أنَّه فرض، مثلُ الصلاة والصوم، وناشدت البنات والسيِّدات عدم التفريط في الحجاب مهما تكن الأسباب. وعندما قام مشاهد بمداخلة وسألها كيف تدافع عن الحجاب بهذه الحماسة بينما هي نفسها قد خلعته؟

عندئذ، أطرقت نورهان صامتة، وانبعثت في الخلفيَّة موسيقى خافتة حزينة، ثم اقتربت الكاميرا ببطء من وجهها وهي تناجي ربّنا سبحانه وتعالى بصوت متهدِّج:

«إلٰهي... خالقي ومولاي... اللَّهمّ إنَّك تعلم بأنّي اشتقت إلى ارتداء حجابي، وأنت تعلم بأنّي لا أملك الآن القوَّة لارتدائه... يا ربِّي، يا سامعَ ندائي، عجِّل لي بارتداء الحجاب ولا تقبضني إليك إلَّا بعد أن أرتديه».

بكت نورهان تلك الليلة، وأبكت المشاهدين، وجعلتهم جميعًا يدعون الله أن يرزقها نعمة الحجاب.

ثانيًا: يقولون إنَّها غيَّرت اسمها الحقيقي من «نور الهدى» إلى «نورهان» حتى تخفي أصلها الوضيع...

- نورهان أصلها بسيط، لكنَّه ليس وضيعًا. والدها المرحوم محمَّد بيُّومي مساعد الشرطة في قسم المنصورة «أوَّل»... كان فقيرًا كثيرَ العِيال، لكنَّه، بكدِّه واجتهاده، استطاع أن يربِّيهم ويعلِّمهم. وعندما

توفّاه الله، كانت ابنته الكبرى نورهان في الفرقة الثالثة في كلّيّة الآداب ـ قسم جغرافيا، وكان أخوتها الثلاثة في مراحل التعليم المختلفة...

أمّا عن تغيير اسمها، فالمعروف أنَّ العمل في الإعلام قد يفرض على الإنسان تغيير اسمه، ليكون موسيقيًّا وجذَّابًا. وقد اختارت نور الهدى اسمَ نورهان لأنَّه الأقرب إلى اسمها الحقيقيّ...

ثالثًا: يقولون إنَّ نورهان أغوت أستاذها الدكتور هاني الأعسر وخطفته من زوجته وأولاده.

ـ الدكتور هاني سليل أسرة الأعسر العريقة والمعروفة بثرائها في المنصورة، وهو أستاذ جغرافيا المعادن في كلّيّة الآداب، وكان مقرِّرًا لأسرة «اللؤلؤ» الطلّابيّة التي كانت نورهان عضوًا فيها. وقد لفتت نظره في أثناء رحلة الأقصر وأسوان، فاقترب منها. وعندما توفّي أبوها، رحمه الله، وقف الدكتور هاني إلى جوارها وساندها في محنتها، وصار يتحدَّث معها تليفونيًّا كلّ يوم للاطمئنان عليها. ثم دعاها ذات يوم مع بعض زملائها إلى قضاء يوم في عزبته، وفي اليوم التالي استدعاها إلى مكتبه وأثنى على شخصيَّتها وأخلاقها، وفجأة بدا كأنَّه فقد السيطرة على مشاعره، فاقترب منها ولمس وجهها، وهمس:

ـ نور... أنت جميلة جدًّا.

لم تبدُ المفاجأة على وجه نورهان، لكنَّها أبعدت يده بحزم وقالت:

ـ يا دكتور، أنا مسلمة. لمسةُ جسمي حرام على الغريب.

كان الدكتور قد اجتاز نقطة العودة، فتهدَّج صوته واقترب منها وهمس:

ـ أنا بحبّك يا نور.

ابتعدت نورهان وصاحت بحدّة:

ـ من فضلك. يا دكتور... كفاية.

ثم انصرفت غاضبة، وصفقت الباب خلفها بعنف. كان الدكتور هاني متزوّجًا منذ عشرين عامًا من أستاذة في كلّيّة الحقوق، ولديه ولدان وبنت.

في الأيّام التالية، قاطعت نورهان الدكتور هاني تمامًا، فلم تردّ على اتّصالاته المتكرّرة. وكلّما لمحته في ردهات الكلّيّة كانت تشيح بوجهها وتزمّ شفتيها وتقطّب حاجبيها (فتبدو حينئذ أجمل)... بعد أسبوعين من القطيعة الصارمة، جاءها العمّ أبو طالب عامل البوفيه مبتسمًا، وقال:

ـ يا آنسة نور، سيادة الدكتور هاني الأعسر عاوزك في مكتبه.

ذهبت إليه بوجهها الغاضب الفاتن، وقالت بلهجة رسميّة:

ـ عم أبو طالب قال لي حضرتك عاوزني... خير إن شاء الله؟

دعاها الدكتور هاني إلى الجلوس، فتردّدت قليلًا ثم جلست على حافّة المقعد، كأنّها مستعدّة للانصراف في أيّ لحظة... ابتسم الدكتور هاني بعصبيّة، وسأل:

ـ أنت غضبانة منّي يا نور؟!

قالت:

ـ طبعًا!

ـ ممكن أعرف السبب؟!

ـ ما كنت أتخيّل أبدًا إنّ حضرتك تظنّ أنّي بنت منحلّة.

ـ أعوذ بالله، أنا باحترمك يا نور.

ـ هو اللي يحترم واحدة يعمل معها الحرام؟!

جذب الدكتور هاني نَفَسًا عميقًا من السيجارة وتطلّع إليها. كان وجهه مرهقًا كأنّه لم ينم جيّدًا، وردّ عليها بكلام بدا كأنّه أعدّه مسبقًا. قال إنّه رجل ناضج وليس مراهقًا، وقد فكّر طويلًا وتأكّد من إحساسه نحوها. إنّه يحترم استقامتها والتزامها الدينيّ، لكنّه في الوقت نفسه حريص على عائلته ولا يريد لأولاده أبدًا أن يدفعوا ثمن حبّه لها... عقدت نورهان ذراعيها على صدرها وأطرقت، وبدت حينئذ كإنسان أُهينت بقسوة وتنتظر ردّ كرامتها فورًا... أشعل الدكتور هاني سيجارة أخرى، وقال إنّه مستعدّ للزواج منها فورًا، بشرطين: أوّلًا أن يظلّ زواجهما سرّيًّا، وثانيًا ألّا يُنجبا. وعدا ذلك، فهو على أتمّ استعداد لتلبية كلّ طلباتها. صمتت نورهان قليلًا، ثم قالت بلهجة مقتضبة إنّ عرض الزواج فاجأها، وإنّها تحتاج إلى وقت للتفكير، ثم اغتصبت ابتسامة باهتة وحيّته وخرجت من المكتب بخطوة بطيئة متعثّرة قليلًا (تعكس حيرتها)، بينما هو يتابعها بنظره.

اختفت من جديد مدّة أسبوع كامل لم تردّ خلاله على اتّصالاته، الأمر الذي اضطرّه إلى استدعائها إلى مكتبه مرّة أُخرى بواسطة أبي طالب. بدت هذه المرّة حزينة ومهمومة، وعندما سألها عن سبب غيابها، قالت إنّها تمرّ في صراع نفسيّ، وقد أدّت صلاة الاستخارة عدّة ليالٍ حتى أنعم الله عليها بالقرار الصحيح. لم يسألها د. هاني عن قرارها، كأنّما خاف أن يكون الرفض، لكنّه أعاد عليها عرض الزواج. سكتت نورهان، وأشاحت بوجهها الجميل كأنّها تبحث عن التعبير المناسب، ثم تطلّعت إليه وقالت إنّها توافق، من ناحية المبدأ، وسترك

المهر والشبكة لتقديره، لأنّ المال لا يهمُّها، لكنّ لديها شرطين:

أوَّلًا، أن يعرف أهلها بالزواج ويشهدوا عليه حتى يكون شرعيًا، وثانيًا أن يشتري الدكتور هاني شقَّة باسمها في المنصورة، هنا، للمرّة الأولى منذ أسابيع، ظهرت على وجهها ابتسامة حلوة، وقالت بما يشبه الودّ:

ـ حتى لو كانت الشقَّة صغيرة ولا يهمّك... المهمّ تكون في حيّ لائق وتسجِّلها باسمي، حتى أشعر بأنّني زوجة شرعيّة ولست عشيقة أنتقل بين الشقق المفروشة. أنا موافقة طبعًا على تأجيل الإنجاب حتى نتَّفق على الوقت المناسب. أمّا عن أسرتك، فأقسم بالله العظيم بأنّني سأحافظ عليها لأنّني لا أتحمَّل ذنب أن أُبعدك عن أولادك أبدًا.

وافق الدكتور هاني واشترى باسمها شقَّةً فاخرة من ثلاث حجرات وصالة في حيّ توريل الراقي، ثم أظهر كرمه فدفع إليها مهرًا قدره خمسون ألف جنيه، واشترى شبكة عبارة عن خاتم سوليتير... تمَّ عقد القران في بيتها في حفل بهيج، اقتصر على الأقرباء والأصدقاء المقرّبين. أقنع الدكتور هاني زوجته الأولى بأنّه تولّى مسؤوليّات إضافيّة في الكلّيّة تفرض عليه العمل يوميًا حتى المساء، وفي الوقت نفسه، أعاد تنظيم محاضراته بحيث تنتهي كلّها مبكرًا. وصار يخرج يوميًّا من الكلّيّة إلى شقَّة نورهان، ثم يعود آخر النهار إلى بيته. كان العروسان متفاهمين في كلّ شيء ما عدا أمرًا واحدًا.

كان الدكتور هاني يحبّ الويسكي، لكنّ نورهان منعته بحسم، لأنّ الخمر المحرَّمة تطرد الملائكة من البيت، كما جاء في الحديث الشريف. انصاع الدكتور هاني لرغبتها، واكتفى بالشرب مع أصدقائه

كلّ خميس. عاش معها أيّامًا هانئة، حتى إنّه أفرط مرّة في الشراب و
أصدقائه، فصاح فجأة:

ـ يا جماعة، أنا في النعيم والله. صدّقوني. من لم يتزوّج بو
الهدى محمّد بيُومي فهو لم يتزوّج.

ما كان أسعده آنذاك. ولكن، متى دامت السعادة، ولمن؟!

تخرَّجت نورهان في الكلّيَّة بتقدير جيِّد جدًّا بعدما أوصى زوجه
عليها زملاءه الأساتذة، ثم بذل مجهودًا كبيرًا مع مدير الجامعة حتى
حصلت على وظيفة معيد. استمرَّت حياتهما كالمعتاد، وذات يوم ذهب
إليها فتغدَّيا ومارسا الحبّ كأروع ما يكون. دخلت نورهان الحمّام
وعادت وقد تورَّد وجهها وارتدت الروب الكشمير الأبيض على جسدها
الفاتن. جلست أمامه وابتسمت، وقالت بنبرة عاديَّة تمامًا:

ـ مبروك يا حبيبي. أنا حامل.

فوجئ الدكتور هاني، فظلَّ لحظات صامتًا يحدِّق في الفراغ كأنّه
لا يصدِّق، ثم ذكَّرها، بصوت منفعل لاهث، بأنَّهما اتَّفقا على عدم
الإنجاب. ردَّت نورهان فورًا:

ـ أنا وأنت أردنا منع الحمل، لكن ربّنا سبحانه وتعالى إذا أراد
شيئًا يقول له كُن فيكون.

انفجر هُنا الدكتور هاني غاضبًا كما لم تَرَه من قبل، وراح يصيح
ويهدِّدها ويتَّهمها بأنَّها كذّابة ولئيمة وخدعته. ابتسمت نورهان، بحزن
وانكسار، ولم تردّ عليه بكلمة (إذ إنَّها كزوجة مسلمة مأمورة شرعًا بأن
تتحمَّل غضب زوجها وتلقى إساءته بالإحسان). اختفى الدكتور هاني
عشرة أيّام لم تسعَ نورهان خلالها للاتِّصال به، ثم عاد. ولمَّا مثَل

باحتضانه كعادتها، دفعها بعيدًا وجلس على الأريكة في الصالة، ثم أشعل سيجارة، وقال وهو يتفادى النظر إليها:

ـ أنا اتَّفقت مع صديق أستاذ في كلِّيَّة الطبّ أنك تروحي يوم الاثنين تعملي إجهاض...

تحوَّلت عندئذٍ نورهان إلى لبؤة غاضبة، وصرخت:

ـ عاوزني أعصي ربّنا سبحانه وتعالى لأجل أرضيك؟ مستحيل. ربّنا أمرني بطاعتك في الحلال مش في الحرام. لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

حاول أن يتكلَّم، لكنَّها قاطعته بصوت جلجل في جنبات عشّ الغرام:

ـ اسمع، يا هاني. حاقول لك كلمتين تحطّهم حلقة في وِدنك... أنا مسلمة وعمري ما أغضب ربّي أبدًا... أنت مش حتنفعني لمَّا اترمي في الحفرة الرطبة وأتحاسب على ذنوبي. يكون في علمك حتى لو طلَّقتني حاعرف أجيب حقّ اللي في بطني... دخول الحمَّام مش زيّ خروجه يا سعادة البيك.

أذعن الدكتور هاني للأمر الواقع بعد مشادَّات ومشاجرات ومحاولات إقناع فاشلة منه وصراخ وبكاء ولطم منها، وأنجبت نورهان طفلًا جميلًا سمَّته حمزه (تبرُّكًا بعمِّ الرسول ﷺ). وعندما احتفلا بعيد ميلاده الأوَّل، طلبت من الدكتور هاني تأمين مستقبل الولد. لم يعارض هذه المرَّة، ففتح لحمزة حسابًا في البنك وضع فيه مليون جنيه وديعةً، بالإضافة إلى حديقة موالح كبيرة كتبها باسمه. مع وجود الطفل حمزة، لم يعُد في الإمكان الاحتفاظ بالسرّ فتسرَّب الخبر إلى الزوجة الأولى ـ بواسطة مكالمة مقتضبة من فاعل خير ـ، واضطرّ الدكتور

هاني إلى مواجهة زوجته التي أشعلت حربًا بلا هوادة ضدّه وضدّ نورهان التي تحمّلت أذى ضرّتها صابرةً «محتسبة»، كما يليق بالمرأة المسلمة. وقد انضمّ أولاد الدكتور هاني إلى أمّهم وقاطعوه تمامًا، بل إنّ أكبرهم، وهو طالب طبّ، تطاول عليه ووصفه بأنّه «نسونجي»...
لم يستطع الدكتور هاني تحمُّل كلّ هذه المشاكل، فارتفع لديه ضغط الدم، وأُصيب بجلطة في المخّ أدّت إلى إصابته بشلل نصفيّ. سقط مريضًا في شقّة نورهان، فلم تقصّر في رعايته، وأقامت معه بالمستشفى ثلاثة أيّام كاملة استشارت خلالها بعض الشيوخ الثقات، وقد أفتوا جميعًا بأنّ الأفضل للدكتور هاني في ظروف المرض الصعبة أن يكون إلى جوار زوجته الأولى وأولاده الكبار.

عملت نورهان بالرأي الشرعيّ فاتّصلت بزوجته الأولى وطلبت إليها أن تحضر لرعاية زوجها في المستشفى، ثم انصرفت بسرعة منعًا للإحراج... بعد ذلك بشهور قليلة، نفذ سهم الله ووافى الدكتور هاني أَجَلُه المحتوم. طالبت نورهان، عندئذٍ، بنصيبها الشرعيّ في الميراث، وحصلت عليه بعد مشاكل وقضايا مع زوجته الأولى كسبتها جميعًا.

هذه حكايتها مع الدكتور هاني الأعسر ـ رحمة الله عليه ـ فمتى أذنبت نورهان ومتى خالفت الشرع الحنيف؟! أليس الأجدر بمن يتقوّل عليها أن يتّقي الله ويخجل من نفسه؟!

رابعًا: يقولون إنّ نورهان امرأة خطرة تلعب بعقول الرجال وتسيطر عليهم جنسيًا، ثم تفعل بهم ما تريد.

ـ يا سبحان الله! هل تتحوّل المزيّة إلى نقيصة؟! هل تتحوّل النعمة إلى نقمة؟! ما ذنب نورهان إذا أعجبت الرجال؟ هل نعاقبها

على جمالها؟ هل المطلوب أن تكون دميمة منفرة حتى نرضى عنها؟ نورهان، طوال عمرها، محتشمة ملتزمة لا تسمح لرجل غريب بأن يمسّها بطرف إصبعه حتى من فوق الثياب. أمّا موضوع الجنس، فيا ليت كلّ زوجة مسلمة تصنع نصف ما تصنعه نورهان لإرضاء زوجها... أوَلَيست الزوجة المسلمة مأمورة شرعًا بإرضاء زوجها في الفراش، بكلّ الطرائق ما عدا الفعلين المحرَّمين، وهما الجماع في أثناء الحيض والإيلاج في الدُّبر؟

ألا يدعو كبار العلماء الزوجة المسلمة إلى أن تكون «عاهرة مطيعة» في فراش زوجها حتى تُشبع شهوته وتحصّنه من الحرام؟ لقد كانت نورهان بنتًا خامًا ساذجة، لا تعرف شيئًا عن الجنس فاجتهدت وتعبت حتى تعلّمت. قرأت كثيرًا ورأت عشرات الأفلام التوضيحيّة على الإنترنت. حتى عرفت فنون الفراش ومارستها في الحلال، مرّة بعد مرّة، حتى أتقنتها. تعلّمت كيف تنتف شعر جسدها (في اتّجاهين)، ثم تطرّي جلدها بالخلطة المغربيّة، وكيف تنظّف مناطقها الحميمة وتبخّرها على الطريقة السودانيّة، ثم تدهنها بزيت عطريّ بنكهة الفواكه (مشمش أو تفّاح)... تعلّمت كيف تُثير زوجها في الحلال؟! كيف تغلق نور الحجرة وتُشعل الشموع، ثم تطلق البخور الجاوي لتهيّئ زوجها نفسيًّا للحبّ؛ كيف توجّه إلى زوجها نظرةً ساهمة عاشقة، ثم تعضّ شفتها السفلى علامة على شهوتها؛ كيف ترتدي قميص النوم الفاضح، ثم تنحني أمام زوجها كأنّها لا تقصد لتفتنه بثدييها. اشترت بدلة رقص بثمن باهظ، وتعلّمت كيف ترقص أمام زوجها بخلاعة فاحشة محبّبة... وتعلّمت، في الفراش، متى تتأوّه، وكيف تهمس في أذن زوجها بكلمات مثيرة، وتداعب المناطق السبعَ الحسّاسة في جسده

فنصيبه بالجنون . . . ما دمنا نتحدَّث عن المتعة الحلال، فلا حياء ولا حرج. تعلَّمت نورهان كيف تُمتِّع زوجها بمؤخّرتها الطريَّة البضَّة من دون الإيلاج المحرَّم. تدرَّبت على مصّ قضيب زوجها ببطء ونعومة كما أحلَّ لها الشرع - بل صارت تقدِّم إليه الفواكه وشرابَ الفراولة وعصير الأناناس، قبل الجماع بفترة كافية حتى يكون طعم المني مستساغًا في فمها . . . هل نلوم نورهان على اجتهادها وتفوّقها الجنسيَّيْن؟ هل نلومها لأنَّها تُشبع زوجها وتعفّه عن الحرام؟! أليس الأجدر بنا أن نلوم المسلمة التي تمتنع من زوجها، أو تهمله في الفراش، حتى يسقط في الخطيئة، والعياذُ بالله. إنَّ نورهان، ولا نزكّي على الله أحدًا، مسلمةٌ فاضلة تلتزم بتعاليم دينها ولا تحيد عنها قيد أنملة.

أخيرًا: لم يتبقّ من الأقاويل إلَّا علاقة نورهان بالمهندس عصام شعلان:

- ترمَّلت نورهان قبل أن تبلغ الثلاثين، وتحمَّلت وحدها مسؤوليَّة ابنها حمزة. صحيح أنَّه كان لديها دخل شهريّ كبير من نصيبها في الميراث، بالإضافة إلى مرتَّبها من الجامعة ومعاش المرحوم زوجها، لكنَّها أحسَّت بأنَّ المنصورة ضاقت عليها، وأرادت أن تربّي ابنها في العاصمة، حيث كلّ شيء أفضل. سعت بإلحاح حتى تمَّ نقلها إلى جامعة القاهرة. قامت بتأجير شقَّتها في المنصورة، وعاشت في شقَّة إيجار جديدة في الجيزة، ثم اجتهدت حتى عملت كمذيعة في إذاعة الشعب. وعندما حدثت أزمة الإسمنت منذ عامين، كلَّفتها مديرة الإذاعة بعقد لقاءات عن الأزمة، فأجرت حديثًا مع عصام شعلان، مدير مصنع بيلّليني للإسمنت، والذي أُعجب بكفاءتها، وعرض عليها

العمل مستشارةً إعلاميَّة للمصنع بمرتَّب مُجْز ومواعيدَ عمل مريحة، لا تتعارض مع عملها في الجامعة والإذاعة. قبلت نورهان الوظيفة، واجتهدت لتؤدِّيها بما يرضي الله. ولكن، للأسف، تكرَّرت القصَّة المعتادة، فتصوَّر عصام شعلان أنَّها امرأة سهلة وراودها عن نفسها، لكنَّها لقَّنته درسًا قاسيًا في الأخلاق وتركت العمل فورًا. طاردها عصام، لكنَّها تجاهلته تمامًا. عندئذٍ، عرض عليها الزواج، فرفضت وأخبرته بأنَّها قد كرَّست حياتها لابنها حمزة. على أنّه ألحَّ عليها وسعى لإقناعها بأنَّ زواجهما سيكون لمصلحة حمزة، لأنَّه سيكون بمثابة أب له. في النهاية، قبلت نورهان بشرطين: أن يشتري لها شقَّة في منطقة لائقة في القاهرة تعيش فيها مع حمزة، وأن يكون الزواج عُرفيًّا حتى لا ينقطع عنها معاش المرحوم الدكتور هاني (وقد أقرَّها الشيخ شامل على هذا الأمر من الناحية الشرعيَّة).

تزوَّجها عصام في مكتب مُحامٍ من أصدقائه، واشترى لها شقَّتها الحاليَّة في حيِّ الشيخ زايد، ثم توسَّط لها حتى أخذت إجازة من دون مرتَّب من الجامعة، وانتقلت كمذيعة من الإذاعة إلى التليفزيون.

أين الخطأ أو الحرام فيما فعلته نورهان؟ تزوَّجت مرَّتين على سُنَّة الله ورسوله. أمَّا عن فارق السنِّ، فالشرع الحنيف لا يمنع زواج المسلمة من رجل يكبرها بعشرين أو ثلاثين عامًا. ثم... ألا يُمكن أن تكون نورهان قد أحبَّت عصامًا فعلًا؟! ألا يُمكن أن تكون قد أكبرت فيه إصرارَه على الزواج منها، أو رُبَّما وثقت به، وأحسَّت بأنَّه قادر على حمايتها ورعاية حمزة...

المؤكَّد أنَّ عصام شعلان يمتلك جاذبيَّة ما للنساء... إنَّه يبدو، لأوَّل وهلة، غريبًا نافرًا خارجًا عن المألوف. لكنَّه ـ وقد تجاوز

الستّين ـ ما زال يملك جسدًا قويًّا ممشوقًا بلا ترهُّل، وشعرًا كثيفًا أشيب تمامًا، ووجهًا أسمر داكنًا ملامحه صخريَّة حادَّة. أضف إلى ذلك صوتُه المرتفع الأجشّ، ونظراتُه المتفحِّصة المستريبة التي يوجِّهها إلى من يحدِّثه كأنَّه يختبر صدقه. هذا الطابع الصداميّ الخشن (الجذَّاب غالبًا للنساء)، رُبّما اكتسبه في المعتقل، حيث يكون التحلّي البديلَ الوحيد للانكسار، وربَّما يكون من أثر الكحول، إذ إنَّه لا ينام أبدًا قبل أن يحتسي نصف لتر من الويسكي. كما أنَّه ـ بسبب نشأته الماركسيَّة ـ يحتقر التهذيب البورجوازيّ الكاذب، ويلتزم الصراحة الكاملة، فيسمِّي الأشياء بأسمائها حتى لو اعتبره الناس وقحًا أو بذيئًا... إنَّه قادر دائمًا على مقاطعة مَن يحدِّثه، مهما يكن منصبه أو مقامه، قائلًا بنبرة حاسمة:

ـ «كلامك غلط»؛ أو «أنت بتردّد أكاذيب... عيب عليك».

كان عصام شعلان أحد قادة اعتصام الطلبة في عام ١٩٧٢. يومئذٍ، طلب المعتصمون حضور الرئيس السادات إلى جامعة القاهرة، فأرسل إليهم وزير الشباب ليتفاوض معهم. وعندما طالبه الطلَّاب بتحقيق الديموقراطيَّة وإطلاق الحرّيّات، ارتبك الوزير وقال:

ـ يا أولادي... لست صاحب القرار. أنا مجرَّد بوسطجي. كلّ ما أستطيعه هو أن أنقل مطالبكم إلى سيادة الرئيس...

ساد الصمت لحظات، ودوَّى فجأة صوتُ عصام شعلان الأجشّ في أنحاء القاعة:

ـ كُنّا نظنّ أنّك وزير مسؤول، لكنَّك تقول إنَّك بوسطجي... نحن لا نحتاج إلى بوسطجيَّة. تفضَّلْ، مع السلامة.

وسرعان ما ارتفع هتاف الطلّاب:

ـ اطلع برّه.... اطلع برّه.

خرج الوزير من القاعة تلاحقه التعليقات الساخرة، وتحوّلت الواقعة إلى مأثرة تُروى للتدليل على شجاعة عصام شعلان الذي طرد وزيرًا أرسله السادات. لم يتزوّج عصام لأنّه ظلّ لسنوات مطارَدًا من أجهزة الأمن. وعندما استقرّت أحواله، كان قد تقدّم في السنّ وتعوّد على الوحدة والحرّيّة، فلم يعد يحتمل الحياة مع زوجة تحاسبه أو تراقبه (إنّه يعتبر علاقته بنورهان رفقةً موثّقة وليست زواجًا). كما أنّ ضميره لا يسمح له، في سنّه المتقدّمة، بأن ينجب طفلًا ويتركه صغيرًا ليواجه شرور هذا العالم. اعتزل عصام شعلان النضال السياسيّ، وترقّى في عمله حتى صار مدير مصنع «بيلّليني» للإسمنت، وتحسّنت أحواله المادّيّة وإن كان ما زال متأثّرًا بالماركسيّة، فهو عضو في عدّة جمعيّات لحرّيّة الفكر ومحاربة التعصّب الدينيّ، ويحرص على توقيع بيانات التضامن مع الأدباء إذا صودرت أعمالهم أو حُوكموا بسبب كتاباتهم. وقد رفض شراء سيّارة مرسيدس لما تحمله من دلالة برجوازيّة، واكتفى بسيّارة بيجو فارهة حديثة. وهو لا يضع ربطة عنق أبدًا، وإنّما يرتدي بدلة سفاري صيفًا، وبلوفر بياقة تحت البدلة في الشتاء...

بالأمس، انصرف المهندس عصام من المصنع في السابعة مساءً، وحمل عنه سائقه مدني حقيبتَه المتخمة بالأوراق. وما إن استقرّ في المقعد الخلفي للسيّارة، حتى قال:

ـ اطلع على الشيخ زايد يا مدني.

كأنّه نطق بكلمة السرّ. قاد مدني السيّارة حتى اجتاز بوّابة
المصنع، ثم توقّف في شارع جانبيّ وأسدل ستائر النوافذ، ونز
الحقيبة الخلفيّة، وأخرج زجاجة ويسكي وصندوق الثلج وكوبًا ملأه
بالخِيار المخلّل، ووضع كلّ شيء على المائدة المثبّتة في ظهر المقعد
أمام المهندس عصام الذي تناول حبّة الفياغرا حتى تُحْدِث تأثيره في
الوقت المناسب. خلال الطريق من طرّه إلى الشيخ زايد، استغرق
عصام في الشراب وهو يستمع إلى أغاني أمّ كلثوم. على مدى عام
ونصف العام من علاقتهما، فشل في إقناع نورهان بأن تسمح له
بالشرب في الشقّة. إنّه يحترم تديُّنها ويتجنّب المناقشة الدينيّة معها حتى
لا يُغضبها، وقد وافق على الزواج العرفيّ من أجلها، لكن ليس من
حقُّها أن تمنعه من الشراب في شقّة اشتراها بماله... عصام مؤمن
بالله، لكنّ بعد قراءات مستفيضة، ساورته الشكوك في الأديان جميعًا.
فلم يعد يصدّق أنّ الله، القوّةَ العليا المطلقة، قد اختار أشخاصًا مثلنا
ليتحدّثوا باسمه... كثيرًا ما يتساءل: هل توجد حياة أخرى فعلًا بعد
الموت؟ لم يَمُتْ أحد وعاد ليخبرنا بما حدث. ألا يمكن أن يكون
الموت مجرّد انطفاء للوعي يتحوّل الجسد بعده إلى شكل آخر من
المادّة؟! هذه الآراء لا يصارح بها أحدًا ما عدا بعض رفاقه
الاشتراكيّين القُدامى في جلسات الشراب. يقول لهم ساخرًا:

ـ هناك مليون شخص عاقل من طائفة «الرستافارية» يؤمنون بأنّ
هيلاسيلاسي، إمبراطور الحبشة، هو الله نفسه ويعبدونه بتفانٍ وإخلاص.
لاحظوا أنّ هيلاسيلاسي مات منذُ أقلّ من أربعين عامًا. تخيّلوا هذه
العقيدة بعد أربعمئة عام... سيكون هُناك ملايين الناس يعبدون
هيلاسيلاسي، وعلى أتمّ الاستعداد للدفاع عن دينهم حتى الموت.

هكذا يرى عصام الأديان: كلّها بدأت كفولكلور، ومع الزمن، اكتسبت قداسةً لأنَّ الناس يحتاجون إلى الإيمان بالغَيب حتى يتحمّلوا شقاءهم وإحساسهم بالظلم.

المصريُّون، إذ يتقدَّمون في السنّ، يتَّجهون إلى الدين طلبًا لحسن الختام. لكنّ عصامًا لا يستطيع أن يخدع نفسه. لا يمكن أن يؤدّي طقوس دين لا يؤمن به أساسًا... وبالرَّغم من المتعة العارمة التي تمنحها له نورهان، فإنَّه ما زال يحسّ بالوحدة... كأنّما الوحدة قَدَره. عاش وحيدًا وسيموت وحيدًا، إنَّه يتقبَّل فكرة الموت، لكنّه يخاف من المرض. لا يريد أن يتألَّم، ولا أن يكون عبئًا على الناس أو محلّ إشفاقهم. يتمنّى أن يموت في فراشه بهدوء، وقد عزم، في قرارة نفسه، على الانتحار إذا أصابه مرض خطير. صبَّ عصام لنفسه كأسًا جديدة، وأنصت إلى صوت أمّ كلثوم، وقرَّر أن يطرد من ذهنه كلّ ما يشغله... فكَّر في أنَّه قد عانى كثيرًا في حياته، ومن حقّه أن يستمتع بما تبقّى منها. لمّا وصل إلى شقَّة نورهان، كان قد انتشى بالخمر واتَّصل بها ليتأكَّد من أنَّ حمزة الصغير قد نام. أثاره صوتها في التليفون، فنزل على عَجَل من السيَّارة. ها هو يدخل العمارة الشاهقة، ويستقلّ المصعد إلى الدور العاشر. وها هي نورهان تنتظره، وقد فاحت منها رائحةُ العطر، وارتدت الروب الورديَّ الذي يحبّه. وما إن أغلقت الباب خلفه، حتى استدارت نحوه ثم خلعت الروب فجأة فسقط على الأرض، وبدا جسدها عاريًا تمامًا. حملق عصام فيها لحظة، ثم فقد السيطرة على نفسه فانقضَّ عليها. تظاهرت بأنّها فوجئت، وهمست بصوت ضارع:

ـ بالراحة عليّ. أوعى توجّعني.

نطقتها بطريقة مائعة أجَّجت رغبته حتى كاد انتصابه يؤلمه. أخذه إلى الفراش، وكان أداؤه قويًا وخشنًا، فارتعشت مرَّتين قبل أن يبلغ لذّته. خرج يدخّن في الصالة، ودخلت هي الحمّام، ثم مرّت على حجرة حمزة لتطمئنّ إلى أنّه نائم. عادت وجلست إلى جوار عصام على الأريكة، وقالت:

ـ حبيب قلبي. فكّرت في الموضوع؟!

ـ فكّرت.

ـ وقرّرت؟!

ـ محتاج أفكّر أكثر.

ـ يا حبيبي. دي فرصة لا تعوَّض. أنت خبير في الإسمنت. لمّا نفتح شركة لتجارة الإسمنت، حنكسب دهب.

ـ المشكلة أنّ ده غير قانوني.

ـ ما قلت لك الشركة تبقى باسمي.

ـ أنت زوجتي، وبالتالي القانون يمنعك من تجارة الإسمنت.

ـ زواجنا عرفي.

ـ ما تفرقش.

ـ ما حدّش عارف إنّي مراتك.

ابتسم عصام، وقال:

ـ ولاد الحلال كثر. أوّل ما نفتح الشركة أيّ واحد ممكن يبلّغ الرقابة الإداريّة.

ـ أنت خائف من قانون وضعيّ عمله بشر؟! أنا لا أعترف إلّا بقانون ربّنا.

سألها عصام ساخرًا:

ـ هو ربّنا عمل قانون لتجارة الإسمنت؟

تجاهلت سخريَّته، وقالت بجدِّيَّة:

ـ أنا سألت الشيخ شامل، وقال لي إنَّ الشركة دي تجارة حلال.

ـ لازم عزمتيه على أكلة حلوة.

ـ عصام... من فضلك تتكلّم على العلماء باحترام.

سكتَ. كان يريد أن يحتفظ بالبهجة ويُعِدّ نفسه لجولة أُخرى من الحبّ، لكنّ نورهان بدأت مناورة جديدة. التصقت به، وقبَّلت عنقه، ثم همست:

ـ قل لي بصراحة. ناوي تعمل الشركة؟

ـ أفكَّر وأردّ عليك.

ـ قل لي وقت محدَّد.

ـ بعد أسبوعين.

ـ وعد؟

ـ وعد.

مدَّت يدها وداعبت شعره الأشيب، ثم تنهَّدت وصاحت بميوعة:

ـ آه ياني. بحبَّك يا رجل، يا عجوز.

أحسَّ بالدماء تسري في عروقه من ملمس جسدها البضّ. قبَّلها ببطء وهو يتحسَّسه. وفجأة، رنّ تليفونه فتركها ليردّ. نطق ببضع كلمات لم تسمعها، وأنهى المكالمة، ثم قبَّل جبينها وقال:

ـ آسف يا نور. فيه مشكلة كبيرة... لازم أرجع المصنع حالًا.

(٨)

أدّت دانية صلاة العشاء وركعتَي السُّنَّة، ثم ارتدت البيجاما وتمدَّدت في السرير... ضغطت على زرٍّ إلى جوارها، فانطفأت الأنوار كلّها. أغمضت عينيها في الظلام، واستعادت كلمات أبيها، فأحسَّت بالضّيق، وازدحم رأسها بالأسئلة:

أليس الإسلام دينَ الله العادل الرحيم؟ كيف يسمح بتعذيب الناس وإهدار كرامتهم؟! هل أخطأت في حقِّ أبيها؟ هل هي فعلًا مندفعة تتصرَّف بعواطفها، ولا تفكِّر في العواقب؟

لقد تأثَّرت من مأساة خالد سعيد وتحمَّست لزيارة والدته، ولم تفكِّر إلَّا في مواساتها. لم يخطر في بالها تأثيرُ الزيارة في أبيها وأخويها. لن تتحمَّل أبدًا أن تكون سببًا في إيذائهم. إنَّهم أكثر من تحبّهم في الدنيا... لا يوجد مَن هو أحنّ أو أكرم من أبيها. إنَّها تدعو الله أن يقدِّرها على ردِّ ولو جزءٍ من أفضاله عليها.

أيكون جزاؤه أن تؤذيه في عمله؟ ثمّ... لماذا أصبحت تنفعل

أحيانًا وتناقشه بطريقة لا تليق؟ إحساسها المتزايد بالذنب اختلط بالقلق لمّا تذكَّرت أنَّ أباها يراقبها... إنّه قطعًا يعرف موضوع خالد. هكذا، بدا على وجهه الغاضب.

ألم يقل إنَّ زملاءها الرعاع في الجامعة سمَّموا أفكارها؟! هل هذه كلمة عابرة، أم أنَّه يقصد خالدًا بالذات؟! عجزت دانية عن النوم، فنهضت من الفراش وصنعت لنفسها كوبًا كبيرًا من النعناع الدافئ واستلقت على الأريكة. على الرَّغم من القلق والإرهاق، فإن ابتسامة أفلتت منها عندما تذكّرت أنَّ خالد مدني متّهَم بتسميم أفكارها؟! إلى أيِّ حدٍّ، هذه التهمة صحيحة؟! كان خالد زميلها منذ السنة الإعداديّة للطبّ. اسمه يبدأ بالخاء، واسمها بالدال، الأمر الذي يجعلهما دائمًا معًا في كلِّ السِكشن وامتحانات العمليّ والشفويّ. كانت تعرفه بالشكل وتحيّيه عندما تراه كأيِّ زميل آخر. لم يشغل تفكيرها قطّ. كان من الممكن أن تظلّ علاقتها به سطحيَّة حتى التخرُّج. ذات يوم، قرأت له مقالًا في مجلَّة الحائط، يقول فيه إنَّ الأخلاق من دون دين أفضل من الدين بلا أخلاق. كانت آنذاك من مُريدات الشيخ شامل المتحمِّسات. استفزَّها مقال خالد إلى درجة أنَّها فكَّرت في أن تكتب ردًّا تفنِّد فيه كلّ الحجج التي ساقها. في اليوم التالي، رأته في السِكشن، فلم تتمالك نفسها. سألته بغضب:

ـ أنت اللي كتبت مقال الدين والأخلاق؟!

ـ أيوه.

ـ مقالك سيّئ جدًّا وكلامك كلّه غلط.

تطلّع إليها بهدوء من خلف نظّارته الطبّيّة ذات الإطار الأسود، ثم ابتسم وقال:

ـ من حقّك يكون دَه رأيك.

استفزّها هدوؤه، فقالت بحدَّة:

ـ كيف تتطاول على الدين بهذه الطريقة؟

ـ لم أتطاول على الدين.

ـ قلت إنَّ الأخلاق أهمّ من الدين.

ـ أنا قلت الأخلاق من دون دين أفضل من الدين من دون أخلاق.

ـ مستحيل توجد الأخلاق من دون دين.

ـ ممكن، بدليل إنَّ ملحدين كثيرين عندهم أخلاق وضمير.

ـ إذا كان واحد كفر بربُنا، أستغفر الله العظيم... إزّاي يبقى عنده أخلاق؟

ـ ممكن الإنسان يحقّق أخلاقه عن طريق الضمير بدل الإيمان.

ارتبكت بعض الشيء من إجاباته الفوريَّة والواثقة، وسألته:

ـ أنت مسلم؟

ـ الحمد لله.

ـ ربّنا قال «إنَّ الدين عند الله الإسلام»، وقال «ومن يبتغِ غير الإسلام دينًا فلن يُقبَل منه». يبقى كلّ الأفكار اللي كتبتها في مقالك لا تُرضي الله ورسوله.

اتَّسعت ابتسامته، وقال بحنان كأنَّه يخاطب طفلًا يحبّه:

ـ ممكن تسمعيني من غير مقاطعة؟!

ـ تفضّل.

ـ أنا أصلّي وأصوم، وأؤدّي الفروض، لكنّي أعتقد أنّ الدين الحقيقيّ هو ما أفعله وليس ما أؤمن به. الدين ليس غاية في حدّ ذاته، وإنّما هو وسيلة لتعليمنا الفضيلة. ربُّنا، سبحانه وتعالى، لا يحتاج إلى صلاتنا وصيامنا. نحن نصلّي ونصوم من أجل تربية أنفسنا. الإسلام ليس مجرَّد شكل وعبادات، كما يظنّ السلفيُّون، ولا هو وسيلة للاستيلاء على السلطة، كما يعتقد الإخوان... إن لم يجعلنا الإسلام أكثرَ إنسانيَّة، فلا فائدة منه ولا منَّا.

تطلَّعت إليه ولم تردّ، فاستطرد بحماسة:

ـ لماذا نتعلَّم الطبّ؟! حتى نعالج الناس. إذن، لا قيمة لدراستنا إذا لم نمارس الطبّ... بالمنطق نفسه، فإنَّ الدين تمرين على فعل الخير. ما قيمة أداء الشعائر إذا لم تنعكس على أخلاقنا؟!

ذلك اليوم تكلَّما طويلًا... وعلى الرَّغم من معارضتها له، فإنَّها في أعماقها انبهرت بقدرته على التحليل والتعبير عن أفكاره. أخبرها بأنَّه شاعر. طلبت منه، فأسمعها قصيدة له بعنوان «الفرعون». وعندما سألته عن بعض معاني القصيدة، قال:

ـ لا يجوز شرح الشعر.

ـ حتى لو كنت أنت كاتب القصيدة.

ـ بالذات، لأنَّها قصيدتي لا يمكن أشرحها. الشعر لازم يفسّر نفسه بنفسه.

حدَّثها عن الشعر بطريقة جميلة وبسيطة، توالت لقاءاتهما بعد ذلك وكانت، في كلّ مرَّة، تكتشف ضآلة ما تعرفه في مقابل معلوماته الغزيرة. كلّ حوار بينهما كان يلفت انتباهها إلى أمر لم تفكّر فيه من

قبل... تغيَّرت نظرتها إلى أشياء كثيرة بفضل خالد. أثَّر فيها إلى درجة أنَّها تتذكَّر جُمَلًا قالها بالنصّ، بل إنَّها ضبطت نفسها أكثر من مرَّة وهي تتحدَّث بطريقته نفسها. قالت له مرَّة:

ـ تعرف؟! لمَّا أسمعك مش باصدق أنَّك في سنِّي.

ـ أنا أكبر منك بخمسة شهور.

ـ ساعات بتهيَّأ لي لمَّا تتكلَّم إنّ روح رجل عنده ستِّين سنة بتقمَّصك...

ضحك عاليًا، وقال:

ـ يعني رأيك أنِّي راكبني عفريت...

قالت بجدِّيَّة:

ـ فعلًا، أفكارك أكبر من سنَّك بكثير.

ـ أشكرك، لكنَّها ليست أفكاري. كلّها قرأتها.

ـ متى قرأت كلّ هذه الكتب؟

ـ الفضل لأبي الذي لاحظ ميلي إلى القراءة وأنا صغير، فعمل لي اشتراك في قصر الثقافة. بقيت أستعير الكتب أقرأها وأُرجعها. تصوَّري رجل بسيط غير متعلِّم يقدِّر قيمة القراءة لهذا الحدّ.

عندما يتكلَّم على أبيه. يظهر على وجهه مزيج من الحنان والاعتزاز، تحترم فيه أنَّه لا يخجل إطلاقًا من أسرته المتواضعة. قال لها مرَّة:

ـ ربُّنا بيحبّني. أعطاني أبًا فقيرًا وشريفًا. لم أكن لأتحمَّل لو كان أبي غنيًّا وفاسدًا.

كثيرًا ما تتساءل عن السرّ في هذا السلام النفسيّ الذي يبدو دائمًا على وجهه، كأنّه مطمئنّ تمامًا إلى المستقبل. كان يأخذ كلّ شيء ببساطة، حتى الفارق الطبقيّ بينهما. قال لها مرّة ساخرًا:

ـ عارفة؟! ساعات بخاف من صداقتنا.

ـ ليه؟

ـ والدك ممكن يضيّعني أنا وأسرتي في لحظة واحدة.

ـ والدي بيطارد الإرهابيّين والجواسيس فقط.

ضحك وقال:

ـ الحمدُ لله، أنا مواطن صالح.

ثم استطرد مداعبًا:

ـ على كلّ حال، يا دانية هانم، أشكرك أنّكِ مصاحبة واحد زيّي في جيبه بالضبط عشرة جنيه وستّين قرش، وبينطّ كلّ اليوم في الميكروباص عشان ييجي الكلّيّة.

بدا عليها الضّيق، وقالت:

ـ هل أحسست مرّة بأنّني أتعالى على زملائي؟

ـ أنت متواضعة، لكنّ تواضعك لا يغيّر الحقيقة.

ـ أيّ حقيقة؟

ـ إنّك دانية بنت الأكابر، وأنا خالد ابن السوّاق.

ـ خالد من فضلك... الكلام دَه بيضايقني.

اعتذر إليها، وتكلّما في موضوع آخر... بعد ذلك، منعت سائقها من الدخول بالسيّارة المرسيدس داخل الكلّيّة. وصارت تخرج

من بوّابة القصر العينيّ على قدميها، ثم تستقلّ السيّارة في الشارع. بل إنّها لم تعد ترتدي الثياب باهظة الثمن. صارت تذهب إلى الكلّيّة بثياب بسيطة قدر الإمكان. حاولت أن توطّد علاقتها بزملاء لم تكن تتحدّث إليهم من قبل... وَسَعَتْ لأن تنزع عنها كلّ ما يميّزها عن الطالبة العاديّة. يضايقها حديثه عن الفارق الاجتماعيّ بينهما، لأنّه يذكّرها بأنّ علاقتهما بلا مستقبل... بقي عام واحد ثم يتخرّجان. سيفترقان حتمًا. ارتباطها بخالد مستحيل في أيّ ظرف من الظروف. حتى لو تخرّج بتقدير امتياز، وتمّ تعيينه مُعيدًا في الكلّيّة؛ حتى لو حصل على عقد عمل في الخليج وأصبح ثريًّا، سيظلّ عمل أبيه السائق مانعًا نهائيًّا لأيّ ارتباط. لا يمكن حتى أن تطرح الأمر على أُسرتها... ويراودها مع ذلك أحيانًا أملٌ غامض في أن تحدث مفاجأة ما (كما في الأفلام)، فتتزوّج من خالد وتنجب منه. إنّها تفكّر فيه دائمًا. تستعيده في ذهنها جزءًا جزءًا: جسدَه الممشوق النظيف والذي تنبعث منه رائحةُ عطر لطيفة؛ شعرَ صدره الكثيف الذي يبدو من فتحة القميص؛ ابتسامتَه الهادئة الجميلة، ونظرتَه الصادقة الواثقة من خلف النظّارة؛ شعرَه الأسود الناعم وشفتيه المكتنزتين وأسنانَه الناصعة المنتظمة، وأصابعَ يديه الطويلة المسحوبة كأنّه عازف بيانو. كثيرًا ما تحلم به: ترى نفسها جالسة إلى جواره على أريكة في حديقة مبهجة تحيط بهما أزهار جميلة لم تَرَ مثلها من قبل... تهمس إليه بكلمات لا تسمعها، وتمسك بيديه ثم تحتضنه فيضع رأسه على صدرها، تهزّها عندئذٍ لذّة عارمة وينتهي الحلم، لكنّها تحسّ بالذنب في الصباح، فتستحمّ وتستغفر الله وتصلّي.

كلّ يوم يمرّ يقرّبها من خالد. تحكي له كلّ ما تفعله، وتستمع إلى رأيه، وتسأله عن كلّ ما يشغلها. يُمضيان معًا وقتًا طويلًا في

الكلِّيَّة... طلبت منه ـ منعًا للقيل والقال ـ ألّا يجلسا معًا في أيّ مكان. أصرَّت على أن يتحدَّثا دائمًا وهما يمشيان معًا في أنحاء القصر العينيّ... سخر خالد من هواجسها، وقال:

ـ إذا كان وجودنا معًا سيُثير الشائعات فلا فرق بين أن نمشي أو نجلس.

قالت بجدِّيَّة:

ـ هُناك فرق. إذا شاهدونا ونحن نمشي ممكن نكون ذاهبين إلى محاضرة. أمَّا إذا جلسنا وحدنا فنحن نعلن للجميع أنَّ بيننا شيئًا خاصًّا.

ـ أليس بيننا شيء خاصّ؟

ـ طبعًا، لكن ليس من مصلحتنا إعلانه الآن...

ـ صداقتنا شريفة ومحترمة.

قالت بسخرية ودِّيَّة:

ـ يا دكتور خالد، إحنا عايشين في مصر مش في هولّندا...

ـ يعني نخضع لقواعد مجتمع متخلّف؟!

ـ إذا كنت أهمّك فعلًا لازم تخاف على سمعتي.

هزَّ خالد رأسه، وقال:

ـ أنا غير مقتنع، لكنّي سأعمل ما يُريحك.

صارا كلّ يوم يجوبان القصر العينيّ ويتكلَّمان. يسمِّيان لقاءهما بهذه الطريقة، «الفسحة». على الرَّغم من تعلُّقها به، فإنَّها لا تشعر بالذنب. عندما تصلِّي، تقف بين يدي الله بضمير مستريح. تحمد الله

لأنها لم ترتكب حرامًا مع خالد (ما عدا الأحلام التي تحدث رغمًا عنها).

على مدى عامين، لم يلمسها مرَّة. لم يحاول، ولم تكن لتسمح له...

غلبها النعاس وهي مستلقية على الأريكة، واستيقظت في الصباح وهي تحسُّ بصداع وألم في رقبتها. وما إن وصلت إلى الكلِّيَّة حتى بحثت عن خالد، لكنَّها لم تجده. اتَّصلت به، فوجدت تليفونه مغلقًا. ظهر في نهاية اليوم. فسألته:

ـ أين كنت؟

قال بهدوء:

ـ نتكلَّم في «الفسحة».

عندما بدآ جولتهما اليوميَّة، سألته بغضب:

ـ هو طبيعي أنَّك تختفي طول النهار؟!

ابتسم وقال:

ـ كان عندي اجتماع في الجمعيَّة الوطنيَّة للتغيير.

ـ تليفونك كان مقفول.

ـ في الاجتماعات لازم نقفل التليفونات ونبْعِدْها لأنَّها ممكن تُستعمل في التنصُّت علينا.

خطر لها حديث أبيها عن المراقبة. قالت وقد هدأت قليلًا:

ـ كان المفروض تقول لي يا خالد. أنا قلقت عليك.

ـ متأسِّف.

ساد الصمت لحظة، ثم قالت:

ـ كنت عاوزة أسألك على موضوع.

ـ تفضّلي.

ـ هو الإسلام يسمح بتعذيب الناس؟

ـ طبعًا لا. التعذيب حرام في الإسلام.

ـ لكنَّ الإسلام يأمر بعقوبات مثل الجَلد والرجم وقطع الأطراف. أليست كلّها من أشكال التعذيب؟

تطلَّع إليها خالد باندهاش، وقال:

ـ مَن قال لك الكلام ده؟

ـ واحد قريبي قرأ الدين بتعمُّق، وقال لي إنَّ هُناك عقوبة شرعيَّة اسمها التعزير، تُعطي الحاكم الحقَّ في أن يحبس أيّ شخص ويعذبَه لو اعتبره خطرًا على المجتمع...

مرَّت دقيقة كاملة وهو يمشي صامتًا إلى جوارها، فقالت:

ـ أنت سرحت؟!

قال:

ـ أنا برتِّب أفكاري عشان أردّ عليك.

ـ تفضَّل يا أستاذ.

هكذا هتفت بمرح، فقال بجدِّيَّة:

ـ عارفة يا دانية، أيَّام الإمبراطوريَّة الرومانيَّة كانت طريقة الإعدام أنَّ المتَّهَم يتمّ إلقاؤه إلى الأُسود حتى تفترسه. وقتها، كان ذلك العقاب مقبولًا إلى درجة أنَّ الناس كانت تذهب للاستمتاع برؤية هذه

المَشاهد البشعة... ما رأيك لو أنّ الحكومة الإيطاليَّة استعادت هذا التقليد، وأصبحت تُلقي بالمتَّهمين إلى الأُسود لتفترسهم. هل سيكون ذلك مقبولًا؟!

ـ لا، طبعًا.

ـ يبقى لازم نفهم الإسلام بالطريقة نفسها... العقوبات البدنيّة مثل الجَلد والرجم، كانت موجودة في سياق تاريخيّ معيَّن وانتهى... على فكرة، العقوبات نفسها كانت موجودة في الشريعة اليهوديّة وتمّ إلغاؤها. الإسلام يجب فهمه باعتباره مبادئ إنسانيَّة عامَّة: العدل؛ المساواة؛ الحرِّيَّة.

ـ يعني أنت ضدّ تطبيق الشريعة؟

ـ الشريعة لازم تحقِّق العدل. لو طبَّقنا العقوبات التي كانت مطبَّقة من ألف سنة، لا يمكن نحقِّق العدل. سنزداد تخلُّفًا على تخلُّفنا.

ـ لو الشيخ شامل سمعك أكيد حيكفِّرك.

ـ الشيخ شامل وأمثاله بيقبضوا ملايين عشان ينشروا الفكر الوهَّابي ويدعموا السلطة. بصراحة، أنا لا أعتبرهم رجال دين أساسًا. دُولْ رجال أعمال.

ـ لكنّ ملايين المسلمين بيتمنُّوا تطبيق الشريعة.

ـ الشريعة أحكام ربِّنا، والفقه طريقة تطبيق الأحكام. الشريعة إلٰهيَّة والفقه جهد إنساني. يبقى لا يمكن نطبَّق كلام فقهاء عاشوا من قرون. لازم نقدِّم فقه جديد يناسب العصر... الإسلام سمح بشراء الجَواري للمتعة. هل تتخيَّلي أنَّنا نعرض البنات للبيع في ميدان العتبة مثلًا، وأيّ حدّ يشتريهم من حقِّه ينام معاهم. في القرن الواحد

والعشرين، غير مقبول أنّنا نقطع يد أيّ إنسان أو نجلده أو نرميه في حفرة ونرجمه حتى الموت. عقوبة التعزير ربّما كانت مفيدة من ألف سنة، لكنّها الآن لا يمكن تطبيقها. لو قريبك متمسّك بتنفيذ عقوبة التعزير يبقى من حقّنا شراء الجواري للمتعة الجنسيّة. ما ينفعش نسيب حاجة ونطبّق حاجة. لو عاوزين نعيد التاريخ لازم نعيده كلّه.

سكت خالد لحظة، ثم استطرد قائلًا:

ـ تحبّي أقول لك قاعدة ثابتة لا تتغيّر؟! كلّ ما هو خارج العدل والحقّ خارج عن الإسلام. كلّ ما هو ضدّ كرامة الإنسان ضدّ الإسلام.

ظلّت صامتة، فسألها:

ـ اقتنعت؟!

قالت بمرح:

ـ محتاجة أفكر.

توقّف عن السير فجأة، ثم نظر إلى ساعته، وقال:

ـ لازم نروح مدرج ٩٥. بسرعة.

ـ ليه؟

ـ عندنا اجتماع للإعداد لمظاهرة يوم الثلاثاء.

ـ من فضلك وصّلني للبوّابة الأوّل.

ـ مش عاوزة تحضري الاجتماع؟!

سكتت لحظة كأنّما تستجمع شجاعتها، ثم قالت:

ـ آسفة يا خالد. مش حاقدر أشترك في المظاهرة.

ـ أنت كنت موافقة.

ـ غيّرت رأيي.

توقّف عن المشي وتطلّع إليها، ثم قال وقد بدا على وشك الغضب:

ـ ممكن أعرف السبب؟

ـ اشتراكي في المظاهرة ممكن يؤذي أسرتي.

ـ لو كلّ واحد فكّر بطريقتك ما حدّش حيشترك في المظاهرة.

ـ أظنّ خوفي على أهلي مش عيب ولا حرام.

ـ ومن قال لك إنّي مش خايف على أهلي؟ على الأقلّ أنت أهلك ناس مهمّة. أنا أهلي على قدّ حالهم. ما يستحملوش يباتوا في القسم ليلة واحدة.

ابتسمت بحزن، وقالت:

ـ كنت متأكّدة إنّك مش حاتقدّر موقفي.

ـ لا، يمكن أقدّر موقفك.

قالت بحدّة:

ـ يعني أجيب لأهلي الأذى عشان أعجبك.

كانا قد وصلا إلى البوّابة، فنظر إليها وقال:

ـ دانية... القضيّة أكبر من خوفنا على أهلنا. ناس كثيرة ضحُّوا عشان التغيير؛ عشان نبقى مواطنين محترمين في دولة محترمة؛ عشان البوليس يعامل أصغر مواطن باحترام؛ عشان القانون يتمّ تطبيقه على الجميع؛ عشان ما يبقاش فيه إنسان في مصر مش لاقي ياكل ولا يسكن ولا يتعالج.

ابتسمت وقالت:

ـ يعني أنا بالذات اللي حاعطل التغيير؟!

ردَّ بحماسة:

ـ اشتراكك في المظاهرة أهمّ من اشتراكي. كوني أطالب بالتغيير دَه طبيعي، لأنّي فقير، لكنْ لمّا واحدة من أسرة غنيَّة تطالب بالتغيير يبقى شيء نبيل لأنَّها بتدافع عن الحقّ بدون مصلحة.

ـ أكيد حيكون في المظاهرة ناس أغنياء غيري.

ـ أنت منتظرة من الآخرين يقوموا بالواجب بالنيابة عنك.

هزَّت رأسها وقالت:

ـ ما فيش فايدة من المناقشة... أنا ماشية. سلام.

حاول أن يقول شيئًا، لكنَّها استدارت ومشت، فظلَّ يتابعها بنظره حتى عبرت البوَّابة. انتفض السائق وفتح الباب، فركبت وابتعدت بها السيَّارةُ شيئًا فشيئًا، حتى اختفت وسط الزحام.

(٩)

عزيزي مازن،

أشكرك على قبولك صداقتي، وأشكرك أيضًا على وصفك لي بالجميلة، مع أنّي أعتبر نفسي عاديّة. رقم تليفوني ٠١٢٧٥٥٥٢٥١٨، يُسعدني أن تتّصل بي في أيّ وقت. أنا رجعت إلى البيت منذ ساعة، أخذت حمّامًا ساخنًا، وعملت لنفسي فنجان نسكافيه، وقلت لازم أحكي لك:

ذهبت إلى التحقيق في العاشرة صباحًا، كما طلبوا منّي في ورقة الاستدعاء. مبنى مديريّة التعليم، من حيث القذارة والإهمال، معبّرٌ تمامًا عن حالة التعليم في مصر. صعدت إلى الشؤون القانونيّة، بحيث تولّى التحقيقَ معي رجلٌ سمين جدًّا اسمه معتزّ البهي، كما هو مكتوب على اللوحة الخشبيّة فوق مكتبه. إلى جواره سكرتير لا أعرف اسمه، كان يسجّل أقوالي. سألني، بعد الأسئلة التقليديّة عن الاسم والسنّ والمهنة:

ـ يتّهمك السيّد مدير المدرسة بارتداء ملابس غير لائقة في أثناء العمل، فما قولك؟

قلت له:

ـ ملابسي أمام حضرتك، هل تراها غير لائقة؟! أنا غير محجّبة، ولا أعتقد أنّ ذلك يخالف القانون. مشكلتي مع مدير المدرسة ليست بسبب ملابسي...

سألني:

ـ ما المشكلة، إذن؟

قلت:

ـ المشكلة أنّني لا أُعطي دروسًا خصوصيّة، وأشرح في الفصل بأمانة. المشكلة أنّني أهدّد شبكة الدروس الخصوصيّة التي يتزعّمها مدير المدرسة بالاشتراك مع المُدرّسة الأولى ومعظم المدرّسين. كلُّهم يمارسون ابتزاز الطالبات لإرغامهنّ على الدروس الخصوصيّة ومجموعات التقوية.

أشار المحقّق إلى السكرتير، فتوقّف عن تسجيل أقوالي، ثم قال:

ـ أستاذة أسماء، لازم أحذّرك... كلّ كلمة بتقوليها بتتسجّل عليك لأنّ دَه محضر رسمي.

قلت:

ـ أنا متمسّكة بكلّ كلمة قلتها، ومستعدّة أقدّم أدلّة.

أوقف التحقيق وطلب لي عصير ليمون، وتبادل معي حديثًا وديًّا. حكى لي عن مدرّس اللغة الإنكليزيّة الذي درس له عندما كان تلميذًا

في السعيليّة الثانويّة. أحسست بأنّه رجل طيّب. ابتسم بعد قليل وقال:

ـ أظنّ أن أعصابك هدأت.

ـ الحمد لله.

ـ تحبّي نكمّل التحقيق؟

ـ تفضّلْ. أرجو أن تسجّل أنّني أدرّس اللغة الإنكليزيّة لثلاثة فصول لم ترسب فيها بنتٌ واحدة في مادّتي، لكن مدير المدرسة بدلًا من أن يشكرني، اضطهدني وقدّم ضدّي شكوى كيديّة لأنّني أهدّد مصالحه.

أوقف التحقيق من جديد، وقال بانفعال:

ـ انت إيه حكايتك؟! باقولك كلامك دَه حيفتح عليك أبواب جهنّم. لمّا تتّهمي مدير مدرستك بأنّه بيضغط على التلميذات عشان الدروس الخصوصيّة، نفتكري أنّه هيسكت؟ مش حيدافع عن نفسه؟

قلت:

ـ أقسم بالله هي دِي الحقيقة.

قال لي بصوت خافت:

ـ أنا مصدّقك، لكنْ تفتكري مدير المدرسة يعمل كده وحده؟! مش لازم يكون مسنود من ناس مهمّة في الوزارة؟

قلت:

ـ سأدافع عن الحقّ مهما يكن الثمن.

ـ حضرتك محامية ولّا مدرّسة؟

ـ لازم كلّ إنسان يحارب الفساد في مجاله.

ضحك المحقِّق (رُبَّما من سذاجتي)، وقال:

ـ قبل ما تحاربي الفساد لازم تعرفي قدراتك. إيَّاك تدخلي معركة غير متكافئة وإلَّا مستقبلك يضيع مجَّانًا.

لم يُعطني فرصة للردّ. استطرد قائلًا بسرعة:

ـ اسمعي... إحنا نعمل التحقيق على قدّ التهمة. أنا أسألك وأنت تقولي ما حصلش إنّي ارتديت ملابس غير لائقة. وبعدين آخذ عليك تعهّد أنَّك ترتدي ملابس لائقة. توقّعي على التعهُّد والموضوع ينتهي من الناحية القانونيَّة.

قلت له:

ـ كتابة تعهُّد على نفسي معناه الاعتراف بالاتِّهام.

قال:

ـ لا، طبعًا. دَه مجرَّد إجراء شكليّ. ولو التهمة صحيحة كنت وقَّعت عليك جزاء. لكنِّي حاكتفي بالتعهُّد وأحفظ الشكوى... إيه رأيك؟

سكتُّ. كنت متردِّدة. كان كلامه مقنعًا، لكنّ غضبي وإحساسي بالظلم كانا يدفعانني إلى المواجهة. ابتسم المحقِّق وقال:

ـ طيِّب. أنا حاكتب إنَّك أُصبت بإعياء وأؤجِّل التحقيق أسبوع تفكّري فيه براحتك.

سألته:

ـ خلال الأسبوع دَه أروح المدرسة؟

أجاب قائلًا:

ـ من الناحية القانونيّة، لم يصدر قرار بإيقافك عن العمل.
وبالتالي لازم تروحي المدرسة حتى لا يُستعمل الغياب ضدَّك.

شكرتُ المحقّق، وفكّرت في الطريق فوجدت منطقه وجيهًا.
مؤكّد أنّ الناظر مسنود في الوزارة. ولذلك، فهو يفعل ما يريد. أنا
مستعدّة لمواجهة كبار المسؤولين في الوزارة. لست خائفة منهم ولا
يهمّني لو فصلوني، لكنّي حزينة، يا مازن. لا أصدّق أن أُعاقَب بهذا
الشكل لمجرّد أنّني أؤدّي عملي بأمانة. قل لي رأيك: هل أعمل
بنصيحة المحقّق وأوقّع التعهّد لأحفظ الشكوى، أم أقول الحقيقة كلّها
وأخوض المعركة حتى النهاية؟! آسفة على إزعاجك بمشاكلي الكثيرة.

على الرّغم من أنّي مكتئبة، فسأتحامل على نفسي، لأجل
خاطرك، وأبتسم حتى ترى النغّازتين. شايف؟

سلام، يا صديقي.

أسماء

(١٠)

كيف هرب أشرف ويصا بهذه السرعة؟!

كان عاريًا مسطولًا يرقد فوق إكرام، فلمّا سمع الخبط على الباب انتفض والتقط بسرعة الروبَ الملقى على الأرض، ثم ركض حتى دخل الحمّام وأغلق الباب. فتح الدشّ ووقف تحت الماء الساخن وهو يلهث... لقد خمّن ما حدث: رجعت زوجته ماجدة مبكرًا لسبب ما، وحاولت فتح الباب بمفتاحها فوجدته مغلقًا من الداخل. ستفهم قطعًا أنّه يضاجع إكرام. لا يوجد تفسير آخر. مهما اخترع من حكايات فلن تصدّقه، لا شكّ في أنّها ضبطت قميص نوم إكرام ورأت الوسائد على الأرض وفهمت كلّ شيء. إنّها قطعًا تنكّل بإكرام الآن قبل أن تأتي إليه. إنّه يعرف ماجدة وميولها الدراميّة. ستصرخ وتبكي وتلطم وجهها وتنعَى حظّها الذي أوقعها في حبائل زوج مثله يخونها في بيتها مع الخادمة. ستحيل حياته على جحيم. يُمكنها أن تستمرّ في الصراخ والعويل يومًا كاملًا بلا كلل حتى تدمّر أعصابه تمامًا، وتأخذ في النهاية حمّامًا ساخنًا

وتنام بعمق وسلام كالأطفال. جاءت إلى ماجدة الفرصةُ لتؤدي دور الضحيَّة. ستفضحه في كلِّ مكان، وستخبر كلّ الأقرباء والأصدقاء، ومبتدأً ببطرس وسارة. لن يستطيع أن ينظر إلى عيونهما بعد اليوم. الأب المحترم القدوة ضبطوه مع الخادمة. خرج من تحت الدش، وارتدى الروب، وجلس على حافَّة البانيو. تمنَّى لو أنَّ معه سيجارةً ملفوفة ليهدّئ أعصابه. أغمض عينيه وقرأ في سرّه «أبانا الذي في السماء»، ثم دعا يسوع المسيح أن ينقذه من الفضيحة. ولمّا فتح عينيه أحسّ ببعض الراحة. أطرق وتنفَّس بعمق، وشيئًا فشيئًا تحوَّل خوفه إلى استياء. ماذا فعل حتى يختبئ من زوجته كأنَّه طفل مذنب؟! لا شكَّ في أنَّه أخطأ. ولكنْ، هل يقع اللوم عليه وحده، أم أنَّ ماجدة مسؤولة معه؟! لو كانت زوجة طيِّبة مريحة، فهل كان سيتورَّط مع الخادمة؟ يا ماجدة هانم، لن تأخذي كلّ شيء. لن تهمليني وتحتقريني وتُقنعي بطرس وسارة فيهاجرا ويتركاني وحيدًا، لن تعيشي فقط من أجل عملك وكأنَّك لست مسؤولة عن بيت وزوج، وتفوزي في النهاية بتعاطف الناس كأنَّك مظلومة... دور الزوجة المخدوعة لا يناسبك، يا ماجدة. أنت السبب فيما حدث. لقد أقمتُ علاقة مع الخادمة لأنَّني وجدت لديها كلَّ ما عجزتِ أنت عن تقديمه... لأنَّها تحترمني؛ لأنَّها تهتمّ بي وترعاني وتصدِّقني وتعتبرني رَجُلَها؛ لأنَّها لا تحتقرني ولا تذكِّرني بفشلي؛ لأنَّها ببساطة امرأة حقيقيَّة وليست مثلك مصنَّعة ومزيَّفة».

اقترب أشرف من الباب المغلق ووضع يديه في جيبَي الروب وقرّر مواجهة ماجدة مهما تكن العواقب. ستفضحيني يا ماجدة، وأنا أيضًا سأُخبر الناس بحقيقتك... واحدة بواحدة. استجمع شجاعته، واستحضر في ذهنه أقوى العبارات التي سيوجِّهها إلى زوجته. استمع

إلى وقع خطوات تقترب، ثم طرقة خافتة على باب الحمّام.

سأل بصوت أجشّ:

ـ مين؟!

ـ أنا إكرام يا أشرف بك.

أدرك أنّ ماجدة معها. جاءت بها لتواجه شريكها في الجريمة. طيّب. ليكن اليوم فاصلًا بيننا يا ماجدة... تنحنح وفتح الباب ببطء، ثم اصطنع اللهجة العاديّة لسيّد يتحدّث إلى الخادمة:

ـ خير يا إكرام، فيه حاجة؟

كانت ترتدي جلباب الشغل واستغرب لمّا وجدها وحدها. بدا عليها الارتباك، وقالت:

ـ أنا آسفة جدًّا... مش عارفة أقول لحضرتك إيه؟ منصور جوزي منتظر في الصالة.

كان تلاحُقُ الأحداث أسرعَ من قدرة أشرف على الاستيعاب. تطلّع إليها كأنّه لا يفهم، ثم قال:

ـ منصورْ إيه جابه؟

قالت بصوت خافت:

ـ عاوز فلوس.

ـ وما أخذهاش منّك في البيت ليه؟

ـ طلب منّي ورفضت.

ظلّ صامتًا، فتنهّدت وقالت:

ـ هو دائمًا بيعمل كده. لمّا أرفض أعطي له فلوس ييجي لي الشغل يهدّدني.

ـ والعمل؟

ـ نحبّ حضرتك تقابله؟

ـ أقابله ليه؟

هكذا هتف أشرف منزعجًا... فقالت إكرام بلهجة معتذرة:

ـ حاستأذن حضرتك في مبلغ خمسمية جنيه أرميهم له وأمشّيه. وحارجّعهم لك أوّل الشهر من مرتّبي.

لم يكن لديه اختيار. يجب أن يصرف منصور بأيِّ طريقة. لا يجب أن يبقى في بيته لحظة واحدة... منصور بلطجي ومدمن، ممكن يعمل أيّ شيء. كما أنّه زوجها رسميًا. يستطيع أن يعتدي عليه أو يعمل محضرًا في القسم ويتّهمه بالزنا مع زوجته. تكاثرت الهواجس في ذهنه، نعزم على التصرُّف بسرعة. توجّه فورًا إلى حجرة النوم وتبعته إكرام، أعطاها خمسمئة جنيه فانصرفت، وظلّ هو واقفًا في وسط الحجرة مشدوهًا عاجزًا عن التركيز. بعد قليل عادت إكرام وعلى وجهها تعبيرٌ يتراوح بين الحرج والمرح، وقالت:

ـ خلاص مِشي. الحمد لله.

لم يردّ أشرف، فاستطردت بصوت خافت:

ـ أنا مكسوفة من حضرتك. آسفة مرّة ثانية.

انتابه الغضب فجأة، وقال:

ـ بَرْضُه أنا مش فاهم يا إكرام. حتى لو كان منصور عاوز فلوس، الطبيعي إنّه يطلبها من مدام ماجدة لأنّها هي اللّي بتقبّضك. إيه يخلّيه ييجي الصبح واحنا مع بعض؟!

لم تردّ... كان ما زال يرتدي الروب على جسده العاري. جلس

على السرير وربّع ساقيه، ثم فتح درج الكومودينو وأخرج سيجارة ملفوفة أشعلها، وأخَذَ نَفَسًا عميقًا فتوهّجت بشدَّة، وانبعثت رائحة الحشيش النفّاذة. سعل ثم قال:

ـ بصراحة يا إكرام، اللي حصل غريب ومريب.

تطلّعت إليه بما يشبه اللوم، ثم اقتربت منه حتى شمّ رائحة الصابون المعطّر، وهمست:

ـ أنا قلت لحضرتك اعتبر المبلغ دَه دَين عليَّ لغاية أوّل الشهر.

جذبت رأسه إلى صدرها، لكنّه أبعدها بيده وقال:

ـ وحياتك بلاش كلام فارغ. أنت عارفة إنّي لا يمكن آخذ منك الفلوس، ثم أنت فاهمة أنّ مشكلة منصور كده خلصت؟! لا، طبعًا. دَه كلّ يوم حينطّ لنا ويطلب مبلغ. دَه ابتزاز لا يمكن أقبله. موضوع مقرف فعلًا.

قالت إكرام كأنّها تستعطفه:

ـ يا أشرف بك أنا ما ليش ذنب.

سَحَب نفسًا عميقًا، ثم قال:

ـ والله ما أعرفش... لا يمكن أقتنع إنّه جاء بالصدفة.

ساد الصمت ثم تراجعت إكرام خطوة، وقالت:

ـ حضرتك قصدك إنّي متّفقة مع منصور؟!

ـ افهميها على كِيفك.

قال هكذا وأشاح بوجهه. تطلّعت إليه لحظة، وقالت:

ـ متشكّرة يا أشرف بك.

ثم خرجت وأغلقت الباب بهدوء.

(١١)

عزيزتي أسماء،

أتمنَّى أن تكوني بخير. الساعة التاسعة مساءً وما زلت في المصنع من الصبح. العمَّال لديهم مشكلةٌ كبيرة وأنا متضامن معهم. سأحكي لك ما حدث فيما بعد. إجابتي باختصار عن سؤالك: اقبلي عرض المحقِّق، واكتبي تعهُّدًا على نفسك. مجرَّد إجراء شكليّ. معركتنا ليست مع ناظر مدرسة، وإنَّما مع النظام الفاسد الذي أنتجه. هذا رأيي، وأنت حرَّة طبعًا في تصرُّفك. سأرجع الآن إلى العمَّال حتى نقرِّر ماذا سنفعل مع الإدارة. شكرًا على ابتسامتك.

سلام يا جميل.

مازن

(١٢)

كان مدني السائق نائمًا في السيَّارة عندما انتبه إلى صوت المهندس عصام وهو يفتح الباب ويُلقي بنفسه في المقعد الخلفي:

ـ ارجع إلى المصنع بسرعة.

استغرق مدني لحظات ليُدرك ما يحدث، ثم أدار المحرِّك وانطلق بالسيَّارة. أخرج عصام من جيبه قطعة لبَان راح يلوكها ليُزيل رائحة الخمر، وقَطَرَ في عينيه بضع قطرات بريزولين لِيُزيل الاحمرار، ثم راح يُجري اتِّصالات ليتابع الموقف. لم يكن الطريق مزدحمًا فوصلا إلى المصنع بسرعة. ما إن اجتازا البوَّابة حتى تراءى لعصام المشهدُ الفريد: أضاء العمَّال كشَّافات المصنع كلَّها واحتشدوا في الضوء المبهر أمام مبنى الإدارة وقد ارتدوا بدلات الشغل القديمة المهترئة ذات اللون الكاكيّ. كانوا يتحدَّثون مع بعضهم البعض، بانفعال، وما إن ظهرت سيَّارة عصام شعلان حتى تعالت صيحات غاضبة سرعان ما انتظمت في هتاف واحد:

ـ عاوزين حقوقنا... عاوزين حقوقنا.

تجاهلهم المهندس عصام وصعد إلى مكتبه، وخرج بعد دقائق إلى الشرفة ومعه مكبِّر صوت، وصاح من خلاله:

ـ يا جماعة، اختاروا حدّ يتكلِّم باسمكم لأجل أتفاهم معه.

سرى هرج ومرج بين العمَّال استمرّ دقائق، ثم اختاروا الحاج شربيني أكبر العمَّال سنًّا ومعه مازن السقّا عضو اللجنة النقابيَّة. دخلا مكتب عصام فدعاهما إلى الجلوس، ثم أشعل سيجارة وسأل بصوت هادئ:

ـ إيه اللي حصل؟!

قال مازن بحماسة:

ـ استولت الإدارة على حقوق العمَّال فقرَّروا الإضراب.

ضغط عمّ شربيني بيده على ساق مازن ليهدِّئه، ثم ابتسم وقال بلهجة ودِّيَّة:

ـ يا عصام بك، عَشَمنا أنَّ سيادتك تنصفنا. الشركة الإيطاليَّة لمَا اشترت المصنع تعهَّدت بصرف ٢٥ شهر أرباح كلّ سنة. رحنا نقبض ففوجئنا أنَّها أرباح خمسة أشهر فقط. إحنا كلّنا بنجري على عيال. عندنا مسؤوليات وأُسَر والأرباح دي بننتظرها من السنة للسنة. يعني حياتنا واقفة عليها.

أَخَذَ المهندس عصام نَفَسًا من السيجارة، وقال:

ـ أنت عارف يا شربيني أنّ ما فيش حدّ بيحبّ العمّال ويراعي مصالحهم قدّي.

لم يعلّق مازن، بينما هتف الشربيني بحرارة:

ـ ربّنا يخلّيك لِنا يا عصام بك.

رشف عصام من فنجان القهوة، وقال:

ـ أنا مقدِّر ظروفكم، لكن كلّ شيء بالعقل. الشركة تعطيكم ٢٥ شهر أرباح لمَّا تكسب، إنّما لمَّا تكون خسرانة لا يمكن تعطيكم.

قال شربيني:

ـ الشركة التزمت أنّها تصرف للعمَّال ٢٥ شهر أرباح في كلّ الأحوال، سواء المصنع كسبان أو خسران. دَه بند في عقد بيع المصنع والطلاينة وافقوا عليه.

ابتسم عصام وقال:

ـ المنطق أهمّ من أيّ عقد. المنطق يقول إنَّ الشركة الخسرانة لا يُمكن تصرف أرباح للعمَّال... عارف خسائر المصنع كم خلال سنة واحدة؟

قال مازن:

ـ العمَّال ليسوا مسؤولين عن خسارة الشركة.

ـ مَن المسؤول، يا حضرة المهندس؟

هكذا سأله عصام متهكِّمًا، فردّ مازن:

ـ تحبّ أقول كلام سيادتك عارفه؟!

صاح عصام:

ـ تكلّم باحترام يا مازن.

رَّد مازن بهدوء:

ـ أنا أتكلّم باحترام. الشركة الإيطاليّة عندها ثلاثة مصانع تملكها ملكيّةً كاملة. مصنعنا الحكومة المصريّة تملك فيه ٣٥ في المئة. بالتالي، الشركة الإيطاليّة من مصلحتها تخسر في مصنعنا وتكسب في المصانع المملوكة لها حتى لا تشاركها الحكومة في أرباحها.

قال عصام ساخرًا:

ـ أنت من أتباع نظريّة المؤامرة؟

ردَّ مازن قائلًا:

ـ حضرتك عارف أنّ دي الحقيقة؟!

ساد الصمت لحظة، ثم قال عمّ شربيني:

ـ يا عصام بك، الأفران عاوزة صيانة والشركة سايبتها لغاية لمّا عطلت. الشركة استلمت المصنع وفيه سبعة أفران شغّالة. دلوقت ما بقاش إلّا فرنين شغّالين. هل دَه ذنب العمّال؟! قِطَع الغيار الجديدة الشركة بتنقلها لمصانعها وتجيب لنا قِطَع غيار قديمة عطلانة. هل دَه ذنب العمّال؟! إذا كانت الشركة عاوزة تخسّر المصنع عشان الحكومة ما تشاركهاش في الأرباح، هي حرّة، لكن لازم تعطي العمّال أرباحهم.

قال مازن:

ـ الشركة ملزَمة تنفّذ العقد الموقّعة عليه.

تطلّع إليهما عصام لحظة، ثم ابتسم وقال:

ـ خلاص... أوعدكم إنّي أنقل مطالبكم للإدارة.

ـ ربّنا يخلّيك يا عصام بك.

هكذا قال شربيني، بينما ظلّ مازن صامتًا. واستطرد عصام بلهجة ودّيّة:

ـ كلّ اللي طالبه أنّ العمّال يرجعوا الشغل.

ردّ مازن:

ـ مستحيل العمَّال يفضُّوا الإضراب قبل صرف الأرباح.

ـ تعطيل المصنع بالشكل دَه غير مقبول.

ـ الأمر لا بيدي ولا بيد عمّ شربيني. العمّال قرّروا الاستمرار في الإضراب حتى صرف الأرباح بالكامل.

نهض عصام فجأة، وأشار إليهما بأن يتبعاه، ثم خرج إلى الشرفة وأمسك بالميكروفون، وصاح:

ـ يا جماعة، أنا فهمت مطالبكم وحأنقلها للعضو المنتدب المستر فابيو.

ساد هرج بين صفوف العمّال، واختلطت الأصوات، ثم عاد الهُتاف أقوى:

ـ عاوزين حقوقنا... عاوزين حقوقنا.

صاح عصام بصوت أقوى:

ـ أظنّ بعدما وصلت رسالتكم ممكن تفكُّوا الإضراب وترجعوا الشغل.

اختلطت أصوات العمّال، ثم انتظمت في هُتاف واحد:

ـ الإضراب... الإضراب.

ابتسم عصام وصاح:

ـ إذا كنتم مصرّين على الإضراب، دَه طبعًا حقّكم. أرجوك نحافظ على المصنع لأنّه مصنعكم. أنا أعطيت تعليمات للمطبخ يعمل لكم وجبة سخنة.

ارتفع تهليل وصياح، ثم عاد الهتاف بصوت أقوى:

ـ عاوزين حقوقنا.

التفت عصام نحو عمّ شربيني، وقال بلطف:

ـ شكرًا، يا شربيني. تصبح على خير. أنت بايت في المصنع؟!

ردّ شربيني فورًا:

ـ ما أقدرش أفوت العمّال.

هزّ عصام رأسه متفهّمًا، ثم نظر إلى مازن وقال:

ـ مازن، أنا عاوزك معي في مشوار ضروري. ساعة واحدة وعم مدني السوّاق حيرجّعك المصنع.

لم ينتظر عصام الردّ، وإنّما أمسك بذراع مازن واصطحبه إلى السيّارة. وما إن جلس مازن إلى جواره، حتى ابتسم عصام وقال بود:

ـ أنت أكيد ما اتعشيتش... لازم تاكل. النضال محتاج تغذية.

ذهبا إلى فندق الفورسيزون في غاردن سيتي، حيث لاحظ مازن أنّ المهندس عصام معروف لدى العاملين. دخلا المصعد، فقال عصام:

ـ تحبّ الأكل الإيطالّي؟

قبل أن يردّ مازن، كان عصام قد ضغط على زرّ الدُّور الثاني. كانت هذه طريقته دائمًا. يطرح عليه السؤال، ثم لا يستمع إلى

الإجابة، ويفعل ما يريده. طلب عصام الطعام وكأسًا من الويسكي وزجاجةَ بيرة لمازن الذي همَّ بالاعتراض، فقال عصام مداعبًا:

ـ اسكت يا ولد... لازم تشرب. دَه أمر. يا ما شربت مع أبوك الله يرحمه.

أخذ عصام رشفة كبيرة من الويسكي، وبدا عليه الانتعاش، وقال لمازن:

ـ أنت عارف أنّ والدك كان أعزّ أصدقائي. إنسَ إنّي مدير المصنع. أنا باعتبرك ابني.

ـ متشكّر لحضرتك.

ـ مافيش شكر بيننا. عاوز أقول لك كلمتين، ممكن تسمعني؟

ـ تفضّلْ.

ـ بُصّ، يا مازن، أنا باقبض مرتّب كبير وعايش حياتي مبسوط. صراع العمّال مع الشركة الإيطاليّة لا يعنيني إطلاقًا. أنا كلّ غرضي مصلحتك. فاهم؟!

ـ فاهم.

ـ كلّ اللي بتعمله مع العمّال للأسف بلا فائدة.

ـ أنا بعمل واجبي.

ـ واجبك أنّك تشتغل مهندس.

ـ العمّال انتخبوني في اللجنة النقابيّة عشان أدافع عن حقوقهم.

ـ آه. أنت في مرحلة الشعارات...

ردّ مازن غاضبًا:

ـ حضرتك بتسخر منّي؟!

قال عصام بجدّيّة:

ـ لا يُمكن أسخر منك يا مازن. أنا مقدّر حماستك ودفاعك عن العمّال. دي حالة نبيلة عشتها أنا وأبوك سنين طويلة، وفي النهاية اكتشفت أنّها وهم.

همّ مازن بالاعتراض، لكن عصامًا قال:

ـ إحنا اتّفقنا تسمعني للآخر.

سكت مازن، واستطرد عصام قائلًا:

ـ أنت فاهم أنّ العمّال لو أضربوا حياخدوا حاجة؟! أنت فاهم أنّ الشركة الإيطاليّة بتشتغل وحدها؟! الشركة الإيطاليّة مسنودة من أعلى مسؤولين في الدولة. الدولة في مصر إرادتها نافذة، وما حدّش يقدر عليها. نصيحتي لك تسيبك من وجع القلب دَه وتنتبه لمستقبلك.

ـ شكرًا على النصيحة، لكن لا يمكن أعمل بها...

ـ يا بُني إفهم... العمّال اللّي بتدافع عنهم دُول حيبيعوك في أيّ لحظة مقابل علاوة أو حوافز. آلاف الشيوعيين انحبسوا واتعذّبوا دفاعًا عن حقوق العمّال. العمّال عملوا لهم إيه؟ وَلا حاجة. ولا حتى فاكرينهم.

ـ الحقيقة أنا مستغرب أنّ الكلام دَه يصدر من حضرتك.

ابتسم عصام بمرارة، وقال:

ـ بالعكس، الكلام دَه لازم يصدر منّي، لأنّي مش عاوزك تكرّر أخطاءنا. أنا وأبوك ضيّعنا حياتنا في أوهام. أنا كنت من الأوائل في

كلّيّة الهندسة... كان ممكن أركّز في شغلي وأكسب ملايين وأكوّن أسرة وأعيش سعيد... المرحوم أبوك كان نابغة في القانون. كان ممكن يبقى أهمّ محامي في مصر لولا السياسة اللي بسببها اتشرّد واتحبس واتعذّب ومات بَدْري من تأثير الأمراض اللي أصابته في المعتقل. الحقيقة المؤكّدة أنَّ ما فيش حاجة في مصر حتتغيّر. إلحق نفسك وبُصّ لمستقبلك قبل فوات الأوان.

ظلّ مازن يحدّق في عصام، الذي استطرد قائلًا:

ـ أنا زمان كنت رومانسي زيّك. كنت فاهم الواقع بطريقة سطحيّة وساذجة... تحبّ تسمع الحقيقة؟! الشعب المصري لا يثور، وإذا ثار لازم ثورته تفشل لأنَّه خوّاف وخاضع بطبيعته للسلطة... إحنا الشعب الوحيد في التاريخ اللي اعتبر ملوكه آلهة ومارس عبادتهم. الثقافة المصريَّة اللي ورثناها من الفراعنة هي ثقافة إذعان للفرعون. حتى القرن التاسع عشر، كان الفلّاح المصري يتفاخر بقدرته على تحمّل الجَلد حتى لا يدفع الضرائب. أضف إلى ذلك أنّ الثقافة الإسلاميَّة تجعلك قابلًا للاستبداد. الإسلام يطالبك بطاعة الحاكم المسلم حتى لو جَلَد ظهرك وسرق مالك... الشعب المصري يعشق البطل الديكتاتور، ويحسّ بالأمان عندما يخضع للاستبداد. في مصر، نضالك لن يؤدّي إلى أيّ نتيجة إلَّا أنّه يضيّعك أنت.

قاطعه مازن بانفعال:

ـ مع احترامي لحضرتك، كلامك غير صحيح. الإسلام كان أساسًا ثورة ضدّ الظلم، ثم تحوّل إلى مؤسّسة لها مصالح مرتبطة بنظام الحكم. الديكتاتوريَّة قامت في إسبانيا وألمانيا وإيطاليا والبرتغال

والأرجنتين، وكلّها بلاد غير إسلاميَّة وغير فرعونيّة. لا يمكن نحرم الشعب المصري على سلوكه من خمسة آلاف سنة. رأيك ظالم.

ضحك عصام، وقال:

ـ كأنّي شايف المرحوم أبوك قدّامي. كان بيعتبر الشعب كائن مقدّس وما يتحمّلش كلمة واحدة ضدّه. طيّب يا مازن. احفظ الأسئلة دي وهاتِ الإجابة من كتب التاريخ... خُذ عندك...

ـ الوفد كان حزب الأغلبيَّة، وكان يستطيع حشد ملايين المصريّين في الشوارع خلال ساعات قليلة. لماذا قبل الوفد تكوين لجنة دستور ٢٣ بالتعيين وليس بالانتخاب؟ لماذا لم يقف في وجه الملك فؤاد وهو طاغية؟ لماذا قدَّم سعد زغلول استقالته من رئاسة الوزراء وهو زعيم الأمّة، ولم يحشد المصريّين لمواجهة الملك والإنكليز؟ ولماذا ترك حزب الوفد عبد الناصر يُلغي الديموقراطيَّة سنة ١٩٥٤ وكان الوفد وقتها بإمكانه حشد الناس وإرغام الجيش على الرجوع إلى الثكنات؟! لماذا سمح المصريُّون بحبس زعيمهم المحبوب محمَّد نجيب، ولماذا تمسَّكوا بعبد الناصر عام ١٩٦٧ بعدما تسبَّب بهزيمة منكَرة واحتلال مصر؟! بعد مقتل السادات، أفرج حسني مبارك عن المعتقلين السياسيِّين وكان فيهم أكبر المثقَّفين المصريين. لماذا اكتفوا بشكر مبارك ولم يطالبوه بأيِّ إصلاح ديموقراطيّ؟ ممكن أقول لك أسئلة كثيرة والإجابات كلّها تؤدِّي للنتيجة نفسها: شعبنا لا يثور أبدًا، وإذا ثار فسرعان ما يتخلَّى عن الثورة. شعبنا ليس على استعداد لدفع ثمن الحرِّيَّة.

احتسى عصام بقيَّة الكأس دفعةً واحدة، وأشار إلى الغرسون

يطلب كأسًا أخرى. قال مازن:

ـ الأمثلة اللي حضرتك ذكرتها على سلبيَّة المصريين ممكن أقدّم أمثلة أكثر منها تؤكِّد شجاعة المصريين.

أشاح عصام بيده، وقال:

ـ خلاص. أنت عنيد ودماغك ناشفة. إعمل ما بدا لك.

ساد الصمت بينهما، ثم رشف عصام من الكأس، وقال:

ـ عندي سؤال واحد لأجل أخلّص ضميري.

ـ تفضَّل.

ـ لو جبت لك عقد في الخليج بمرتَّب كبير توافق؟

ـ لا يُمكن أسيب مصر.

ـ أنت حُرّ، لكن أحبّ أقول لك إنِّي منعت اعتقالك بصعوبة...

ـ اعتقالي؟

ـ طبعًا. أنت فاهم أمن الدولة غفلان عن نشاطك؟ أنت عضو في حركة كفاية وبتحرّض العمَّال على الإضراب. سهل جدًّا يعملولك قضيَّة تحبسك عشر سنين على الأقلّ.

ـ بتهمة إيه؟

ـ السؤال دَه بلا معنى في مصر. أنا وأبوك قضينا سنين طويلة في السجن، كانت تهمتنا إيه؟ الدولة المصريَّة تحبسك الأوّل، وبعدين تدوَّر لك على تهمة.

نهض مازن فجأة، وقال:

ـ أنا راجع المصنع.

أمسك عصام بذراعه، وقال:

ـ أُقعد. لازم تدوق الحلويّات اللي بيعملوها هنا، لذيذة جدًا

نظر مازن إلى ساعته:

ـ شكرًا، لكن لازم أرجع المصنع.

ـ يا ابني، أقعد نصف ساعة.

ـ ما أقدرش.

زمّ عصام شفتيه، وبدت على وجهه خيبةُ الأمل، وقال:

ـ خلاص. تفضّلْ. مع السلامة.

قال مازن:

ـ ممكن عمّ مدني السوّاق يوصّلني.

ـ لا، مش ممكن.

تطلّع إليه مازن باستياء، وقال:

ـ حضرتك قلت لي إنّ عم مدني حيرجّعني المصنع.

أطرق عصام ونظر إلى قعر الكأس وهو يحرُكها بين راحتيه، ثم عاد بظهره في المقعد، وقال:

ـ رجعت في كلامي. لو عاوز تروح المصنع تصرّف بمعرفتك...

(١٣)

لم تَثُرْ إكرام ولا تشاجرت مع أشرف، لكنّها صارت تعامله بطريقة رسميَّة. ضبطت ابتساماتها ونبرةَ صوتها، وحتى مشيتَها أمامه، كأنَّها مجرَّدُ خادمة تؤدّي عملها لا أكثر ولا أقلّ. ظلَّت تعتني بشؤونه كالسابق، ولكن بغير حماسة، مجرَّد أداء واجب، كأنَّها اتَّخذت قرارًا بحذف علاقتها به والتصرُّف كأنَّها لم تحدث قط... بعد يومين من هذا التحوُّل، دخلت حجرة المكتب (التي لطالما شهدت سعادتهما)، وسألته بنبرة جادّة:

- تحبّ حضرتك أعمل لك قهوة؟!

تطلَّع إليها صامتًا، فتجاهلت نظرته، وأعادت السؤال. هزَّ رأسه موافقًا. كان جالسًا إلى مكتبه يحاول الكتابة بلا جدوى. كانت أفكاره مشتَّتة، وثمَّة كآبة جاثمة على صدره. عادت بصينيَّة القهوة، ووضعتها على المكتب، ثم سألته:

- حضرتك عاوز حاجة ثانية؟!

لم يردّ، فانصرفت بهدوء. أشعل سيجارة ملفوفة، وراح يحدّق في دوائر الدخان الأزرق المتصاعدة. فكّر في أن كلّ ما تفعله إكرام مجرّد حركات للتغطية على عملتها الحقيرة... إنّها تبتزّه عاطفيًا. تتظاهر بالغضب حتى يعطف عليها وينسى تآمرها مع زوجها منصور عليه...

أحسّ فجأة بالعجز والأسى. صعبت عليه نفسه: هل يتحوّل، في نهاية المطاف، إلى شيخ بائس يخضع لابتزاز خادمة وزوجها؟! جمع الغيظ به فتزايد قلقه. ماذا لو كانت إكرام، كما يحدث في الأفلام، قد وضعت كاميرا سرّيّة في مكان ما في المكتب، وصوّرته وهو يضاجعها. ثم أعطت زوجها الڤيديو؟ سوف يبتزّه منصور عندئذ طوال العمر. إمّا أن يدفع كلّ ما يطلبه، وإمّا أن يواجه فضيحة رهيبة. وإذا حدث ذلك، فلن يكون أمامه إلّا حلٌّ واحد: أن يهرب فورًا ويترك الجَمَل بما حمل. سيختبئ حيث لا يستطيع أحد أن يجده... لا منصور ولا إكرام ولا حتى ماجدة... سيختفي في بنسيون صغير في الإسكندريّة. راح يستعرض في ذهنه أسماء البنسيونات التي يعرفها، ويفاضل بينها. ظلّت هذه الهواجس تلاحقه طوال النهار، وفي المساء حاول أن يشغل نفسه بالقراءة فلم يفلح. أحسّ بتعب، وسرعان ما سقط في نعاس عميق. استيقظ في الصباح فأفطر، ومع فنجان القهوة والاصطباحة وجد نفسه في حالة جديدة. زال غضبه تمامًا وتحوّل تفكيره إلى اتّجاه آخر. ألا يمكن أن يكون قد ظلم إكرام؟! إنّها لم تكن يومًا مادّيّة أو جشعة... لم تكن تقبل هباته الماليّة إلّا بعد إلحاح منه. لطالما قالت له:

- مش عاوزة فلوس. أهمّ حاجة أبقى معك.

كان يصدّقها، فهل كانت تكذب عليه؟ هل كانت تمثّل عليه طوال تلك الفترة؟! ممكن طبعًا... ولكن، أين الدليل القاطع على أنّها

اتّفقت مع منصور؟! لمجرَّد أنَّه جاء في الصباح، لا في المساء؟ منصور مدمن حبوب مخدّرة وحُقَن ماكس، ولا يُتوقَّع منه أيُ تفكير سليم. ثم إنَّه، في النهاية، لم يضبطهما متلبّسين، ولم يتّهمهما بأيّ شيء. لقد جاء إلى إكرام لتعطيه ثمن مخدِّرات، ولم يستطع الانتظار حتى عودتها إلى البيت لأنَّه لا يطيق تأخير الجرعة... الحشيش لا يُعتبر مخدّرًا لأنَّه لا يسبِّب الإدمان، ولا يؤثِّر في الإدراك. أمّا مدمن الماكس والبرشام، مثل منصور، فسوف يفعل أيّ شيء حتى يحصل على الجرعة. قرَّر أشرف أن يتكلَّم مع إكرام. يجب أن يمنحها الفرصة للدفاع عن نفسها. إمّا أن تُثبت براءتها، وإما أن تتأكّد إدانتها. شرب القهوة، ودخَّن سيجارة ملفوفة أُخرى، ثم ذهب إلى المطبخ فوجدها واقفة أمام الحوض كعادتها. اقترب منها، وقال:

ـ صباح الخير.

دمدمت بردّ غير واضح، فقال بلهجة وديّة:

ـ من فضلك عاوز أتكلّم معك.

استدارت نحوه متحفِّزة، وقالت:

ـ حضرتك عاوزني أعمل لك حاجة؟!

نظر إلى وجهها المربدّ بالغضب، وبغير أن يشعر، لمس خدّها فدفعت يده وقالت:

ـ من فضلك. أنا بشتغل هُنا خدّامة وبس.

أعطته ظهرها لتستأنف غسل الأكواب. لم يتحمَّل قربه من مؤخّرتها الطريَّة العزيزة فالتصق بها، لكنَّها دفعته بعنف هذه المرَّة، وصاحت:

ـ أشرف بك. يا ريت نبقى محترمين.

كانت لهجتها قاطعة، فانسحب إلى مكتبه وهو يحسّ بالغيظ والإهانة... لا يمكن أن يستمرّ في هذه التمثيليّة السخيفة. إنّه عاجز عن فعل أيّ شيء. لا يكتب، ولا يقرأ، ولا يفكّر إلّا في المشكلة. حتى مُتَعُه الصغيرة فقدت بهجتها: لم يعد يشاهد أفلام الأبيض والأسود كلّ ليلة، ولم يعد يجلس في الشرفة ساعةَ الغروب ليراقب المارّة والسيّارات. حتى ساندوتش القشطة بالعسل في الصباح لم يعد يستطعمه... أمضى النهار مكتئبًا، وقبل موعد عودة ماجدة بساعة كانت فرصته الأخيرة. بحث عن إكرام فوجدها في حجرة السفرة تكوي ملابس البيت. قال لها:

ـ إكرام... لازم نتكلّم.

ردَّت بهدوء:

ـ ما بقاش بيننا كلام.

قال بحرارة:

ـ فيه حاجة مهمّة لازم أقولها لك...

ضغطت بالمكواة على جاكيت البيجاما، وقالت:

ـ يا أشرف بك، من فضلك سيبني أشوف شغلي.

ظلّ واقفًا لحظات، لكنّها استمرّت في الكيّ بغير أن تلتفت إليه. انصرف وصَفَق الباب بعنف. سواء أكانت مذنبة أم مظلومة، فلا يليق أبدًا أن تعامله بهذه الطريقة. كيف ترفض الحديث معه؟ مَن تظن نفسها؟ ليست أميرة ويلز في أيّ حال... هي، في النهاية، خدّامة لا طلعت ولا نزلت... في ستّين داهية يا ستّ إكرام... لن يموت من

دونها... يستطيع بسهولة أن يجد خادمة أخرى أجمل منها، وليس حولها مشاكل ووجع قلب. كان هناك، مع الغضب والمهانة، شعورٌ آخر مؤلم لا يريد أن يعترف به. كان يفتقدها. كان يتوق إلى جسدها الرائع والناعم واللذيذ. أوحشته جلساتهما الجميلة بعد الغرام. كانت تؤنسه. تهوّن عليه وتعزّيه عن كلّ ما يُحزنه. لم يُدرك قيمة وجودها في حياته إلّا عندما انقطعت علاقتهما... وعلى الرَّغم من شوقه إليها، فإنه قرَّر أن يعاملها بالمثل... لم يعد يسعى للحديث معها. صار يتجاهلها تمامًا. يطلب منها ما يريد ويشكرها باقتضاب، وهو يتجنَّب النظر إليها. فوجئ أوَّل الشهر بظرف موضوع على مكتبه، مكتوبٍ عليه «شكرًا» بخطٍّ كبير متعرِّج. ولمَّا فتحه، وجد داخله خمسمئة جنيه... كان هذا فوق احتماله. تملَّكه الغضب، وظلَّ لحظات لا يدري ماذا يفعل، ثم قرَّر أن يوبِّخها بشدَّة... تملَّكته الرغبة في إهانتها. خطر له أن يصفعها... فتح الباب ونادى عليها بصوت عالٍ، وعندما جاءت لم يُعطها فرصة. أمسك يدها بقوَّة وجذبها إلى الداخل وأغلق الباب... اقترب حتى صار في مواجهتها، وتسلَّلت إلى أنفه رائحة الصابون العطريّ، وفجأة وجد نفسه يقول:

ـ أنا متأسِّف يا إكرام.

بدا له صوته غريبًا كأنَّه يصدر عن شخص آخر. ظلَّت واقفة في مكانها وكأنَّها لم تسمع. اقترب منها وهمس:

ـ بقولك أنا غلطت. من فضلك اقبلي اعتذاري...

تطلَّعت إليه وفتحت فمها لتردّ، لكنَّه لم يُمهلها، احتضنها بقوَّة، كأنَّما يتشبَّث بها لئلَّا تفلت منه. أغرقها بقبلاته، ولمَّا أحسّ بدفء جسدها الذي أوحشه، همس في أذنها:

ـ أنا بحبّك.

لانت واستكانت بين ذراعيه كأنَّها كانت تنتظره. استسلما لموجة عاتية من الغرام قذفت بهما بعنف مبهج على شاطئ اللذَّة... استلقيا على الأرض متجاورين عاريين. أغمض عينيه، ودسّ أنفه في رقبتها وهمس «وحشتيني قوي»، ثم لمس وجهها فأحسّ بأصابعه تبتلّ. فتح عينيه فوجدها تبكي. همس بحنان:

ـ خلاص بقى يا إكرام. أرجوك.

احتضنته بقوَّة، وهمست:

ـ والنبي يا أشرف بك ما تعملش كده تاني... إيَّاك تشكّ فيّا... أنا دايمًا كان بختي مايل في الرجَّاله. حضرتك الرجل الوحيد العدِل اللي طلعت به من الدنيا.... ما استحملش أبدًا أنصدم فيك.

ارتديا ثيابهما، قبل أن تأتي ماجدة، وأزالا آثار الحبِّ كالعادة. وفي اليوم التالي حاول أن يُعيد إليها ظرف النقود، لكنَّها رفضت. بدا عليه الضّيق فسألته:

ـ عاوزني آخذ الفلوس؟

هزَّ رأسه فطبعت قبلة سريعة على شفتيه، ثم مرَّرت أصابعها في شعره الأبيض الناعم، وقالت بمرح:

ـ إيه رأيك نعمل اتّفاق. تعمل حاجة تفرَّحني، وأنا آخذ الفلوس.

تطلَّع إليها مستفهمًا، فاستطردت بحماسة طفولية:

ـ نفسي نخرج مع بعض يا أشرف بك ولو مرَّة واحدة. نروح أيّ مكان. ساعتها آخذ الفلوس وأعمل أيّ حاجة عاوزها منّي...

(١٤)

عزيزي مازن،

أنت رجعت البيت ولّا بايت في المصنع؟! باتّصل بك ما بتردُّش.
أرجوك طمّنّي. ربّنا يحفظك.

اسماء

(١٥)

يرتدي عمّ مدني، في المناسبات المهمَّة، الطقمَ الأنيق الذي اشتراه له عصام شعلان: البدلةَ الرصاصيّة والقميصَ الأبيض وربطة العنق الزرقاء المنقوشة. لكنه حينئذ، على الرَّغم من أناقته، يظلّ على نحوٍ ما يحمل هيئة التابع. يبدو ذلك في انحناءاته المتكرِّرة وخطواته المهرولة، والتي لا تُحدث صوتًا؛ في ابتسامته الراجية المستأذنة وتعبير وجهه المنضبط المذعن ونبرة صوته الخفيضة؛ في تطلُّعه المتفحِّص حوله ليرى ما يجب أن يفعله. يحدث ذلك كثيرًا للذين يعملون في الخدمة، إذ إنَّ الهيئة المتأدِّبة والمذعنة التي يصطنعونها في البداية، تتحوَّل مع الوقت إلى طابع لا يفارقهم. على أنَّ مظهر مدني المطيع والمستكين، مجرَّدُ قناع يخفي خلفه مقاتلًا شجاعًا يتمتَّع بإرادة نزلائه ودأب نملة. منذ صلاة الصبح التي يبدأ بها يومه وحتى يدخل نزلاء آخر الليل، يعمل مدني بضراوة، لا يَكلّ ولا يَملّ، ولا يحيد لحظة عن هدفه الوحيد: لقمةِ العيش. لا يجلس في مقهى، وليس لديه

أصدقاء، ولا يصرف جنيهًا واحدًا على أيّ مزاج. حتى التدخين الذي لم يستطع الإقلاع عنه، صار يمارسه في أضيق الحدود. لا يأخذ إجازات من عمله أبدًا، وفي كلّ عام يقدّم طلبًا إلى المهندس عصام ليستبدل بأيّام إجازاته المتراكمة مقابلًا ماليًّا... تعلّم مدني حتى الإعداديّة، ثم ترك المدرسة ليعمل ويساعد أسرته. وتقلّب في أعمال عديدة، حتى تعلّم القيادة في أثناء خدمته العسكريّة، وعمل سائق تاكسي سنوات طويلة حتى توسّط له ضابط كان يعرفه فعمل سائقًا في مصنع الإسمنت. قاد أوّلًا شاحنات الإسمنت، ثم سيّارات إسعاف المصنع، حتى رآه المهندس عصام فاختاره سائقًا له. في البداية، تعامل مدني مع مخدومه الجديد بحذر حتى لا يرتكب أخطاء، وقد انزعج من طبع عصام الحادّ، لكنّه سرعان ما أدرك أنّ وراء هذا الوجه الصخريّ والصوتِ الأجشّ والمزاجِ المتقلّب والنوباتِ العصبيّة الخطرة، يوجد إنسان طيّب للغاية، إلى درجة يتهيّأ معها أحيانًا لمدني أنّ المهندس عصامًا يصطنع هذا المظهر القاسي ليُخفي رقّته البالغة والتي قد لا تليق بهيبة المدير.

لقد منحه عصام كلّ ما تسمح به لائحةُ المصنع من علاوات ومكافآت ومصاريف علاج، بالإضافة إلى هِبات كثيرة يدفعها من جيبه الخاصّ. عندما يمنحه نقودًا، لا يتّخذ عصام هيئةَ السيّد الكريم ولا المؤمن الخاشع المتصدّق، لكنّه يتصرّف كفقير سابق يعرف جيّدًا معنى أن تحبّ أُسرتك وتعجز عن تلبية احتياجاتها. يقترب عصام من مدني ويضع يده على كتفه، ثم يدسّ المال في جيبه ويقول بصوت خافت:

- خُذ يا مدني. دي حاجة صغيرة لمصاريف العيال...

أو يبتسم بودّ، ويقول:

- بنتك هند دخلت الجامعة... أكيد محتاجة لاب توب. نوز
اشتريه وقل لها عمّك عصام بيسلّم عليك.

نشأت مع الوقت بين عصام ومدني رِفقةٌ رجوليَّة؛ تفاهمٌ عميق على الأساسيَّات؛ لغةٌ ثنائيَّة غير منطوقة من إيماءات ونظرات تجعل عصامًا يحتاج إلى أقلّ كلمات ليعبِّر عن طلباته، فيُجيبها مدني نورًا كأنّه جنديّ يُسعده تنفيذ أوامر القائد.

بالنسبة إلى عصام شعلان، يتمتَّع مدني بمزايا يصعب وجودها في سائق آخر: أمين ونشيط وكتوم، ولا يتبرَّم من كثرة العمل، ولا يتدخَّل فيما لا يعنيه، ولا يتكلَّم إلَّا للضرورة. كما أنَّ دوره يتجاوز كثيرًا وظيفةَ السائق. مدني الوحيد الذي يحمل مفتاح شقَّة عصام، ويستطيع دخولها في أيّ وقت. وهو الذي يتابع تنظيف الخادمة لها مرَّتين أسبوعيًّا، وهو الذي يتَّفق مع الطبَّاخ على شراء الخضروات ويراجع بصرامة أسعارها وجودتها، وهو الذي ينتظر المكوجي يوم الاثنين ويُعِدّ له الثياب التي سيكويها ويُرغمه على إعادة الكيّ إذا لم يعجبه. وهو أيضًا من يشتري الويسكي من الزمالك ويقدِّمه إلى عصام بالاحترام نفسه الذي يحمل به حقيبته المكتظَّة بملفَّات العمل. إنَّ اشتراك مدني في المراسم المحرَّمة لا يخدش تديُّنه إطلاقًا. لعلَّه يعتبره مهمَّة قتاليَّة في حربه الشريفة من أجل الرزق، أو ربَّما يجده فرصة لإبداء امتنانه لمخدومه، وكأنَّه يقول لعصام:

- «في مقابل كرمك معي سأخدمك في الحرام بلا ضِيق أو ابتزاز».

عندما يصعد عصام إلى شقَّة نورهان يكون على مدني البقاءُ في

الشارع ساعتين على الأقلّ. عندئذ، يركن السيّارة في مكان آمن، ثم يستأذن بوّاب عمارة نورهان ويدخل حمّام حجرته فيغسل الأطباق والكؤوس التي استعملها عصام، ثم يتوضأ ويصلّي العشاء حاضرًا والمغرب قضاءً. يعود بعد ذلك إلى السيّارة فيفرد المقعد الأماميّ ويستلقي عليه ليحصل على بعض النوم، حتى ينزل عصام من عشّ الغرام، فيقوده إلى بيته في المعادي، ثم يترك السيّارة في الكراج ويركب الميكروباص إلى بيته في المعصرة. يدفع بيديه البوّابة الحديديّة العتيقة، فتُصدر صريرَها المألوف ويصعد في الظلام درجات السلّم التي يحفظها عن ظهر قلب. عندئذ فقط، يستعيد مدني إيقاعه الطبيعيّ ويتخلّى عن انضباطه المتوتّر، فيبدو وجهه مسترخيًا وأقرب إلى المرح، كأنّه ممثّل أنهى دوره على المسرح وعاد إلى حياته العاديّة، أو كأنّه محارب ينحّي سلاحه جانبًا لينعم باستراحة قصيرة.

هذه الشقّة التي أخذها بإيجار زهيد منذ ربع قرن، تضمّ كلّ ما يهمّه في هذا العالم: أفراد أُسرته، الذين من أجلهم يتحمّل العمل المضني ويقاوم التعب ويستنهض جسده المسنّ كلّ صباح حتى لا يخذله؛ من أجلهم يتفانى في إرضاء مخدومه، ويتجنّب المشاكل ويتحمّل الإساءات؛ من أجلهم، يتحوّل ذهنه إلى آلة حاسبة صارمة تحدّد بدقّة ما يحتاج إليه الولد والبنت، وكيفيّة تدبير الثمن والمكان الأنسب للشراء. لا شيء في الدنيا يمنح مدني السعادة، مثل جلسته وسط أسرته، يرتدي جلبابه ويجلس على الأريكة في الصالة، يرشف الشاي بالنعناع ويستمع إلى خالد وهند، ويعقّب على كلامهما بعذوبة لا يستعملها أبدًا خارج البيت...

هذا الولاء الأسريّ العميق، الذي يشبه عقيدة دينيّة، انتقل من

مدني إلى أفراد عائلته، فجعل كلَّ واحد فيهم يعتبر نفسه مسؤولًا ع

الآخرين...

في الثانويّة العامّة، تلقَّت هند أوّلَ درس في الطبيعة، فلم تفهم

شيئًا. عادت من المدرسة حزينة وأجهشت بالبكاء، لكنَّها رفضت

عرض أبيها بإعطائها درسًا خصوصيًّا، وقالت:

ـ ممكن آخذ الدرس وأجيب مجموع ضعيف، لكن خالد في كلّ

الطبّ فعلًا.. هو أولى منّي بالمصاريف.

على أنَّ مدني ـ بنفحة من عصام ـ تمكَّن من إلحاقها بمجموعات

التقوية في المسجد المجاور، وقد حصلت على مجموع معقول أدخلها

كلِّيَّة التجارة.

غاب منذ عامين عن الفريق العائلي عضوٌ أساسيّ، أُصيبت الأم

بسرطان الثدي وماتت سريعًا، وكأنَّها لا تريد أن تُثقل عليهم. حزن

عليها مدني وأحسَّ بفراغ مؤلم لغيابها، لكنَّه قرَّر ألَّا يتزوَّج مرة

أخرى. لن يسمح أبدًا بوجود زوجة أب قد تكون كارهة ومؤذية لابنه

وابنته، كما أنَّه في سنٍّ لم يعد يحتاج فيها إلى المرأة كما كان في

شبابه... أضف إلى ذلك أنَّ ابنته هند تحوَّلت تلقائيًّا إلى سيِّدة المنزل

بعد وفاة أمّها... صارت تطبخ وتغسل وتكوي، بل أظهرت ندرة

مدهشة على تدبير احتياجات البيت من المرتَّب الذي يسلِّمه إليها أبوها

بالكامل، كما كان يفعل مع المرحومة أمّها.

من الصعب وصفُ التعبير الذي يبدو على وجه مدني عندما

يتحدَّث عن ابنه؛ تلك النبرة المعتزَّة التي ينطق بها اسمَه مصحوبًا

باللقب: «الدكتور خالد». إنَّه فخره وإنجازه؛ مكافأته على سنوات

الشقاء. كان خالد طفلًا هادئًا مطيعًا، إلى درجة أنّ مدني كان أحيانًا يسخر قائلًا لزملائه:

- «أنا ربّيت هند بس. خالد، ما شاء الله، نزل متربّي لوحده».

لا يذكر مدني أنّه ضربه عقابًا على شقاوة، كما يحدث مع العيال. عندما لاحظ ميله إلى القراءة، حصل له على اشتراك في قصر ثقافة المعصرة ليستعير ما شاء من الكتب ويقرأها. في المدرسة كان خالد تلميذًا صموتًا خجولًا بلا شغب ولا حماقات. يجلس بهدوء، دائمًا في الصفّ الأوّل، ويتابع الشرح من خلف النظّارة، بتلك النظرة المدقّقة والممزوجة ببعض الدهشة، وكأنه يطبع الدرس في ذهنه مرّة واحدة إلى الأبد. كان تفوّقه ساحقًا. حصل على المركزِ الأوّل على المنطقة في الشهادتين الابتدائيّة والإعداديّة، والمركزِ الثالث عشر على الجمهوريّة في الثانويّة العامّة. أشفقت أمّه، رحمها الله، من تكاليف دراسة الطبّ، واقترحت إلحاقه بدراسة أسهل ليتخرّج بسرعة ويساعد في المصاريف. كانت تتكلّم بصوت خافت وجمل قصيرة وهي تطبّق الغسيل، وكان مدني جالسًا على الأريكة في الصالة بجلباب المنزل. تطلّع إليها لحظة كأنّه لا يفهم، ثم قال بغضب:

- حرام عليك؟ ربّنا أعطانا ابن شاطر نقوم نستخسر فيه؟! ده أنا لو حاشحت في الشارع لازم أجيب مصاريف كلّيّة الطبّ.

استمرّ تفوّق خالد وحافظ على تقدير جيّد جدًا كلّ عام ومكافأة التفوّق الشهريّة الزهيدة من الكلّيّة، لكنّه قال مرّة لأبيه:

- على فكرة... أنا أستحقّ تقدير امتياز، لكنّه طبعًا محجوز لأولاد الباشوات.

لم يفهم مدني، فشرح له خالد أنَّ إدارة الكلّيّة لا تمنع درجة
ياز إلّا لأبناء الأساتذة وكبار المسؤولين حتى تضمن تعيينهم
ميدين. غضب مدني وقال:

ـ لكن دَه ظلم..

ـ طبعًا ظلم.

ـ لازم تقدّم شكوى.

ضحك خالد، وقال:

ـ شكوى إيه يا حاجّ مدني. إحنا في مصر... الظلم هو القاعدة.

سكت مدني على مضض، وفي اليوم التالي تحيَّن فرصةً مناسبة وحكى الموضوع للمهندس عصام الذي ابتسم مجاملًا كأنَّه يستمع إلى خبر قديم، وقال:

ـ سيبك من الشكاوي ووجع القلب. قل لخالد يشدّ حيله ويتخرَّج وأنا أجيب له عقد في الخليج. يروح كم سنة يكوِّن نفسه ويرجع يفتح عيادة محترمة.

اقتنع مدني بمنطق عصام، وعندما كان خالد يشكو إليه أحوال البلد كان مدني يعقِّب قائلًا:

ـ يا بُني إنت زعلان ليه، البلد بلدهم يعملوا فيها زيّ ما همَّ عاوزين. ركِّز في مذاكرتك وأوَّل ما تتخرَّج تسافر بإذن الله.

حكى خالد لأبيه عن مقتل خالد سعيد وأطلعه على صورته وقد تهشَّم رأسه من التعذيب، فأبدى مدني استياءً خافتًا يكاد يكون رسميًّا، وقال:

ـ ربّنا يرحمه ويصبّر أهله.

قال خالد بحماسة:

ـ لازم نحاكم المجرمين اللي قتلوه.

ابتسم الأب بعطف، وقال:

ـ ربّنا اللّي حيحاسبهم. اجتهد أنت عشان ربّنا يكرمك.

عاد مدني بالأمس إلى البيت عند الثالثة صباحًا تقريبًا، فلمح النور مضاءً في حجرة خالد... نقر على الباب وفتحه، فوجد ابنه جالسًا إلى المكتب. تطلّع إليه بحنان، وقال:

ـ لسّه صاحي؟

ـ عندي مذاكرة.

ـ تعشّيت؟!

ـ هند عملت لي ساندوتشات.

ـ عاوز فلوس.

ـ معايا الحمد لله.

ـ تصبح على خير.

عندما أغلق مدني الباب خلفه، انتظر خالد قليلًا ثم انحنى وأخرج من تحت السرير مجموعةَ ملصقات مكتوب عليها: «انزل يوم ٢٥ عشان كرامتك»، «يسقط حسني مبارك»، «كفاية ظلم وفساد».

كان قد أخفى نشاطه السياسي عن أبيه. فكّر في أنه لن يفهم ما يفعله ولن يؤيّده أبدًا. لو عرف، فسيعيش في قلق وتوتُّر بلا طائل. اكتفى خالد بالحديث عن التغيير مع هند التي كانت تشاركه في الرأي،

وقد ألحَّ عليها لتسجِّل ڤيديو تدعو فيه الناس إلى التظاهر يوم ٢٥
يناير. ترددت وقالت:

ـ ليه اخترتني أنا بالذات؟ ممكن أيّ واحدة زميلتك تعمل
الڤيديو.

قال بنبرة جادَّة:

ـ اخترتك لأنَّك جميلة وشكلك مريح وطبيعيّ. أيّ حدّ حيتفرّج
على الڤيديو حيحسّ إنَّك أخته أو بنته.

سألته بقلق:

ـ حنعمل إيه لو بابا شاف الڤيديو؟

ضحك خالد وقال:

ـ هو أبوك بيدخل على فيسبوك؟!

كتب لها الكلمات بخطٍّ عريض على لوحة، أمسك بها خلف الكاميرا، وأعاد التسجيل عدَّة مرَّات حتى تغلَّبت على خجلها. ونزّل الڤيديو على فيسبوك فحقَّق انتشارًا كبيرًا. كان خالد يترقَّب مظاهرة يوم الثلاثاء، ويتمنَّى لو نزل عدَّة آلاف من المصريين ليعلنوا للنظام أنَّ هناك في مصر مَن يدافع عن الحرّيَّة والكرامة. استمع إلى الأذان، فتوضَّأ وصلَّى الصبح. أحسَّ بتعب، فراجع لمرَّة أخيرة الملصقات ووضعها في حقيبته الجلديَّة، ثم أطفأ النور وتمدَّد في السرير وفكَّر في دانية. كان يحبّ أن يفكِّر فيها قبل أن ينام.

(١٦)

عزيزتي أسماء،

بالأمس عدت متأخرًا. لم أتَّصل بك حتى لا أُزعجك، وبعثت إليك برسالة على التليفون. ما حدث، باختصار، أنَّ العمَّال أضربوا لأنَّ الإدارة لم تُعطهم الأرباح، وأنا تضامنت معهم. دعاني عصام شعلان إلى العشاء، وحاول إقناعي بالتخلِّي عن العمَّال. طبعًا رفضت. ولمَّا قرَّرت أن أرجع المصنع رفض توصيلي بسيَّارته مع أنَّه وعدني بذلك. ركبت ميكروباص من على الكورنيش. وصلت إلى المصنع عند الثالثة صباحًا تقريبًا، فلاحظت شيئًا غير طبيعيّ. كان هناك أشخاص لم أَرَهم من قبل واقفين حول المصنع. عمّ إدريس عامل الأمن خرج من الكشك ولحقني قبل أن أصل إلى البوَّابة، وقال لي:

- البوليس فضّ الإضراب وقبض على ناس كثير وساب مخبرين في كلّ مكان. ارجع بسرعة وإلَّا حيقبضوا عليك.

شكرته وابتعدت. اجتزت الشارع بسرعة، من حسن حظِّي،

وجدت ميكروباصًا فركبت وعدت إلى وسط البلد. في تلك اللحظة فهمت ما حدث. عصام شعلان خدع العمَّال. تركهم مُضربين، وأمر لهم بوجبة ساخنة، ثم غادر المصنع وهو يعلم بأنَّ البوليس سيهاجمهم. دعاني إلى العشاء ليُبعدني، ورفض توصيلي إلى المصنع خوفًا عليَّ من الاعتقال. علاقتي بعصام شعلان مشكلة في حياتي... أنا أعرفه منذ الطفولة، وأحبّه لأنَّه كان أقرب صديق إلى أبي، بالإضافة إلى أنَّه توسَّط لتوظيفي في المصنع. بصراحة، هو صاحب فضل عليَّ، لكنَّه، كمدير للمصنع، يقوم بدور سيِّئ جدًّا لحساب الإدارة. العمَّال يكرهونه ويُطلقون عليه لقبًا بذيئًا لا أستطيع كتابته. مشاعري المتناقضة تجاهه تربكني. لا أستطيع أن آخذ موقفًا حاسمًا منه، ولا أفهم التغيّر الذي جرى له. عصام شعلان المناضل الذي ضحَّى وأمضى سنوات في المعتقل دفاعًا عن مبادئه، كيف يتحوَّل ويبيع تاريخه بهذه الطريقة؟

لو كان أبي حيًّا، بالتأكيد لكان سيتمسَّك بمواقفه إلى النهاية. عندما وصلت إلى البيت كنت ميِّتًا من التعب فسقطت على السرير بملابسي. صحوت عند الظهر وأجريت اتِّصالات، فعرفت أنَّ البوليس اعتقل عشرين عاملًا تمَّ استجوابهم في أمن الدولة، ثم عُرِضوا على النيابة فأمرت بحبسهم أربعة أيَّام على ذمَّة التحقيق. وجد المحامون آثار تعذيب على أجساد العمَّال وأثبتوها في المحضر، لكنَّهم غير متفائلين؛ ويعتقدون أنَّ العمَّال سيُحالون على نيابة أمن الدولة بتهمة التحريض على الإضراب. ذهبت إلى مقرّ كفاية وأصدرت مع الزملاء بيانًا بعنوان:

«جريمة جديدة للداخليَّة».

شرحنا فيه مطالب العمَّال المشروعة، وأكَّدنا أنَّ الإضراب حقٌّ دستوريّ، وأنَّ الحكومة المصريَّة وقَّعت على اتِّفاقات دوليَّة تعترف بحقّ

الإضراب، ثم طالبنا بالإفراج الفوريّ عن العمّال. ووزّعنا البيان على الصحف، ثم ذهبت إلى المصنع فوجدت العمّال غاضبين وقلقين على مصير زملائهم. أعطيتهم البيان، وشرحت لهم أنّ القضيّة سياسيّة، وبالتالي كلّما أثرنا ضجّة في الإعلام سوف نُجبر النظام على إطلاق سراحهم.

مشكلة العمّال (ومصريّين كثيرين) أنّهم كثيرًا ما يفصلون الحقوق المهنيّة عن السياسيّة. بمعنى، أنّهم يثورون من أجل حقّهم في الأرباح، ولا يعنيهم كثيرًا تزويرُ الانتخابات أو قانونُ الطوارئ. واجبنا يا أسماء، أن نشرح للناس أنّهم لن يحصلوا على عيشة كريمة إلّا في دولة ديموقراطيّة. ما حدث في المصنع ربّما يكون مفيدًا... أخبرني عمّال كثيرون بأنّهم سينزلون معنا يوم الثلاثاء في المظاهرات. بدأوا يفهمون أنّ صراعهم ليس مع الإدارة الإيطاليّة، وإنّما مع النظام... أسماء، أعرف أنّك ستشتركين في المظاهرة. أحبّ أن تكوني معي. خطوط سير المظاهرات التي أعلنّا عنها كلّها قد تتغيّر في أيّ لحظة من أجل تضليل الشرطة. سأبدأ المظاهرة يوم الثلاثاء مع الزملاء الساعة الرابعة مساءً أمام نقابة المحامين. أرجوك، تعالي. سأكون سعيدًا وأنت إلى جواري. طبعًا لن أهون عليك ولن تتركيني من دون ابتسامة. محتاج أشوف النظّارتين. شكرًا لأنّك في حياتي، يا أسماء... تصبحين على خير.

مازن

ملحوظة: عنواني ٦ ب شارع الشريفين، الدور الخامس، شقّة ٢٠. احتفظي به، ربّما تحتاجين إليه في أيّ وقت.

(١٧)

استبعد أشرف ويصا أماكنه المعتادة. يستحيل أن يصطحب إكرام إلى «الفور سيزون» أو «الأفتر إيت» أو نادي السيَّارات... إنَّه لا يخجل من صحبتها، لكنَّ المشكلة أنَّ لديه معارف كثيرين في هذه الأماكن. سيُثير فضولَهم وجودُ إكرام معه، وسيتمّ تناقل الأخبار حتى تصل إلى زوجته... كان عليه أن يجد مكانًا هادئًا ومنعزلًا. بعد بحث ميدانيّ مستفيض، توصَّل إلى كازينو صغير منزوٍ أمام مستشفى القصر العيني القديم يُطلّ على النيل. ذهب وحده مستكشفًا، فوجده خاليًا تمامًا إلّا من بضعة عشّاق مشغولين بالغرام عن كلّ مَن حولهم. اختار لموعدهما يومَ الثلاثاء لأنَّه عطلة إكرام... في الساعة الثالثة بعد الظهر، كان ينتظرها عن باب القصر العيني حتى يبدو لقاؤهما عاديًا وكأنَّهما يزوران مريضًا... كان قد ارتدى نظّارة شمسيّة عريضة، ووضع كوفيَّة صوفيَّة عريضة حول رقبته، حتى يستطيع، إذا لزم الأمر، أن يغطّي وجهه فلا يتعرَّف إليه أحد... انتظر دقائق حتى وصلت

إكرام. لأوّل وهلة لم يتعرَّف عليها. خلعت الحجاب، وعقدت شعرها الأسود الناعم على هيئة ذيل حصان، وغطَّت وجهها بماكياج كثيف. كانت ترتدي ثوبًا طويلًا أزرق يصلح للسهرة أكثر من نزهة نهاريَّة، وكان واسعًا بعض الشيء فأدرك أنَّها استعارته... لقد بذلت مجهودًا كبيرًا لتبدو لائقة بصحبته... كان في مظهرها الفجّ الصارخ شيءٌ ما غير موفَّق، لكنَّه ساذج ومؤثِّر. كأنَّها طفلة تحاول ارتداء حذاء أمّها الواسع في قدميها الصغيرتين. ابتسمت وتطلَّعت إليه بتساؤل كأنَّما تنتظر وَقْعَ مظهرها الجديد عليه. صافحها وقال بمرح:

ـ إيه الشياكة دي يا إكرام هانم.

ابتسمت بامتنان، وأحسَّ بطراوة يدها فخمَّن أنَّها دهنتها بالكريم. التصقت بكتفه، ووضعت يدها تحت ذراعه، ثم رفعت رأسها ومشت إلى جواره، وقد بدت سعيدة ومزهوَّة. اجتاز بها الشارع ودخلا معًا من باب الكازينو. كانت معظم الموائد شاغرة، وسرعان ما ظهر غرسون مُسنّ أسمر يرتدي قميصًا أبيض وجاكيتًا بيضاء مهترئة وبابيونة قديمة سوداء معوجّة. بدا كأنّه شخصيَّة مرسومة خرجت لتوّها من مجلَّة كاريكاتير. ابتسم، فبدا فمه خاليًا إلَّا من بضعة أسنان متفرِّقة، ثم هلَّل قائلًا:

ـ أهلًا وسهلًا يا سعادة البك.

ردَّ أشرف بابتسامة ودِّيَّة، وتقدَّم مع إكرام حتى وصل إلى مائدة منعزلة في أقصى الكازينو تطلّ على النيل مباشرة...

طلبت إكرام كوبًا من الشاي، وطلب أشرف زجاجة بيرة مثلَّجة، ثم قال لها:

ـ إيه رأيك بعد الشاي تشربي معايا بيرة؟!

قالت:

ـ ما باشربش الخمرة.

ـ عشان حرام؟

ـ لا، جرَّبتها زمان وكرهت طعمها.

ـ البيرة جميلة، لكن لازم تتعرَّفي عليها بطريقة صحّ.

ردَّت إكرام بنبرة حالمة:

ـ مش محتاجة بيرة. هي الناس مش بتسكر عشان تنبسط؟! أنا بابقى معك مبسوطة من غير ما اشرب.

تأثَّر أشرف وأرسل إليها قبلة في الهواء، فهمست:

ـ يا حبيبي.

ساد بينهما صمتٌ مُفعَم بالمعاني، وتناهى إلى سمعهما غناءٌ قادم من قارب يسير في النيل. جاء الغرسون بالشاي والبيرة وانصرف. رشف أشرف من الكأس الطويلة، ثم نظر حوله مستطلعًا، وأشعل سيجارة ملفوفة فانبعثت رائحة الحشيش بقوَّة. هتفت إكرام بفزع:

ـ أشرف بك. ما ينفعش تشرب الحشيش هنا.

ـ اطمئنّي.

ـ أطمئنّ إزّاي. لو مسكونا بالحشيش حنروح في ستّين داهية.

ابتسم وقال بثقة:

ـ صدّقيني، يا إكرام، ما فيش أيّ مشكلة. أنا جيت وحدي هنا وشربت حشيش ما حصلش حاجة... رائحة الحشيش بتضيع في

الهوا، وإحنا قاعدين بعيد لا يمكن حدّ يلاحظ.

ظلَّت تنظر حولها بقلق، فقال ليغيِّر الموضوع:

ـ على فكرة، إنت النهار ده جميلة قوي.

ابتسمت وقالت:

ـ يا سلام. أنا أطلع إيه جنب الستَّات إللي عرفتهم؟

أمسك يدها، وهمس:

ـ أنت أجمل واحدة في الدنيا.

قالت بمرح:

ـ بُصّ، يا أشرف بك، واحنا قاعدين رايقين كده، عندي أسئلة عاوزاك تجاوب عليها.

ـ تفضّلي.

زمّت شفتيها وبدت كأنّها طفلة مُقْدِمة على لعبة مثيرة، وقالت:

ـ السؤال الأوّل: إيه اللِّي عاجبك فيّ؟!

تطلَّع أشرف إلى صفحة النيل كأنَّما يستجمع الكلمات، ثم قال:

ـ بصراحة، في الأوّل أنا كنت معجب بجسمك. يعني كان غرضي مجرَّد الجنس. بعد كِدَه، لمَّا عرفتك لقيتك إنسانة طيِّبة وحسَّاسة وعندك عزَّة نفس. ساعتها حبّيتك كلّك على بعضك.

ضحكت برضًا ووضعت يديها في يديه، ثم اقتربت برأسها وهي تنظر إلى عينيه، وبَدَوَا حينئذ كأيِّ عاشقين... قالت:

ـ السؤال الثاني: تفتكر في يوم حتزهق منّي؟

ـ إيه الأسئلة الخايبة دي يا إكرام؟!

ـ جاوب عَشان خاطري.

ـ مستحيل طبعًا.

ـ السؤال الثالث: أنت بتحبّني وأنا بحّبك. تفتكر إيه آخرة الحبّ ده؟

ـ مش فاهم السؤال.

ـ لا وأنت الصادق، مش عاوز تفهمه.

ـ الجوّ جميل جدًّا.

ـ من فضلك ما تغيّرش الموضوع. باقولّك إيه آخرة الحبّ اللي بيننا؟

أشعل أشرف سيجارة ملفوفة ثانية، وأَخَذَ نَفَسًا عميقًا جعله يسعل بشدَّة، ثم قال:

ـ بُصّي، يا إكرام، أنا عندي خمسة وخمسين سنة. يعني باقي لي في الدنيا سنوات قليلة... معظم الحاجات في حياتي ما اخترتهاش. لمّا ألاقي حاجة عاوزها فعلًا لا يمكن أفرَّط فيها.

ـ ممكن تشرح لي؟!

ـ الإنسان بيتولد في مصر ومصيره متحدِّد تقريبًا. مساحة الاختيار قليلة جدًّا. أنت لو كنت تولدت لأسرة غنيَّة كان زمانك كمِّلت تعليمك واتجوِّزت رجل غني وعشت أحسن عيشة... أنا لو كنت اتولدت فقير زيّك يمكن كان زماني حرامي أو بلطجي. الإنسان في مصر بيورث ظروفه وصعب جدًّا يغيَّرها. حتى الدِّين ما حدّش فينا اختاره. أنت اتولدت مسلمة وأنا اتولدت قبطي، ولو كان حصل العكس كان زمانك اسمك تيريزا وأنا اسمي محمَّد.

قاطعته ضاحكة:

ـ على فكرة، تيريزا اسم حلو.

لكنّه استطرد بجدّيّة:

ـ بعد العمر ده كلّه، لمّا ألاقي إنسانة أحبّها بجدّ، أظنّ من حقّي أتمسّك بها

ردّت بتأثُّر:

ـ أنا كمان ما صدّقت لقيتك ولا يمكن أفرّط فيك، لكن ساعات بخاف من المستقبل...

رشف من كوب البيرة، وقال:

ـ التفكير في المستقبل في حالتنا غلط. إحنا مش عارفين أيّ حاجة. لا عارفين حنموت إمتى، ولا عارفين حتى اللي حيحصل بعد ساعة. حيفيدنا بإيه نقلق على المستقبل؟! خلّينا نعيش السعادة واللي بحصل بحصل.

سكتت لحظة كأنّها تستوعب، ثم قالت:

ـ كلامك صحّ، لكن بَرْضُه أنا خايفة.

ـ من إيه؟

ـ خايفة مدام ماجدة تعرف اللي بيننا.

ابتسم أشرف بحزن، وقال:

ـ اطمئنّي. مدام ماجدة كلّ اللي يهمّها شغلها... أنا بالنسبة لها مش مهمّ خالص.

ـ يعني هي مش زيّ أيّ ستّ بِتْغير على جُوزها؟!

ـ بتغير عشان كرامتها، مش عشان بتحبّني.

ـ يعني لو عرفت حتعمل لنا مشكلة كبيرة.

ـ مش حتعرف. وحتى لو عرفت أنا بصراحة ما بقاش يهمّني...

ساد الصمت من جديد، ثم قال أشرف:

ـ وأنت يا إكرام لو عرفت إنّ منصور بيحبّ واحدة ثانية حتعملي إيه؟!

زمّت شفتيها وحرّكتهما (علامةَ خيبة الأمل)، ثم قالت:

ـ يا ريت. دَه أنا أشكرها لأنّها حتخلّصني من قرفه وبلاويه.

قال أشرف:

ـ هو دَه الفرق بين طبقتي وطبقتك. إحنا عندنا عُقَد بتخلّينا نحافظ على الشكل بأيّ طريقة. أنتم عندكم بساطة وصراحة.

ـ أنت عرفت نسوان كثيرة... صحّ؟

ـ صحّ.

ـ وحبّيت كم واحدة؟

ـ حتصدّقيني لو قلت لك إنّي أوّل مرّة أحبّ بجدّ؟!

أمسكت بيده، وهمست:

ـ عارف لو ما كنّاش في الكازينو كنت حضنتك.

ابتسم أشرف وأشعل سيجارة فنظرت إليه بلوم، وقالت:

ـ أشرف بك... دي ثالث سيجارة حشيش.

هزّ رأسه، وقال:

ـ آخر واحدة يا إكرام. أوعدك.

سكتت وتنهّدت وبدت له فاتنة، سَحَب نَفَسًا عميقًا فاحتواه تأثير الحشيش الحنونُ الدافئُ، وقرَّر أن ينسى أيّ شيء يُقلقه ويستمتع بكلّ لحظة معها. لمح فجأة الغرسونَ المسنّ يركض نحوه وخلفه بضعة أشخاص. خطر له أنَّها تهيُّؤات من التسطيل. أغلق عينيه بقوّة ثم فتحهما، لكنَّ المشهد لم يتغيَّر. ظلَّ الغرسون ومَن معه يتقدَّمون بسرعة نحوه. قال أشرف لإكرام بصوت مضطرب:

ـ يظهر فيه قلق في الكازينو.

ـ يا خرابي.

هكذا هتفت إكرام، لكنَّ أشرف اغتصب ابتسامة وهمس:

ـ امسكي نفسك يا إكرام. إيَّاك تتهزّي. كلّ شيء تمام التمام.

ألقى بالسيجارة التي يدخِّنها في النيل وكاد يلقي أيضًا بقطعة الحشيش القابعة في جيب الجاكيت، لكنَّه تذكَّر الثمن الذي دفعه فيها فقرَّر أن يتروّى. أدخل يده في الجيب وقبض على قطعة الحشيش وظلّ في وضع استعداد. إذا تأكَّد من الخطر فسيُلقي بها في النيل، وإذا نجا فستنجو معه. فجأة توقَّف تفكيره واسودَّت صفحة ذهنه كأنَّه غاب عن الوعي، ثم انتبه على صوت الغرسون الأجشّ وهو يصيح:

ـ أنت يا أستاذ...

(١٨)

قال خالد، وهو يمشي إلى جوار دانية:

ـ على فكرة، المظاهرة بكره...

ردَّت دانية:

ـ أظنّنا اتكلِّمنا في الموضوع ده؟!

ـ أنا قلت يمكن غيَّرتي رأيك.

ـ خالد، مش حاشترك في المظاهرة. قرار نهائي.

قالت هكذا بانفعال. ساد الصمت لحظات، وتكلَّمت في موضوع آخر، فردَّ عليها باقتضاب وقد بدا عليه الضِّيقُ. توقَّفت فجأة عن المشي، وقالت:

ـ أنت مش عاوز تكلِّمني؟! خلاص... أنا ماشية. مع السلامة.

اعتذر وراح يداعبها حتى ضحكت. كانت تحبّ هذه المناوشات. غضبٌ ولوم وعتاب ودلال، تنتهي دائمًا بالمصالحة. دورة العشّاق المعتادة. سألها فجأة:

ـ ناوية تعملي إيه بعد التخرُّج؟

ـ على حسب تقديري في البكالوريوس.

ـ مش قصدي الطبّ. عاوز أعرف تصوُّرك لمستقبلنا.

ـ كلّ شيء بيد ربّنا.

ـ بصراحة يا دانية، عاوز أعرف إذا كنت حريصة على ارتباطنا بعد التخرُّج.

رنَّت كلمة ارتباطنا في سمعها بإيقاع مُبهِج، لكنَّها لم تردّ، فاستطرد قائلًا:

ـ في انتظار إجابة منك كلمة واحدة: آه أو لأ؟

ـ على إيه؟

ـ ناوية تحافظي على ارتباطنا بعد التخرُّج ولاّ لأ؟

ـ أنت أوَّل مرَّة تكلِّمني في الموضوع ده.

ـ أظنّ من حقِّي.

ـ ممكن أردّ عند البوَّابة؟

ـ ليه؟

ـ عشان أردّ وأجْري.

ضحكت فأحسّ برغبة عارمة في احتضانها. استأنفا الحديث حتى وصلا إلى البوَّابة فوقف أمامها وقال:

ـ تفضّلي قولي الإجابة.

ـ بلاش النهار دَه.

ـ أنت وعدتيني.

ظلَّت صامتة، فقال:

ـ آه ولاّ لأ؟

نظرت إليه وهزّت رأسها علامةَ الإيجاب، ثم تضرّجَ وجهه واستدارت بسرعة نحو البوّابة بغير أن تنطق بكلمة. كانت تعرف أن يتابعها بنظره فقرّرت ألّا تلتفت. استرخت في المقعد الوثير للسيارة واستعادت كلامه وابتسمت. ما الذي جعله يفتح هذا الموضوع اليوم؟ لماذا لم يتحدّث عن خطوبة، واكتفى بتعبير الارتباط؟ لعلّه، مثلها، يُقلقه اقتراب تخرُّجهما، ولعلّه مثلها يعلم بأنّ زواجهما مستحيل. انتابها فجأة حنانٌ جارف. تذكّرت وجهه، وتمنّت لو وضعت يديها على خدّيه وقبّلته على جبينه. في تلك اللحظة أحسّت بأنّها تحبّه. ليس في وسعها أن تنساه، ولا أن تتخيّل نفسها مع رجل آخر. تعرف أن زواجهما مستحيل، ولكن ألا يمكن أن تحدث معجزة؟ أن يُعجَب أبوها مثلًا بأخلاق خالد ويتغاضى عن ظروفه ويرحّب بزواجهما... عندئذ، لن يكون في هذا العالم مَن هو أسعد منها... خطرت لها فكرة. وما إن وصلت إلى البيت حتى غيّرت ملابسها وذهبت إلى حجرة أمّها. كانت الحاجّة تهاني جالسة أمام مكتبها المصنوع من خشب الأرو في حجرة النوم الفسيحة، وقد وضعت نظّارتها الطبّيّة، وبدا أنّها تراجع أوراقًا مهمّة. ابتسمت عندما رأت دانية التي قبّلتها على خدّها، وقالت بمرح:

ـ كفاية شغل. تعالي اتكلّمي مع بنتك شويّة.

بدا التردُّد على الأمّ، ثم قالت:

ـ حاقعد معك شويّة، لكن لازم أراجع الميزانيّة.

كانت دانية تعرف كيف تؤثّر في أمّها، فجذبتها من يدها وأجلستها على الأريكة، ثم قالت:

ـ عاوزة أكلّمك في موضوع مهمّ. . . بعيد عن البيزنس والدّين.

تطلّعت إليها الأمّ باستنكار، وقالت:

ـ أستغفر الله العظيم. ما فيش حاجة في الدنيا بعيدة عن الدّين.

قالت دانية بمرح:

ـ حضرتك مش قلتي لي إنَّ والدك كان رجل بسيط؟

ـ الله يرحمه.

ـ ممكن تحكي لي عنه؟

ـ إيه، اللي فكّرك به؟!

ـ نفسي أعرف عنه أكثر.

تردّدت الأمّ، ثم قالت بحماسة:

ـ جدّك، الله يرحمه، كان رجل بسيط، لكن عظيم. إحنا كنّا ثلاث بنات، جدّك اشتغل وتعب بشرف لغاية ما ربّانا وعلّمنا أحسن تعليم، وشاف كلّ واحدة في بيتها.

ـ كان بيشتغل إيه؟

ـ يهمّك في إيه تعرفي؟

ـ من فضلك يا ماما، عاوزة أعرف.

ـ كان بيشتغل حاجب في محكمة طنطا، لكن عمرنا ما انكسفنا من شغلته. بالعكس، كنّا دايمًا فخورين به.

ساد الصمت بينهما، ثم طوّقتها دانية بذراعيها، وقالت بصوت حالم:

ـ معنى كلامك أنّ أيّ شابّ عنده أخلاق وتعليمه ممتاز ما بعيبوش أنّ أبوه يكون رجل بسيط.

تغيَّر وجه الحاجَّة تهاني. أبعدت دانية عنها كأنَّها تتخلَّص من تأثيرها. تفحَّصتها بنظرة مستريبة، وقالت:

ـ دَه كان زمان. أيَّامكم مختلفة عن أيَّامنا.

ـ مختلفة في إيه؟

ـ زمان كان فيه أخلاق. الناس كلّها ـ سواء فقرا أو أغنيا ـ كانوا مهذَّبين وطيِّبين. دِلوقتِ الفقراء حقودين ونفسيَّتهم سُودا.

ـ كلّ زمن فيه ناس طيِّبين وناس سيِّئين.

ـ السيِّئ زمان كان نادر. دِلوقتِ الطيِّب نادر

ـ لكن حضرتك تعرفي ناس طيِّبين كتير.

ـ أنت بتلفِّي وتدوري ليه؟! لو عندك حاجة قوليها.

ـ أنا باتكلّم عمومًا.

حدقت فيها الأمُّ بنظرة صارمة، وقالت:

ـ أنا بقى مش بتكلِّم عمومًا، بتكلِّم عليك. أنت يا دانية في مركز كبير. المفروض ترتبطي بإنسان مكافئ لك في كلّ شيء. دَه الرأي الشرعيّ، والشيخ شامل أكَّد عليه كتير.

ـ أنا ما تكلّمتش عن ارتباط.

قالت هذا دانية بصوت خافت، لكنَّ الأمّ استطردت بنبرة حازمة:

ـ أقول لك كلمة حطّيها حَلَقة في وِدْنك لأجل تستريحي وتريَّحينا: ما ينفعش ترتبطي بشخص أقلّ منك... دَه مش حيحصل أبدًا. الشرع يمنعه، وأنا وأبوك مستحيل نسمح به.

(١٩)

عزيزتي أسماء،

سأذكر دائمًا أنّنا شهدنا المعجزة معًا.

أين أنتِ؟ أرجو أن تكوني بخير. اتَّصلت بك فوجدت التليفون مغلقًا... أنا وصلت إلى البيت، ميِّتًا من الإرهاق طبعًا، لكنّي سعيد جدًّا... ها هو الشعب الذي لطالما اتَّهموه بالإذعان والجُبن ينتفض كالمارد ليطيح بالديكتاتور الذي أذلَّه ثلاثين عامًا. آلاف الناس الذين تجمَّعوا في ميدان التحرير وميادين مصر كلّها، هم الشعب المصريّ الحقيقي، الذي يتكلَّم باسمه الجميعُ ولا يعرفه أحد. لقد بدأنا معركة التغيير، وسوف ننتصر، لكنَّ النصر لن يكون سهلًا. النظام سيدافع عن وجوده بكلِّ شراسة، ولن يتورَّع عن ارتكاب كلِّ الجرائم. هل تعلمين بأنَّ إطلاق الغاز المسيل للدموع بهذه الكثافة يُعتَبَر جريمةَ قتل؟ هل رأيت عدد الذين سقطوا مختنقين بالغاز؟ هل تعلمين بأنَّ النظام بدأ في قتل المتظاهرين بالرصاص منذ الصباح في الإسكندريَّة والسويس ومدن

أخرى؟ لدينا تقارير عن اختفاء عشرات المتظاهرين في المحافظات المختلفة، والأرجح أنّه تمّ قتلهم ودفنهم في أماكن مجهولة.

أسماء الجميلة،

من المؤكد أنك اعتقدت أنّني مجنون لأنّني وسط المظاهرة صارحتك بعواطفي. صدّقيني، لم أجد أنسب من لحظة الثورة لأقول لك إنّني أحبّك. ارتباطي بك أكبر من مجرّد علاقة رجل بامرأة. أنت شريكتي في الحلم. علاقتنا ارتبطت بمصر التي نكافح حتى تولَد على أيدينا؛ مصر الأخرى، الجديدة والعادلة والنظيفة... سأحتفظ في ذهني دائمًا بردّ فعلك عندما قلت لك «أحبّك». الخجل والدهشة جعلا وجهك جميلًا جدًّا. لولا أنّنا كنّا في الميدان، لكنت قبّلتك فورًا... حتى الآن، لا أعرف كيف افترقنا. عندما بدأوا في إطلاق قنابل الغاز، ركضتُ وظننت أنّك خلفي... لمحت المخبرين يعتقلون المتظاهرين في شارع طلعت حرب، فتحاملت على نفسي وجريت إلى الناحية الأخرى. اجتزت سحابة الغاز الكثيفة، حتى دخلت شارع شامبليون. ظللت أجري حتى توقّفت أمام سينما ميامي. كانت الساعة الواحدة صباحًا تقريبًا، ووجدت حولي نحو عشرة متظاهرين، بينهم بنتان. رحنا ننظر إلى بعضنا البعض ونحن نلهث كأنّنا لا نصدّق أنّنا نجونا. كنّا نحتاج إلى فترة حتى نرتّب أفكارنا ونتكلّم. رأينا فجأة على الرصيف المقابل كنّاسًا لا يقلّ عن ستّين عامًا. كان ظهوره في هذه اللحظة غريبًا. هل سمعت عن كنّاس يعمل في الواحدة صباحًا؟! كان يرتدي زيّ الكنّاسين البرتقاليّ ويسحب خلفه مكنسة مهترئة لا أعتقد أنّها تكنّس شيئًا. تقدّم بخطوة بطيئة حتى صار في مواجهتنا على الرصيف المقابل، وصاح بصوت عالٍ أجشّ تردّد في أنحاء الشارع:

- يا ولاد أنتم بدأتم... كمِّلوا للآخر... إيَّاكم تتراجعوا.

كان كلامه لا يتَّسق مع مظهره وعمله. ظللنا صامتين، فصاح بصوت أعلى:

- إيَّاكم تجرحوا الثعبان وتسيبوه. لازم تخلَّصوا عليه. لو ما تلتوش الثعبان حيقتلكم...

كان المشهد غريبًا... خطر لي للحظة أنَّني أحلم. صفَّق الشباب بحرارة للكنَّاس الذي بدا كأنَّه لا يرانا ولا يسمعنا. كأنَّه ظهر فقط ليقول هذه الكلمات. سحب المكنسة ومشى ببطء حتى دخل شارع عبد الخالق ثروت واختفى. صاح شابٌّ من الواقفين:

- ماذا نفعل الآن؟

بدأ النقاش. كان هناك زملاء يريدون العودة إلى الميدان، وكان لي رأيٌ آخر. قلت لهم:

- لقد انتصرنا على النظام وصنعنا مظاهرة أسطوريَّة. رأيي أن نعود إلى بيوتنا، ونتظاهر غدًا في مكان لا يتوقَّعه الأمن.

قالت فتاة من الواقفين:

- من قال لك إنَّنا لو مشينا حنعرف نعمل مظاهرة بكره؟

قلت لها:

- سنحدِّد المكان على فيسبوك.

قالت بحماسة:

- أوَّلًا، الحكومة ممكن تقفل فيسبوك في أيّ لحظة. ثانيًا، المظاهرة لم تنجح اليوم بفضل المدوِّنين. المظاهرة نجحت بفضل

الناس الشعبيِّين اللي ما يعرفوش فيسبوك يعني إيه. الناس اللي جاءوا من أرض اللواء وإمبابة وناهية هم اللي دعمونا، وهم الآن بينتظرونا في الميدان. لا يمكن نخذلهم.

ارتفعت أصوات مؤيِّدة، وفهمت أنَّ أغلبيَّة الواقفين تعارضني. أعترف بأنَّ معارضتهم ضايقتني، فقلت:

ـ هل تظنُّون أنَّنا سنقبض على حسني مبارك الليلة؟! معركتنا ضدّ النظام تحتاج إلى نَفَسٍ طويل. لو عدنا الآن إلى ميدان التحرير فسوف نُعتَقَل فورًا. ما فائدة أن نقدِّم أنفسنا هديَّة إلى الأمن؟!

اقترب منِّي شابّ، وقال بعصبيَّة:

ـ ممكن تسمعني؟!

ـ تفضَّلْ.

ـ أنا اسمي حسن، من الإسماعيليَّة... خرِّيج علوم وبقى لي عشر سنوات عاطل. ما عنديش أمل في أيِّ حاجة.. لا زواج ولا عمل ولا سفر. أنا جيت الليلة وقدّامي اختيارين: أشيل حسني مبارك أو أموت... أنا مش خايف من الموت. أنا ميّت فعلًا...

ارتعش صوته فجأة، وأجهش بالبكاء. تأثَّرنا جميعًا وسكتنا. قلت لهم:

ـ أنا معكم في أيّ حاجة تعملوها.

ارتفعت أصواتهم:

ـ نرجع الميدان.

رجعت معهم، وفي الطريق وجدنا مجموعات أخرى من

المتظاهرين هربت من الغاز، ثم قررتِ العودة إلى الميدان مثلنا. الساعة الآن العاشرة صباحًا. تركت الميدان وهو ممتلئ بآلاف المتظاهرين. سأنام قليلًا، ثم أعود. أرجوك، طمئنيني عليك. تحيا الثورة.

مازن

ملحوظة مهمّة:

كلامي لك في الميدان كان من قلبي... أنا فعلًا بحبّك.

(٢٠)

ذلك الصباح، أيقظ اللواء علواني زوجته وقال:

ـ صباح الخير. جهّزي لي شنطة غيارات وقمصان، وأنا أبعث عسكري ياخذها عند الظُّهر.

جهدت الحاجّة تهاني للحظات لتستجمع تركيزها وتخرج من مملكة النوم. اندهشت لمّا رأت زوجها مرتديًا ملابسه. قالت وهي تنزل من السرير بحرص تجنُّبًا لآلام الركبتين:

ـ أنت مسافر؟

ردّ باقتضاب:

ـ سأبيت في المكتب كمّ يوم.

تطلّعت إليه بقلق وقالت:

ـ خير؟!

ـ خير، إن شاء الله.

همست بلهجة أنثويّة ناعمة لا تتّسق مع حجمها الهائل:

ـ أحمد... وحياتي عندك... طمّني...

طبع قبلة سريعة على خدّها، وقال وهو يجهد ليسيطر على انفعاله:

ـ مش حاقدر أقول لك تفاصيل. مصر بتتعرّض لمؤامرة. ادعي لنا ربّنا ينصرنا وننقذها.

دعت له بحرارة. وضعت يده بين يديها المكتنزتين، ثم تمتمت برُقْيَة شرعيّة، وهتفت بتأثُّر:

ـ لا إله إلّا الله.

ـ محمّد رسول الله.

هكذا ردّ اللواء وخرج على عَجَل. خطر له أن يودِّع دانية. فتح باب حجرتها برفق فوجدها نائمة. اقترب منها وراح يتأمّل وجهها. بدت تمامًا كما كانت في طفولتها. عندما تنام، تنفرج شفتاها قليلًا وتبدو بريئة وجميلة كالملاك. خرج وأغلق الباب بهدوء. بعد دقائق، كان في سيّارته المصفّحة، وقد اتّخذ وجهه تعبيرًا حادًّا متحفِّزًا. تلقّى في الطريق التقارير من كلّ المحافظات. كان يُصدر أوامره ببطء، وهو يشدِّد على مخارج الحروف كأنّه يسدِّد رصاصات متلاحقة يجب أن تصيب أهدافها. لم تتوجّه السيّارة إلى مبنى الجهاز، لكنّها سلكت طريقًا آخر حتى توقّفت أمام ڤيلّا كبيرة في حيّ الزمالك تطلّ على النيل.

قفز الحرّاس من سيّاراتهم، وقاموا بتأمين دخول اللواء علواني الڤيلّا. ثم ظلّوا واقفين في الخارج شاهرين أسلحتهم، بينما صحبه

ضابطان بمجرَّد دخوله من الباب. توجَّه اللواء علواني إلى الحديقة الخلفيَّة، والتقى الضبَّاط الذين تمركزوا بأسلحتهم. حيَّاهم وتبادل معهم حديثًا سريعًا ضمَّنه عبارات التشجيع، ثم صعد إلى سطح الفيلا حيث وجد ضبَّاطًا آخرين مسلَّحين بمسدَّسات وبنادق آليَّة، بالإضافة إلى سبعة قنَّاصين ببنادق حديثة متمركزين في كلِّ الاتِّجاهات... حيَّاهم جميعًا، ثم نزل إلى الحُجرة التي خُصِّصت له كمكتب في الدَّور الأوَّل، حيث كانت شاشات معلَّقة تنقل على الهواء المظاهراتِ في القاهرة والإسكندريَّة والسويس وبقيَّة المدن المصريَّة. طلب فنجانًا من البَن المظبوط راح يرشف منه على مهل وهو يتابع الأحداث. بعد نحو نصف ساعة وصل وزير الداخليَّة... صافحه اللواء علواني فاحتضنه الوزير بحرارة. ابتسم اللواء علواني وقال مداعبًا:

ـ يعني لازم البلد تنقلب عشان أشوفك.

ـ تحت النظر يا فندم.

ـ إيه رأيك نتكلَّم في الهواء؟!

لم ينتظر الإجابة. أخرج تليفونه المحمول ووضعه على المكتب ففعل الوزير مثله، ثم تأبَّط ذراعه وخرجا إلى ركن بعيد في الحديقة فيه مائدة ومقعدان جلسا عليهما، وفهم أفراد الحراسة رغبة اللواء علواني فابتعدوا إلى مسافة تمكِّنهم من مراقبة المكان ولا تتيح لهم سماعَ الحوار. قال اللواء علواني بلهجة جادَّة:

ـ نتيجة للظروف، قرَّرت نقل نشاطنا خارج الجهاز من باب الاحتياط. أنصحك تعمل الشيء نفسه

قال الوزير:

ـ جاري تجهيز مقرّات بديلة يا فندم، وسننقل إليها الإدارات المهمّة اليوم أو غدًا على أقصى تقدير.

ـ أشار اللواء علواني إلى الجندي البعيد، فهرع إليه. طلب فنجانًا آخر من القهوة وزجاجة مياه، وطلب الوزير كوبًا من الشاي. انتظر اللواء علواني حتى ابتعد الجندي، ثم قال:

ـ لن أتكلّم في تطوُّرات الموقف. أنت أكيد في الصورة... إحنا للأسف بندفع ثمن تأخُّر القرار السياسيّ. الجهاز الذي أُشرّف برناسته قدَّم تقريرين لسيادة الرئيس، واحد من شهرين وواحد من أسبوع. توقَّعنا الأحداث التي تجري اليوم واقترحنا عدَّة إجراءات لإجهاضها، لكن للأسف لم يُتَّخذ إجراء واحد.

هزَّ الوزير رأسه بأسف، فاستطرد اللواء علواني قائلًا:

ـ العناصر الإثاريَّة التي تقود الناس في الميادين اليوم لا يزيد عددهم على خمسمية فرد قدَّمنا أسماءهم وتفاصيلهم بالكامل، واقترحنا اعتقالهم فورًا، لكن للأسف لم يحدث شيء.

ـ إيه السبب، يا فندم؟

نظر اللواء علواني إلى الوزير بما يشبه الأسى، وقال:

ـ أقصى سلطتي، سياسيًّا، أنّي أرفع تقارير وأقدِّم اقتراحات. القرار يتَّخذه سيادة الرئيس وحده بناءً على اعتبارات هو أدرى بها.

ـ يا ريت سيادة الرئيس كان نفَّذ اقتراحات سيادتك.

قال اللواء علواني:

ـ اللي حصل حصل... خلّينا في المهمّ. عاوز أسمعك.

جاء الجنديّ بالمشروبات. رشف الوزير من الشاي، وقال:

ـ كنت عاوز أعرف تقدير سيادتك لمواقف القوى السياسيّة.

ـ زيّ مين؟

ـ الإخوان؟

ـ الإخوان أصدروا بيان ضدّ المظاهرات، وهم لن يخاطروا بالاشتراك فيها أبدًا، لأنّ الثمن حيكون باهظ. وبالنسبة لهم، سلامة التنظيم أهمّ شيء. لكن، لا قدّر الله، لو فشلنا في السيطرة على الوضع، الإخوان ساعتها أكيد حينزلوا الشوارع لاستغلال الفوضى. أنت تحفّظت على بعض قياداتهم؟

هزّ الوزير رأسه، فقال اللواء علواني:

ـ خلّيهم في السجن. ممكن يبقوا كارت مفيد.

ـ بالنسبة للأحزاب؟!

ـ الأحزاب كلّها متعاونة. كلّها أصدرت بيانات ضدّ التظاهر.

هزّ الوزير رأسه، ثم قال:

ـ أنا أرسلت لسيادتك الخطّة ٢٠٠٠.

ـ قرأتها. شيء جيّد أنّك بعثتها على الإيميل السرّي بدون ختم الوزارة. إحنا في ظروف استثنائيّة. مش لازم نترك أيّ مستند.

ـ فيه بعض الإجراءات اتّخذتها خارج الخطّة. يهمّني أعرضها على سيادتك.

ـ تفضّل.

أخرج الوزير ورقةً صغيرة وبدأ يقرأ بلهجة رسميّة:

ـ تشديد الحراسة على المنشآت الحيويَّة والشخصيَّات العامَّة الموالية للنظام.

ـ تأمين المصانع والتجمُّعات العمَّاليَّة والتشديد على مصادرنا بالإبلاغ عن أيّ محاولة لإثارة العمَّال حتى نتعامل معها فورًا.

ـ بالنسبة للمدارس والجامعات، ستكون مغلقة أساسًا بسبب إجازة نصف السنة، وقد تمَّ تشديد الحراسة عليها وسيتمّ القبض على أيّ طالب يحاول إثارة زملائه.

ـ تمَّ زرع عشرات المرشدين في تجمُّعات المتظاهرين لتوضيح اتّجاهاتهم أوّلًا بأوّل، مع محاولة استدراج العناصر القياديَّة خارج المظاهرات والقبض عليها.

هزَّ اللواء علواني رأسه وقال:

ـ كلّها إجراءات سليمة.

ـ شكرًا يا فندم. سيادتك لك ملاحظات على الخطَّة؟! أنا باعتبر سيادتك أستاذي.

بدا اللواء كأنّه يفكِّر، ثم هزّ رأسه ببطء، وقال:

ـ الخطّة جيِّدة. المهمّ في تنفيذها عنصر الوقت. كلّ ساعة تفرق.

ـ تمام يا فندم.

ـ يهمّني أنَّ فلسفة الخطَّة تكون واضحة لكلٍّ من ينفِّذها. لازم كلّ ضابط يؤمن أنّه في معركة حقيقيَّة دفاعًا عن مصر. عاوز منشورات من الوزارة تتوزّع على كلّ الضبَّاط والأفراد، لازم يفهموا أنَّ العيال اللي في التحرير مجموعة متآمرين خَوَنة هدفهم يوقَّعوا البلد...

هزَّ الوزير رأسه، واستطرد اللواء علواني قائلًا بحماسة:

ـ التمرُّد والمظاهرات شيء غريب على طبيعة المصريِّين. إحنا شعب مُطيع طول عمره يحترم قيادته حتى لو غضب منها. اللي بيحصل في ميدان التحرير شيء شاذّ عن العقليَّة المصريَّة. هدفنا نبعث رسالة للمصريِّين بأنَّ المظاهرات نتيجتها الوحيدة الفوضى. هدفنا نقول للمواطن العادي: إمَّا تقف مع المظاهرات وتفقد الأمان وإما تقف مع الدولة وهي تحميك.

قال الوزير بصوت خافت:

ـ مفهوم، يا فندم.

عاد اللواء علواني إلى مقعده وتطلَّع ببصره بعيدًا، وبدا كأنَّه يرتِّب أفكاره، ثم سأل الوزير:

ـ حتقطع الاتِّصالات؟

ـ أنا أعطيت تعليماتي بقطع الاتِّصالات يوم الخميس قبل مظاهرات الجمعة... قطع المحمول والإنترنت حيحرم المخرِّبين من أيِّ وسيلة للاتِّصال. في الوقت نفسه، اتِّصالات الوزارة ستظلّ تعمل عن طريق الشيفرة.

بدا على وجه اللواء علواني ما يشبه الرضا، ثم اقترب برأسه من الوزير وقال وقد تحوَّل حديثهما إلى الهمس:

ـ فيه تحرُّكات في الخطَّة ضدّ القانون. أنا موافق عليها طبعًا. الضرورات تبيح المحظورات. لكن لا بدَّ من تأمين الضبَّاط من أيِّ ملاحقة قانونيَّة.

ردَّ الوزير:

ـ الضبّاط عندهم تعليمات شفويّة بالتعامل بالرصاص للسيطرة على المظاهرات. لا توجد ورقة واحدة تثبت تسليحهم بالرصاص. التسليح المثبت في الدفاتر خرطوش وغاز بسّ.

قال اللواء علواني:

ـ طبقًا للخطّة ممكن تفتح السجون؟!

ـ دَه حيحصل فقط في حالة فشلنا في السيطرة على المظاهرات، لا قدّر الله.

ـ مفهوم... حنفتح كمّ سجن، وكم عدد الهاربين؟

ـ حنفتح حوالى خمسة سجون وعدد الهاربين حيكون بين ٢٥ لـ ٣٠ ألف مسجون. طبعًا زيّ ما كتبت في الخطّة. الهدف إحداث حالة هلع بين المصريّين، بحيث إنّهم يقفون مع الدولة ضدّ المخرّبين.

ـ عندك غطاء قانوني؟!

ـ الموضوع سيتمّ تقديمه على أنّه محاولات تمرُّد في السجن تصدّى لها الضبّاط، لكن هناك قوّة خارجيّة ساعدت المساجين على الهرب...

ـ عظيم. لكن فيه نقطة مهمّة. الضابط اللي طُول عمره عقيدته أنّه يحرس السجن؟ إزّاي ممكن يقتنع فجأة أنّه يسمح للمساجين بالهرب؟

ابتسم الوزير وهمس:

ـ أنا شكّلت داخل الوزارة مجموعة خاصّة من الضبّاط الأكثر ولاء. المجموعة دي تتلقّى أوامرها منّي شخصيًا وهم موجودون في كلّ مكان، لكن زملاءهم لا يعرفون عنهم شيئًا. ضبّاط المجموعة الخاصّة همّ اللي حينفّذوا فتح السجون. بقيّة الضبّاط حيعتبروا اللّي بيحصل تمرُّد عادي.

ـ طيّب، افترضْ أنّ الضابط العادي تصدّى فعلًا لفتح السجن

منعه.

ـ يا فندم، إذا اضطررنا لفتح السجون يبقى لازم السجون تتفتح. تعليماتي حتكون واضحة لضبّاط المجموعة الخاصّة أنّهم لا يسمحوا بتعطيل الخطّة مهما يكن السبب.

سكت اللواء علواني وبدا كأنّه يزن ما قاله الوزير، الذي استطرد بنبرة جادّة:

ـ يا فندم، إحنا في حالة دفاع عن الدولة المصريّة؛ حالة حرب. حتى لو سقط ضحايا من أيّ جانب، حيكون ده ثمن بقاء الدولة.

قال اللواء علواني:

ـ فيه نقطة أخيرة: الإعلام...

ـ تعليماتي واضحة لإعلام الدولة والإعلام الخاصّ. لازم يشرحوا للشعب حجم المؤامرة. أنا بعثت ضابط تشغيل إلى كلّ قناة وأعطيته الصلاحيّة لإيقاف أيّ برنامج واعتقال أيّ شخص وفقًا لتقديره.

ساد الصمت، ثم قال وزير الداخليّة:

ـ سيادتك عندك ملاحظات تانية.

هزّ اللواء علواني رأسه، وقال:

ـ لا، شكرًا.

ـ أستأذن من سيادتك. لازم أرجع الوزارة.

نهض اللواء علواني وصافح الوزير بحرارة،وقال:

ـ خلّينا على اتّصال. ربّنا يوفّقك...

(٢١)

صاح الغرسون وهو يلهث:

ـ إحنا مضطرين نقفل الكازينو.

ـ ليه؟

سأل هكذا أشرف ويصا بانزعاج، فقال الغرسون:

ـ فيه مظاهرات جامدة في الشارع. صاحب الكازينو اتّصل وأمرنا نقفل فورًا.

على الرّغم من المفاجأة، فإن أشرف أحس بارتياح. أخرج يده فاستقرَّت قطعة الحشيش بأمان في قاع الجيب، ثم دفع الحساب وترك للغرسون بقشيشًا مجزيًا. مشى حتى خرج من باب الكازينو وإكرام معه. كانت هناك حالة من التوتُّر في الشارع. السيَّارات تتزاحم والمارَّة يسرعون في كلِّ اتِّجاه، وتردَّدت أصداء هتافات من بعيد. قالت إكرام بصوت خافت:

ـ ربَّما يستر... أنا خايفة... ممكن حضرتك تركب الميكروباص؟!

ـ مش هينفع الميكروباص دلوقت...

قال هذا أشرف وهو يجذبها من يدها. لمح سيارة تاكسي فريبة فتفاوض مع سائقها وأعطاه الأجرة مقدَّمًا، ثم أدخل إكرام إلى المقعد الخلفيّ، وقال بصوت عالٍ:

ـ أوَّل لمَّا توصلي البيت طمّنيني.

تطلَّعت إليه وضغطت على يده كأنَّما تنقل إليه امتنانها. صوّر لوحة التاكسي الخلفيَّة على تليفونه، وظلّ يتابعها بنظره وعلى وجهه ابتسامةٌ مشجِّعة حتى اختفت التاكسي في الزحام. قرّر أن يمشي إلى بيته، فاجتاز الكوبري إلى شارع القصر العيني. رأى حشود المتظاهرين يهتفون بسقوط مبارك. تأمَّلهم بدهشة، وتساءل: مَن هؤلاء، ومن أين جاؤوا، وكيف نزلوا إلى الشارع بهذه الأعداد الكبيرة؟! ماذا يحدث في البلد؟ لقد فاجأته المظاهراتُ تمامًا. إنَّه لا يستعمل فيسبوك، ويعتبره تضييعَ وقت، وقد انقطع منذ سنوات عن قراءة الجرائد أو الاستماع إلى نشرات الأخبار. عندما وصل إلى ميدان التحرير وجده مزدحمًا عن آخره. كانوا مصريِّين عاديِّين، من مختلف الطبقات. نساء محجَّبات وسافرات. شباب من الطبقة المتوسِّطة وأناس شعبيُّون وريفيُّون يرتدون جلابيب. وقفوا في حلقات يتناقشون بحماسة. أراد أن يستمع إليهم، لكنَّه تذكَّر أنَّه قد يتعرَّض للتفتيش في أيِّ لحظة، وفي جيبه قطعةُ حشيش كفيلة بإلقائه في السجن سنوات. عاد مسرعًا إلى البيت، وصنع لنفسه فنجانًا من القهوة السادة رشفه وهو يدخِّن سيجارة

ملفوفة، وراح يتابع من الشرفة ما يحدث في ميدان التحرير. وصلته على التليفون رسالةٌ من إكرام تطمئنه على وصولها إلى البيت. بعد قليل، وصلت ماجدة زوجته. حيَّته بفتور، وبدا وجهها مربدًّا. سخَّنت الطعام وجلسا إلى المائدة. أحسَّ بأنَّها تريد مناقشة الأحداث. كان يستمتع، على نحو ما، بتجاهلها. مرَّت دقائق وقال إمعانًا في استفزازها وهو يمضغ:

ـ الأكل لذيذ. شكرًا يا ماجدة.

ردَّت بضيق:

ـ اشكرْ إكرام. هي اللي طبخت.

استمرَّ يأكل بشهيَّة. لم تعد تتحمَّل صمته، فقالت بانفعال:

ـ شفت المظاهرات؟

ـ شفتها.

ـ أنا خايفة على مصر يا أشرف.

ـ خايفة عليها من إيه؟

ـ من الفوضى.

ـ هو فيه فوضى أكثر من اللي إحنا عايشينها؟

تطلَّعت إليه باستنكار، وقالت:

ـ أنت مش فاهم، ولَّا إيه؟

قال ساخرًا:

ـ تفضَّلي فهِّميني.

قالت بصوت مضطرب:

ـ المظاهرات دي عاملينها الإخوان، وهدفهم يستولوا على الحكم.

ـ غير صحيح. الناس اللي شفتهم في ميدان التحرير مش إخوان.

هتفت بفزع كأنَّها لم تسمعه:

ـ لو مبارك ساب الحكم لا يمكن نقعد في البلد يوم واحد.

ردَّ بهدوء:

ـ تكلَّمي عن نفسك. أنا عمري ما أسيب مصر.

حدَّقت فيه بغضب، وصاحت:

ـ خلِّيك عايش في أوهامك.

ـ أنت اللي عندك خوف مَرَضيّ.

ـ حنعرف إنّ عندي حقّ بعد فوات الأوان.

لم يردّ. كان يعلم بأنَّ المناقشة معها بلا طائل. نهض من حول المائدة، وهو يجفِّف فمه بطرف الفُوطة، ثم قال:

ـ عن إذنك. عندي شغل لازم أخلَّصه في المكتب.

ردَّت قائلة:

ـ دَه لازم شغل مستعجل.

إنَّها تسخر منه. تريد أن تقول أين هو الشغل وأنت نائل وحشّاش. لم يكن لديه طاقة ولا رغبة في الشجار. كان يحسّ بأنّ تغييرًا كبيرًا يحدث حوله، وكان يريد أن يخلو إلى نفسه ليتأمَّل ويفهم. دخل المكتب ثم جلس في الشرفة يتفرَّج على الميدان. كانت الحشود تزداد باستمرار، والمدرّعات تقف عند المداخل، بينما المئات من

جنود المركزيّ يحاصرون الميدان من كلّ الجهات. تذكّر إكرام فابتسم وغمره إحساس بالحنان، استعاد تأنّقها المُسرف الطفوليّ، وحديثها الهامس، ودفءَ يدها، ولباقتَها عندما طلبت منه اصطحابها إلى الميكروباص. كانت تريد أن توقف سيارة تاكسي، لكنّها لم تطلب، واكتفت بالتعبير عن خوفها. كيف لإنسانة جاهلة، من بيئة مُعدَمة، لم تلقَ أيّ تربية حقيقيّة في أن تتصرّف بكلّ هذه الرقّة؟ هل يولد الإنسان بصفاته أم يكتسبها؟ كيف تكون إكرام ابنة الشارع أذكى إحساسًا من ماجدة خرّيجة الميردوديو والجامعة الأميركيّة... أحسّ ببرد مفاجئ، فعاد إلى حجرة النوم، وارتدى الروب الصوفيّ الثقيل. كانت ماجدة قد نامت، فتحرّك بحرص لئلّا يُوقظها. عاد إلى الشرفة، ودخّن عدّة سجائر ملفونة وهو يراقب الميدان. لم يشعر بالوقت. ظلّ المتظاهرون يتزايدون، وبعد منتصف الليل، بنحو أربعين دقيقة، انفتحت أبواب الجحيم. أطلق البوليس وابلًا من القنابل المسيلة للدموع. رأى المتظاهرين يركضون في كلّ اتّجاه. شكّل الدخان الكثيف سحابة حجبت الرؤية وصعدت إليه في الدُّور الرابع، فأحسَّ بحرقان في عينيه وأنفه وراح يسعل بشدّة... دخل بسرعة، وأغلق باب الشرفة ثم هرع إلى الحمّام وراح يغسل فمه وأنفه بالماء الدافئ ليُزيل أثر الغاز. سمع فجأة صوتًا يشبه جرس الباب... أنصت لحظة فتكرّر الجرس. مَن سيزوره الآن؟ اجتاز الردهة واقترب من الباب. تطلّع عبر العين السحريّة، فرأى امرأة لا يعرفها...

(٢٢)

عزيزي مازن،

سأخبرك بشيء لا تعرفه عنّي. أنا مصابة بحساسيَّة في صدري إلى درجة أنّي في فترة الخماسين أستعمل بخّاخة حتى أتنفَّس. عندما أطلقوا علينا قنابل الغاز بهذه الكثافة، ركضت بكلِّ قوَّتي وبذلت مجهودًا خارقًا حتى لا أفقد الوعي. كانوا يضربون من ثلاث جهات، والجهة الوحيدة المفتوحة كانت شارع طلعت حرب. جريت نحوه فاكتشفت أنّهم وضعوا فيه كمائن ليقبضوا على المتظاهرين. أوَّل كمين كان على ناصية النادي الدبلوماسيّ. لمحت عن بُعد المخبرين يضربون متظاهرًا بوحشيَّة ويُلقون به في سيَّارة ميكروباص. وجدت نفسي في ورطة... لو رجعت فسأختنق من الغاز، ولو مشيت فسأُعتقل حتمًا... لمحني أحد المخبرين، فجرى نحوي. دخلت بسرعة في أوَّل عمارة جنب فرن كريستال. تجنَّبت المصعد، وصعدت على السلَّم بأقصى سرعة حتى وجدت شقَّة نورُها مضاءٌ في الدُّور الرابع. لم يكن

أمامي اختيار. ضغطت على جرس الباب فخرج لي رجل كبير في السنّ. قلت له:

ـ أنا متظاهرة والبوليس حيقبض عليّ، أرجوك دخّلني عندك.

كانت لحظة صعبة. الرجل ـ يا عيني ـ أصيب بالذهول، لكنّي لم أترك له فرصة. دخلت وأغلقت الباب خلفي، ثم أخرجت له بطاقة الرقم القومي، وقلت:

ـ أنا اسمي أسماء، وأعمل مدرِّسة.

وبينما هو يطالع البطاقة، قلت له:

ـ من فضلك، خلّيني عندك لغاية لمّا المخبرين يمشوا.

بدأ الرجل يستوعب الموقف، فأطفأ ضوء الصالة، وقال بصوت خافت:

ـ تعالي... تفضّلي إلى المكتب.

كان شكله غير عاديّ. تحسّ بأنّه قديم وعريق بشكل ما. واحد من باشوات زمان مثلًا، أو ممثّل مخضرم طلع من فيلم أبيض وأسود. رشيق ووسيم. وجهه أسمر، وتبدو عليه تجاعيد السنّ، وشعره ناعم أبيض تمامًا، مفروق من منتصف الرأس على طريقة الأربعينيّات... كان يرتدي روب دو شامبر كاروهات صوف وتحته فانلّة صوف بياقة. عرفت أنّه مسيحي من تمثال العذراء في مدخل الصالة. كلّ شيء في الشقّة ينمّ عن ذوق كلاسيكيّ جميل. الطقم الجلد الوثير، واللوحات المعلّقة على الجدران، والمكتب الخشبيّ على الطراز الإنكليزيّ. صافحني قائلًا:

ـ أنا اسمي أشرف ويصا.

قلت:

ـ متشكّرة جدًّا لحضرتك لأنّك أنقذتني.

ابتسم وهزَّ رأسه وتجنَّب النظر إليَّ، كأنَّ الشكر يُحرجه. سألني ماذا أشرب؟! كان نفسي أشرب شاي. عمل كوبين من الشاي وجلس خلف المكتب. كان يحمل طابعًا أرستقراطيًّا أنيقًا في كلِّ شيء، ثيابه ومشيه وطريقته في الحديث. احسست بأنَّ وجهه مألوف لديَّ، فقلت:

ـ أظنِّي شفت حضرتك قبل كده.

أخبرني بأنَّه ممثِّل، وذكَّرني ببعض الأدوار الصغيرة التي أدَّاها في بعض المسلسلات. استغربت بصراحة. هذا الرجل يبدو ثريًّا، فما الذي يجعله يقوم بأدوار الكومبارس؟!

قلت له:

ـ اكيد حضرتك بتعتبر التمثيل هواية؟

قال:

ـ التمثيل بالنسبة لي هواية ومهنة. أنا خرِّيج الجامعة الأميركيَّة ـ قسم مسرح.

ـ جميل الواحد يجمع الموهبة والدراسة.

ـ دَه صحيح نظريًّا، لكن في مصر ليس من السهل أن يأخذ الممثِّل فرصته حتى لو كان يستحقّها.

لاحظت أنَّه يدخِّن بشراهة. بعد قليل، بدا كأنَّه تجاوز غرابة الموقف، فنظر إليَّ بودٍّ وضحك وقال:

ـ فرصة سعيدة.

ـ أنا أسعد يا أستاذ أشرف.

ـ اسمحي لي أقول لك أسماء بدون ألقاب. أنت في سنّ سارة بنتي.

ـ طبعًا.

ـ حاكلِّمك بصراحة يا أسماء. أنت مدرِّسة محترمة وباين عليك من أُسرة كريمة. مش فاهم ليه بتعرَّضي نفسك لكلّ المشاكل دي.

ـ لو كلّ واحد فكَّر في سلامته، البلد عمرها ما تنصلح.

ـ يعني أنت مستعدَّة ينقبض عليك وتروحي السجن؟!

ـ طبعًا.

ـ ليه؟ مقابل إيه؟

ـ مقابل إنَّنا نبقى بلد محترمة فيها عدل وحرِّيَّة.

ـ أنت متفائلة يا أسماء.

ـ ملايين المصريين عندهم موقفي نفسه.

لم يبدُ عليه الاقتناع. سكت قليلًا ثم سألني:

ـ ممكن تشرحي لي الهدف من المظاهرات؟

قلت له:

ـ الهدف أنَّنا نجبر مبارك على الاستقالة وننتخب رئيس جديد ونبني دولة ديموقراطيَّة.

قال كأنَّه يُخفي سخريته بابتسامة مهذَّبة:

ـ كلّ دَه كلام رائع نتمنَّى أنَّه يتحقَّق، لكن. أنت مقتنعة فعلًا أنَّ حسني مبارك ممكن يستقيل بسبب المظاهرات؟!

ـ ممكن جدًّا.

ـ مبارك معه الجيش والشرطة. أنتم معكم إيه؟

ـ معنا الحقّ.

ـ الحقّ مش دائمًا بينتصر.

ـ بن علي كان ديكتاتور رهيب، لكنَّ الشعب التونسي نجح في خلعه عن طريق مظاهرات سلميَّة.

دار بيننا حوار طويل. لم يكن مقتنعًا بفكرة الثورة، لكنِّي أحسست بأنَّه يحترم حماستي، على نحوٍ ما... هل تعرف تلك الشخصيَّاتِ اللطيفةَ التي ترفض رأيك، لكنَّها لا تواجهك برفضها أبدًا، وتلفّ وتدور في الكلام، وتختار ألفاظها بعناية حتى لا تضايقك؟! الأستاذ أشرف ويصا من هذا النوع. إنَّه يتصرَّف دائمًا بحساسيَّة وأناقة. لقد احببته لأنَّه أنقذني من الاعتقال، ولأنَّه عاملني بإنسانيَّة واحترام. للأسف، فقد سبَّبتُ له مشكلة مع زوجته. ظلَّ يتطلَّع من الشرفة كلّ فترة ليتابع ما يحدث في الشارع، وفجأة سمعت صوت سيِّدة تناديه من داخل الشقَّة. دخل إليها، وسمعت بعد قليل صوت مناقشة حادَّة. لم أتبيَّن الكلام، لكنَّني أدركت أنَّه يدور حولي. رجع الأستاذ أشرف بعد قليل، وقد بدا عليه الغضب.

قلت له:

ـ أنا متأسِّفة. لو كنت أعرف أنِّي حاعمل مشكلة ما كنتش خبّطت على حضرتك.

قال لي ببساطة:

ـ أوَّلًا، أنت ما كانش عندك اختيار. ثانيًا، أنا سعيد بمعرفتك. ثالثًا، أنا وزوجتي بيننا مشاكل دائمًا، وهي مصدر إزعاج دائم لي.

استغربت لأنَّه تكلَّم بهذا الوضوح. نهضت وقرَّرت الانصراف. سدّ باب المكتب أمامي، وقال:

ـ مستحيل أسيبك تنزلي. الشارع مليان مخبرين.

عندما أصررت، هدَّدني قائلًا:

ـ لو نزلت يا أسماء حانزل معك عشان يقبضوا علينا إحنا الاثنين. يرضيك إنَّ واحد في سنِّي يتقبض عليه ويتبهدل؟!

لن أنسى هذا الرجل الرائع طوال حياتي. رجل لا يعرفني، وليس مقتنعًا أصلًا بالمظاهرات ولا تهمّه إطلاقًا القضيَّة التي أدافع عنها، ما الذي يجبره على التصرُّف بهذه الطريقة؟! تصوَّرْ أنَّه أعدّ لي ساندوتشات جبنة رومي وبيض بالبسطرمة، وألحَّ عليَّ حتى أكلت. تصوَّرْ أنَّه لم يتركني إلَّا الساعة السادسة صباحًا بعد أن نزل بنفسه إلى الشارع، وتأكَّد من انصراف المخبرين. تصوَّرْ أنَّه أوقف لي سيارة تاكسي، وأصرَّ على أن يدفع حسابها مقدَّمًا، وعندما رفضت قال لي:

ـ بنت يا أسماء، اسمعي الكلام أنا في سنِّ بابا.

أكاد أبكي كلَّما تذكَّرت تصرُّفه معي، ليس فقط تأثُّرًا برقَّته، ولكن من فرط إحساسي بالذنب. لقد اكتشفت اليوم أنَّني لم أفهم الشعب. أحسّ بخجل لأنَّني قلت مرَّة إنَّ المصريِّين إمَّا فاسدون وإما جبناء. نفسي أعتذر إليهم واحدًا واحدًا. أشكرك يا مازن لأنَّك علَّمتني ألَّا أتسرَّع في الحكم على الناس. طبعًا، رجعت إلى البيت عند الصبح، فوجدت في انتظاري مشكلةً كبيرة مع أمِّي سأحكيها لك فيما بعد. الخلاصة، أنا بخير والحمد لله. أرجوك طمئنِّي عليك في أقرب فرصة. أشكرك على الأحاسيس الجميلة التي عبَّرتَ عنها في الميدان. ها أنا أبتسم حتى ترى النغَّازتين اللتين تحبّهما.

سلام يا مازن يا... صديقي (كنت سأكتب كلمة أخرى، لكنَّ الخجل غلبني).

أسماء

(٢٣)

أدَّت دانية صلاة العصر، ثم أعدَّت حقيبتها الطبِّيَّة ونظرت إلى نفسها في المرآة لمرَّة أخيرة ونزلت في المصعد. كانت أمّها جالسة في البهو تتحدَّث عبر التليفون، وقد بدا عليها التوتُّر. قبَّلت دانية رأسها وجلست إلى جوارها، حتى انتهت من المكالمة. تطلَّعت إليها أمّها وقالت بانفعال:

ـ ربّنا يستر على مصر يا دانية... أبوك اتَّصل الصبح. بقى له ثلاثة أيّام بايت في الشغل وبيقول لي مش عارف حيرجع إمتى. مؤامرة كبيرة على بلدنا. عاوزين يوقَّعوها في الفوضى. منهم لله.

كانت دانية في حالة حالِمة لا تسمح لها بالنقاش... ابتسمت وتطلَّعت إلى أمّها بودّ، وقالت بطريقة عاديّة:

ـ أنا نازلة.

ـ رايحة فين؟

ـ الكلِّيَّة.

ـ هي الكلِّيَّة فاتحة يوم الجمعة؟!

ـ أيوه. الكلِّيَّة فتحت عيادة طوارئ لإسعاف المصابين.

بدا الغضب على وجه الحاجَّة تهاني، وقالت:

ـ نازلة تسعفي العيال بتوع المظاهرات. وأنتِ مالك؟! إن شاء الله يموتوا كلّهم في ستِّين داهية.

ارتبكت دانية قليلًا، ثم قالت:

ـ إحنا كأطبَّاء واجبنا نعالج أيّ مريض مهما كان.

ـ فضيلة الشيخ شامل قال إنَّ العيال المتظاهرين دُول طلَّاب فتنة ومُفسدين في الأرض. عارفة إنَّ عقوبتهم الشرعيَّة القتل؟!

ـ أنا ما لِيش علاقة بالمظاهرات. أنا طالبة في نهائي طبّ، ودَهْ جزء من تدريبي. الكلِّيَّة عملت لنا استدعاء، وكلَّفتنا نعالج أيّ مصاب. ممكن يبقى متظاهر، وممكن يكون ضابط أو عسكري من الداخليَّة.

سكتت الحاجَّة تهاني، فعاجلتها دانية قائلةً بنبرة كانت تعرف أنَّها تؤثِّر فيها:

ـ يوم القيامة لمَّا أقف قدَّام ربِّنا، سبحانه وتعالى... حضرتك ترضي أنِّي أتحمَّل ذنب ضابط أو عسكريّ مصاب كان في يدي أنقذه وسبته يموت.

بدت بوادر الاقتناع على أمّها بعد جُمَل عديدة من هذه النوعيَّة واستشهادات بالقرآن والحديث الشريف، وسألتها:

ـ مش المفروض نقول لأبوك إنَّك نازلة؟!

أحسَّت دانية بالخطر، فقالت:

ـ ما فيش داعي نقلقه. الموضوع بسيط. أنا رايحة الكلِّيَّة لمدَّة ساعتين ومعي السوَّاق، وهو حياخذ طريق بعيد عن المظاهرات.

اتَّصلت أمّها بالسائق وأوصته بها، ثم تلت على رأسها رُقية شرعيَّة وودَّعتها كالعادة بالقبلات، ثم همست «لا إله إلَّا الله»، فردَّت الابنه «محمَّد رسول الله»... عندما جلست دانية في المقعد الخلفيّ للسيَّارة، فكَّرت في أنَّها لم تكذب على أمّها، لكنَّها أيضًا لم تقل الحقيقة. صحيح أنَّ هناك مستشفًى ميدانيًّا لعلاج المصابين، لكنَّه أُقيم بدعوة من الطلَّاب وبعض الأساتذة، وليس من إدارة الكلِّيَّة. وصحيح أنَّها ذاهبة إلى الكلِّيَّة، كما أخبرت أمَّها، لكنَّها ستنتقل مع زملائها بعد ذلك إلى ميدان التحرير، حيث المستشفى الميدانيّ. كانت فكرة أنَّها تؤدِّي واجبها المهنيّ تحميها من الإحساس بالذنب. لقد تعهَّدت لأبيها بأنَّها لن تفعل شيئًا يُسيء إلى منصبه، لكنَّها ذاهبة لإسعاف المصابين، لا أكثرَ ولا أقلّ. واجبها كطبيبة أن تقدِّم العلاج إلى كلّ من يحتاج إليه. ابتسمت، وهي تستعيد مكالمتها الطويلة بالأمس مع خالد. قال لها:

ـ أنت رفضت الاشتراك في المظاهرات. دَه حقّك، لكن واجبك كطبيبة يحتِّم عليك إسعاف المصابين.

هل اقتنعت لأنَّ منطقه كان قويًّا، أم لأنَّها تريد أن تكون معه؟! أوصلها السائق إلى أمام بوَّابة القصر العينيّ، حيث وجدت خالدًا واثنين من الأساتذة ونحو عشرين زميلًا وزميلة، يرتدون المعاطف البيضاء. كانت تعرفهم كلّهم. اطمئنَّت بوجودهم وحيَّتهم بحرارة...

ولاحظت أنَّ خالدًا يبدو شاحبًا، فسألته بقلق:

ـ مالك؟ شكلك تعبان.

ابتسم، وقال:

ـ ما نمتش من امبارح.

طلب منها ارتداء المعطف الأبيض، وأخبرها بأنَّهم حريصون على أن يفهم الأمن أنَّهم أطبَّاء يقومون بواجبهم. سألته ببساطة:

ـ تحبّ تركب معي العربيَّة؟

ضحك وقال:

ـ يا دانية هانم، ما حدّش يروح مظاهرة في عربيَّة مرسيدس.

تطلَّعت إليه بلوم، فقال بجدِّيَّة:

ـ إحنا حنروح الميدان ماشيين.

طلبت من السائق أن ينتظر في مكانه ومشت معهم. اجتازوا الكوبري، وساروا في شارع القصر العيني. تبادلت حديثًا ضاحكًا مع زملائها، لم يشاركهم فيه خالد، فسألته:

ـ بتفكَّر في إيه، يا دكتور؟

ابتسم، وقال:

ـ أنا مش بافكَّر. أنا باحلم.

ـ يا تُرى الحلم جميل؟

ـ جدًّا.

ـ ممكن أعرفه.

ـ باحلم أنَّ الثورة نجحت.

قالت بمرح:

ـ يعني يوم ما تحلم تحلم بالثورة؟!

ـ أنا شفتك جنبي في الحلم.

ـ لا يمكن أصدّقك. أنت بتحلم بالثورة بسّ.

هكذا هتفت بدلال، فاقترب منها وهمس:

ـ يا دانية أنت حتكوني معي دائمًا، في الحلم وفي الحقيقة. أنا محظوظ إنّي عرفتك، ومحظوظ إنّي شفت الثورة وشاركت فيها.

غلبه التأثُّر فصمتَ. تمنَّت، في تلك اللحظة، لو تحتضنه وتأخذ رأسه على صدرها. تمنَّت لو تقول له إنَّها تحبّه وإنَّها لن تتركه أبدًا. لو تؤكّد له أنَّها على استعداد لأن تحارب الدنيا كلّها حتى يتحقَّق حلمهما بالزواج... تمنَّت أن تتخيَّل معه بيتهما وكم ولدًا وبنتًا سينجبان، وماذا ستكون أسماؤهم. أشاحت بوجهها لتسيطر على مشاعرها. راح المتظاهرون في المسيرة يهتفون: «عِيْشْ، حرِّيَّة، عدالة اجتماعيَّة». كان الناس في الشرفات والنوافذ يصفِّقون، وأطلقت بعض النساء زغاريد أضفت جوًّا احتفاليًّا على المظاهرة. وراح المتظاهرون يشيرون إلى الواقفين في الشرفات، ويهتفون «يا أهالينا انضمُّوا لينا»، «انزل يا مصري...».

أخذت المسيرة تكبر بسرعة وهي تتقدَّم نحو التحرير... كانت دانية مأخوذة بما يحدث حولها: كأنَّها تحلم؛ كأنَّها دخلت عالمًا سحريًّا لم تعرفه من قبل. تطلَّعت إلى وجوه المتظاهرين. كانوا أناسًا عاديّين مثل الذين تعالجهم في القصر العيني... أين هي المؤامرة الكبرى التي تحدَّث عنها أبوها؟! هل كلّ هؤلاء قبضوا أموالًا من

الخارج؟! هل النساء اللاتي يزغردن في الشرفات عميلاتٌ للمخابرات الأميركيّة؟! وهل يُجيز الشرع قتلَ هؤلاء المتظاهرين، كما أفتى الشيخ شامل؟! هل يُجيز الإسلام قتلَ من يطالب بالعدل؟

احتشد المتظاهرون حتى لم يعد هناك موقع لقدم. حرصت دانية على أن تظلّ إلى جوار خالد. كان وجودها إلى جواره يُطمئنها. نظرت خلفها، فلم تعد قادرة على رؤية أوَّل المظاهرة. علا الهتاف كالرعد «عِيْشْ حرّيّة عدالة اجتماعيَّة»، «الشعب يريد إسقاط النظام». لم تهتف معهم، ليس فقط حرصًا على مصلحة أُسرتها، ولكن لأنَّها أحسَّت، في أعماقها، بأنَّ هتافها سيكون عبثيًّا وكاذبًا... هل تهتف ابنة اللواء أحمد علواني من أجل إسقاط النظام الذي يمثِّل أبوها أحدَ أركانه؟! عندما صارت في قلب المظاهرة الحاشدة، تذكَّرت كلام أبيها على الجهات الأمنيَّة التي تراقبها، فعاودها إحساس بالذنب راحت تقاومه. حتى لو صوَّروها وسط المظاهرة، فهي ترتدي المعطف الأبيض، ولا تهتف معهم، وهي تؤدِّي واجبها كطبيبة. تمسَّكت بهذه الفكرة المريحة، لكنّها، في أعماقها، كانت تشكّ فيها. إنَّها هنا، ليس فقط لإسعاف المصابين، وإنّما لأنَّها تريد أن تكون مع خالد. كما أنَّ هناك شيئًا حقيقيًّا وصادقًا في هذه المظاهرة بدأ ينفذ إلى إحساسها شيئًا فشيئًا. لو كانت من أُسرة ثريَّة عاديَّة، ولم يكن أبوها وأخواها يشغلون مناصب حسَّاسة، فهل كانت ستشترك في المظاهرة؟ غالبًا نعم... الإحساس بالعدالة لا علاقة لها بكونك غنيًّا أو فقيرًا. قرَّر منظِّمو المظاهرة أن يكون الأطبَّاء في المقدّمة. تراجع المتظاهرون إلى الخلف حتى صار الصفّ الأوَّل بالكامل أطبّاء وطبيبات بالمعاطف البيضاء. دخلوا ميدان التحرير الذي كان يموج بحشود هائلة من المتظاهرين.

مرُّوا بين قطع حديد ثقيلة وعريضة لها نتوءات مدبَّبة كالخوازيق، وضعها المتظاهرون على أرض الشارع لمنع دخول سيَّارات الشرطة الميدان، تقدَّمت دانية مع زملائها نحو الميدان، وفجأة سمعت دويًا هائلًا متواصلًا، وسرعان ما امتلأ الجوّ بالغاز الكثيف. أحسَّت بحرقان في عينيها وأنفها، وبدأت تجد صعوبة في التنفُّس. صاح بعض المتظاهرين: «اثبت مكانك».

أحسَّت بخوف، وسعلت بشدَّة، وصارت عاجزة تمامًا عن الرؤية من كثافة الدخان. أمسك خالد بيدها وجذبها وصاح:

- تعالي الناحية دي.

تراجعا بعيدًا عن مصدر الغاز. شهقت عدَّة مرَّات. وجدت نفسها وسط مجموعة من المتظاهرين الذين اضطرُّوا إلى التراجع لأنَّهم عجزوا عن تحمُّل كثافة الغاز. وقفوا جميعًا عند سُور الجامعة الأميركيَّة، وراح زملاؤها يوزِّعون قطعًا من القطن مشبعة بالخلّ، وزجاجاتٍ ملأوها بمحلول ملح وركَّبوا فيها بخاخات. بدأت دانية باستنشاق الخلّ، ثم غسلت وجهها وأنفها بالمحلول، فأحسَّت بتحسُّن، وبدأت في مساعدة المتظاهرين حولها. ظهرت بعد قليل سيَّارةُ شرطة تسير بسرعة نحو الميدان، لكنَّها توقَّفت أمام قطع الحديد المتناثرة على الأرض. كان الضابط راكبًا إلى جوار السائق، أخرج رأسه من النافذة وتطلَّع بغضب إلى المتظاهرين، وصاح:

- شيلوا الحديد من على الأرض.

لم يتحرَّك الواقفون، وصاح أحدهم:

- مش حنشيل الحديد. أنتم داخلين تقتلوا زملاءنا.

(٢٤)

حاول أشرف، تلك الليلة، أن يشرح موضوع أسماء لزوجته ماجدة بهدوء، لكنَّها ثارت وقد جعلت آثار النوم وجهَها يبدو معكَّرًا وشرسًا... صاحت:

- أنا مش عاوزة إخوان في بيتي.

- قلت لك البنت مش إخوان. هي كانت في المظاهرة، والبوليس كان حيقبض عليها.

- ما تروح في ستِّين داهية.

- أنت ما بقاش عندك رحمة؟! دي بنت محترمة بتشتغل مدرِّسة، وفي سنّ سارة بنتنا. إزّاي أسيبها ينقبض عليها؟

- البنت المحترمة ما تنزلش في المظاهرات أساسًا.

- ماجدة. البنت لجأت لي ويستحيل أتخلّى عنها... فاهمة؟!

تطلَّعت إليه فأدركت أنَّه لن يتزحزح عن موقفه، فدمدمت عندئذ

بكلمات غاضبة، ثم عادت إلى حجرتها واستأنفت النوم. . . على مدى اليومين التاليين، تجنَّبها أشرف تمامًا. حاولت الحديث معه عن المظاهرات، واستدرجته ليحكي ما حدث مع أسماء، لكنَّه كان يردّ بعبارات مقتضبة غائمة، ثم ينسحب. كان يُدرك أنَّ أيّ مناقشة معها ستؤدِّي إلى مشكلة، ولم يكن لديه طاقة للتشاجر. إنّه يحتاج إلى الوحدة والتفكير. لقد سبَّبت له الأحداث المفاجئة المتلاحقة توتُّرًا بالغًا يسعى للتغلُّب عليه بالحشيش. إنَّه يكتشف الآن أنّه عاش منعزلًا لسنوات، فلم يلحظ أنَّ كلّ شيء في مصر يتغيَّر. كان محصورًا بين شقَّته التي تشكِّل عالمه الصغير المغلق، ومعاركه المريرة الخائبة في مجال التمثيل، وها هو يجد نفسه أمام نوع مختلف من المصريِّين. إنَّهم، كما قالت أسماء، مستعدُّون تمامًا للاعتقال، وحتى للموت، من أجل تحقيق العدل. إنّه يتأمَّلهم بمزيج من عدم التصديق والإعجاب والإحساس بالذنب. صباح الجمعة، فوجئ بماجدة تدخل مكتبه وهي تحمل حقيبة سفر صغيرة. قالت بصوت عالٍ ونبرة رسميَّة، كأنَّها تُعلمه بأمر قضائيّ:

ـ أنا قرّرت أروح أقعد عند ماما في مصر الجديدة.

راح يستجمع تفكيره المشتَّت من أثر التسطيل. تنحنح وقال:

ـ فكرة غريبة.

كأنَّما كانت تنتظر أيّ كلمة منه لتنفجر. صاحت:

ـ لا، مش غريبة ولا حاجة. البلد بتنهار. النهار دَه قطعوا الإنترنت وشبكات المحمول. بعد صلاة الجمعة، الإخوان حيعملوا مظاهرات، وربِّنا يعلم اللي حيحصل. وجودنا قرب ميدان التحرير

خطر. لازم نروح عند ماما يومين لغاية لمّا الدنيا تِهْدى.

ابتسم أشرف، وقال:

ـ على فكرة، مصر الجديدة فيها مظاهرات زيّ هنا بالضبط.

نظرت إليه بحنق، وصاحت:

ـ نفسي أعرف أنت بتستفزّني ليه؟! بدل ما تحاول تهدّيني تقوم تخوّفني أكثر؟!

اتّسعت ابتسامته، وقال:

ـ أنا باقول لك الحقيقة.

ـ حتى لو مصر الجديدة فيها مظاهرات، أكيد حتكون أمان أكثر من هنا.

ـ خلاص. روحي وربّنا معك.

ـ أنا باحذّرك يا أشرف. وجودك هنا خطر عليك. ممكن جدًّا الإخوان يهجموا عليك وأنت قاعد في الشقّة... أنت مش خايف؟

ـ لأ.

ـ طبعًا ما أنت أنقذت بنت من الإخوان، بقيت حبيبهم.

ـ قلت لك البنت دي مش إخوان. وبصراحة أنت خُوفك مبالغ فيه. إحنا ما عملناش حاجة عشان حدّ يهاجمنا.

ـ مجرَّد أنّنا أقباط نبقى بالنسبة للإخوان كفّار لازم يذبحونا.

تنهَّد أشرف وقال:

ـ اللي بنقوله بنعيده يا ماجدة؟! أنت عندك فزع مَرَضي. ما فيش فائدة من الكلام.

اقتربت منه خطوة، وقالت:

ـ حتيجي معايا؟!

هزّ رأسه علامة النفي، فصاحت بغضب:

ـ أنت حرّ. أنا حاكون عند ماما. لو حبّيت تيجي أنت عارف العنوان.

استدارت وخرجت إلى الردهة، ثم نادت إكرام وأعطتها تعليمات بصوت مرتفع ونبرة حادَّة. سمع أشرف بعد قليل صوتَ إغلاق باب الشقَّة، فأحسَّ براحة وأشعل سيجارة ملفوفة، وسرعان ما جاءت إكرام، وسألته بقلق:

ـ هيّ مدام ماجدة غضبانة؟

ـ لا.

ـ طيِّب هيّ سابت البيت ليه؟!

نهض أشرف من خلف المكتب، وجذبها من يدها، ثم جلسا متجاورَين على الأريكة. طبع قبلة سريعة على خدِّها، وقال:

ـ مدام ماجدة خايفة تقعد هنا عشان المظاهرات. راحت بيت والدتها في مصر الجديدة.

زمَّت شفتيها الشهيَّتين، ثم قالت:

ـ أقول لك حاجة بس ما تزعلش؟

ـ تفضَّلي.

ـ أنا بجدّ مش فاهمة إزّاي مراتك ساعة الجدّ تهرب وتسيبك.

تطلَّع إليها وابتسم، فاحتضنته وهمست:

ـ أنا لو كنت مراتك ما كنتش أسيبك أبدًا. يا نعيش سوا، يا نموت سوا.

صارت فتنتها لا تُحتمل. احتضنها وراح يقبّل عنقها وأذنها، نهمست:

ـ ممكن أغيَّر لبس الشغل؟!

تجاهل السؤال، والتقم شفتيها في قبلة طويلة مضطرمة. ومن فرط الرغبة تبادلا الحبّ على السجادة من دون وسائد. كان أداؤه عارمًا كأنّه يريد أن يتخلّص من قلقه في جسدها؛ كأنَّه يحتمي بها من هواجسه؛ كأنَّه يلتحم بها ليطمئنّ مرَّة أخرى إلى أنَّها معه. استقبله جسدها بصبر وتفهُّم، فاحتملت خشونته، واحتوته بحنان أموميّ جارف حتى كاد يبكي. ظلّ مستلقيًا بعد الحبّ على ظهره يحدِّق في السقف، بينما يده تحتضن يدها. لم يتكلّم، ولم يدخِّن كعادته. ظلَّ غارقًا في أفكاره حتى قالت:

ـ اللّي واخد عقلك يتهنّى به.

ابتسم ولم يردّ. طبعت قبلة على خدّه، وهمست:

ـ ممكن تقول لي حضرتك بتفكّر في إيه؟

ـ في كلام أسماء.

تضاحكت وقالت:

ـ أسماء دي باين عليها حلوة قوي.

التفت إليها بدهشة، ثم احتضنها وهمس:

ـ أنت أحلى واحدة في الدنيا.

قالت بقلق صريح:

ـ إنت ما عندكش سيرة غير أسماء من ساعة ما شفتها

ردّ بنبرة جدّيّة:

ـ سيبك من الغيرة العبيطة وافهميني. أسماء بالنسبة لي بتمثّل جيل مختلف، وطريقة تفكير جديدة. من ساعة ما تناقشت معها وأنا باسأل نفسي: مين الصحّ ومين الغلط؟

ـ مش فاهمة.

ـ الناس اللي في سنّي عانوا طول عمرهم من الفساد والظلم، لكن عمرهم ما عملوا حاجة لتغيير الوضع. أنا، مثلًا، كان ممكن أبقى ممثّل ناجح ومشهور لولا الفساد في مجال الفنّ. عملت إيه لمحاربة الفساد؟ ولا حاجة.

ـ يعني كنت عاوز تعمل إيه؟

ـ الفساد في الفنّ جزء من فساد النظام. لا بدَّ من تغيير النظام الأوّل عشان كلّ حاجة تتصلّح. أنا كنت فاهم دَه، بس كنت خايف أشترك في السياسة.

ـ عندك حقّ تخاف. حضرتك رجل محترم عندك أسرة وعيال، واللي بيقول كلمة الحقّ في البلد دي بيروح ورا الشمس.

ـ أهو اللي عاجبني في الشبّان زيّ أسماء، أنّهم مش خايفين زيّنا. هم مصمّمين يصلّحوا البلد ومستعدّين يدفعوا الثمن... بصراحة هم أشجع منّا.

بدت على وجه إكرام ابتسامةٌ فاترة، ولم تكن قد تخلّصت تمامًا من هاجس الغيرة، فنهضت وتظاهرت بالبحث عن الشبشب. مرّت

أمامه وهي عارية، فترجرج ثدياها المكتنزان وقد تحرَّرا من كلّ قيد، واتّخذت مؤخّرتها العظيمة أوضاعًا متنوّعة مبهجة. كانت تعلم بأنّ جسدها العاري يثيره. لم يكن يطيق رؤيتها عارية بغير أن ينقضّ عليها ليبدأ نوبة غرام. ظلّ هذه المرّة غارقًا في صمته. انحنت عليه وقبّلته، وقالت:

ـ بتحبّني؟!

ـ طبعًا.

ـ طيّب، لو بتحبّني بلاش كلام عن المظاهرات.

راحت تداعب بيدها الخبيرة أسفلَ بطنه، وهمست:

ـ إحنا مع بعض وما فيش قلق. خلّينا نتمتّع ونتكلّم بعدين.

انهمكا في نوبة حبّ صاخبة، ثم أخذت حمّامًا وعادت وقد لمّت شعرها وارتدت فستان بيت أزرق. بدت منتعشة كأنّها وردة ارتوت لتوّها. اقترحت عليه أن يتناولا الغداء في حجرة السفرة. أكلا معًا وتحدّثا. تعمّدت أن تروي له أشياء مضحكة عن جيرانها في الحوامديّة. انتهى من الطعام وقال:

ـ شكرًا يا إكرام.

ـ على إيه؟!

ـ على أنّك بتسعديني.

ابتسمت بامتنان، فتشجّع وقال:

ـ من فضلك اعملي لي فنجان قهوة أشربه في البلكونة.

قالت بنبرة شكوى مرحة:

ـ ما فيش فايدة. بَرْضُه عاوز تشوف المظاهرات.

اجتاز الردهة بسرعة إلى المكتب، وفتح الشرفة، وراح يتابع ما يحدث في الميدان.. رفعت الصحون من على المائدة وغسلتها في المطبخ. وبينما هي تصلح زينتها أمام المرآة الكبيرة في الصالة، تردَّد صوت أشرف فجأة في الردهة كالعويل:

ـ إلحقي يا إكرام، دُولْ بيقتلوهم... بيقتلوهم بالرصاص.

(٢٥)

أسماء،

أتمنَّى أن تكوني بخير. أكتب هذه الرسالة بسرعة على ورقة لأنَّ الإنترنت مقطوع، ولا أعرف كيف سأوصلها إليك. رجعت إلى البيت لآخذ حمَّامًا وأغيِّر ملابسي، وسأعود إلى الميدان على الرَّغم من أنِّي ميِّت من قلَّة النوم. اليومَ بعد صلاة العصر، كنت وسط مظاهرة متوجِّهة إلى ميدان التحرير، ولمَّا وصلنا إلى مجلس الشورى كان الجيش قد أغلق الطريق. اقترب منَّا ضابط جيش برتبة نقيب، وقال:

- يا جماعة، فيه عساكر أمن مركزيّ محصورين في الميدان وعاوزين يخرجوا. دُول مساكين وما لهمش ذنب في حاجة. بقى لهم ثلاثة أيَّام ما شافوش النوم. ممكن تسيبوهم يَعَدُّوا الناحية الثانية عشان بركبوا عربيَّة الشرطة ويرجعوا المعسكر، وكلّ واحد فيهم يرجع على بلده؟!

كان منظر العساكر فعلًا يُثير الشفقة. بدوا متعبِّين للغاية، وجلس بعضهم على الأسفلت من فرط الإرهاق. تشاورت مع

زملائي، ثم قلت للضابط:

ـ حضرتك قل لهم يمرُّوا واحنا مش حنتعرض لهم.

ابتسم الضابط، وسأل:

ـ اعتبر دَه وعد؟

تعهَّدنا له، وعملنا حاجزًا بشريًّا مزدوجا تركنا وسطه ممرًّا عبر فيه العساكر، ورحنا نهتف:

«إحنا إخواتكم... إحنا اولادكم».

كان المشهد حماسيًّا ومؤثِّرًا. كانوا نحو أربعين عسكريًّا مرُّوا، واحدًا بعد الآخر، إلى الشارع المجاور لمبنى كايرو سنتر. هناك كانت تنتظرهم سيَّارة شرطة كبيرة يُفترض أن يصعدوا إليها. لكنَّهم بمجرَّد وصولهم إلى السيَّارة، حدث ما لم نتوقَّعه. ظهر ضابط شرطة برتبة رائد لن أنسى وجهه أبدًا. كان نحيفًا وعصبيًّا. وزَّع ذخيرة على الجنود وأمرهم، فبدأوا يضربوننا بالرصاص الحيّ. حاولنا أن نهرب فاكتشفنا أنَّهم وضعونا في كمَّاشة. الجيش أغلق ميدان التحرير حتى يتيح الفرصة للشرطة لقتلنا. جرينا نحو مجلس الشورى والرصاص يلاحقنا. رأيت أكثر من زميل يسقط. لم يكن ممكنًا أن نُسعفهم وسط غزارة الرصاص المتلاحق. تخيَّلي البشاعة... كلّنا نجري، وكلّ دقيقة يسقط شابّ برصاصة تُصيبه من الخلف. دخلنا مجلس الشورى، فأشار إلينا العاملون بأن نختبئ، لكنَّ الجنود طاردونا داخل مجلس الشورى وهم يطلقون الرصاص. لا تسأليني كيف نجوتُ من هذه المذبحة. أنا نفسي لا أعرف. ربَّما يكون الحظّ خدمني لأنَّني ركضت إلى الباب الخلفيّ لمجلس الشورى، ناحية مدرسة الليسيه. سأظلّ ما حييت أتذكَّر تلك الدقائق الرهيبة. رأيت زملائي يموتون بالرصاص. رأيت الشهداء جثثهم تتناثر على الأسفلت، ورأيت

زميلًا وهو يحتضر، شهق ثم ارتجف جسده ومات. رأيت عسكريًّا يتقدَّم نحو شهيد ويسرق ما في جيوبه، ثم يفكّ الساعة من معصمه ويأخذها. حدث هذا أمام الضابط الذي كان يصيح:

ـ اضرب يا عسكري.

فيتواصل إطلاق الرصاص. لن أنسى الغلّ والحقد على وجه ضابط الشرطة وهو يوجِّه إلينا شتائم بذيئة، ويتفقَّد الواقعين على الأرض. وعندما يرى جريحًا يضربه بكلّ قوَّته في مكان الجرح. خرجت بأعجوبة من هذا الجحيم. طوال النهار، وأنا أسترجع ما حدث وأتساءل: كيف يسمح ضابط الجيش لنفسه بأن يخدعنا؟! ألا يعرف معنى الشرف العسكريّ؟ ثم، ما كلّ هذا الإجرام لدى ضابط الشرطة؟ كيف يقتل شبابًا مصريّين بهذه السهولة، وهذا التصميم؟! ما المتعة التي يشعر بها عندما يضرب جريحًا على قدمه المصابة؟! لماذا يكرهوننا إلى هذا الحدّ؟

الشهداء سيصعدون إلى ربِّهم الذي وعدهم بالجنَّة، لكنَّني حزين يا أسماء، لأنَّ أفضل مَن فينا يموتون. كلّ شهيد من هؤلاء كان من الممكن أن يساهم في نهضة مصر، لكنَّها قتلته. لن أنسى ما عشته اليوم. لن أنسى الشهداء الذين سقطوا أمامي، ولن أهدأ حتى نحاكم القتلة جميعًا، بدءًا من حسني مبارك ووزير الداخليَّة المجرم، وحتى ضابط الجيش الذي خدعنا وضابط الشرطة القاتل. لا أعرف لماذا أكتب إليك هذا الكلام: ربَّما لأتخلَّص من عبء التجربة؛ ربَّما لأسجِّل المذبحة. لا أعرف كيف سأوصل إليك هذه الرسالة. طمئنيني عليك بأيّ طريقة. أسماء، لقد زارني الموت اليوم. كان الرصاص يعبر في جواري ليقتل زملائي. لم أمُتِ اليوم، لكنْ قد أموت في أيّ لحظة، لأنَّ النظام يزداد إجرامًا. إذا متُّ فتذكَّري أنَّني أحبّك.

مازن

(٢٦)

في التاسعة والخمسين يبدو الأستاذ محمَّد زناتي أكبر من سنِّه بعشرة أعوام. نحل جسده حتى اتَّسعت عليه ملابسه القديمة، وسقط شعره ما عدا بضع خصلات تناثرت في أنحاء صلعته الفسيحة... تحوَّل حاجباه الكثيفان إلى اللون الأبيض، وغزت التجاعيد وجهه. حتى جِلدُ يديه انتشرت فوقه بقع الشيخوخة. لماذا تدهورت صحَّة محمَّد زناتي بهذه السرعة؟ هل السبب ربعُ قرن من الغربة في السعوديَّة، أم عملُه المنهِك في الحسابات، أم تلك المعاركُ الضارية المستمرَّة والتي يخوضها دفاعًا عن الرِّزق، أم هي متاعبُ الكِلى التي أصابته عندما قرَّر، بالرَّغم من تحذير زملائه، أن يدَّخر ثمن المياه المعدنيَّة ويشرب مياه الصنابير في السعوديَّة؟

مهما يكن، فإنَّه الآن شيخ منهَك يعطي الانطباع بأنَّ رحلته شارفت على النهاية... الشيء الوحيد الذي لم يتغيَّر فيه ابتسامتُه... سنجدها، كما هي في كلِّ صوره. من البداية، في الصورة بالأبيض

والأسود، التي يظهر فيها وهو تلميذ في مدرسة طلخا الثانويَّة (بنين)، ثم صوره في أثناء رحلة القناطر التي قام بها وهو طالب في كلِّيَّة التجارة ـ جامعة القاهرة، ثم صوره مع زملائه في شركة المقاولات المصريَّة التي عمل فيها عقب تخرُّجه، حتى آخر صور التقطها لنفسه في مكتبه في شركة الغامدي للاستيراد في جِدَّة. ظلَّت ابتسامة زناتي كما هي، بريئةً وديعة، تحمل طابعًا استثنائيًا متسامحًا قنوعًا. كم فتحت له هذه الابتسامة الأبوابَ المغلقة، وكم أنقذته من مواقف صعبة... لم يتخرَّج زناتي بتفوُّق، وهناك محاسبون كثيرون أفضل منه، لكنّ أحدًا من زملائه في العمل لم يصمد أمامه في أيِّ منافسة. إنَّه أحد المبدعين الكبار في فنِّ معاملة الرؤساء. يعرف دائمًا كيف يؤثِّر في رئيسه ويَكسبه إلى صفِّه، وكيف يُظهر له طاعته المطلقة وانبهارَه بنبوغه؛ كيف يحتفي بكلِّ ما يقوله ويعتبره خلاصة الحكمة ومنهاج العمل. في حضرة رئيسه، يتحوَّل زناتي إلى شخص آخر: يتحوَّر، ينكمش، يتضاءل، يقوِّس ظهره، ويتحدَّث بنبرة خاضعة مستكينة لأنَّه يعتبر الثقة بالنفس أمام الرؤساء وقاحةً. ومهما يكن السياق أو الموضوع، فسيقترب زناتي من رئيسه وينحني، ثم يقول بصوت خافت، لكنَّه مسموع للحاضرين:

ـ سيادتك توجِّهني وأنا أنفِّذ فورًا. تحت أمر سيادتك.

هذه الهمسات الخاضعة تبعث في نَفْس رئيسه إحساسًا ذكوريًا بالسيطرة يُنعشه ويشرح صدره نحو زناتي. إنَّ زناتي الذي لم يقرأ في حياته إلَّا تفسير القرآن و«صحيح البخاري» وجريدة «أهرام» الجمعة (التي يستعيرها من زميله في السكن)، يمتلك مع ذلك قدرة فطريَّة على التعبير الفصيح تقترب من الشعر. مَن سواه يستطيع أن يقول لرئيسه:

ـ سيادتك، ما شاء الله، كما المحيط في العلم. كل رأي لسيادتك باحفظه كلمة كلمة وأرجع أفكّر فيه في البيت. أقوم بيه معنى جديد وأتعلّم درس مفيد. . . ربّنا يخلّيك لنا ويبارك لك يا فندم.

هذه العبارة الأخيرة يتمّ تعديلها مع الكفيل السعودي، فتكون:

ـ جزاك الله خيرًا يا طويل العمر. الله يرحم والديك ويعطيك على قد خيرك وأفضالك علينا.

كما يفخر الرياضيّ بالبطولات التي أحرزها، يعتزّ الأستاذ زناتي بالمنافسات الوظيفيّة التي فاز فيها جميعًا. في يوم عصيب لا ينسى، كادت إعارته للسعوديّة تُلغى نتيجة لوشاية زميل تآمر ليسافر بدلًا منه. عندئذ ذهب زناتي إلى المدير العام لشركة المقاولات المصريّة، وقال بصوت متهدّج باكٍ:

ـ يا فندم، يا سعادة البك، أنا واثق في عدل سيادتك. أنا في رقبتي ثلاثة عيال وأمّهم لا تعمل ونفسي أروح السعوديّة لأجل أجيب مصاريفهم. لو سيادتك تأمر بإلغاء الإعارة أنا قابل قرار سيادتك وراضي به، لأنّي باعتبر سيادتك والدي وقدوتي ومثلي الأعلى.

كانت تلك «الجرعة» كافية كي يكتب المدير بالقلم الأخضر التأشيرةَ التي غيّرت حياة زناتي: «أوافق على الإعارة».

هل يُعتبر الأستاذ زناتي منافقًا؟ من باب اللباقة، نقول إنّه يُجيد التواؤم مع ظروفه. إنّه مثل ملايين المصريين، لا يبدّد طاقته بعيدًا عن أهدافه الثلاثة في الحياة: الرّزق الحلال، وتربية العيال، والستر دنيا وآخرة. لقد حجّ إلى بيت الله مرّتين، وأدّى العمرة خمس مرّات، وهو لا يضيّع فَرْضًا ولا ينسى سُنّة، ويحتسب كلّ ذلك عند الله، سبحانه

وتعالى. عندما يقضي إجازة الصيف مع أُسرته في القاهرة يكون سعيدًا، يغرف ـ بقدر ما تسمح سنُّه ـ من المتعة الحلال مع زوجته، ويسعد بوجوده وسط أولاده، لكنَّه لاحظ مؤخَّرًا أنَّ استمتاعه بإجازته في القاهرة صار أقلّ، بل إنَّه عندما يعود إلى سكنه في جدّة، صار يحسّ كأنَّما خلع عنه بدلة أنيقة ضيِّقة وارتدى جلبابًا واسعًا مريحًا. لقد اعتاد على الحياة في السعوديَّة، وتأثَّر بها، فأصبح يتكلَّم كالسعوديِّين، فيقول السلام عليكم في التليفون بدلًا من «ألو»، ويستعمل المفردات السعوديَّة، مثل «الراتب» و«الدوام» و«حارس البناية»...

الأستاذ زناتي طيِّب ومتديِّن، لكنَّه ليس شخصًا سهلًا أو ضعيفًا، بل إنَّ لديه أنيابًا حادَّة يُبرزها ويستعملها بشراسة إذا لزم الأمر. كما أنَّه، لو انطبقت السماء على الأرض، لا ينفق المال بغير سبب قاهر... إنّ شعاره المقدَّس «أولادي أولى» يدفعه إلى التمحيص والتدقيق، بل إجراء تحرِّيات جادَّة قبل أن يدفع جنيهًا أو ريالًا واحدًا. في أوّل عمله في السعوديّة، سكن مع زميلين مصريين، واتَّفقوا على أن يشتري كلّ واحد منهم حاجته من الشاي والسكَّر والبَنّ، ويستعملها لنفسه فقط، ثم يقتسموا أجرة السكن وفاتورتيَ الكهرباء والمياه. عاشوا في سلام ووئام، حتى اكتشف زناتي بالصدفة أنَّ أحد الزميلين يختلس من البنّ المحوَّج الخاصّ به ويشرب القهوة على حسابه. هنا شنّ زناتي حربًا بلا هوادة على المختلس، واستشهد بآيات قرآنيَّة وأحاديث نبويَّة صحيحة لتأكيد أنَّ خيانة الأمانة من الكبائر، ثم هدَّد الخائنَ بفضحه عند كفيله السعوديّ فانهار، واعتذر بشدَّة. وتعهَّد بشراء البنّ لزناتي لمدَّة ستَّة شهور كاملة كنوع من التكفير عن فعلته الشنعاء. معركة أخرى خاضها زناتي ضدَّ اتِّحاد مُلّاك العمارة التي يسكنها في

شارع فيصل. فقد رفض تمامًا أن يدفع مصاريف صيانة المصعد. وعندما قام اتّحاد الملاّك بعمل كالون للمصعد، وأعطوا مفاتيحه فقط للسكّان الذين دفعوا مصاريف الصيانة، قام الأستاذ زناتي، خلسةً، بكسر مفتاح صغير داخل كالون المصعد، الأمر الذي أدّى إلى تعطّله. غضب المسؤولون في اتّحاد المُلاّك وحقّقوا في الواقعة، لكنّهم لم يتوصّلوا إلى الجاني، واضطرُّوا إلى عمل كالون جديد، فما كان من زناتي إلّا أن كسر فيه مفتاحًا آخر. عندما ركّب المسؤولون ثالث كالون، شدّدوا الحراسة على المصعد بواسطة البوّاب وبعض السكّان المتطوّعين (الذين دفعوا الصيانة)، لكنَّ الأستاذ زناتي، وقد اكتسب خبرة، استطاع أن يغافلهم ويكسر مفتاحًا في الكالون الثالث، وهو نازل لصلاة الفجر في المسجد. هنا، استسلم اتّحاد الملاّك وألغى الكالون، وأعاد فتح المصعد للسكّان جميعًا. لم تكن هذه معركته الوحيدة مع اتّحاد الملاّك، فقد رفض أيضًا دفع مصاريف استهلاك المياه المقرَّرة على كلّ شقّة، وكانت حجّته في ذلك قويّة ومُفحمة، يردّدها مبتسمًا بهدوء لكلّ من يقابله من السكّان:

ـ المسألة مسألة مبدأ. ربّنا لا يرضى بالظلم... الساكن العادي لا يزيد استهلاكه من المياه على ثلاثة لترات في اليوم. العمارة فيها عشر عيادات لأطبّاء من تخصُّصات مختلفة. كلّ عيادة يزورها يوميًا بين عشرين وثلاثين مريضًا. عيادة الأسنان وحدها بتستهلك أربعة أو خمسة لترات مع كلّ مريض. يبقى لا يمكن الطبيب يدفع زيّ الساكن العادي.

نجح زناتي في حشد الرأي العامّ في صفّه، فامتنع سكّان كثيرون من الدفع، وقد تحمَّل إجراءات عقابيّة من اتّحاد الملاّك الذي قدّم

بلاغًا ضدَّه، فتمّ استدعاؤه في القسم. وبفضل أسلوبه المهذَّب وابتسامته الوديعة، فاز زناتي بتعاطف الضابط الذي حقّق معه إذ صافحه مودِّعًا، وقال بودٍّ:

ـ على فكرة، من الناحية القانونيَّة، اتِّحاد الملاّك ما يقدرش يعمل حاجة. يعني تدفع أو ما تدفعش، الموضوع يرجع لك.

هنا شدَّ الزناتي على يد الضابط بحرارة، ودعا له بعبارة بليغة تعلَّمها في المسجد:

ـ أدعو الله أن يجزيك خيرًا ويبارك لك وعليك ومن حولك.

في النهاية، اعتبر اتِّحاد الملاّك المستحقَّات على الأستاذ زناتي نوعًا من الديون المعدومة، فكفَّ عن مطالبته بها، وقد حرص زناتي ـ بعد انتصاره ـ على محو أيّ ضغائن قد تكون ترسّبت في الصدور، فكان يهشّ لجيرانه عندما يراهم في المسجد، ويطمئنّ على أحوالهم، ثم يدعو لهم بالخير ليترك أثرًا جميلًا في نفوسهم... الحمد لله، لقد أنعم الله عليه بالمال والبنين، وتمكَّن بفضله من تربية العيال وتعليمهم وتزويجهم وتوظيفهم في السعوديَّة بعقود مجزية. على أنَّ ربَّنا، عزَّ وجلَّ، كثيرًا ما يبتلي الإنسان ليختبر إيمانه. وابنته أسماء هي ـ قطعًا ـ ابتلاء من الله... إنَّه لا يستوعب كيف تحوَّلت الطفلة الجميلة والخجولة إلى تلك الفتاة العنيدة والمشاكسة والتي لم تجلب له إلَّا المشاكل ووجع القلب. والسبب في هذا البلاء كارم، جدُّها لأمِّها، الذي كان شيوعيًّا شاربًا للخمر، وقد بثَّ سمومه في عقلها حتى أفسدها. لقد رفضت أسماء الزواج أكثر من مرَّة، ورفضت الحجاب على الرَّغم من ضغوطه، مرَّة بالإقناع ومرَّة بالتخويف ورفضت أن تعمل

في السعوديَّة. لم يعد يتوقَّع منها إلَّا كلّ ما ينغِّص حياته. إنَّه يدعو لها بالهداية، وأمله لا ينقطع أبدًا في كرم ربِّنا الذي يقول للشيء كُن فيكون، لكنَّه لم يعد يحتمل المناكفة معها. إنَّه يقترب من السُّبْز ويعاني الضغط والسكَّر، والتوتُّر خطرٌ على صحَّته، كما أكَّد له الطبيب في جدَّة. لقد ترك مهمَّة التعامل مع أسماء لأمِّها التي تُقيم معها، وتحسّ على نحو ما بالذنب لأنَّ أباها كارم، رحمه الله، كان السبب في شذوذ أفكارها. عندما يتَّصل زناتي - من تليفون شركة الغامدي - كي يطمئنّ على زوجته، لم يعد يسألها عن أسماء. صارت الأمّ تخوض معاركها مع أسماء وحدها. بالأمس اتَّصلت أسماء بأمّها وأخبرتها بأنَّها ستبيت عند صاحبتها زينب حتى تساعد أختها الصغيرة في اللغة الإنكليزيَّة. لم تطمئنّ الأمَ إلى هذه الحكاية، لكنَّها أنهت المكالمة بهدوء. في السابعة صباحًا، عادت أسماء إلى البيت، وما إن فتحت الباب حتى وجدت الأمَ تنتظرها على الأريكة في الصالة وقد ارتدت روبًا من القطيفة الخضراء على قميص نوم كستور أبيض، ووضعت قدميها في لكلوك تريكو بنفسجيّ طلبًا للدفء. كانت أسماء مجهَدة، فابتسمت وقالت بصوت خافت:

- صباح الخير.

تطلَّعت إليها الأمَ بتحفُّز، ثم صاحت كأنَّما تبدأ الحركة الأولى من سيمفونيَّة صاخبة ستعزفها بالكامل:

- حمد لله على السلامة يا أسماء هانم... أخبار زينب إيه؟

(٢٧)

ـ العامل اللي عاوز يتظاهر في ميدان التحرير يروح في ستِّين داهية... إنَّما العامل اللِّي يتظاهر في المصنع لن أرحمه.

بدا عصام شعلان عصبيًّا، كان يتكلَّم بحدَّة وهو يشعل سيجارة تلو الأخرى، ويحتسي فناجين متتابعة من القهوة السادة. جلس أمامه المديرون ورؤساء الأقسام في المصنع. قال أحدهم:

ـ لا يمكن نسمح لأيّ عامل بإثارة الفوضى.

قال آخر:

ـ اللِّي مش حريص على أكل عيشه يستاهل اللِّي يجرى له.

تجاهل عصام التعليقات وتطلَّع إليهم بنظرة صارمة، ثم استطرد بصوته الجهوريّ:

ـ كلّ واحد فيكم قدَّامه ورقتان. الورقة الأولى بيان تأييد ومبايعة لسيادة الرئيس مبارك، والورقة الثانية تعهُّد بالإبلاغ عن أيّ حدّ يثير

الشغب في المصنع. لازم توقَّعوا على الورقتين. حدّ معترض؟!

لاذوا بالصمت، واستطرد عصام:

ـ كلّ واحد فيكم يكتب اسمه ووظيفته ورقمه القومي. بيان التأييد سيُذاع في التليفزيون ويُنشَر في الصحف. أمَّا التعهُّد الأمني حاسلمه لأمن الدولة.

انهمكوا في التوقيع، ثم قاموا، واحدًا بعد الآخر، وسلَّموه الأوراق. وفي النهاية، قال بلهجة تحذير، وهو يرتِّب الأوراق أمامه:

ـ دلوقتٍ بقيتم مسؤولين قانونًا عن أيّ تحريض في المصنع. أيّ تهاون منكم حتدفعوا تمنه غالي... تفضَّلوا.

مرَّ أوّل يوم بلا مشاكل، وتمَّ إبلاغه في اليوم التالي بأنَّ عاملًا اسمه شوقي في قسم الأفران يدعو زملاءه إلى الإضراب تضامنًا مع المتظاهرين في ميدان التحرير. تمَّ القبض عليه، وبعد قليل وصل إلى مكتب عصام موكبٌ مكوَّن من شوقي ورئيسه الذي أبلغ عنه وثلاثة رجال من أمن المصنع. كان الشابّ أسمر نحيلًا، وبدا ثابتًا ومتحدِّيًا. دفعه رجال الأمن إلى وسط الحجرة وظلُّوا ممسكين بذراعيه. صاح عصام:

ـ سيبوه.

ثم نهض واقترب منه، وقال بصوت آمر:

ـ اسمك إيه يا وله؟

(سيتذكَّر عصام بعد ذلك، باستغراب، أنَّه استعمل مع العامل اللهجة نفسها التي كان الضبَّاط يستجوبونه بها في المعتقل).

ـ شوقي أحمد عبد البرّ.

ـ عاوز تضيَّع نفسك يا شوقي؟!

ردَّ الشابّ بجرأة:

ـ إحنا عاوزين نصلح البلد دي.

ـ أنتم مين؟

ـ ملايين المصريين.

قال عصام وقد تغيَّرت لهجته إلى حنان أبويّ:

ـ يا بُني افهم. كلّ اللّي بتعمله دَه مش حيجيب أيّ فائدة. أنت بتضيَّع نفسك من غير مناسبة. أمن الدولة على باب المصنع. لو أخذوك تبقى انتهيت. عندك عيال؟

هزَّ الشابّ رأسه، فابتسم عصام وقال:

ـ أسماؤهم إيه؟

قال الشابّ بصوت خافت:

ـ آية وناصر.

وضع عصام يده على كتف الشابّ، وقال:

ـ طيِّب، اعقل يا شوقي، عشان خاطر ناصر وآية.

تطلَّع الشابّ إليه صامتًا، وهتف رئيسه بحماسة متملِّقًا:

ـ المهندس عصام زيّ أبوك وغرضه مصلحتك.

قال الشابّ:

ـ المهندس عصام غرضه مصلحته مش مصلحتي.

سأله عصام وهو يبذل جهدًا ليتمالك نفسه:

ـ أنا إيه مصلحتي؟

ـ أنت خايف على الملايين اللى بتكسبها.

صفعه عصام على وجهه، فهجم عليه الشاب، لكنَّ رجال الأمن انهالوا عليه ضربًا وهم يجرُّونه إلى الخارج، بينما جلجل صوت عصام في المكان:

ـ ما بقاش إلَّا عَيِّل زيَّك يزايد على عصام شعلان. أنا يا روح أمَّك كنت في المعتقل قبل ما تتولد.

عندما وصلوا إلى الباب، كانوا قد سيطروا على الشابّ واستمرُّوا في ضربه بعنف. قال عصام وهو يلهث من الانفعال:

ـ سلِّموه لأمن الدولة خلِّيهم يعلِّموه الأدب.

تمَّ ترحيل الشابّ في سيَّارة الشرطة أمام زملائه. كان ينزف من أنفه، وامتلأ وجهه بالكدمات والخدوش، وبدت نظرته ذاهلة كأنَّه ما زال لا يصدِّق تمامًا ما يحدث. كانت هذه واقعة الشغب الوحيدة في المصنع، وقد تمَّت السيطرة عليها، لكنَّها تركت أثرًا سيِّئًا في نفس عصام. لم تكن وقاحة الشابّ أكثر ما أزعجه. فكرة حدوث ثورة ذاتها كانت تقوِّض نظريَّته عن خنوع المصريِّين وتعايشهم مع القهر. لقد بنى مواقفه في الحياة على هذه النظريَّة، وهو يدافع عنها بضراوة ولا يطيق التشكيك فيها. إنَّ تعامله الفظّ المتغطرس مع المديرين وصفعه للعامل وتهديداته للجميع... كلُّها كانت وسائل دفاعيَّة تخفي هلعه من أن يكون على خطأ. كان أشبه بمتديِّن متعصِّب يواجه شخصًا يحاول التشكيك في دينه... في المساء، عاد إلى البيت. أخذ حمَّامًا ساخنًا وارتدى الترينينج سوت، ثم شرب ثلاث كؤوس من الويسكي تباعًا.

أحسَّ بتأثير الخمر سريعًا وقويًّا. وفجأة تملّكته الرغبة في لقاء نورهان. لم يكن قد رآها منذ بداية المظاهرات. اتّصل بها مرّة فاعتذرت بكلمات مقتضبة. كانت تعيش حالة طوارئ في التليفزيون، كأنّها في حالة حرب. منذ اليوم الأوّل للثورة، جاء إلى التليفزيون عقيد من أمن الدولة، واتّخذ له مكتبًا في إدارة الأمن واجتمع بالمذيعين والمعدّين، وأخبرهم بأنّه من الآن فصاعدًا، ونتيجة للظروف الدقيقة التي يمرُّ بها البلد، سيعطيهم تعليمات يوميّة وسيتابع تنفيذها بنفسه. وافق المجتمعون بحماسة. أمّا نورهان، فقد انتظرت حتى انصرف زملاؤها، ثم طلبت منه، بصوت خافت، إصدار تصريح دخول مبنى التليفزيون باسم خادمتها عواطف. ولمّا سألها عن السبب، قالت بحرارة امتزجت رغمًا عنها ببعض الغواية:

ـ يا فندم، أنا ديني لا يسمح لي أنام في بيتي بينما بلدي تحترق. الشغّالة حتجيب لي حاجاتي من البيت. أنا مقيمة في التليفزيون لغاية ما تنزاح الغمّة عن بلدي.

استخرج لها الضابط التصريح وشكرها على وطنيّتها، وقد بدا على وجهه أنّه يغالب نفسه حتى لا ينزلق إلى أفكار غير لائقة. في اليوم نفسه، اتّصلت نورهان بالشيخ شامل لتسأله عن الرأي الشرعيّ في إذاعة معلومات غير صحيحة في التليفزيون. سكت الشيخ شامل لحظات، ثم قال لها إنّنا نُعتبر الآن في حالة حرب مع المخرِّبين الذين يريدون إسقاط الدولة، والشرع الحنيف يُبيح للمسلمين في حالة الحرب ما لا يُبيحه في أوقات السلم، طبقًا للقاعدة المعروفة «الضرورات تُبيح المحظورات». اطمأنّت نورهان إلى الحكم الشرعيّ، وانطلقت تنفّذ تعليمات العقيد بحماسة وإتقان. ولم تكتفِ بفتح هواء الاتّصالات مع

متّصلين مختارين من الأمن، بل كانت تراجع معهم ما سيقولونه قبل الهواء بالكلمة، وكانت - مثل مُخرج مسرحيّ مخضرم - ترسم لهم طريقة الأداء. فالمصريُّون يتأثّرون جدًّا بصراخ المرأة. ولذلك يومئًا كانت هناك متّصلة تستغيث لأنَّ هناك بلطجيَّة يريدون اغتصابها مع بناتها. قال لها الضابط:

ـ هدفنا أن يشعر كلّ متظاهر بأنَّ أمّه وزوجته في خطر، فيترك الميدان ويعود إلى بيته.

لم تكتفِ نورهان بذلك، بل تولّت بنفسها الاتّصال بالفنّانين المشهورين (في التمثيل والغناء)، ونسّقت معهم مداخلات على الشاشة يلعنون فيها متظاهري التحرير ويتّهمونهم بالعمالة للمخابرات الأجنبيَّة. وقد استضافت فضيلة الشيخ شامل، وسألته عن رأي الدين فيما يحدث، فقال الشيخ بوضوح قاطع:

ـ هذه المظاهرات تُغضب الله ورسوله. الإسلام يفرض علينا طاعة وليّ الأمر، والاكتفاء بنُصحه إذا خالف الشرع.

قالت نورهان:

ـ يا فضيلة الشيخ، ماذا تقول للمتظاهرين؟!

بدا الغضب على وجه الشيخ، وصاح:

ـ أقول لهم هذه مؤامرة ماسونيَّة دبَّرها اليهود حتى يفتنوا المسلمين عن دينهم. أناشد أبنائي الشباب في ميدان التحرير: أنتم قد غرَّر بكم أبناء صهيون. توبوا إلى الله وادرأوا فتنة ستُغرق بلادنا بالدماء. أيّها الشباب عودوا إلى بيوتكم، فليس هذا سبيل التغيير، إنّما تدمِّرون مصر بأيديكم. عودوا إلى الله. عودوا إلى الله.

انهت نورهان الحلقة بدعوة الشيخ شامل، ثم أُذيعت أغانٍ وطنيّة حتى الفقرة التالية... اتَّصل بها عصام ذلك المساء، فلم تردّ. شرب كأسًا أخرى على مهل. اتَّصلت به وجاءه صوتها مرتبكًا:

ـ آسفة، يا عصام. كنت على الهوا.

ـ عاوز أشوفك يا نور.

ـ صعب جدًّا. عندي شغل في التليفزيون.

ـ خلَّصي الشغل وتعالي.

ـ الشغل ما بيخلصش.

ـ استأذني منهم وتعالي.

ـ فين؟

ـ عندي في البيت.

رفضت، لكنَّه ألحَّ، ثم انفعل وقال:

ـ لمَّا أقول لك عاوز أشوفك، يبقى لازم أشوفك.

كانت نبرته الغاضبة تحمل تهديدًا ما. أذعنت نورهان، لكنَّها اشترطت ألَّا تتأخَّر. لم يكن يلتقيها عادة في شقَّته، لكنَّه الليلة لم يرغب في الخروج. ما إن فتح الباب ورآها، حتى أدرك أنَّها في حالة غير طبيعيَّة. بدت متوتِّرة. لمَّت شعرها على هيئة ذيل حصان، وكان وجهها شاحبًا بعد إزالة الماكياج، وظهرت هالات إرهاق تحت عينيها. رمت جسدها في أقرب مقعد في الصالة. لم تُبدِ ضِيقها من شربه الخمر، كما تفعل عادة. بدت ساهمة، مأخوذة على نحو ما. أعدَّ لها كوبًا من الشاي، وما إن رشفت منه حتى انطلقت تتكلَّم بسرعة:

- عصام، أوعى تزعل منّي. أنا مضغوطة وأعصابي تعبانة. أنا مُقيمة تقريبًا في التليفزيون... ممكن يطلبوا منّي أذيع أيّ حاجة في أيّ وقت...

لم يردّ عصام... رشف الكأس جرعة واحدة، ثم قبّل يدها وجذبها إلى حجرة النوم. هذه المرَّة كان الجنس مختلفًا. لم يعد هناك ذلك الطابع الاحتفاليّ الماجن. كانت مضطربة ومرهقة. اندفع إلى حضنها متعجّلًا، كأنّما يعتصر قطرات البهجة المتبقّية قبل زوالها... كانا يغالبان شيئًا ثقيلًا في الجوّ؛ يقاومان طابعًا جنائزيًا ما. فرغا بسرعة وقاما في صمت. عاد إلى جلسته في الصالة وسكب لنفسه كأسًا، وبعد قليل عادت نورهان من الحمَّام وقد ارتدت ملابسها استعدادًا للانصراف. سألها:

- أنت ماشية؟

- لازم أرجع التليفزيون حالًا.

لم يردّ. احتسى رشفة من الويسكي وأشعل سيجارة. قالت:

- عاوزة أسالك سؤال. إيه رأيك في المظاهرات؟!

- كلام فارغ.

- قصدك إيه؟

- ولا حاجة حتتغيّر في مصر.

- تفتكر الرئيس حيمشي؟

أطلق ضحكة تهكُّم بدت مصطنَعة.

- أنتِ عبيطة يا نور؟ من إمتى شويّة عيال يمشّوا رئيس

الجمهوريّة؟ لو اعتصموا سنة لا يمكن أيّ حاجة تتغيَّر.

ـ أنا قلقانة جدًّا.

ـ من إيه؟!

ـ خايفة الرئيس يمشي وتحصل فوضى.

ـ أضلك ما تعرفيش معنى الدولة في مصر. الدولة يعني أمن الدولة والمخابرات العامَّة والمخابرات الحربيَّة والشرطة والجيش والإعلام والقضاء. كلّها مؤسَّسات قويَّة وولاؤها الوحيد للرئيس.

ـ كلّ يوم نقول إنَّ المظاهرات حتنتهي نلاقيها تزيد.

ـ اصبري كم يوم وحتشوفي... كلّ العيال المتظاهرين دُول حيتقبض عليهم ويتحاكموا محاكمات عسكريَّة.

ـ دي توقُّعات ولاّ معلومات.

ابتسم وقال:

ـ دي قراءتي للتاريخ. أيّ صراع يحصل بين الشعب والسلطة ينتهي دائمًا بهزيمة الشعب. السلطة في مصر ممكن تفشل في أيّ شيء إلَّا في إخضاع المصريّين.

(٢٨)

فتح أشرف ويصا باب الشقَّة وانطلق على درجات السلّم. نادت عليه إكرام ثم أغلقت الباب وركضت خلفه. كان أشرف وإكرام بعد دقائق في وسط ميدان التحرير. كان المشهد أسطوريًا جليلًا يبعث على الرهبة، كأنّه طقس دينيّ يمارسه آلاف المؤمنين. كانت حشود المتظاهرين في كلّ مكان، يركضون ويهتفون والموت يلاحقهم. فوق مبنى الجامعة الأميركيّة وأسطح العمارات المطلّة على الميدان، انتشرت مجموعات القنّاصين بملابس مدنيّة، كلّ مجموعة مكوّنة من بضعة جنود مسلّحين ببنادق قنص حديثة يقودهم ضابط. كانوا يضعون جميعًا مناديل بيضاء على رؤوسهم، ربّما اتّقاءً لضوء الشمس حتى يتمكّنوا من التصويب، أو ربّما إخفاءً لوجوههم في حال تمكّن أحد من تصويرهم. كان القنّاص يقتل بهدوء ودقّة جرّاح. يحدّق في نظّارة بندقيّته، ثم يختار ضحيّته. عندئذ، يبدو على وجهه مزيج من العزم والكراهية، ثم يضغط الزناد فتنطلق الرصاصة لتستقرّ في الرأس؛ رصاصة واحدة، قاطعة، فاصلة، تُنهي ذكريات الطفولة ورعاية الأهل وتعب

المذاكرة وفرحة النجاح الدراسيّ وأحلام الحبّ والزواج. كلّ شيء ينتهي بضغطة واحدة على الزناد. تواصَلَ القتل وسقط الشهداء، واحدًا بعد الآخر. لم يهرب المتظاهرون من الموت كأنّهم يتحدَّونه؛ لم يركضوا بعيدًا عن مصادر النيران، بل كانوا يندفعون نحوها. لم يعد أحد فيهم يخشى الموت، كأنّهم اتّحدوا جميعًا في إرادة كائن عملاق لن يهدأ قبل أن يحقّقوا الهدف الذي نزلوا من أجله... كلّما سقط شهيد حملوا جثمانه وهم يهتفون ويكبِّرون، وتقدَّموا أكثر نحو وزارة الداخليّة... مات شابّ إلى جوار أشرف. كان يهتف إلى جواره، وفجأة سكت وانحنى كأنّه يتطلّع إلى شيء على الأرض ثم سقط. حمله المتظاهرون، وتقدّم أشرف نحوه وسط الزحام، بينما إكرام تشدّه من ذراعه وصوتها يضيع في الصخب. ظلّ أشرف يقترب حتى وصل إلى الشهيد المحمول على أكتاف زملائه. تطلّع إلى وجهه. بدا هادئًا حتى خُيِّل إلى أشرف أنّه على وشك الابتسام. كان يرتدي حذاءً رياضيًّا وبنطلون جينز وبلوفر أسود مهترئًا من نوع رخيص. انتابت أشرف رغبةٌ غامضة غريبة، فاقترب أكثر وسط الحشد حتى أصبح ملاصقًا لجسد الشابّ، ثم مدَّ يده وأمسك بيده لحظات حتى دفعه تيّار المتظاهرين بعيدًا. كان ملمس يده باردًا ومألوفًا على نحو ما. الإحساس نفسه الذي تتركه مصافحة صديق في صباح بارد. ابتعد أشرف عن جموع المتظاهرين ومشى ببطء حتى سُور الجامعة، وإكرام تتبعه. وفجأة قرفص على الأرض، ووضع رأسه بين يديه وراح يلهث.

- أشرف بك... مالك؟

هكذا هتفت إكرام فلم يردّ. كان وجهه شاحبًا، وراح يتنفَّس بصعوبة. قالت:

- يالله نرجع البيت.

مشيا صامتين. اجتازا مدخل العمارة. وما إن دخلا البيت، حتى قبضت على يده وجذبته فاستسلم لها كطفل. فتحت باب الحمّام وهمست بحنان:

ـ خذ حمّام وغيَّر هدومك على بال ما أعمل لك لقمة.

بعد قليل كان جالسًا في المكتب، صامتًا تمامًا. جاءت إكرام وجلست إلى جواره، ووضعت ذراعها حول جسده. أخرج سيجارة ملفوفة، فقالت:

ـ أنت تعبان. بلاش حشيش عشان خاطري.

قال من دون أن ينظر إليها:

ـ ما تقلقيش.

أشعل السيجارة فتوهّجت بشدَّة. أحضرت ساندوتشات، وألحّت عليه حتى بدأ يأكل. حاولت أن تبدأ حديثًا عاديًا، فقالت:

ـ على فكرة، لمّا نكون مع بعض لازم تقفّل باب الشقّة بالترباس. مدام ماجدة ممكن ترجع في أيّ وقت.

قال باقتضاب:

ـ طول ما فيه مظاهرات، ماجدة لا يمكن ترجع.

ساد الصمت من جديد، وأشعل أشرف سيجارة ملفوفة أخرى. وكأنّما أدركت إكرام أنَّ لا جدوى من تجاهل ما حدث في الميدان، تنهّدت وقالت، كأنّما تحدّث نفسها:

ـ ما كنتش أتصوَّر أنَّ حسني مبارك مجرم للدرجة دي.

ـ دا نظام بيدافع عن مصالحه.

ـ ذنبه إيه الشابّ يقتلوه؟

ـ مبارك ورجّالته عندهم أموال بالمليارات. ولو النظام سقط حتصادر ثرواتهم ويتحاكموا. دُول مستعدّين يقتلوا مليون مصري عشان يفضلوا في الحكم.

قالت إكرام:

ـ يعني مش خايفين من ربّنا خالص؟

كان تساؤلها طفوليًّا، ومع ذلك لم تخلُ نبرتها من غواية. ولو أنَّه في الظروف العاديَّة لكان احتضنها وغمرها بقبلاته، لكنَّه تغيَّر. لم يعد كما كان. ما زال مأخوذًا بمشاهد القتل، وما زال يحسّ بملمس يد الشهيد على يده. احتضنته فجأة، وألقت برأسها على صدره كأنَّما أحسَّت بغريزتها بأنَّه يحتاج إليها. همَّت بتقبيله، لكنَّه لأوَّل مرَّة منذ عرفه، أشاح بوجهه ثم أبعدها برفق، وقال:

- أنا باتخيّل الأب والأمّ لمّا يقولولهم ابنكم انقتل بالرصاص.

- ربّنا يصبَّرهم.

- حاسس إنّ الولد اللّي قتلوه قدّامي كان ممكن يبقى ابني بطرس.

- بعد الشرّ.

- عارفة، يا إكرام، أنا زعلان من نفسي قوي.

- ليه؟

- عشان أنا مقصّر.. مقصّر جدًّا.

(٢٩)

عزيزي مازن،

لا تتصوّر مدى سعادتي برؤيتك أمس. سألتني عن مشكلتي مع أمّي. قلت لك انتهت على خير. غير صحيح. عندي كلام كثير لا أقوله، وكالعادة أفضّل أن أكتبه. هذه طبيعة لا أعرف سببها... أعرف أنّك مشغول، لكنّي محتاجة كي أحكي لك... أنت الوحيد الذي يفهمني. أنا إنسانة متناقضة يا مازن... أكون طبيعيّة، وفجأة أتصرّف بشكل غير متوقّع لا أفهمه. أحسّ أحيانًا بأنّني شخصيّتان. أعيش بشخصيّة واضحة يراها الناس، وفي داخلي شخصيّةٌ أخرى غريبة مختبئة تظهر فجأة. عندما عدت إلى البيت صباح الأربعاء كنت متعَبة جدًا من الجري وشمّ الغاز والتوتّر. كان نفسي آخذ حمّامًا ساخنًا وأنام، لكنّي وجدت أمّي جالسة في الصالة تنتظرني. كنت قد كذبت عليها، وقلت أنّني سأبيت عند صاحبتي زينب كي أساعد أختها في مذاكرة اللغة الإنكليزيّة. وجدت أمّي جالسة في الصالة. سألتني بتهكّم:

ـ إيه أخبار زينب صاحبتك؟

أدركت أنّها لم تصدّق. أظنّ أنّه كان لديها استعداد لمجاراتي لو كنت أصررت على كذبتي. لو كنت قلت لها مثلًا: «زينب بخير وبتسلّم عليك»، كانت ستُسمعني كلمتين سخيفتين كعادتها، ثم تتركني في سلام. هنا ظهرت شخصيَّتي الأخرى التي لا أفهمها. وجدتني أقول:

ـ أنا ما كنتش عند زينب.

طبعًا انزعجت أمّي وسألت:

ـ كنت فين؟!

قلت لها:

ـ كنت في المظاهرات.

صاحت:

ـ أنت كذبت عليّ، يا أسماء؟ مش مكسوفة من نفسك، يا كذّابة.

انتابني هدوء غريب، كأنّ ما يحدث يخصّ شخصًا آخر، أو كأنّني أشاهد ما يحدث من خلف زجاج شفّاف عازل. قلت لها:

ـ كذبت عليك في التليفون حتى لا تقلقي. لمّا رجعت البيت قلت الحقيقة... أنا كنت في المظاهرة والبوليس كان حيقبض عليّ لولا إنّي اختبئت عند ناس.

صرخت أمّي:

ـ ناس مين اللّي كنت عندهم؟

قلت:

ـ رجل طيّب اسمه الأستاذ أشرف وبصا خبّاني في بيته لغاية لمّا البوليس مشي.

حتى الآن لا أعرف لماذا تصرّفت بهذه الطريقة. لماذا قرّرت

استفزازها إلى أقصى حدٍّ، ولماذا رفضت الاستمرار في الكذب؟ هل هو اعتزازي بالثورة، أم هي رغبة في تحدّي أمّي ورفض كلّ ما تعتبره السلوك الصالح؟

صرخت أمّي:

ـ حرام عليك. أنا مريضة وأبوك كبر في السنّ. عنده سُكّر وضغط، ولسّه متغرَّب بيشتغل زيّ الثور في الساقية عشان يصرف علينا... أقول له إيه؟! أقول له بنتك باتت عند ناس ما تعرفهمش، والبوليس بيجري وراها.

في مثل هذه المواجهات، تصرخ أمّي بلا توقُّف ولا تنتظر الردّ. ظللت صامتة تمامًا حتى أنهت نوبة غضبها ببكاء حارّ. فجأة فعلت شيئًا غريبًا. تصوَّر أنّني احتضنتها؟! ألقت برأسها على كتفي، وقالت:

ـ ارحمينا يا أسماء. إحنا كبرنا وتعبنا.

كم آلمتني هذه العبارة، يا مازن. مواجهاتي مع أمّي أسوأ شيء في حياتي. أنا وهي نظلّ وحدنا في شقّة مغلقة نتصادم مرّة بعد أخرى بلا نهاية، كأنّنا ننفّذ عقابًا إلهيًّا. تصرخ وتبكي فأشفق عليها وأواسيها، ثم في لحظة ما تستفزّني فأردّ عليها، فنبدأ من جديد. مشاحنات وصراخ ونحيب. تصوَّرْ أنّني في أعماقي أتعاطف تمامًا مع أمّي... لا أستطيع أن أكمل مواجهتها حتى النهاية. دائمًا أصل إلى نقطة أبحث فيها عن حلّ وسط لأُرضيها، لكنّني أعود فأتمسّك بموقفي فيتضاعف غضبها عليّ... محاولتي لتفادي المواجهة معها هي التي جعلتني أوافق على مقابلة العرسان، وهي التي جعلتني أقول لها إنّني سأبيت عند زينب... تصوَّرْ أنّني منقسمة بهذا الشكل. أنا مقتنعة بكلّ المواقف التي أتّخذها؛ مؤمنة تمامًا باختياراتي، لكنّني أُشفق على أمّي وأتفهّم تفكيرها. هذا التردُّد بين حبّي لأمّي وخلافي معها، مؤلم.

أسوا شيء في الدنيا أن تصطدم بعنف مع شخص تحبّه، لأنك في اللحظة التي تتحدَّاه تشفق عليه. انتظرت حتى هدأت أمّي، ثم قلت:

ـ أنا تعبانة، محتاجة أنام.

انسحبت وأخذت حمّامًا، ولمّا خرجت وجدتها قد أعدَّت الإفطار ووضعته في حجرتي... هذا الحنان يؤلمني أكثر من القسوة. كنت أعلم بأنَّ المظاهرة الكبيرة يوم الجمعة، وكانت تعلم بأنَّ إجازة نصف السنة بدأت، فلم أكن أستطيع الخروج بأيّ حجّة... أمضيت معها يومين في البيت. حاولت أن أهدِّئها بكلِّ الطرائق التي أعرفها. طلبت منها أن تحكي لي عن شبابها. كيف كانت تعيش قبل أن تتزوَّج. هذا الحديث يُسعدها. تحكي لي عن مدرسة السنيَّة الثانويَّة للبنات وكلِّيَّة التجارة حيث قابلت أبي. كان هو في البكالوريوس وهي في السنة الأولى، وقابلها في المكتبة وعرض مساعدتها في بحث تُجريه. حكاية سمعتها منها كثيرًا، وكلَّ مرَّة تبدو سعيدة وهي تتذكَّرها. مساء الخميس جلست معها نتفرَّج على المسلسل التركيّ. بعد المسلسل تكون أمّي في أفضل أحوالها. وشيئًا فشيئًا تحوَّل غضبها إلى عتاب هادئ مُحبّ. قالت وهي ترشف من كوب الشاي باللبن:

ـ يعني أنت لو عاقلة مش كان زمانك قاعدة في بيتك مع جوزك وعيالك بدل المظاهرات والخيبة دي؟!

ـ كلّ شيء نصيب.

كان هذا أفضل ردّ في هذه الأحوال. قالت:

ـ أنت طيِّبة يا أسماء، لكن فاهمة الدنيا غلط. بلدنا دي خربانة وعمرها ما حتصلّح. كفاية تضييع وقت وبُصّي لنفسك. الستّ من غير بيتها وأولادها تبقى تعيسة مهما نجحت في أيّ مجال...

لم أردّ. شيئًا فشيئًا حوَّلتُ دفّة الحديث إلى موضوعات أخرى.

يوم الجمعة بعد الصلاة امتلأ شارعنا بالمتظاهرين. جلست مع أمي نتابع المظاهرات من الشرفة. أحسست بأنّها مأخوذة على نحو ما. ربّما فاجأها حجم المظاهرة التي تضمّ ألوف الناس. قالت وهي تنظر إليهم:

- حرام والله يضيّعوا نفسهم. صعبان عليَّ أهاليهم.

قلت:

- إحنا بقينا في الحضيض بسبب التفكير دَه. لو كلّ واحد كان اعترض على الظلم وما خافش، كان زمان مصر بقت دولة محترمة.

لم تردّ أمي. راحت تتابع المظاهرة وقد بدا عليها التأثُّر. عندما هتف المتظاهرون:

- «يا أهالينا انضمُّوا لينا.. انزل يا مصري».

لم أعد أتحمَّل. وقفت أمامها وقلت:

- أنا لازم أنزل.

- تنزلي فين؟

- نفسي أنزل وأنت راضية عنِّي.

صرخت:

- أنت عاوزة تموِّتيني؟!

- حضرتك شفت بنفسك إنّها مظاهرة سلميَّة.

- بلا سلميَّة بلا قرف. ما فيش نزول يا أسماء.

- أنا عندي ٢٥ سنة، ومن حقِّي أقرّر بنفسي.

- لمَّا تبقي متجوِّزة يبقى جوزك مسؤول عنك. دلوقتِ أنا وأبوك

مسؤولين عنك، لو انقبض عليك أو جرى لك حاجة إحنا اللّي نشوف المُرّ.

ـ أنا الوحيدة المسؤولة عن تصرُّفاتي، ولو جرى لي حاجة ما تعبوش نفسكم. أنا حاتصرّف.

كنت أعرف أنَّ الحوار لن يؤدِّي إلى شيء. خرجت بسرعة وصوت أمّي يرنّ في أذني وهي تناديني. طبعًا أحسست بالذنب، لكنّني كنت سأشعر بذنب أكبر لو لم أشترك في المظاهرة... كانت معركة حقيقيّة. كان الضبَّاط يضربون علينا قنابل الغاز بجنون. كان معي بصلة كسرتها ورحت أستنشقها حتى أقاوم الغاز. هذا الدرس تعلّمته من فيسبوك. كدت أفقد الوعي أكثر من مرّة. عندما وصلنا إلى ميدان الجيزة. بدأ إطلاق الرصاص. سقط شهداء أمامي. كان الضبَّاط يُطلقون النار عشوائيًا، والمتظاهرون يحملون الجرحى على موتوسيكلات لا أعرف كيف أحضروها. قال لي بعضهم إنّهم يستعملون الموتوسيكلات لأنَّ سيّارات الإسعاف تسلِّم المصابين إلى الشرطة... أنا مثلك، يا مازن، لم أعد كما كنت بعد جمعة الغضب؛ مثلك أحسّ كأنّني عاهدت الشهداء. رأيت شعبنا يتجلّى في أعظم صورة، لكنّي لاحظت أيضًا أنَّ كثيرين وقفوا في الشرفات والنوافذ يراقبون ما يحدث كأنّهم يتفرَّجون على فيلم. كانوا يشاهدوننا ونحن نموت بغير أن يتحرَّكوا. لا أفهم موقف هؤلاء المتفرِّجين. كالعادة أنتظر تفسيرك. الحمد لله يا مازن أنّي عرفتك. لا أعرف كيف كنت سأعيش هذه الظروف إذا لم تكن إلى جواري. سأُنهي الخطاب وأنا أبتسم (ألا زلت تحبّ النغّازتين؟)

تصبح على خير.

أسماء

(٣٠)

بدا الضابط متجهِّمًا وعصبيًّا... صاح في المتظاهرين، وهو يلهث من الانفعال:

ـ باقول لكم شيلوا الحديد.

لم يتحرَّكوا. ظلُّوا واقفين في أماكنهم يتطلَّعون إلى الضابط بتحفُّز... كانوا يحسُّون بمشاعر مختلطة. لم يكونوا ليسمحوا بدخول السيَّارة لتقتل زملاءهم، وفي الوقت نفسه، كانوا يستشعرون غرابة الموقف. إنَّهم يتحدُّون ضابط شرطة. يقفون في وجهه ويمنعونه من المرور. من أين أتتهم هذه القوَّة؟! كلُّ لحظة تمرّ كانت تُبعدهم عن التراجع وتزيدهم ثباتًا. صاح الضابط:

ـ أقسم بالله العظيم، لو ما شلتم الحديد حالًا، أنا حافرجكم يا ولاد الكلب.

ساد الصمت لحظة، ثم علا صوت خالد مدني:

ـ حضرتك مش من حقّك تشتمنا. لازم تحترمنا لأنّنا مواطنين

مصريّين زيّك، ولازم تراجع موقفك. المفروض تقف مع الشعب.

استفزّت هذه الكلمات الضابطَ إلى درجة أنّه صرخ:

ـ لأ يا روح أمّك، أنا بادافع عن مبارك. مباركم سيدكم، وأنت واللّي معك لازم تنضربوا بالجِزَم.

علت صيحات اعتراض من الواقفين، فالتفت الضابط إلى الخلف وقال شيئًا، وسرعان ما انفتح باب السيّارة الخلفيّ وقفز منه ثلاثة جنود توجّهوا نحو قطع الحديد وانحنوا ليزيحوها من الطريق. اندفع المتظاهرون ودفعوا الجنود بعيدًا، فبدأوا يضربونهم، وردَّ المتظاهرون بلكمات وركلات. واحتدم الاشتباك، بينما تقدَّم خالد واقترب من السيّارة وصاح:

ـ يا حضرة الضابط، مهما عملت مش حتدخل الميدان.

اربدَّ وجه الضابط وكاد يقول شيئًا، لكنّه عدل عن ذلك وأطرق لحظة، ثم أخرج مسدَّسه وأطلق رصاصة؛ رصاصة واحدة، دوَّى صوتها وانطلقت كقطعة لهب. سمعت دانية خالد وهو يصيح «آآآه»... صرخة طويلة ممتدَّة كأنَّها قادمة من أعماق ما؛ كأنَّها تعلن كشفًا ما. سقط خالد على الأرض. اندفعت دانية نحوه وانحنت عليه. بدا وجهه ساكنًا كأنّه تجمَّد على تعبير لم يكتمل؛ كأنّه قَطَع جملة ما؛ كأنّه كان يريد أن يقول شيئًا لكنَّ الوقت لم يُسعفه. كانت الرصاصة قد تركت فجوة في وسط جبهته يسيل منها الدم بغزارة. هل صرخت دانية وأجهشت بالبكاء؟! هل هزَّت خالدًا ونادته لينهض؟! هل ظنَّت أنَّ ما يحدث غير حقيقيّ؟! هل ظنَّته كابوسًا ستصحو منه؟! هل انتظرت أن ينهض خالد، ثم يمسح جبهته بيده، فتختفي الفجوة، ويتوقَّف النزف، ويتكلَّم ويضحك معها كما كان يفعل منذ لحظات؟! كان جسده المسجَّى على الأسفلت والثقبُ في جبهته وعيناه المفتوحتان، آخرَ ما تذكره دانية بوضوح. كلّ ما حدث بعد

ذلك يرد في ذهنها كصور مهتزّة مشوّشة يكتنفها ضباب كثيف. كأنها مشاهد ممزّقة من فيلم قديم نسخته مهترئة لا توضح الأحداث: الجنود يهرعون إلى داخل السيّارة التي تتراجع، ثم تتحرّك بسرعة نحو جامع عمر مكرم. الزملاء يصرخون ويحاول بعضهم مطاردة السيّارة والتعلّق بها لإيقافها. دانية تبكي وتصرخ وتحتضن خالدًا فيتلوّث معطفها الأبيض بالدم. الزملاء يحملون جسد خالد إلى سيّارة لا تعرف من أين أتت. يفسحون لها كي تركب إلى جواره. تضع رأسه على ساقيها وتضغط الجرح بضمّادات طبّيّة، كأنّ خالدًا مُصاب يمكن إسعافه. كانت وزملاءها يرفضون الاعتراف بما حدث. كأنّهم ينتظرون معجزة؛ كأنّهم يترقّبون شيئًا ما سيحدث فجأة ليعود خالد كما كان. ما إن وصلوا إلى القصر العيني حتى حملوه على نقّالة وركضوا به حتى وجدوا مدرّسًا في الكلّيّة. لم يتكلّموا كثيرًا. كان المشهد يشرح نفسه... طلب المدرّس منهم نقل خالد على الفراش. فتح عينيه وحدّق فيهما، ووضع يده على معصمه، ثم استدار بهدوء، وقال:

- «البقيّة في حياتكم».

تتابع الصور المهتزّة في ذهن دانية. ترى نفسها جالسة إلى جوار الجثّة الملطّخة بالدماء، وهي تقرأ في مصحف مفتوح على ساقيها، وتتوقّف عن القراءة عندما تمنعها الدموع من رؤية الحروف. تستعيد مع الصور أصواتًا متداخلة: صراخًا وصياحًا وعويلًا. بدا صوتها وهي تقرأ القرآن غريبًا على سمعها كأنّه يصدر من شخص آخر. ظلّ الزملاء يدخلون الحجرة ويخرجون ويصيحون ويبكون وينحنون على خالد ويقبّلونه، اقترب منها زميلٌ، بعد قليل، وقال بصوت خافت:

- والد المرحوم خالد وصل.

(٣١)

ظهر أشرف ويصا، في اليوم التالي، في ميدان التحرير. كان وجوده وسط المتظاهرين فريدًا ورمزيًّا على نحو ما. رجل خمسينيّ أرستقراطيّ، بشعره الأبيض الناعم المفروق في منتصف الرأس وثيابه الأنيقة الكلاسيكيّة: بدلة من الصوف وبلوفر بياقة وحذاء إنكليزيّ. بدا أشرف، على نحو ما، كأنّه مبعوث الماضي؛ رجل من الأمس؛ ممثّل الأجيال السابقة جاء ليعلن انضمامه إلى شباب الثورة. ترافقه إكرام، وقد خلعت الحجاب وارتدت بنطلون جينز وبلوفر من الصوف أسودَ، وانتعلت حذاءً رياضيًّا ولمّت شعرها الناعم على هيئة ذيل حصان، وبدا وجهها الجميل بغير زينة ما عدا الكحلَ ولمسة خفيفة من أحمر الشفاه الفاتح. الغريب أنّها، في هيئتها الجديدة، محت أصولها الطبقيّة بشكل كامل. لولا بعض الحروفِ التي تنطقها باللهجة الشعبيّة لظنّها من يراها موظّفة أو طالبة في الجامعة. ظلّ أشرف يجوب الميدان مرّة بعد أخرى، يستمع إلى الخطباء ويتناقش مع المعتصمين. كان يُدلي برأيه

بحماسة ونبرة قاطعة:

ـ كان ممكن الثورة تقبل حلول وسط قبل أن تقتل السلطة المتظاهرين. واجبنا تجاه الشهداء يجبرنا على خلع مبارك ومحاكمته.

كان مظهره يُثير فضول بعض الواقفين. كان عندئذ، ينظر إليهم ويبتسم ويقول:

ـ بُصّ، أوّلًا أنا قبطي. ثانيًا، أنا كنت مواطن عادي لا دخل لي بالسياسة لغاية لمّا شفت القتل. أنا شفت شابّ قد ابني انقتل قُدّامي.

كان كلّ شيء منظّمًا في الميدان: هناك لجان من الشباب والبنات لتأمين الميدان تنتشر على المداخل، تفتّش الداخلين من الجنسين، وتتحقّق من شخصيّاتهم. وهناك لجان إعاشة تتولّى توفير الطعام، وإن لم يمنع ذلك مئات المتطوّعين من إحضاره معهم. كان المتطوّع يدخل بمئات الساندوتشات فيتركها على أرض الميدان، ويدعو الواقفين إلى الأكل ثم يختفي في الزحام. وكانت هناك لجان للإعلام تتولّى الاتّصال بالصحافة واستقبال الصحافيّين الأجانب، وبين الحين والحين كانت تتردّد نداءاتٌ في الميكروفون تطلب طبيبًا في مكان ما، أو متطوّعًا لتأمين إحدى البوّابات. تحوّل ميدان التحرير إلى جمهوريّة صغيرة مستقلّة؛ أوّلِ أرض مصريَّة يتمّ تحريرها من حكم الديكتاتور. كان كلّ معتصم في «التحرير» يشعر بأنّه يحقّق نموذجًا ما؛ يحسّ بأنّ نجاح الثورة يتوقّف على ما سوف يفعله هو بالذات. أُقيمت بالجهود الذاتيّة المنصّةُ الرئيسة، حيث يُلقي المتحدّثون كلماتهم في الميكروفون المزوّد بسمّاعات كبيرة تصل أصداؤها إلى كلّ أنحاء الميدان. على جانبي المنصّة، كان المنظّمون قد أجلسوا أمّهات الشهداء؛ سيّدات

فقيرات في منتصف العمر يرتدين السواد، وقد خيَّم عليهنَّ سكونٌ حزين. كلّ واحدة فيهنَّ وضعت على صدرها صورةً كبيرة لابنها الشهيد، وراحت تتطلَّع إلى مَن حولها بما يشبه الرجاء، كأنَّهم قادرون على إعادته إليها. قبل أن يتحدَّث أيّ خطيب في الميكروفون، كان المنظِّمون يطلبون منه مصافحةَ أمَّهات الشهداء. لفتة، ربَّما كان الغرض منها أن يفهم المتحدِّث أنَّ الثورة لن تفرِّط في حقوق الشهداء. كان نظام مبارك قد أطلق مجموعات من الشخصيَّات العامَّة تأتي تباعًا إلى الميدان لإقناع الثائرين بإنهاء الاعتصام والعودة إلى بيوتهم. وكان المعتصمون يرفضون الاستماع إليهم ويطردونهم. ومع ذلك، لم ينقطع مجيئهم يومًا واحدًا. في أركان الميدان المختلفة، على مدى الليل والنهار، كان هناك خطباء يتحدَّثون إلى مجموعات من الناس. قال أشرف مرَّة لإكرام:

ـ عارفة، الميدان بيفكَّرني بهايد بارك.

تطلَّعت إليه مستفهمة، فاستطرد:

ـ هايد بارك جنينة في لندن. كلّ واحد عاوز يقول أيّ رأي يروح هناك يتكلَّم والناس تسمعه.

ـ حتى لو تكلَّم ضدَّ الحكومة.

ـ حتى لو تكلَّم ضدَّ الملكة، أو حتى ضدّ ربّنا.

ـ أستغفر الله العظيم. يعني يبقوا كفَّار؟!

ـ من حقّهم.

ـ والحكومة مايباهم عادي.

ـ يعني تموّتهم؟

هكذا سألها ضاحكًا، ثم خجل من سخريته، وقال بجدّيّة:

ـ الحكومة في الدول المحترمة تحمي حقّ المواطنين في الاعتقاد. كلّ واحد يختار الدين اللّي يعجبه أو يبقى ملحد، لكنّه في النهاية مواطن له حقوق...

كان المعتصمون من كلّ الطبقات. أرستقراطيّون من نادي الجزيرة والزمالك وغاردن سيتي، وقاهريّون شعبيّون وريفيّون وصمايدة ونساء سافرات ومحجّبات ومنقّبات وروابط الشباب من ألتراس، مشجّعي كرة القدم، وهؤلاء كان دورهم حاسمًا في الدفاع عن الثورة. كانوا منظّمين ويتمتّعون بلياقة بدنية عالية، ولديهم خبرة طويلة في مقاومة اعتداءات الأمن. تعرّف أشرف إليهم، وفهم منهم طريقة تنظيم الميدان، فذهب إلى شركة السياحة التي تركها صاحبها للثورة، والتقى هناك رئيس اللجنة التنسيقيّة، المسؤول الأوّل عن الميدان، الدكتور عبد الصمد، وهو أستاذ في كلّيّة الطبّ تجاوز السبعين، هادئ ومهذّب للغاية، وملامحه مألوفة ووديعة. عرّفه أشرف بنفسه، ثم قال ببساطة:

ـ أنا عاوز أساعد الثورة.

دمدم الدكتور عبد الصمد بكلمات امتنان، ثم بدا على وجهه تعبيرٌ عمليّ، وتبادل مع أشرف رقمي هاتفيهما، وقال وهو يودّعه:

ـ أشكرك مرّة أخرى وسأتّصل بك قريبًا.

سوف يشهد الميدان بعد ذلك، يوميًّا، وجودَ أشرف وإكرام وهما يحملان مئات الساندوتشات وصناديقَ المياه المعدنيّة في السيّارة، ثم يتركونها إلى جوار كوبري قصر النيل ليتولّى الشباب توزيعها على المعتصمين. يحضُران الاحتياجات، من أدوات طبّيّة وأدوية وشاش وقطن، يُمليها على أشرف الطبيبُ المسؤول عن المستشفى الميداني في

جامع عمر مكرم، فيذهب لشرائها مع إكرام من الشركات الطبّيّة في القصر العيني أو ميدان الجيزة. كان أشرف أيضًا، بناءً على تكليف من اللجنة، يستقبل الصحافيّين الأجانب الذين لم ينقطع توافدهم على الميدان، ويطوف بهم في الميدان ويشرح لهم ما يحدث، ويُجيب عن أسئلتهم. كان يثير إعجابهم، في مظهره الأنيق وابتسامته العريضة الوديّة وإتقانه التامّ للإنكليزيّة والفرنسيّة، حتى إنّ جريدة «الأوبزرفاتوار» الفرنسيّة نشرت تحقيقًا، على صفحة كاملة، بعنوان «الثريّ القبطيّ الذي انضمّ إلى الثورة». عندما قام الصحافي بتصويره، حاولت إكرام أن تتحرّك بعيدًا، لكن أشرف أمسك بيدها وأصرّ على بقائها إلى جواره، فظهرت في كلّ الصور المنشورة. منذ اليوم الأوّل، تعرّف أشرف، بحنان أبويّ، إلى شباب الأقباط الذين خالفوا تحذيرات الكنيسة وانضمّوا إلى الثورة. كان معهم كاهنٌ شابّ أقام القدّاس المشترك مع صلاة الجمعة. ذلك اليوم، كان المشهد مهيبًا، إذ وقف الكاهن إلى جوار الشيخ على المنصّة الرئيسة، بينما احتشد آلاف المسلمين والأقباط وقد حملوا جميعًا الصلبان والمصاحف. ألقى الشيخ خطبة الجمعة، ثم ألقى الكاهن كلمته، وأُقيمت الصلاة ثم القدّاسُ، وفي النهاية، بناءً على دعوة المنصّة، أنشد آلاف المعتصمين نشيدَ «بلادي بلادي»، وانهمرت دموع كثيرين. حتى إنّ عشرات المراسلين الأجانب الواقفين خلف الكاميرات تأثّروا، وبدا على وجوههم تعبيرٌ جادّ مخلص، وكأنّ روح الثورة قد مسّتهم وهم ينقلون إلى العالم هذه التجربةَ الإنسانيّة الفريدة، كما وصفوها. بعد أن انتهى القدّاس، أمسك أشرف بيد إكرام وتوجّها إلى مقهى زهرة البستان. سألته حينها، بصوت خافت:

ـ تفتكر يا أشرف بك ربّنا يقبل صلاة المسلمين والأقباط مع بعض؟

توقّف عن السير، وتطلّع إليها وقال:

ـ صَلاتنا هنا مع بعض أحسن عند ربّنا من أيّ صلاة يعملها الشيوخ والقساوسة اللّي بياخذوا تعليمات من ضبّاط أمن الدولة.

أطرقت واستأنفت السير، وقد بان على وجهها الاطمئنانُ. كانت كلمة واحدة منه كافية لإقناعها بأيّ شيء. كان، بالنسبة إليها، الحبيبَ والأستاذ الذي يعرف دائمًا وجهَ الحقيقة. وبينما هما يجتازان الميدان، استمع أشرف إلى صوت يناديه: «يا أستاذ أشرف»... خطر له أنّ الصوت مألوف، والتفت فرأى أسماء تركض نحوه. بسط ذراعيه وتلقّاها بشكل تلقائي، احتضنها وقال بحماسة:

ـ أسماء، سعيد جدًّا أنّي شفتك.

ردّت وهي تلهث:

ـ أنا سعيدة وفخورة أنّ حضرتك معنا في الميدان.

ضحك أشرف وقال:

ـ أنت السبب يا أسماء، لأنّك أقنعتيني.

لاحظ لأوّل مرّة شابًّا بصحبة أسماء قدّمته قائلة:

ـ مازن السقّا، مهندس.

التفت أشرف إلى إكرام، وقدّمها قائلًا:

ـ دي صديقتي إكرام... ودي أسماء اللّي كلّمتك عنها.

توجّه الأربعة إلى المقهى واختفى أشرف دقائق وعاد محمّلًا

بساندوتشات فول وطعميَّة. جلس الأربعة يأكلون ويتكلَّمون. بدأ الحوار بين المرأتين ببطء وحذر كأنَّهما حيوانان يتشمَّمان أحدهما الآخر بفضول، وسرعان ما زال التوتُّر وتحدَّثتا بودٍّ كصديقتين قديمتين... كان مظهر أسماء البريء وتعلُّقها الواضح بمازن كفيلَين بمحو أيّ أثر للغيرة لدى إكرام. وفي المقابل، فإنَّ حبّ أسماء لأشرف امتدَّ إلى إكرام، لأنَّها أدركت أنَّ شيئًا ما يربطهما. قال مازن لأشرف:

ـ أحبّ أشكرك لأنَّك أنقذت أسماء...

ضحك أشرف وقال:

ـ أنا اللِّي أشكرها لأنَّها غيَّرت حياتي زيّ ما أنت شايف.

قال مازن كأنَّه يحدِّث نفسه:

ـ الثورة غيَّرتنا كلّنا.

حكى مازن لأشرف عن معركته في المصنع، وقال بلهجة معتذرة:

ـ أنا ظروفي لا تسمح لي بالحضور للميدان. لازم أكون مع العمَّال.

ردَّ أشرف قائلًا:

ـ معركتك في المصنع لا تقلّ أهمِّيَّة عن الميدان.

كان أشرف، في أعماقه، يحسّ بالذنب. قال لنفسه: ها هو شابّ لم يبلغ الثلاثين يخوض نضالًا جدِّيًّا من أجل حقوق العمَّال، بينما كنت، وأنا في سنِّه، أبحث عن المرح والمتعة. في اليوم التالي، اتَّفق أشرف مع إكرام وقام، بمساعدة مجموعة من شباب الميدان، بفتح شقَّة الدور الأرضيّ في عمارته وتنظيفها، وأصبحت مقرًّا للثورة. كان المستأجر الأخير للشقَّة صاحب محلّ أدوات كهربائيَّة استعملها

كمخزن، فقام الشباب بالتخلُّص من بقايا الأسلاك والصناديق الكرتونيَّة الفارغة، وأمضوا نهارًا كاملًا في تنظيفها، وفتحوا النوافذ المغلقة منذ زمن طويل. وضع أشرف في حجرة ثلاثة أسرَّة لإسعاف المصابين، وقام بتخزين المستلزمات الطبيَّة في حجرة أخرى، واشترى ثلَّاجة كبيرة لحفظ الأطعمة والأدوية. كما وضع في الحجرة الكبيرة مائدةً ومقاعد عُقدت حولها اجتماعاتٌ لأعضاء اللجنة التنسيقيَّة، والتي صار أشرف ويصا يحضرها بناء على دعوة الدكتور عبد الصمد رئيس اللجنة وموافقة الأعضاء. كم أحسّ بزهوّ وهو جالس في أوَّل اجتماع مع أعضاء اللجنة. كان هناك ممثّلون عن حركات الشباب: «كفاية» و«٦ إبريل» و«الجمعيَّة الوطنيَّة» و«الاشتراكيين الثوريين»، وكانت هناك شخصيَّات عامَّة. بعد الاجتماع، خرج أشرف ليوصل الدكتور عبد الصمد، وسأله:

– حضرتك شرّفتني بثقة كبيرة مع أنّك عرفتني من أيَّام قليلة.

ابتسم الدكتور، وقال:

– معظمنا ما كنَّاش نعرف بعض. الثورة هي اللِّي جمعتنا.

ثم سكت، وشدَّ على يده كأنَّه يخجل من حديثه العاطفيّ.

تغيَّرت حياة أشرف ويصا إلى درجة أدهشته. كان يستيقظ في موعده العاديّ. بعد الطقوس الصباحيَّة المعتادة، ينزل مع إكرام إلى الميدان ولا يعودان إلَّا في الليل. الغريب أنَّه فَقَدَ حماسته لفكرة الكتاب، وقلَّل تدخين الحشيش؛ مجرَّد سيجارتين للاصطباحة، وبضع سجائر قبل النوم. في أثناء النهار، تستبدّ به الرغبة أحيانًا فيتسلَّل إلى شقَّته ويدخّن سيجارة ملفوفة. كثيرًا ما يفكّر في سبب التغيّر الذي

أصابه. كان غارقًا في حالة من الإحباط والإحساس بانعدام الجدوى، ثم وجد نفسه في معركة حقيقيَّة يخوضها شباب في عمر أولاده، وهم مؤمنون بقضيَّتهم، إلى درجة استعدادهم للموت في سبيلها. يتساءل لو لم يكن ساكنًا في جوار ميدان التحرير، ولو لم تلجأ أسماء إلى شقَّته، ولو لم يرَ القتل بعينيه... هل كان سيتعاطف مع الثورة؟ لا يعرف الإجابة. ماجدة زوجته تعيش معه في المكان نفسه، وهي تعادي الثورة منذ اليوم الأوَّل. بعد أسبوع، اتَّصلت به وقالت بتهكُّم لا يخلو من مرارة:

- سمعت أنَّك فتحت شقَّة الأرضي للعيال بتوع التحرير.

قال بغضب:

- دُول مش عيال. دُول شباب محترمين.

- مش قادرة أصدَّق أنَّك تجيب لنا الإخوان في بيتنا.

- قلت لك مية مرَّة شباب التحرير مش إخوان.

- حتى لو مش إخوان، همّ عاوزين يخربوا البلد.

- البلد مخروبة وهمّ عاوزين يصلَّحوها. ثم أنت سيبتِ البيت ورحت عند أهلك، مالكيش دعوة.

تبادلا كلمات غاضبة، ثم أنهت المكالمة وهي تدمدم. كان يكلِّمها من حجرة المكتب، وعندما خرج وجد إكرام في الصالة. تطلَّعت إليه بنظرة متفحِّصة شبه أموميَّة كانت تمكِّنها دائمًا من فهم ما يدور في ذهنه. ابتسمت وقالت:

- باين عليك متضايق.

- أبدًا.

هكذا قال، وأشعل سيجارة ملفوفة. سألته بنعومة:

ـ هيّ مدام ماجدة اتّصلت؟

تردَّد قليلًا، ثم أومأ برأسه، فقالت:

ـ خير؟

ـ زعلانة أنّي عملت شقّة الأرضي للشباب.

ـ وهي عرفت منين؟

ـ قطعًا الجيران قالوا لها.

ـ وبعدين.

ـ ولا حاجة. إتخانقنا.

سكتت إكرام لحظة، ثم قالت بصوت خافت:

ـ عاوز الحقّ؟! المفروض تزور مدام ماجدة وتطمئنّ عليها...

ـ مش عاوز أزورها.

سكتت إكرام وبدت كطفل محرَج، فاحتضنها وقال:

ـ يا حبيبتي، ماجدة ما يفرقش معها إنّي أزورها. إحنا كنّا عايشين مع بعض لأنّنا مش عارفين نتطلّق، لا أكثر ولا أقلّ.

قالت إكرام بنبرة تتراوح بين الدلال والدعابة:

ـ ماليش دعوة يا سيدي. أنت اللّي مش عاوز تشوف مراتك.

اقترب برأسه وهمس في أذنها:

ـ أنا تعذّبت سنين مع ماجدة لحدّ ما ربّنا كافئني بإكرام.

في ظهر اليوم التالي قُبيل الظهر، كان أشرف وإكرام ومعهما

بعضُ الشباب والبنات منهمكين في إعداد الغذاء للمعتصمين. كانت عشرات الساندوتشات موضوعة على المائدة، ويضعون كل ساندوتشين في كيس، ثم تضاف موزة وبرتقالة، ويتمّ إغلاق الكيس. وكلّ مئة كيس يذهب بها شابّ لتوزيعها في الميدان. كان العمل يتمّ في جوٍّ من الحماسة والمرح. سمع فجأة صوت خبطات متتالية على النافذة، وصياح وشتائم. تقدّم أشرف بحذر وتطلّع من فتحات الشيش المغلق، فوجد مجموعة لا تقلّ عن عشرين شخصًا مسلّحين بالسيوف ومسدّسات خرطوش، ووراءهم مجموعةُ صِبْية يقذفون الطوب على النافذة... صاح أحدهم، وكان ضخم الجثّة، وهو يلوّح بسكّين طويلة:

ـ اطلع يا أشرف ويصا أنت والمومس اللّي معك. مش عاجبك سيدك مبارك يا قبطيّ الكلب؟! وحياة أمّك لأخلّص عليك الليلة.

(٣٢)

حبيبتي أسماء،

لو جئتِ إلى شقّتي الصغيرة فستجدين أربع سمّاعات كبيرة مثبّتة في الأركان. لا أستطيع الحياة من دون موسيقى. تعلّمت، بالخبرة، أنّ السمّاعة الجيّدة هي الأسهل في إعطابها، لأنّها تلتقط أدقّ الأصوات. هذه حالتك بالضبط. أنت إنسانة رائعة، لكنّك حسّاسة جدًّا. أيّ كلمة بسيطة تؤثّر فيك، وأيّ موقف عابر قد يؤلمك بشدّة. لستِ متناقضة، كما تقولين. كلّ ما فعلته، بالنسبة إليّ، مفهومٌ تمامًا. لقد عشتِ نبلَ الثورة فصعب عليك أن تكذبي. ربّما أحسستِ بخجل لأنك تكذبين خوفًا من والدتك، بينما آلاف الشباب انضموا إلى الثورة وهم يعلمون بأنّهم قد لا يعودون. لديَّ الشعور نفسه، يا أسماء. اللحظةُ التي رأيت فيها سقوط أوّل شهيد، كانت نقطةَ تحوُّل في حياتي. لن أعود ولن تعودين كما كنّا قبل الثورة. كلّ من اشترك فيها قد تغيّر إلى الأبد... تعتبين على الذين يتفرّجون على المظاهرات ولا

يفعلون شيئًا؟ يا صديقتي، الناس ليسوا كلّهم سواء. لم يحدث في التاريخ أن قامت ثورة اشترك فيها الشعب كلّه... قرأت مرّة أنّ عشرة في المئة من السكّان في أيّ بلد لو ثاروا، فإنّ التغيير يحدث حتمًا. مصر قدّمت ضعف هذا العدد في الثورة. دفعنا ثمن الحرّيّة، ولا بدّ من أن نحصل عليها. لقد فعل النظام كلّ ما يمكنه من أجل إجهاض الثورة. قتل المتظاهرين بالرصاص، واستأجر بلطجيّة ليقتلوهم في موقعة الجَمل، وفتح السجون وأخرج آلاف المجرمين من أجل ترويع المصريّين. نحن نواجه أجهزة النظام كلّها... إنّها تريد سحق الثورة بأيّ ثمن. كيف عرف البلطجيّة مكان المستشفى الميدانيّ في المسجد، وكيف عرفوا مكان شقّة أشرف ويصا، بل من أخبرهم باسمه أصلًا. لقد كانوا يهجمون على أهداف محدّدة بناءً على معلومات من أجهزة الأمن. عندما هجم البلطجيّة على الميدان، عرفت عن طريق تويتر فتركت المصنع وجئت إلى الميدان. رأيت بعينَيّ فرق البلطجيّة على الجمال، وهي تمرّ بين قوّات الجيش، فيفسح لها الضبّاط... وعندما ذهبنا إلى العقيد المسؤول نطلب منه منع البلطجيّة، قال لنا:

- أنتم ضدّ مبارك وهم يحبّون مبارك. أليسوا مواطنين مصريّين مثلكم، ومن حقّهم أن يعبّروا عن رأيهم... أين حرّيّة الرأي التي تطالبون بها؟

قلت له:

- الموضوع لا علاقة له بحرّيّة الرأي. هؤلاء بلطجيّة مسلّحون جاؤوا ليقتلونا... ونحن متظاهرون سلميّون، وواجب الجيش أن يحمينا.

بان الغضب على العقيد، وقال:

ـ ما عنديش أوامر بالتدخُّل.

ثم مشى وتركنا نواجه آلاف البلطجيَّة المسلَّحين. الضابط الوحيد الذي خالف الأوامر اسمه النقيب ماجد بولس، أطلق النار في الهواء ليحمي المتظاهرين، لكنَّه لم يستطع منع مئات البلطجيَّة... ومع ذلك، تصدَّى المعتصمون للهجوم وأفشلوه... مرَّ أسبوعان والثورة ما زالت صامدة. بصراحة، لم تعجبني أمس نبرةُ كلامك عندما سألتِني:

ـ إذا لم يسقط مبارك... فإلى متى نظلّ معتصمين في الميادين؟

مبارك سيسقط يا أسماء، والثورة ستنتصر. هل تريدين الدليل؟! اسمعي ما حدث بالأمس:

المهندس يحيى حسين، عضو اللجنة التنسيقيَّة، كان يتجوَّل في ميدان التحرير عندما خرج من إحدى الخيام رجلٌ بسيط أخرج تليفون نوكيا قديمًا وقال له:

ـ تعمل لي خدمة؟ ممكن تشتري التليفون ده أو تشوف له بيعة؟

سأل يحيى الرجل، فعرف أنَّه من سوهاج، وسريح على باب الله، وفهم أنَّه يحتاج إلى نقود، فعرض عليه مساعدة، لكنَّ الرجل رفض تمامًا، الأمر الذي اضطرّ يحيى إلى شراء التليفون، مع أنَّه بالطبع لا يحتاج إليه. فكَّر يحيى في أنَّ آلاف المعتصمين مثل هذا الرجل، أرزقيَّة، عمَّال باليوميَّة أو باعة متجوِّلون يعيشون يومًا بيوم؛ فلمَّا انضمُّوا إلى الثورة انقطع رزقهم... عرض يحيى الأمر على د. عبد الصمد، رئيس اللجنة التنسيقيَّة الذي أعطاه مبلغ أربعة عشر الف جنيه من ميزانيَّة التبرُّعات، وطلب منه أن يساعد بها مَن يحتاج

من المعتصمين. أخذ يحيى رزمة الأموال ووضعها في الجيب الداخليّ لمعطفه، وذهب ليؤدّي صلاة العشاء في جامع عمر مكرم. وبعد الصلاة مرّ على خيم ميدان التحرير، واحدةً واحدة. كان يتحدّث مع المعتصمين حتى يتأكّد من أنّهم محتاجون، ثم يعرض المساعدة. أمضى يحيى حين الليلة كلّها في تفقّد الخيام، ثم عاد في النهاية إلى رئيس اللجنة بمبلغ الأربعة عشر ألف جنيه كما هو لم ينقص منه جنيه واحد. تخيّلي يا أسماء: معتصمون معرّضون للقتل بالرصاص في أيّ لحظة، انقطعوا عن أعمالهم ولا يجدون قُوْتهم، لكنّهم، مع ذلك، يرفضون أيّ مساعدة ماليّة من زملائهم. هذا الموقف النبيل لم يتّخذه شخص أو اثنان، وإنّما آلاف المعتصمين الفقراء. كيف نُهزَم يا أسماء، وفينا هؤلاء النبلاء؟! كيف نُهزَم ومليون رجل وامرأة يعيشون جميعًا في ميدان التحرير، فلا تحدث بينهم حالةُ تحرُّش واحدة، ولا حالةُ سرقة واحدة، ويشتركون في كلّ شيء كأنّهم أفراد أسرة واحدة، يقتسمون الأكل والشرب ويواجهون معًا طلقات الرصاص والخرطوش وقنابل الغاز وطعنات البلطجيّة. لن أنسى ذلك الرجل الذي دخل الميدان من كوبري قصر النيل، وهو يقود درّاجة يحمل عليها كيسًا كبيرًا. كان مسنًّا وفقيرًا يرتدي جلبابًا مهترئًا، وفي قدميه شبشب (في الشتاء) لأنّه قطعًا لم يكن يملك ثمن حذاء. ما إن دخل الميدان حتى ركن الدرّاجة وأنزل الكيس وفتحه، وراح يوزّع الساندوتشات على المعتصمين... لن أنسى كلّ ذلك ولن أخونه، يا أسماء. لن أخون الشهداء الذين سقطوا إلى جواري، ولا الجرحى الذين حملتهم على كتفي. لن أخون البسطاء الذين كانوا يصدّون هجوم البلطجيّة في موقعة الجَمَل، ويطلبون منّا، نحن المتعلّمين، أن نتراجع إلى الصفوف

الخلفيّة. كانوا يقولون ببساطة:

«ارجعوا، إحنا لو متنا فيه منَّا كثير، إنَّما أنتم متعلّمين. مصر محتاجة لكم أكثر منَّا»...

لن أخون هؤلاء أبدًا.

كلّ هذا النبلِ كان مختبئًا خلف ركام من الإحباط والظلم، ثم انتفض المصريُّون فأخرجوا أفضل ما فيهم. إيَّاكِ أن تشكّي لحظة في أنَّنا سننتصر.

احبّك جدًّا.

مازن

(٣٣)

تمَّ عقد الاجتماع في البهو الداخليّ للفيلَّا التي انتقل إليها الجهاز. قاعة كبيرة ينفذ إليها ضوء النهار من النوافذ المستطيلة المغطَّاة بالزجاج الملوَّن وقبَّة السقف الزجاجيّ. كانت الفيلَّا مملوكة لأسرة أرستقراطيَّة، فتمَّت مصادرتها في العهد الناصريّ، وظلَّت بعد ذلك تابعة للجهاز... كلّ من يشاهدها من الداخل يستطيع أن يتخيَّل كيف كانت في الأيَّام الغابرة. كانت الحفلات الراقصة تنظَّم في البهو. ثمَّة منصَّة مرتفعة تحت السلّم الذي يُفْضي إلى الطابق العلويّ، كان الموسيقيُّون يجلسون عليها بآلاتهم، بينما يرقص المدعوُّون في فضاء البهو ويدور الخدم بقفاطينهم المقلَّمة وأحزمتهم وطرابيشهم الحمراء على الموجودين بصَوانٍ حافلة بالمشروبات. هذا الطابع التاريخيّ للفيلَّا أضفى جوًّا دراميًّا على الاجتماع الذي يُعقَد في لحظة فارقة من تاريخ مصر. تمَّ تحديد الموعد في الثانية عشرة ظهرًا، وطُلب من المدعوِّين الحضورُ قبل ساعة على الأقلّ من الموعد. مرُّوا على

بوّابات الحراسة الإلكترونيّة، وتمّ سحب تليفوناتهم المحمولة وحقائب السيّدات (وقد همّت إحدى الممثّلات بالاعتراض، لكن نظرة صارمة من الضابط المسؤول جعلتها تذعن)... تمّ تنبيه المدعوّين إلى استعمال دورات المياه، لأنّه بمجرّد بدء الاجتماع لن يُسمح لأحد بالخروج من القاعة مهما يكن السبب. وهكذا، في مشهد نادر، وقف نجوم المجتمع المصريّ. رجالًا ونساءً، في طابور أمام دورات المياه لإفراغ المثانات. بعد ذلك، اصطحب الضباط المدعوّين، بحيث أجلسوهم وفقًا لترتيب محدَّد حول موائد مستديرة مغطّاة بمفارش بيضاء تتوسّطها أوانٍ فضّيّة صغيرة، تتّسع كلّ واحدة منها لوردة واحدة. كان التنظيم الدقيق للمكان يحمل طابعًا عسكريًّا ما. عدد المدعوّين مئة شخص حضروا جميعًا، إذ لا يُتصوَّر أن يعتذر أحد في مثل هذه الظروف. وبالإضافة إلى الإعلاميين المشهورين، كان هناك كبار مشايخ السلفيّين بجلابيبهم البيضاء والمصنوعة من أغلى الأقمشة، والغترات السعوديّة على رؤوسهم وأحذيتهم الأنيقة، يمسك كلّ واحد فيهم مسبحةً صغيرة من الأحجار الكريمة. كان هناك نجوم كرة القدم معبودو الجماهير في مصر. نجوم السينما كانوا أكثر الحاضرين حديثًا وحركة، ولم تتوقّف محاولاتهم للفت الأنظار. الصفّ الأوّل من الموائد خُصّص بالكامل لكبار رجال الأعمال... ارتدى المسنّون منهم بدلات كاملة وأربطة عنق، بينما ارتدى الأحدث سنًّا ثيابًا «كاجوال»: قمصانًا وبلوفرات وبناطيل سبور موقّعة من دُور الأزياء الشهيرة. هذا النوع من الأناقة «المهملة» كثيرًا ما يلجأ إليه الأثرياء، ربّما بسبب زهقهم من الأزياء الرسميّة، أو وربّما لإثبات تفوّقهم، إذ يحسّون بأنّهم على الرّغم من ثيابهم العاديّة، يظلّون مميّزين ومحلّ حفاوة واهتمام من الجميع.

مرَّ السفرجيَّة بين الموائد ليخدموا الحاضرين، فطلب معظمهم قهوة أو نسكافيه. ساد القاعةَ جوٌّ من التوتُّر والترقُّب. كانوا جميعًا يتحدَّثون همسًا عن الأحداث المتلاحقة التي تشهدها البلاد، باستثناء بعض الممثِّلين الذين لم يكفُّوا عن لفت الأنظار، حتى إنَّ ممثِّلة شهيرة أطلقت، في أثناء حديثها مع جارتها، ضحكةً أنثويّةً خليعة رنّت في القاعة وأثارت نوعًا من الحرج، فوجَّه كثيرون إليها نظرة لوم كأنّهم يقولون «ليس هذا وقت الهزل». في تمام الثانية عشرة، انفتح الباب ودخل اللواء علواني ومدير مكتبه، وهو ضابط شابّ برتبة رائد وحولهما أربعةُ ضبَّاط يرتدون الثياب المدنيَّة. كان اللواء علواني أنيقًا كعادته، يرتدي بدلة لونها رماديّ فاتح وقميصًا أبيض وربطةَ عنق زرقاء. وقف المدعوُّون جميعًا احترامًا له، فابتسم وقال:

ـ صباح الخير.

اختلطت أصوات الرجال والنساء، وهم يقولون:

ـ صباح النور، يا فندم.

أشار إليهم فجلسوا، وجلس وهو على المقعد المُعَدّ له خلف مائدة صغيرة على المنصَّة، وتبادل حديثًا هامسًا مع ضبَّاطه كأنَّه يراجع معهم التفاصيل لآخر مرَّة... كان يجهد ليبدو في حالة معنويَّة عالية، حتى إنَّه أطلق ضحكة بدت استعراضيَّة ومصطنَعة، لكن وجهه كان يعبِّر عن قلق لم يتمكَّن من إخفائه... اقترب من الميكروفون، وقال بلهجة وديَّة:

ـ أشكركم جميعًا على الحضور، وإن كان هذا ما نتوقَّعه منكم، كمصريِّين وطنيِّين.

بدأ اللواء بتقديم ضبّاطه، كان هناك عميد وثلاثة عقداء، ثم رشف من فنجان القهوة، وقال:

ـ الوقت ضيّق والأحداث تتلاحق بسرعة، وأمامنا مهمّاتٌ كثيرة في الظروف الصعبة. سأدخل في الموضوع مباشرة. اليوم، في السادسة مساء، سيتمّ إعلان تنحّي الرئيس مبارك عن الحكم.

تهدّج صوته رغمًا عنه، فرشف من فنجان القهوة وتطلّع بحزن إلى الحاضرين الذين تعالت صيحاتهم احتجاجًا. هتف شيخ:

ـ لا حول ولا قوّة إلّا بالله.

صاح شيخ آخر:

ـ واللهِ، إنّها الفتنة التي هي أشدّ من القتل.

صرخت ممثّلة كانت لم تتعافَ تمامًا من عمليّة تجميل جعلت خدّيها متفخين ككرتين صغيرتين:

ـ أنا زعلانة من الشعب المصري... بدل ما يكرّم سيادة الرئيس مبارك يقوم يعمل فيه كده... حرام... واللهِ حرام.

صاح ممثّل شابٌّ مفتول العضلات تخصّص في أفلام الأكشن:

ـ حتى لو سيادته تنحّى، بالنسبة لي حيفضل مبارك هو رئيسي.

وقف لاعبو الكرة في أماكنهم وأطلقوا صيحات احتجاج وهم يلوّحون، وقال لاعب اشتهر بتسديداته الصاروخيّة من بعيد:

ـ يا فندم، مع احترامي، من يملك في بلدنا ينحّي سيادة الرئيس عن الحكم. شويّة عيال قابضين من أميركا وإسرائيل عشان يخرّبوا البلد يشيلوا رئيس الجمهوريّة.. مستحيل نقبل التنحّي.

صاح حارس مرمى المنتخب:

ـ يا فندم، إحنا لازم نخرج في مسيرة نطالب سيادة الرئيس بالبقاء في منصبه.

ظلَّ اللواء علواني صامتًا لحظات، ثم قال بتأثُّر:

ـ التنحّي قرار نهائيّ اتّخذه الرئيس مبارك بنفسه حفاظًا على مصر. سينقل السلطة إلى المجلس الأعلى للقوّات المسلّحة، وسيظلّ الرئيس مبارك معزَّزًا مكرَّمًا، ولن يستطيع مخلوق أن يمسّه بسوء.

هدأ الضجيج قليلًا، وتردَّد صوت بكاء آتٍ من موائد الممثّلات، فاستطرد اللواء علواني:

ـ أقدّر مشاعركم النبيلة، لكن هذا ليس وقت البكاء، وإنّما العمل. مصر المذكورة في القرآن، ستظلّ، بإذن الله، بخير إلى يوم الدِّين... كلّ المخرّبين الذين اشتركوا في المظاهرات لا يزيدون على عشرة في المئة من المصريّين. الباقون من الشعب لا علاقة لهم بما يحدث. هذا الكلام، وفقًا لدراسة دقيقة. عندنا في الجهاز إدارة لقياس الرأي العام تُعطينا نتائج دراساتها أوّلًا بأوّل. كلّ ما حدث غريب على ثقافة المصريّين. قيمنا المصريّة الأصيلة تربّينا على احترام الكبير وطاعة القائد.

وقف نجم كوميديّ مشهور، وصاح:

ـ يا فندم، اللّي حصل في «التحرير» مؤامرة حقيرة.

ثم استدار نحو الجالسين، وقال:

ـ نفسي أعرف الجيش ما قتلش العيال دي ليه. اضربوهم بالطيران وخلّصونا منهم.

رفع اللواء علواني يده بمعنى أنَّه لا يريد مقاطعةً، ثم قال:

ـ طبعًا، هناك مؤامرة ضدّ الدولة المصريَّة. لدينا أسماء المتآمرين والأموال التي قبضوها. سنكشف عن كلّ شيء في الوقت المناسب وسنحاكمهم. لكن، لا بدَّ من أن نعترف بأنَّ بعض الشباب استوردوا أفكارًا غريبة على قيمنا وعلى ديننا ومجتمعنا. شباب الفيسبوك وتويتر هؤلاء ظهروا كنبتة غريبة في أرضنا الطيِّبة.

ـ من اخترع الفيسبوك؟! الصهاينة والماسونيون، لعنة الله عليهم. يريدون تدمير أمَّة الإسلام.

هكذا صاح شيخ سلفيّ، فهزَّ اللواء علواني رأسه كأنَّما يوافقه الرأي، ثم استطرد قائلًا:

ـ لقد وضعنا خطَّة لإنقاذ البلد من الفوضى، وقد دعوتكم كي تشتركوا معنا. كلّ واحد فيكم سيؤدِّي مهمَّته في مجاله. مصر الآن في حاجة إليكم جميعًا.

صاح لاعب اشتهر بلقب «صخرة الدفاع»:

ـ كلّنا تحت أمرك يا فندم...

تجاوبت أصوات حماسيَّة مختلفة من القاعة. قال اللواء علواني بحماسة:

ـ هذا ما توقَّعناه منكم. أنا جئت أرحِّب بكم، وأشرح لكم المهمَّة. ستعقب ذلك اجتماعاتٌ مع حضرات الضبَّاط. كلّ مجموعة منكم لها ضابط مسؤول سيكلِّفها بمهمّات محدَّدة، ويراجع أداء كلّ فرد فيها...

ـ ممكن نعرف طبيعة المهمّات المطلوبة؟!

هكذا سأل رجل أعمال شهير تجاوز السبعين. بدا الاهتمام على وجه اللواء:

ـ المهمّات متنوّعة، وكلّها تحتاج إلى مال ومجهود. نحن نواجه حربًا حقيقيّة لتدمير مصر من الداخل. النوع ده اسمه حروب الجيل الرابع. لا يمكن، في هذه الظروف، أن نترك عقول المصريِّين للشائعات المغرضة المنتشرة على فيسبوك. المطلوب من رجال الأعمال الوطنيِّين أن يكون لهم دورٌ في حماية وعي الناس.

سكت اللواء كأنَّما يرتِّب أفكاره، ثم تطلَّع إلى رجل الأعمال، واستطرد:

ـ سنكلِّفك مع زملائك بافتتاح وسائل إعلام بكلِّ أشكالها. محطَّات تلفزيونيَّة وإذاعيَّة وصحف ومواقع إلكترونيَّة. لا بدَّ من أن نستعيد المبادرة. واجبنا أن ننشر الوعي بين المصريِّين حتى يتمكَّنوا من إفشال المؤامرة. هذه المشروعات ستكلِّفكم أموالًا كثيرة ولن تدرّ عليكم أيَّ ربح ماليّ، لكنَّها ستنقذ الوطن. أنا واثق بأنَّكم لن تتأخَّروا.

قال رجل الأعمال:

ـ طبعًا، يا فندم، كلّنا نشارك، كلّ بحسب طاقته.

انتبه اللواء علواني للمعنى الكامن في عبارته، فسأله بجدِّيَّة:

ـ قصدك إيه؟

ـ قصدي حنعمل اللّي نقدر عليه. لا يكلّف الله نَفْسًا إلّا وُسْعَها.

قال اللواء علواني:

ـ يظهر أنّك ما فهمتش كلامي. باقولك ده واجب وطني.

قال رجل الأعمال:

ـ لا يمكن نتأخَّر. أنا فقط قلت كلّ واحد بحسب إمكانيَّاته.

اربدَّ وجه اللواء، وقال بنبرة حازمة:

ـ نحن أدرى بإمكاناتكم. لدينا بيانات كاملة عن كلّ واحد فيكم. ستنفِّذون ما نطلبه منكم بالكامل. لا مجال للرفض. مصر بلدكم، وهي صاحبة الفضل عليكم، وهي التي أعطتكم كلّ هذه الثروات. لو سقطت الدولة المصريَّة ووصل المخرِّبون للسلطة، ثرواتكم حتِتْصادر وحتِتْرموا في السجون.

ردَّد الحاضرون عبارات الموافقة بحماسة، فنهض اللواء علواني وقال:

ـ أعتذر لأنَّني مضطر إلى الانصراف. لقد أردت أن أوضح لكم الصورة بنفسي. سيتمّ تقسيم حضراتكم إلى مجموعات: إعلاميين وفنَّانين ورياضيِّين ورجال دين ورجال أعمال. كلّ مجموعة تجلس مع الضابط المسؤول. أتمنَّى أن تكون النتائج إيجابيَّة. حضرات الضبَّاط سيرفعون إليّ تقارير، وسأتابع كلّ شيء وأقابلكم بانتظام. السلام عليكم.

وقفوا جميعًا لتحيَّته، وانطلق هو خارجًا، وقد بدا على وجهه مزيج من الرضا والحماسة... كانت الأمور تجري كما خُطِّط لها. سوف يفرح المتآمرون اليوم بتنحِّي الرئيس، لكنَّهم لن يفرحوا بعد ذلك أبدًا. اقترب منه مدير مكتبه، وهمس:

ـ مرشد الإخوان منتظر سيادتك في المكتب.

نظر اللواء علواني إلى ساعته. جاء المرشد، كعادته، قبل الموعد

بعشر دقائق، أدرك اللواء علواني، بنظرة واحدة، أنّه يعرف بتنحّي الرئيس، وربّما يعرف حتى ما سيطلبه منه. كان، بخبرته، يعرف كفاءة الإخوان في جمع المعلومات... كان المرشد رجلًا نحيفًا أصلع، في نحو السبعين من عمره، له لحية بيضاء مشذّبة... ابتسم وقال:

ـ سيادتك، صلّيت الظهر؟!

ابتسم اللواء وقال:

ـ لسّه.

ـ نصلّيه جماعة، إن شاء الله.

كانوا خمسةً: اللواء ومدير مكتبه والمرشد وشابين من مساعديه. خلعوا الأحذية وتوجّهوا إلى المصلّى الذي كان عبارة عن سجّادة فاخرة كبيرة مرسومة عليها الكعبة، وقد تمّ وضعها في ركن الحُجرة وضبطُها على القبلة... عرض المرشد على اللواء علواني الإمامة فقبلها. كان، بطبيعته، لا يحبّ إمامة المصلّين، لكن صلاته خلف مرشد الإخوان كإمام كانت لها رمزيّة لا يقبلها. أمَّ اللواء المصلّين في أربع ركعات، وتعمّد أن ينهض بسرعة ليفهموا أنّ الوقت لا يتّسع لأداء السُنَن. وقال بصوت مرتفع لمدير مكتبه:

ـ أنا عاوز أتكلّم مع الأستاذ المرشد على انفراد.

انصرف الضابط فورًا، بينما أومأ المرشد إلى مساعديه ليخرجا. جلس اللواء خلف المكتب والمرشد أمامه على المقعد الوثير. صارا الآن وجهًا لوجه. كانت علاقتهما وديّة ومتحفّظة في آن واحد، كأنّهما لاعبان تنافسا في مباريات كثيرة، فصار كلّ واحد منهما يعرف إمكانات الآخر، الأمر الذي خلق ـ على الرّغم من الخصومة ـ نوعًا

من الاحترام المهنيّ المتبادل... بدأ اللواء، فقال:

- لعلّك عرفت أنّ الرئيس مبارك سيتنحّى.

- هذا مُلك الله يؤتيه من يشاء وينزعه ممَّن يشاء، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله.

- الإخوان المسلمون كانوا دائمًا نموذجًا للمعارضة الوطنيّة التي تُغلي مصلحة الوطن على أيّ مكاسب سياسيّة.

- الحمد لله على ذلك.

- تذكَّر أنّني استدعيتك من قبلُ في ظروف حرجة وتعاونّا من أجل الوطن.

- لم ولن يتأخّر الإخوان عن مصلحة الدين والوطن.

- هل نستطيع أن نعتمد عليكم هذه المرّة؟!

- كنّا دائمًا بفضل الله ملتزمين بأيّ اتّفاق معكم.

- البلد في حالة هيجان. بعد تنحّي الرئيس مبارك، ستكون هناك مطالباتٌ بدستور جديد. هذا الأمر سيفتح باب فتنة لا يعلم مداها إلّا الله. سنطرح الأمر في استفتاء على الشعب. نريد دعمكم حتى يوافق المصريّون على تعديل بعض موادّ الدستور القديم بدلًا من كتابة دستور جديد.

- سنتعاون معكم على الخير، بإذن الله.

- إذا أثبتم حُسن تعاونكم فسنزيل من أمامكم أيَّ عوائق في انتخابات البرلمان.

- جزاكم الله خيرًا.

ساد الصمت لحظة، ثم ابتسم المرشد وقال:

ـ لو سمحت سيادتك، أحبّ أعرف أسماء أعضاء اللجنة الموكل إليها تعديل الدستور.

ـ سنترك لكم اختيار أعضاء اللجنة.

ـ جزاك الله خيرًا.

ـ في هذه الحالة، تعاهدني على حشد الناس ضدّ كتابة دستور جديد؟!

ـ أتعهّد، إن شاء الله.

نظر اللواء إليه متمعّنًا، كأنّما يختبر نيّاته، فابتسم المرشد وقال:

ـ سيادتك عارف إنّنا عمرنا ما اتّفقنا معكم إلّا والتزمنا بالاتّفاق.

انفتح فجأة الباب وظهر الرائد مدير المكتب. عاجله اللواء بنظرة غاضبة، لكنّ الشابّ تجاهلها واقترب بسرعة، ثم مال عليه وهمس:

ـ الدكتورة دانية هنا وعاوزة تقابل سيادتك.

(٣٤)

الصالة الواسعة مفروشة بطقم أثاث أرابيسك، والشرفة مزدانة بأصص الورد، ومنظر النيل يمتدّ على طول نوافذ الواجهة. لم يألف عصام شعلان رؤية شقّته في أثناء النهار. تعوَّد أن يستيقظ مبكرًا، ويفطر بسرعة، ويذهب إلى المصنع ولا يعود إلّا في المساء. حتى يوم الجمعة، الإجازة، يظلّ نائمًا حتى العصر من أثر سهرة الخميس. الآن، صار لديه وقت ليتأمَّل تفاصيل الشقَّة على مهل. استعاد صوت الضابط الذي اتَّصل به من أمن الدولة:

- بُصّ يا عصام، سيادة الرئيس قرَّر يتنحَّى. حيتمّ إعلان القرار بعد الظهر.

- إزّاي؟!

- اللّي حصل.

- ومن يمسك البلد؟

ـ المجلس الأعلى للقوّات المسلَّحة.

ـ مش قادر أصدَّق.

ـ ربِّنا يستر على مصر. طبعًا حيحصل هيجان وفوضى، ولازم لنا فترة لغاية ما نسيطر على الوضع.

ـ طيِّب، أنا المفروض أعمل إيه؟!

ـ الأفضل ما تروحش المصنع اليومين دول.

ـ تحبّ سيادتك أقدِّم استقالتي؟!

ـ حتى الآن ما فيش تعليمات. خلِّيك في البيت لغاية ما أتَّصل بك.

شرب آخرَ ما في الكأس دفعةً واحدة. اكتشف أنَّ الزجاجة فرغت، فنهض ليحضر زجاجة أخرى. لولا أنَّه اشترى صندوقَيْ ويسكي قبل اندلاع المظاهرات، لما وجد ما يشربه. بائع الخمر في الزمالك أغلق محلَّه، ومدني السائق انقطع عن العمل بعد مصيبة ابنه... فتح الزجاجة الجديدة وصبَّ لنفسه الكأس الأولى. يحبّ أن يشربها صِرْفًا دائمًا... يقول لأصحابه مداعبًا:

ـ زجاجة الويسكي مثل المرأة، لديها غشاء بكارة. الكأس الأولى مثل المضاجعة الأولى مع عذراء... لها طعم لذيذ وفريد لا يتكرَّر.

أمضى أسبوعًا كاملًا في البيت، حاول خلاله أن يرى نورهان. اتَّصل بها ثلاث مرَّات، لكنَّها اعتذرت دائمًا لانشغالها في التليفزيون. قالت بصوتها الناعم الذي يثيره دائمًا:

ـ عصام... حبيبي، أرجوك قدِّر ظروفي. ما اقدرش أغيب لحظة عن التليفزيون.

لو حدث ذلك في الظروف العاديَّة لتشاجر معها، لكنَّه الآن تقبَّلَ الأمر في صمت لا يخلو من مرارة... إذا لم تقف نورهان إلى جوار زوجها في هذه الأيَّام، فمتى تسانده؟ ولكن هل هي زوجته فعلًا ؟ ما قيمة هذا الزواج أصلًا؟! لقد ذهب معها عند المحامي ووقَّع على ورقة زواج عُرفيّ أمام شاهدين. هل يحتاج الله إلى ورقة مختومة من مكتب مُحام؟! عبث في عبث... لقد صبر على هذه المسرحيَّة السخيفة إرضاءً لنورهان، لا أكثر ولا أقلّ... تطلّع هذا الصباح إلى وجهه في المرآة فاندهش. الشعيرات البيضاء تنمو على ذقنه يومًا بعد يوم، وتمنحه شكلًا غريبًا، كأنَّه هارب أو مسجون. المدهش أنَّه اعتاد عزلته. لم يعد يضيق بها. لا يحسّ بملل، ولا يتوق إلى الخروج، بل إنَّه في أعماقه، للغرابة، يحسّ بتلك الراحة التي يخلِّفها اليأس. كأنّ أكثر ما كان يخشاه قد حدث فلم يعد يخشى شيئًا... كأنَّ المباراة قد انتهت بخسارته، فلم يعد هناك ما يقلق عليه. آن له أن يستريح. آن له أن يشرب ويجترّ الأحداث ويتأمّلها. يستيقظ كلّ صباح كما تعوَّد في السابعة والنصف، ويأخذ حمّامًا، ثم يرتدي الترييننج سوت، ويعدّ لنفسه الإفطار والقهوة، ويقرأ الجرائد كلّها، ثم يفتح التليفزيون واللاب توب ليتابع ما يحدث أوّلًا بأوّل، على القنوات والمواقع. عند الظهر يبدأ الشرابَ، ويبعث بالبوّاب ليحضر له ما يأكله. انقطع الطبّاخ عن المجيء، ولم يعد ممكنًا أن يطلب الأكل عبر التليفون، لأنَّ الحالة الأمنيَّة لا تسمح بتوصيل الطلبات من المطاعم. ماذا يحدث في مصر؟! متى تنزل كلمة النهاية على هذا الفيلم التعيس؟ يتخيَّل أحيانًا مكالمة من ضابط أمن الدولة، يبلغه فيها بأنَّهم استعادوا السيطرة على البلد، ويطلب منه العودة إلى المصنع. يُدرك أنَّ الأمر أكثر تعقيدًا من

ذلك. أيّ شيطان وسوس لبعض المصريّين ودفعهم إلى سلوك مُنافٍ تمامًا لطبيعتهم؟! المصريّ لا يعرف الثورة، ولا يفهمها، وإذا تورّط فيها فسرعان ما يخذلها ويكرهها. عندما رأى في التليفزيون الناس يرقصون في الشوارع فرحًا بإسقاط مبارك تملّكه الغيظ. لم يغضب لفقدانه منصبَه بقدر غضبه من خداع المصريّين لأنفسهم. يودّ لو يكتب مقالًا يقول فيه:

«أيّها المصريُّون، اقرأوا تاريخ بلادكم وتاريخ الثورات في العالم، قبل أن تدفعوا بشبابكم إلى الموت بلا طائل. هناك شعوب طبيعتها ثوريّة، أمّا أنتم، أيُّها المصريُّون، فلم تُخلَقوا للثورة ولم تُخلَق لكم. في تاريخكم الحديث لم تنجح ثورة واحدة... كلّ تمرُّد قمتم به ضدّ السلطة، فشل وزادت الأوضاع سوءًا».

هذه الحقيقة أدركها بثمن باهظ... صنع لنفسه كأسًا جديدة واستلقى على الأريكة وراح يحدِّق في السقف. فجأة انفتح الصندوق وتراءت له الذكريات تباعًا... هل يشرب لينسى، أم ليتذكَّر؟ لماذا تعاوده هذه الأحداث الآن؟ كانت مطمورة لسنوات، حتى ظنَّ أنَّها ماتت... كيف تنبعث الآن، كمشاهد حيَّة بالألوان والأصوات نفسها، وحتى بالروائح نفسها. ها هي القاعة الكبرى في جامعة القاهرة، كما كانت منذ أربعين عامًا، وها هو مع قادة الحركة الطلّابيَّة يتَّفقون مع ألوية الشرطة على فضِّ الاعتصام وتسليم أنفسهم مع زملائهم. الساعات الأولى من صباح شتويّ بارد، ومحيط جامعة القاهرة يبدو كأنَّه جزء من حلم غائم يحجبه الضباب. سيَّارات الشرطة الضخمة تقف في طابور طويل أمام البوَّابة الرئيسيَّة. يخرج الطلّاب والطالبات في مجموعات غارقين في الصمت، وقد بدا على وجوههم الشابَّة

التوتُّرُ والإرهاق. يصعدون بحسب الاتِّفاق تباعًا، إلى سيّارات الشرطة. فجأة راح زميل له في كلِّيَّة الهندسة ينشد «بلادي بلادي لك حبِّي وفؤادي». كان صوته عذبًا وحزينًا. وشيئًا فشيئًا انضمَّ إليه الطلبة حتى راحت آلاف الحناجر تردِّد النشيد بقوَّة، فبدا كأنَّه ترنيمة جبَّارة لكائن عملاق حزين؛ كأنَّه صوت مصر نفسها وهي تعزِّي أبناءها المدافعين عن حرِّيَّتها وهم ذاهبون إلى السجن. بكى طلَّاب كثيرون، ورأى بعينيه ضبَّاطًا وجنودًا يشيحون بوجوههم، أو ينظرون إلى الأرض ليُخفوا دموعهم. كان اسمه الحركيّ في الحزب «الزميل حمدي». يومَ انتخابه في اللجنة المركزيَّة، احتفل به الزملاء في بيت جمال السقّا، وشربوا حتى الصباح. قال له سكرتير الحزب، وهو يودِّعه عند الباب:

ـ زميل حمدي، عليك مسؤوليَّة كبيرة، فلا تخيِّبْ أملنا.

ثم عانقه واحتضنه بمحبَّة صادقة زادت في حرارتها الخمرُ. لا يعتقد أنَّه خيَّب ظنّ رفاقه. لقد أدَّى مسؤوليَّاته الحزبيَّة بكفاءة وإخلاص ولم يقصِّر في أيّ مهمَّة كُلِّف بها. قُبض عليه كثيرًا، وحوكم ثلاث مرَّات، وقضى في السجن مُددًا مجموعها عشرة أعوام. كانت هناك تقاليد للحبس عرفها بالخبرة: أوَّل يوم في المعتقل «حفلة الاستقبال» أو «التشريفة». يمضي طابور السجناء بين صفَّين من العساكر، كلّ واحد فيهما يضرب السجين الذي يمرّ أمامه بأقصى قوَّته. يُلهب جلده بالقايش أو يلكمه، أو يشوطه بالبيادة. تصيب الضربة المعتقل في رأسه أو بطنه أو وجهه أو خصيتيه. تعلَّم، بالتجربة، ألَّا يتوقَّف أبدًا في أثناء التشريفة. يتلقَّى الضربات ويتحامل على نفسه ويستمرّ في الجري. لو توقَّف أو سقط فسيقتلونه من الضرب الذي سيكون حينئذ مركَّزًا لا مهرب منه. الحبسة الأخيرة كانت الأسوأ. بعد الضرب والتعذيب

المعتادين، أوقعه حظّه في يد محسن الجزّار، مأمور سجن «أبو زعبل»... الجزّار ليس اسمه، وإنّما هو لقب التصق به من فرط قسوته. تلاحقه حكاياتٌ مروّعة عن معتقلين فقدوا عقولهم أو ماتوا بسببه من التعذيب... تمَّ اختيار عصام من زملائه ليكون مسؤول الشيوعيين في السجن... وعندما ساءت المعاملة، قرَّر الزملاء الإضراب عن الطعام. كانت مطالبهم واضحة وعادلة: تطبيق لائحة السجن. عندما دخل السجّانون بصواني الأكل، قال لهم عصام:

ـ رجّعوا الأكل ما حدّش حياكل.

ـ ليه؟

هكذا سأل أحدهم، فصاح عصام بصوته الأجشّ ليُسمع الزملاء في الزنازين المجاورة:

ـ روح قل للمأمور أنا وزملائي مضربين عن الطعام.

عاد السجّان بعد قليل، واقتاده إلى مكتب المأمور. كان محسن الجزّار في الأربعينيّات من عمره، أشبهَ بنجم سينمائيّ. وسيم وأنيق للغاية، وشأن الجلّادين الكبار، صوته خفيض ناعم، ووجهه هادئ لا ينمّ عن أيّ انفعال... سأله بما يشبه الودّ:

ـ اسمك.

ـ عصام عبد المنعم شعلان.

ـ شغلتك إيه؟

ـ مهندس.

ـ أنت مضرب عن الطعام؟!

ـ أنا وكلّ المتّهمين في قضيّة التنظيم الشيوعي قرّرنا الإضراب من الطعام... طبقًا للقانون، أنا أطلب من سيادتك إخطارَ النيابة لعامّة.

ـ عاوز النيابة العامّة حتّة واحدة يا روح أمّك؟!

ـ من فضلك، كلّمني باحترام.

ـ زعلان أنّي تكلّمت على أمّك المومس.

ـ أمّي أشرف منك.

أطلق عصام العبارة الأخيرة بنبرة متحدّية بدا وقعها غريبًا. ظهرت دهشة خافتة عابرة على وجه الجزّار. ربّما رفع حاجبيه قليلًا أو حرّك شفتيه، ثم أشار بيده إلى المخبرين. تلك اللحظات تعاوده بألوانها وأصواتها، بل حتى رائحة الخشب والطلاء الجديد في مكتب الجزّار... خلع المخبرون عنه ملابس السجن وأوقفوه أمامهم باللباس، وفجأة انفتح باب الجحيم. انهالوا عليه بالضرب المبرّح، كانوا أربعة يضربونه بأيديهم وأقدامهم. حاول في البداية أن يقاوم سيل اللكمات والركلات، لكنّه سرعان ما أدرك أنّ المقاومة بلا جدوى، فبدأ يحمي رأسه بيديه، الأمر الذي مكّن المخبرين من توجيه ضرباتهم الموجعة إلى جسمه. مع استمرار الضرب، بدأت أضواء المكتب تهتزّ بشدّة في عينيه، وتمنّى لو يُغمى عليه حتى يستريح ولو للحظات من الألم. توقّف الضرب فجأة كما بدأ، وأحسّ عصام بطعم الدم الذي ينزف من أنفه وجروح وجهه. ضحك الضابط وقال كأنّه يداعب صديقًا:

ـ قل لي، يا باشمهندس، أنت رجل بصحيح؟

لم يردّ عصام، فاستطرد الجزَّار:

ـ اسمح لي... لازم نكشف عليك.

كانت هذه كلمة السرّ، فانقضَّ عليه المخبرون كلّهم مرَّة واحدة، وبدوا كأنَّهم يؤدُّون مشهدًا تمرَّنوا عليه كثيرًا... خلعوا لباسه ثم ألقوه على بطنه، وباعدوا بين ساقيه وهو يقاوم بكلّ ما تبقَّى له من قوَّته، ولكن عبثًا، ثم بدأوا في إدخال شيء صلب غليظ في مؤخّرته (عرف بعد ذلك أنَّها عصا خشبيَّة غليظة يسمُّونها قضيب الباشا). لم يكن قد عرف هذا الألم من قبل. ألم رهيب متزايد جعله يصيح بأعلى صوته. لم يغفر لنفسه بعد ذلك أبدًا أنَّه راح يتأوَّه ويتوجَّع بصرخات طويلة حادَّة. راح يستغيث ويتوسَّل. لم يغفر لنفسه أنَّه راح يصيح:

ـ والنبي كفاية يا محسن بك. اعتقني. أبوس رِجلك، اعتقني.

هذه الجملة تؤلمه ذكراها أكثر من كلّ ما حدث له. توسُّله الذليل للجزَّار خلَّف داخله إحساسًا بالعار لم يفارقه حتى اليوم... كثيرًا ما تساءل بعد ذلك: هل كان من المستحيل أن يتحمَّل الألم بشجاعة؟ لماذا صرخ واسترحم الضابط بهذا الشكل المهين؟! هل كان يؤكِّد انكساره طمعًا في شفقة الجزَّار؟! إنَّه يلوم نفسه على انهياره المخجل في أثناء التعذيب، وأحيانًا يلوم نفسه لأنَّه يلوم نفسه. لا يجوز أن نلوم الضحيَّة. تعرَّض يومئذ لآلام لا يتحمَّلها بشر. لم يستطع العودة على قدميه إلى العنبر. حمله المخبرون والدم ينزّ من شرجه ويترك بقعًا متلاحقة على أرض الردهة. ألقوه على أرض الزنزانة الأسفلتيَّة، وأغلقوا الباب ومضوا. اجتمع حوله الرفاق يحاولون إسعافه بإمكانيَّات بسيطة. كان أحدهم طبيبًا حديث التخرُّج، اجتهد لإيقاف النزف

باستعمال قطن وشاش وصبغة يُودٍ تمكّن من تهريبها إلى الزنزانة... لم يكن في مقدوره أن ينام على ظهره أو جنبه من فرط الألم. استلقى على بطنه وظلّ صامتًا تمامًا. حاول الزملاء الحديث معه، لكنّه لم يردّ، كأنّ ما حدث عطّل قدرته على الكلام، أو كأنّ لا فائدة من أيّ شيء يقوله. ظلّ مستلقيًا على بطنه يتطلّع إلى عشرات الصراصير التي كانت تخرج وتدخل باستمرار من الشقوق المنتشرة على حائط الزنزانة. في الليل، نام الزملاء وعلت أصوات شخيرهم المعتادة. اقترب منه جمال السقّا، ووضع يده على كتفه وهمس:

ـ اثبتْ يا عصام. إحنا أقوى منهم.

عندما رأى وجه جمال المحبّ المشفق، لم يتمالك نفسه وأجهش بالبكاء، وهو يردّد بصوت خافت:

ـ أنا اتهنت يا جمال. اتهنت جامد. إحنا بنتهان كده عشان مين يا جمال؟

سيكرّر السؤال بعد ذلك كثيرًا. بعد خروجهما من السجن، سيمضيان الليالي في نقاش لا ينتهي. يدخّنان ويشربان، ويتمسّك كلّ واحد برأيه. كان جمال ما زال مؤمنًا بالقضيّة، وكان رأي عصام قاطعًا:

ـ لا يمكن أن نساعد شعبًا لا يريد أن يساعد نفسه. أنا انحبست واتعذّبت وأُهينت كرامتي من أجل من؟ كم مصريّ يتذكّر تضحيات الاشتراكيين...

ذاتَ ليلة أسرفا في الشراب واحتدم بينهما النقاش حتى تحوّل إلى مشادّة... عندئذ، وقف عصام في وسط الحجرة، وقال لجمال:

ـ سمعت عن ڤيرا زاسوليتش؟!

ـ لا.

ـ كانت ڤيرا شابّة اشتراكيّة في روسيا عام ١٨٧٩. وعندما سمعت أنَّ الحاكم العام لمدينة بطرمبرغ، الجنرال تريبوف، قام بتعذيب سجناء، ذهبت إلى مكتبه وأطلقت عليه الرصاص، لكنّها أصابته ولم تقتله. قبضوا عليها. وعندما سألوها في التحقيق إن كانت ثمة عداوة بينها وبين تريبوف، قالت:

ـ أنا لا أعرف تريبوف، لكنّني أعرف أنّه يعذّب السجناء، وأنا قرّرت أن أقتله لأنّه لا يجوز لأحد أن يهين إنسانًا بمثل هذا الإيمان العميق بالإفلات من العقاب...

تحوّلت ڤيرا، بعد هذه الجملة، إلى بطلة قوميّة. كان عشرات الألوف من الروس يتظاهرون كلّ يوم أمام المحكمة تأييدًا لها... تصوَّر أنّه حتى الأطفال تظاهروا بالآلاف أمام المحكمة وحملوا لافتة كبرى مكتوبًا عليها:

ـ «شكرًا لك يا ڤيرا لأنّك تدافعين عن كرامتنا».

أمام الضغط الشديد من الرأي العام الروسي، برّأتها المحكمة على الرَّغم من اعترافها. وبعد الإفراج عنها، حاول البوليس القبض عليها من جديد، لكنَّ الجماهير دافعت عنها ومنعت اعتقالها...

أنصت جمال صامتًا، واستطرد عصام بحماسة:

ـ عندك في مصر واحدة زيّ ڤيرا زاسوليتش؟ عندك رأي عامّ يحمي المناضلين؟ عندك وعي بأهمّيّة كرامة الإنسان؟ ما عندكش أيّ حاجة. يبقى أيّ نضال لا يمكن يؤدّي إلى نتيجة إلّا أنّك تضيّع كرامتك ومستقبلك.

حاول جمال أن يردّ، لكنَّ عصام بلغ به الانفعال مداه، فصاح في وجه صديقه:

ـ اسمع ڤيرا قالت إيه. . . «لقد قرَّرت أن أقتله لأنّه لا يجوز لأحد أن يهين إنسانًا بمثل هذا الإيمان العميق بالإفلات من العقاب».

أطرق عصام لحظة، ثم قال بصوت متهدّج:

ـ أنا انعذبت وأُهينت كرامتي يا جمال، وكلّ اللّي عذَّبوني أفلتوا من العقاب، وما حدِّش دافع عنّي.

لماذا يتذكَّر عصام كلّ ذلك الآن؟ ما الذي يدفعه إلى اجترار الماضي؟ الثورة التي لم يتوقَّعها، أم الوضع المقلق الذي يعيشه، أم إفراطه في الشراب؟ إنَّه يستعيد المَشاهد المؤلمة على مهل، كأنّه يجد لذَّة في تعذيب نفسه. خطر له أنَّه يستعيد أحداث حياته لأنَّ الخطأ الذي ارتكبه يتكرَّر من جديد. ها هم شبَّان، مثل مازن السقَّا، يتظاهرون ويعتصمون ويُقبض عليهم من أجل الشعب الذي لا يهمّه إطلاقًا ما يفعلونه. خسارة. ها هو مدني المسكين يفقد ابنه الذي كان فخره وفرحة عمره وأمله الوحيد في الحياة. شرب ما تبقّى في الكأس فأحسَّ فجأة بدُوار. تذكَّر أنّه مريض بالسُّكَّر. حذَّره الطبيب من الإفراط في الخمر لأنَّه قد يعرِّضه للغيبوبة. إنَّه يحبّ الحياة ويتمنَّى لو عاش طويلًا. إذا كان لا بدَّ من أن يموت، فهو يفضِّل أن يسكر حتى يموت بهدوء، بلا ألم ولا مرض ولا شفقة ولا عجز ولا أعباء على من يحبّهم. رنّ جرس الباب فجأة. نهض بصعوبة. كان سكرانَ تمامًا. مَن الزائر؟ تذكَّر الانفلات الأمنيّ. قد يكون أحد المجرمين الفارِّين من السجون. خطر له عنوان في الجريدة.

«مقتل مدير مصنع بلّليني للإسمنت على أيدي مجهولين». حاول السيطرة على ترنُّحه، واقترب بحذر من الباب، ثم نظر من العين السحريّة، فرأى فابيو العضو المنتدب واقفًا. فتح الباب بسرعة، وقال بالإنكليزيّة:

ـ أهلًا، مستر فابيو.

ابتسم فابيو، وقال:

ـ آسف لأنّي جئت بلا موعد. اتَّصلت بك كثيرًا لكنَّك لم تردّ على التليفون.

رحَّب به عصام واعتذر لأنَّه لا يرتدي ثيابًا لائقة، ثم سكب له كأسًا. جلس فابيو على المقعد الوثير المواجه للأريكة، ورشف من الويسكي، وقال:

ـ متى آخر مرَّة كنت في المصنع؟

ـ منذ أسبوع.

ـ هل سمعت ما حدث؟

كان عصام يجهد ليستعيد تركيزه من تشويش السُّكْر. حدّق في وجه فابيو الذي اربدّ، واستطرد بصوت غاضب:

ـ هناك مشكلة كبيرة في المصنع. جئتك لنجد لها حلًّا.

(٣٥)

حبيبي مازن،

نعم، احبّك. لم أعد أخجل من مشاعري. أحسّ بأنّني تحرّرت. أصبحت إنسانة جديدة. لن أنسى تلك اللحظة أبدًا، عندما أعلنوا تنحّي مبارك، واحتضنتك أمام الناس جميعًا. لم أخجل... أحسست بجسدك يرتجف من الانفعال، ودموعك بلّلت وجهي. لن أنسى مشهد ملايين الناس وهم يصيحون ويغنّون ويبكون من الفرح، في كلّ مكان في مصر. لن أنسى الشباب والبنات في اليوم التالي لسقوط مبارك وهم يكنّسون الشوارع. ويُعيدون طلاء الأرصفة... انظرْ كم هي راقية ومتحضّرة ثورتنا. هل حدث في التاريخ أن ثار الناس وخلعوا الديكتاتور ثم كنّسوا الشوارع؟! تحدّثت مع بعض الشباب الذين كانوا يكنّسون، فقالوا لي:

ـ الآن، صارت مصر بلدنا ويجب أن تكون نظيفة.

لن أنسى هذه اللحظات العظيمة، يا مازن. كم أنا محظوظة بك

وبالثورة. تصوَّرْ أنّي وجدت أمّي سعيدة... قبّلتني وقالت:

- مبارك ظلم وافترى وخد جزاءه. ربّنا يصلح الحال.

حتى أبي الذي كان يتجنّبني تمامًا حتى لا نتشاجر، اتّصل بي من السعوديّة، وقال:

- مبروك يا أسماء. مش خلاص مبارك سقط؟! أرجوك انتبهي لمستقبلك.

المفاجأة الكبرى كانت في المدرسة... هل تذكر الصحافي هشامًا الذي أجرى معنا حوارًا في مبنى حركة كفاية ونشره في «الأهرام». لقد قرأوا هذا الحوار في المدرسة ورأوا صورتي مع الزملاء. أوّل يوم بعد إجازة نصف السنة ذهبت إلى المدرسة، ففوجئت بحالة من الانفعال والفرحة. ما إن دخلت الفصل، حتى قالت أكثر من تلميذة:

- مبروك يا أبلة أسماء.

قمت بالشرح كالمعتاد، لكنّني أحسست بحالة جديدة بين التلميذات، كأنّهنّ يستقبلنَ ما أقوله بطريقة مختلفة؛ كأنّهنّ كنّ مثقلات بقيود وتحرّرن؛ كأنّهنّ يُردن الحديث عمّا حدث، لكنّهنّ ينتظرن أن أبدأ. وجدتني أقول لهنّ:

- إيه رأيكم في الثورة؟!

تعالت صيحاتهنّ وتسابقن ليحكين لي كم أنّهنّ سعيدات بسقوط مبارك. عندئذ سألت:

- مَن اشتركت في الثورة؟!

رُبع البنات رفعن أيديهنّ. نسبة الثوار من الشعب نفسُها. قلت لهنّ:

ـ كلّ واحدة اشتركت في الثورة لازم تبقى فخورة وتحكي لأولادها أنّها ساهمت في بناء مصر جديدة نظيفة ومحترمة.

ما إن انتهت الحصّة الأولى حتى جاء الساعي يستدعيني إلى مكتب حضرة الناظر... هناك وجدت أبلة منال التي احتضنتني وقبّلتني... ورحّب بي الأستاذ عبد الظاهر بحرارة وقال:

ـ لولا أنّ ذلك حرام شرعًا لكنت قبّلتك يا أسماء. أنا فخور بك وبكلّ الشباب من أبناء جيلك.

كان ردّ فعلي بطيئًا من أثر المفاجأة. الأستاذ عبد الظاهر، الذي أحالني على التحقيق وأهانني وظلمني، كيف تغيّر بهذه السرعة. قلت له:

ـ شكرًا، أنا لم أعمل شيئًا. الشعب المصري هو صاحب الفضل.

ابتسم الأستاذ عبد الظاهر، وقال:

ـ لا، الفضل، بعد ربّنا سبحانه وتعالى، لجيلك يا أسماء. أنتم فعلتم ما لم يستطع جيلي أن يفعله. أنتم شباب عظيم لا يعرف الخوف ولا المستحيل.

نظرت إلى أبلة منال فوجدتها تبتسم بودّ. لم أجد ما أقوله. تأثّرت كثيرًا. تمالكت نفسي حتى لا أبكي. دعاني الأستاذ عبد الظاهر إلى الجلوس وطلب لي كوبًا من الشاي، وقال:

ـ استدعيتك كي أقول لك كلمة. في الفترة الأخيرة حدثت بيننا مشاكل. أرجو أن تفهميني. أنا لا أخاف من رؤسائي. لا أخاف من وكيل الوزارة، أو حتى الوزير. لا أخاف إلّا من ربّنا، سبحانه

وتعالى، وأراقبه في كلّ تصرُّفاتي. هذا الإحساس بالمسؤوليّة يجعلني أحيانًا متشدِّدًا في تعاملي مع المدرِّسين.

قلت:

ـ أنا لم أخطئ، يا حضرة الناظر.

ابتسم بودّ:

ـ عفا الله عمَّا سلف يا أسماء. أرجو أن نبدأ صفحة جديدة.

قبل أن أردّ، قالت أبلة منال:

ـ أنا أيضًا أتمنَّى أن أفتح صفحة جديدة معك يا أسماء. رُبّنا وحده يعلم كم أحبّك وأعتبرك ابنتي.

شكرتهما طبعًا، وقلت:

ـ مصر كلّها تفتح صفحة جديدة.

كلّ شيء يتغيَّر فعلًا. كأنَّ الديكتاتور كان جاثمًا على أنفاس مصر، فلمَّا انخلع تحرَّر المصريُّون جميعًا. أكتب إليك من البيت وقد دخلت لتوّي من المدرسة، وأسئلة كثيرة تلحّ عليَّ: كيف تحوَّل موقف الناظر وأبلة منال منّي بهذه الطريقة المدهشة؟! هل تُغيِّر الثورة طباعَ الناس؟! هل تُعيد إليهم ثقتهم بأنفسهم وتجعلهم يراجعون أخطاءهم؟! في انتظار رأيك...

محبّتي...

أسماء

ملحوظة: عارفة طبعًا أنّك مشغول في المصنع. عاوزة أشوفك في أقرب فرصة. اتَّصل بي قبلها بساعة وأنا أنتظرك في قهوة زهرة البستان.

(٣٦)

اجتمع العمَّال في فناء المصنع، في الثامنة صباحًا، موعدِ تغيير الورديَّة الأولى، وراحوا يتبادلون التهاني بسقوط مبارك، ثم انتخبوا لجنة رباعيَّة كان مازن السقَّا أحد أعضائها، وعهدوا إليها الإشراف الكامل على المصنع والتفاوض مع الإدارة الإيطاليَّة لتحقيق مطالب العمَّال. مضى اليوم كالمعتاد وتغيَّرت الورديَّة الثانية، ثم الثالثة. وفي الرابعة فجرًا، وصل عصام شعلان فجأة إلى المصنع. لم تدخل سيَّارته من البوَّابة الرئيسيَّة، وإنَّما من باب ٤ الخلفيّ، ثم دارت خلف الأشجار حتى وصلت إلى مبنى الإدارة. كان هناك رجل في المقعد الأماميّ إلى جوار السائق، وفي الخلف جلس عصام مع شخص آخر إلى جوار صندوق معدنيّ كبير يشبه جهاز التكييف. ما إن توقَّفت السيَّارة حتى قفز عصام منها وفتح المكتب بمفتاحه ودخل بسرعة، ونزل الرجلان وأخرجا الجهاز المعدنيّ الأسود وحملاه إلى داخل المكتب، ثم انطلق السائق بالسيَّارة بعيدًا. أضاء عصام الأنوار وأغلق

باب المكتب بالترباس، وشرع الرجلان في العمل، فوضعا الجهاز في منتصف الحجرة الفسيحة وأوصلاه بالكهرباء. كان الجهاز مفرمة كبيرة للورق. خلع عصام سترته، وبدأ في وضع الأوراق أعلى الجهاز الذي راح يفرمها بسرعة، ثم يطردها قطعًا صغيرة أسفله، حيث وضع الرجلان كيس قمامة أسودَ كبيرًا. راح عصام يُخرج أوراقًا من أدراج مكتبه، ومن الدُّولاب الزجاجيّ، ومن مكتب صغير موجود في الممرّ. كان يعرف الأوراق عن ظهر قلب: ما إن ينظر إليها حتى يحدِّد مصيرها فورًا... مضت ساعة وهو يفرم الأوراق، ثم انتبه إلى صياح وجلبة في الخارج، فقال للرجلين:

- استمرَّا في العمل مهما حدث.

ألقم الماكينة ملفًا جديدًا، لكنَّه تلقَّى اتِّصالًا هاتفيًا فتقدَّم نحو باب المكتب، وتطلَّع بحرص من العين السحريَّة. فكَّ الترباس وفتح الباب قليلًا، فدلف مازن السقَّا إلى وسط الحجرة. بدا وجهه مرهَقًا... صافحه عصام وقال:

- إزيَّك يا مازن... مبروك نجاح الثورة. إن شاء الله البلد حالها يتصلح على أيديكم.

- لم يردّ مازن. راح يتابع فرم الأوراق، ثم تطلَّع إلى عصام بقلق وقال:

- العمَّال اتَّصلوا بي عشان أقابل حضرتك.

ابتسم عصام بعصبيَّة، وقال متهكِّمًا:

- خير إن شاء الله...

- العمَّال معترضون على فرم الأوراق.

ـ من حقّي أتصرَّف في أوراقي.

ـ الأوراق ليست شخصيَّة. دي أوراق رسميَّة تخصّ العمَّال.

ـ قصدك تخصّ المصنع... أنا عندي تعليمات من العضو المنتدب بفرم الأوراق.

ارتفع فجأة الصياح في الخارج، وقال مازن بقلق:

ـ العمَّال في حالة هياج والوضع ممكن يبقى خطر.

ابتسم عصام وصاح بصوت جعل مازنًا يفكِّر في أنَّه قد يكون مخمورًا:

ـ عصام شعلان ما يتهدِّدش يا مازن... فاهِمْ؟!

ارتفع صياح العمَّال في الخارج:

ـ يا عصام، يا شعلان، يا جبان.

ـ لو رجل اطلع لنا.

سمع فجأة صوت تهشيم زجاج، وسقطت طوبة على أرض الحجرة. كان بعض العمَّال قد خرجوا من ورديَّة الليل وتركوا زملاءهم يعملون حتى لا يتوقَّف المصنع، وتمَّ استدعاء عمَّال كثيرين من بيوتهم. أُضيئت الكشَّافات كلّها فانبعثت إضاءة ساطعة. حاصر العمَّال مبنى الإدارة، وراحوا يهتفون ضدَّ عصام شعلان، ثم بدأوا في إلقاء الطوب فتهشَّم زجاج النوافذ تمامًا.. خرج إليهم مازن فالتفُّوا حوله وهم يصيحون بحماسة:

ـ إحنا شفناه دخَّل ماكينة فرم ورق. لا يمكن نسمح له بالتخلُّص من المستندات.

ـ الورق أكيد فيه حاجات ضدّ الإدارة.

ـ طبعًا بدليل أنَّه حضر الساعة أربعة الصبح.

قال مازن بصوت عال:

ـ يا جماعة... الورق اتفرم خلاص. مستحيل نرجّعه تاني وفيه أوراق كثيرة منعنا فرمها وحافظنا عليها. من فضلكم بلاش حدف طوب.. الحاجات اللّي بتنكسر دي ملككم أنتم.

ارتفعت أصوات اعتراض، فقال مازن:

ـ أنتم عاوزين عصام شعلان في إيه؟

صاح عامل:

ـ حَنِفْضَل حابسينه في المكتب لغاية لمّا الإدارة تحقّق مطالبنا.

رد مازن بهدوء:

ـ دي فكرة غلط. العمّال مش بلطجيّة. البلد تغيّرت والمصنع بقى في أيدينا..

قال العامل بحماسة:

ـ لو حبسنا عصام في المكتب، حتعمل الإدارة اللّي إحنا عاوزينه.

ـ أوّلًا، عصام شعلان ما بقاش له أهمّيّة عند الإدارة. وثانيًا، لو عملنا زيّ ما بتقول نبقى ارتكبنا جريمة احتجاز مواطن. ثم إيه فايدة احتجازه؟ المصنع تحت سيطرتنا وحقوقكم حتاخذوها بالكامل.

قال مازن هذه الجملة وترك العمّال يتناقشون، ثم عاد إلى المكتب، فوجد الرجلين المرافقين لعصام في حالة ذعر. صاح أحدهما بصوت باكٍ:

ـ يا مازن بك، أنا ما ليش دعوة بالمشكلة دي. أنا جيت مع عصام بك أساعده وعاوز أمشي حالًا

زعق عصام فيه:

ـ أنت خايف من شويّة عيال، خلّيك رجل.

ثم ذهب إلى أقصى الحجرة، وعاد وتطلّع إلى مازن وصاح:

ـ أنا اسمي عصام شعلان، لا يمكن أقبل على تاريخي إنّ شويّة رعاع يحتجزوني.

توجّه نحو الباب ليخرج، لكنّ مازنًا أمسك به من كتفه، وقال:

ـ يا أستاذ عصام، إذا كنت بتعتبرني مسؤولًا عن سلامتك، من فضلك ما تخرجش لأنّ العمّال في حالة غضب، وممكن أيّ شيء يحصل.

تأثّر عصام من التحذير، فجلس على الأريكة، وأشعل سيجارة ثم تناول تليفونه، وقال بصوت خافت:

ـ أنا حاتّصل بالجيش.

امتلأ المصنع بعد قليل بأفراد الشرطة العسكريَّة. انتشروا بأجسادهم القويَّة وزيّهم العسكري وقبّعاتهم الحمراء المميَّزة. ارتفع هتاف العمَّال كأنَّهم يُشهدون العسكريين على مطالبهم. دخل ضابط برتبة نقيب المكتب. صافح الموجودين، وبدا أنَّه يُدرك الموقف لأنَّه لم يطلب أيّ توضيح. ابتسم فقط، وسأل عصامًا:

ـ سيادتك راكن سيارتك فين؟!

قال عصام:

ـ وراء المبنى.

اتّصل الضابط بشخص ما وأخبره بمكان السيَّارة، وبعد دقائق

تلقّى اتّصالا ففتح الباب وأطلّ برأسه كأنّما يطمئنّ لمرّة أخيرة إلى وجود رجاله في الخارج، ثم مدّ ذراعه وقال:

ـ تفضّلوا معي.

صنع الجنود سياجًا حول عصام والرجلين، ومشى الضابط أمامهم وخلفهم مازن. اصطفّوا على طول الطريق في مواجهة العمّال، فشكّلوا ممرًا آمنًا، لكنّ المشهد بدا أشبه بطقس دينيّ لعقاب المغضوب عليهم. مشى عصام وهو يتطلّع بتحدٍّ إلى العمّال الذين راحوا يُمطرونه بتعليقات جارحة:

ـ مع السلامة يا حرامي.

ـ لو شفناك في المصنع تاني حنقطع رِجْلك.

ـ سلّم على سيدك فابيو يا كلب الطلاينة.

تزايد غضب عصام فرفع يده ولوّح بإشارة بذيئة للعمّال الذين جُنّ جنونهم وراحوا يوجّهون إليه شتائم قبيحة، وانفعل أحدهم فرفع فردة حذائه ليقذفه بها، لكنّ العسكريّ الواقف أمامه منعه. عندما وصل عصام إلى السيّارة، صافح الضابط وشكره بحرارة، فقال الضابط بلهجة جدّيّة:

ـ لا شكر على واجب... العسكري حيركب مع سيادتك لغاية لمّا تطلع على الطريق.

انطلقت السيّارة بسرعة حتى اختفت عن الأنظار... ابتسم مازن وقال للضابط:

ـ حاستأذن حضرتك. لازم أرجع للعمّال.

ردّ الضابط بهدوء:

ـ لا، أنت قاعد معنا. عاوزينك في كلمتين.

(٣٧)

لم ينم اللواء علواني في بيته، خلال عدَّة أسابيع، إلَّا بضعَ مرَّات. كان يذهب ليطمئنّ على زوجته وابنته ليلًا، ويعود في الصباح الباكر إلى ڤيلّا الزمالك. في أثناء اجتماعه بالمرشد، فوجئ بمدير مكتبه يقترب ويهمس إليه:

ـ الدكتورة دانية هنا.

اربدّ وجهه وسأله بانزعاج:

ـ هي عرفت المكان منين؟

ـ هي، يا فندم، اتَّصلت بي من نصف ساعة، وقالت إنَّها تريد رؤية سيادتك في موضوع لا يقبل أيّ تأجيل.

ـ غلط.

هكذا تمتم اللواء علواني، وفكَّر بسرعة، ثم قال:

ـ خلِّيها تنتظرني لغاية لمَّا أخلص.

انتهى اللواء من لقاء المرشد، ثم أوصله إلى الباب، وعاد فوجدها في حجرة الانتظار. احتضنها وقبَّلها، فلاحظ أنَّها شاحبة، ويبدو عليها الإرهاق. سألها:

ـ «مالك يا دانية؟».

أجهشت بالبكاء، وأخبرته بما حدث، فظلَّ صامتًا لحظات، ثم تمالك نفسه وقال:

ـ دانية، أرجوك، قدِّري ظروفي. البلد بتمرّ بوقت صعب، وأنا عليَّ مسؤوليَّة كبيرة لا يمكن أسامح نفسي لو قصَّرت فيها.

ـ أنا عاوزة كلمة واحدة من حضرتك.

قاطعها اللواء بلهجة حازمة:

ـ من فضلك ارجعي البيت واستريحي، وآخر النهار نقعد نتناقش.

بان عليها التردُّد، لكنَّه اصطنع ابتسامة، ثم نادى مدير مكتبه ليصطحبها إلى السيَّارة. اتَّصل بعد ذلك بولديه، ثم استغرق في العمل تمامًا. وفي السابعة مساء، بينما مصر كلّها تحتفل بانتصار الثورة وسقوط مبارك، انعقد مجلس الأسرة في الصالون الكبير: جلست الأمّ على الأريكة وقد ارتدت العباءة السوداء التي صلَّت بها العشاء، وفتحت القرآن أمامها وأمسكت بمسبحة من الكهرمان وراحت تستعيذ بالله وتردِّد الأدعية همسًا. وجلست إلى جوارها دانية وأمامهما جلس الأخوان: عبد الرحمٰن القاضي، ببدلته الكاملة وربطة عنقه ونظَّارته الطبِّيَّة، وبلال الضابط في الحرس الجمهوري، بجسده الممشوق وعضلاته المفتولة، وقد ارتدى جاكيتًّا زرقاء وقميصًا أصفر من دون ربطة عنق، وصفَّف شعره الأسود الناعم بعناية ودهنه بالكريم المثبِّت.

كانت حالة من الكآبة والتوتُّر تظلِّل الجلسة على الرَّغم من أنَّ أحدًا منهم لم يتكلَّم على الأحداث. جلس اللواء علواني في مقعد وثير إلى جوار النافذة. رشف من فنجان القهوة الذي أحضرته الخادمة الإندونيسيَّة، وقال بالنبرة الحازمة نفسها التي يُدير بها اجتماعات الجهاز:

ـ أنتم طبعًا عارفين الظروف الصعبة اللِّي تمرّ بها البلد. الرئيس مبارك استقال لأجل يحافظ على مصر. واجبنا أنّنا نستعبد بلدنا من الخَوَنة. أنا مضطرّ أرجع المكتب بعد نصف ساعة. أختكم عندها مشكلة. احكي لهم يا دانية.

حكت دانية بصوت خافت منهَك ما حدث لخالد مدني، وبذلت جهدًا حتى لا تبكي، ثم قالت:

ـ زملائي توصَّلوا لاسم الضابط قاتل الشهيد خالد، وقدَّموا بلاغ، وأنا عاوزة أشهد في المحكمة...

ساد الصمت لحظاتٍ، وبدا على الجالسين أنَّهم يجهدون ليستوعبوا المفاجأة، ثم قال بلال الضابط بحدَّة:

ـ تشهدي على إيه؟

ـ على جريمة القتل.

ـ أنتِ إيه اللِّي نزِّلك المظاهرات أساسًا؟

ردَّت دانية بسرعة:

ـ كنت مع زملائي في مستشفى ميدانيّ نظَّمته الكلِّيَّة.

ابتسم اللواء علواني بحزن، وقال بهدوء:

ـ الكلام دَه غير صحيح. إدارة الكلِّيَّة لا علاقة لها بالمستشفى الميداني.

قالت دانية:

ـ حضرتك عندك كلّ المعلومات. زملائي عملوا مستشفى لإسعاف المصابين، وكان واجبي كطبيبة أنّي أشترك.

صاح بلال الضابط وقد بدا أكثر الحاضرين غضبًا:

ـ مش قادر أصدَّق أنّك تنضمّي للخَوَنة.

قالت دانية بحدَّة:

ـ زملائي اللّي تظاهروا مش خَوَنة.

ـ لأ، دُول خَوَنة وقابضين عشان يدمَّروا بلدك.

ـ أنت ما تعرفهمش. أنا أعرفهم وهمَّ بيحبُّوا البلد وعاوزينها تصلَح.

ـ هم غسلوا لك دماغك ولّا إيه؟!

هكذا هتف بلال متهكّمًا وهو ينظر إلى الحاضرين كأنَّه يُشهدهم.

سكتت دانية لحظة، ثم قالت بهدوء:

ـ ممكن نتكلّم في الموضوع؟!

ـ أيّ موضوع؟!

ـ إنّي أشهد ضدّ ضابط قتل زميلي خالد قدَّام عيني.

تنحنح عبد الرحمٰن القاضي، وسألها بهدوء:

ـ قدَّمتم البلاغ في أيّ نيابة؟!

ـ قصر النيل.

ـ من قدّم البلاغ؟

ـ والد الشهيد خالد.

ـ تعرفي اسم الضابط؟!

ـ هيثم عزّت المليجي من الأمن المركزيّ.

ـ ومن أكّدلكم أنّه هو القاتل؟

ـ لأنّه قتله قدّام عينينا من مسافة قريبة جدًّا. كلّنا عارفين شكله. لا يمكن نغلط فيه.

ساد الصمت لحظةً، ثم قال اللواء علواني بأسف:

ـ مش قادر أتصوّر إنّك تستهيني بأسرتك لهذه الدرجة.

وعقّبت الحاجّة تهاني بحرارة:

ـ دانية طول عمرها تحبّ أهلها أكثر من أيّ حاجة في الدنيا.

كان هذا تدخُّلًا محسوبًا للتأثير فيها، لكن دانية قالت وهي تفادى النظر إلى أمّها:

ـ أنا شفت بعينيَّ جريمة قتل. لا ديني ولا ضميري يسمح لي أسكت. نهض بلال الضابط من مكانه فجأة، واقترب من دانية وصاح:

ـ أنت بتصرُّفاتك دي بتساعدي الخَوَنة. همّ عملوا المظاهرات وشالوا الرئيس مبارك. كلّ هدفهم تدمير البلد والوصول للحكم.

ـ أنا شفت بعينَيَّ جريمة قتل ولازم أشهد على القاتل.

ـ الضابط اللّي عاوزة تشهدي ضدّه ده بطل لأنّه كان بيدافع عنك وعنّي.

ـ اللّي يقتل شابّ بالرصاص لأنّه بيعبّر عن رأيه يبقى مجرم لازم يتحاكم.

ـ أنا لو كنت مكانه كنت عملت اللّي عمله.

ـ كنت حتبقى مجرم زيّه.

صاح بلال:

ـ اخرسي.

راح بلال يحدّق في وجه دانية التي نظرت إليه بتحدٍّ بينما نهض عبد الرحمٰن القاضي، وجذب أخاه وأعاده إلى مقعده، ثم جلس وقال:

ـ يا جماعة، من فضلكم نتكلّم بهدوء.

هتفت الأمّ:

ـ لا إلٰه إلّا الله... كلّ دَه كان مستخبّي لنا فين يا ربّ؟

تطلّع القاضي عبد الرحمٰن إلى دانية، وسألها:

ـ كم واحد حيشهد على الواقعة؟

ـ ستّة شهود.

ـ خلاص. خلّيهم خمسة.

ـ عاوزني أكتم الشهادة يا عبد الرحمٰن. عارف عقوبة كتم الشهادة عند ربّنا؟

سكت الجميع كأنّما ينتظرون نتيجة محاولة عبد الرحمٰن، الذي ابتسم وقال:

ـ أعوذ بالله. لا يمكن أطلب منك الحرام أبدًا. أنت عارفة أنّي أراقب ربّنا سبحانه وتعالى في كلّ ما أفعله. عاوزك تهدي وتسمعيني. إذا كان فيه خمسة شهود غيرك على الواقعة نفسها، ونظرًا لوضع

أسرتك، ممكن تكتفي بشهادة زملائك.

ـ واجبي أنّي أشهد بغضّ النظر عن عدد الشهود.

ـ أؤكّد لك من خبرتي أنَّ القاضي لا يمكن يسمع أكثر من أربعة شهود إثبات.

ـ حتى لو القاضي حيسمع أربعة شهود لازم أكون منهم:

كان اللواء علواني يتابع الحوار صامتًا، وقال:

ـ دانية، أنا ساكت من البداية وسِبْتِك تتكلّمي. ممكن تسمعي رأيي؟

ـ تفضّل.

ـ أوّلًا، أنت غلطانة لأنّك نزلت مع العيال المخرّبين، وحجّة إسعاف المصابين غير مقبولة، لأنّ وضع أسرتك كان المفروض يمنعك من أنّك تضعينا وتضعي نفسك في الموقف دَه. ثانيًا، عدم شهادتك لن يؤثّر على المحاكمة. ثالثًا، ودَه الأهمّ... من الناحية الشرعيّة لا ذنب عليك. ما دام هناك شهود غيرك تبقي غير مُلزَمة بالشهادة.

قالت الأمّ:

ـ ممكن نتّصل بالشيخ شامل ونسأله.

قالت دانية:

ـ الشيخ شامل حيقول كالعادة المطلوب منه.

قال اللواء علواني بغضب:

ـ اتكلّمي على فضيلة الشيخ باحترام.

ردَّت دانية بتحدٍّ:

ـ هي دي الحقيقة... الشيخ شامل دَه مش رجل دين. دَه رجل أعمال.

كانت هذه الجملة التي قالها خالد، وقد نطقتها باعتزاز، فرنَّت في سمعها وأثَّرت فيها. ساد الصمت لحظةً، وبدا كأنَّ اللواء علواني يبذل مجهودًا للسيطرة على أعصابه. قال:

ـ دانية، أنا مقدَّر حزنك على زميلك. من فضلك فكَّري من دون عواطف. شهادتك لن تضيف شيئًا للقضيَّة لكنَّها قطعًا حتؤذي بلال وعبد الرحمٰن...

ـ لو ما شهدتش حاعيش طول عمري حاسَّة بالذنب.

ـ أنت عاوزه إيه يا بتّ؟!

هكذا صاح بلال غاضبًا، فرفعت رأسها نحوه وصاحت:

ـ اتكلِّم كويِّس.

ـ أنت حتعملي اللِّي أبوك عاوزه.

ـ لا يمكن أخالف ضميري.

ـ ابقي ورِّيني حتشهدي إزَّاي.

ـ حتشوف.

اندفع بلال نحوها ليضربها، لكنَّ الأمّ ألقت بنفسها عليه وهي تولول:

ـ كفاية، حرام عليكم.

وقف اللواء علواني في وسط الحجرة:

ـ بلال، أنا باحذَّرك تسيء لـ دانية بأيّ طريقة... فاهم؟! دانية،

اعملي اللّي بريّح ضميرك. أوعي تفتكري الدولة المصريَّة انتهت...
الرئيس مبارك ضحّى بالسلطة لإنقاذ الدولة. الأجهزة الأمنيَّة كما هي.
وكلّ شيء كما هو. المجلس الأعلى للقوّات المسلّحة حيتولّى السلطة
وأنت لك أب في منصب مهمّ في الدولة، ولك أخ ضابط حرس
جمهوري وأخ قاضي. شهادتك لن تؤثّر على القضيَّة، لكنَّها قطعًا
حتؤذي أسرتك. إذا كان ضميرك يسمح لك بأنّك تؤذينا تفضّلي. إذا
كنّا نستحقّ منك الأذى روحي اشهدي. أقسم بالله العظيم ما حامنعك.

(٣٨)

تُحيط بالحاجّ محمَّد شنواني هالةٌ من الغموض، بالإضافة إلى الحضور الزجاجيّ البارد البعيد الذي يميّز أصحاب الملايين. إنَّه يرسم على وجهه ابتسامةً خفيفة ثابتة، لا تتّسع ولا تختفي، يحدِّق دائمًا فيمَنْ حوله بنظرة قويَّة متفحِّصة بعينيه الواسعتين الزرقاوين، لكنَّه لا يتكلَّم إلَّا عند الضرورة، ويستعمل عادة عباراتٍ تحتمل أكثر من تفسير. كما أنَّ مظهره ينتمي إلى سبعينيَّات القرن الماضي: البدلات الكاملة، صيفًا وشتاءً، وربطات العنق المزركشة بلون المناديل نفسها، التي يضعها في جيب الجاكيت، وأزرار القمصان الذهبيَّة المثبَّتة في أساور القمصان الكبيرة المنتصبة على الطراز القديم. ما زال شنواني يستعمل السيشوار، الأمر الذي يجعل شعره الأسود المصبوغ مصفَّفًا إلى أعلى ليغطّي المنطقة الصلعاء الوسطى من الرأس، والتي فشلت عمليَّتان لزرع الشعر في تغطيتها بالشكل المأمول. من هو محمَّد شنواني؟ لا أحد يعرف شيئًا عن طفولته وصباه. كلّ ما نعرفه أنَّه من مواليد الإسكندريَّة،

وأنّه حصل على دبلوم الصنائع، ثم سافر إلى إيطاليا حيث أمضى هناك ثلاثين عامًا، وعاد بثروة طائلة. الأقاويل كثيرة، ولا سبيل إلى التحقّق منها: يقولون إنّه استطاع، بلباقته ووسامته، أن يُغوي سيِّدة إيطاليَّة ثريَّة كانت أرملة رجل أعمال إيطاليّ وورثت عنه مصنعًا للسيراميك. تزوَّجها حتى حصل على الجنسيَّة الإيطاليَّة، ثم استولى منها على مبلغ كبير أنشأ به مصنع السيراميك الخاصّ به في مصر، وطلَّقها بعد ذلك. ويقولون أحيانًا إنَّه انضمَّ إلى المافيا، واستعمل بودرة السيراميك لتهريب المخدَّرات. المؤكَّد أنَّه، بعد سنوات قليلة من عودته، تحوَّل إلى أحد أقطاب الصناعة المصريَّة. اقترب شنواني من أُسرة رئيس الجمهوريَّة، وشارك ابن الرئيس في عدَّة مشاريع، يُشاع أنَّه افتتحها خصِّيصًا لتكون غطاءً لأموال طائلة يمنحها لأُسرة الرئيس في شكل أرباح. كما أنَّه يتبرَّع بمبالغ طائلة لدعم الجمعيَّات الخيريَّة التي تترأسها حرم الرئيس... بفضل رعاية الأُسرة الرئاسيَّة، استطاع الحصولَ على آلاف الفدادين من أراضي الدولة بأسعار زهيدة، أعاد بيعها بسعر السوق، الأمر الذي درَّ عليه أرباحًا خُرافيَّة. كما استعمل بعض الأراضي كضمانٍ اقترض بموجبه من البنوك ملايينَ الجنيهات، ولم ينتظم في السداد. ولكنْ، أيّ مسؤول في أيّ بنك يستطيع أن يحاسب رجلًا قريبًا من الرئيس على قرض أخذه؟ في الاجتماع الذي عقده اللواء علواني يوم تنحّى الرئيس، كان شنواني من أكثر الحاضرين تأثُّرًا، وقد انتظر في الردهة بعد الاجتماع. وما إن رأى اللواء علواني، حتى قال بحماسة:

- عاوز أؤكِّد لسيادتك أنّي مستعدّ أتنازل عن ثروتي كلّها لإنقاذ البلد.

ابتسم اللواء، وقال:

ـ هذا ما أتوقَّعه من رجل وطنيّ مثلك... اقعد مع الضابط المختصّ، وخلّيه معك في كلّ خطوة...

اجتمع الشنواني بالضابط، واتَّفقا على إنشاء قناة تليفزيونيَّة كبرى، اقترح لها شنواني اسم «مصر الأصيلة». خلال أسابيع قليلة، تمَّ شراء أربع شقق في عمارة فخمة مُطلَّة على النيل في غاردن سيتي كمكاتب إداريَّة للقناة، وتجهيزُ استوديو ضخم في مدينة الإنتاج الإعلاميّ... جرى العمل في القناة الجديدة على قدم وساق، وتولَّى ضبَّاط أمن الدولة والمخابرات ترشيحَ جميع العاملين فيها، من مذيعين وفنّيّين. وقد حرص الحاجّ شنواني على حضور كلّ المقابلات مع المرشَّحين. وهكذا، التقى نورهان للمرَّة الأولى. صباح يوم اللقاء، وقفت نورهان أمام المرآة، ولم تتردَّد كثيرًا. قرَّرت أن تبدو على طبيعتها. ارتدت ثوبًا من الحرير الأخضر، طويلًا ومحتشمًا، يغطّي جسدها بالكامل، وصفَّفت شعرها «تسريحةَ الأسد»، ووضعت ماكياجًا خفيفًا يناسب جوّ العمل. وما إن دخلت من الباب، حتى ابتسمت وألقت تحيَّة الإسلام:

ـ السلام عليكم.

كانت لجنة المقابلات ثلاثيَّة، مدير القناة ومساعده ووسطهما جلس الحاجّ شنواني الذي برقت عيناه لحظة، كأنَّ فكرة طرأت على ذهنه، ثم رسم ابتسامته المعتادة، وقال:

ـ وعليكم السلام، ورحمة الله وبركاته. أهلًا يا ستّ نورهان.

أطلقت نورهان ضحكة خافتة خجولًا، ثم اتَّسعت عيناها المكحولتان بدهشة، وقالت باستنكار مَرِح:

ـ معقول حضرتك فاكر اسمي؟!

ـ طبعًا، أنت مذيعة معروفة.

ـ ألف شكر، يا حاجّ.

ـ على إيه؟

ـ طبعًا يا حاجّ. حضرتك، الله يعينك، عندك مشاريعك العملاقة وشايل هم آلاف البشر اللّي فاتح بيوتهم... لمَّا تفتكر إنسانة بسيطة زيّ نورهان يبقى لازم أشكرك.

ـ طيِّب، ولو قلت لك إنّي باتفرَّج عليك كلّ ليلة وبيعجبني البرنامج بتاعك، تقولي إيه؟

أطلقت نورهان ضحكة متوسِّطة الاحتشام، وقالت:

ـ دَه يبقى ربّنا فتح عليّ من وسع.

تذكَّر مدير القناة فجأة أمرًا لا بدَّ من إنجازه، فاستأذن للانصراف وكذلك مساعده، فأذن لهما الحاجّ بغير أن يلتفت إليهما، ثم أخرج من جيبه قطعة من اللبّان المستورَد الذي يلوكه منذ أن منعه الطبيب من تدخين السيجار بعد عمليّة القلب التي أجراها مؤخّرًا، وأعاد الترحيب بنورهان التي قالت بصوت ناعم:

ـ بالراحة عليَّ يا حاجّ والنبي. أنا لغاية دلوقتِ مش مصدَّقة أنّي قاعدة مع حضرتك حتَّة واحدة.

ربَّما كان نطق نورهان عبارتي «بالراحة» و«حتَّة واحدة»، أو بالأدقّ نطقُها حرف الحاء بالذات، له تأثير حارّ محسوس، بدليل أنَّ ابتسامة الحاجّ اتَّسعت وتغيَّرت ملامح وجهه، واحتاج إلى لحظات كي يستعيد هيئته الأولى. سألها عن هدفها من العمل في القناة الجديدة، فقالت بحماسة:

ـ هدفي نكشف المؤامرة حتى يفهم كلّ المصريين أنّهم انخدعوا وارتكبوا جريمة فظيعة لمّا سمحوا بتنحّي سيادة الرئيس مبارك.

ـ بارك الله فيك.

ـ أنا أطيع الله ورسوله ﷺ. ربّنا أمرنا بطاعة وليّ الأمر، ونهانا عن الفتنة، وجعلها أشدّ من القتل. فضيلة الشيخ شامل أفتى بأنّ الإسلام ينهانا عن المظاهرات والإضرابات. كلّها أساليب فتنة دسّها علينا اليهود والماسونيون من أجل تفتيت الأمّة الإسلاميّة.

بدا الرضا على وجه الحاجّ شنواني، ثم مرّر إصبعين على زاويتي فمه، وهي حركة تلازمه عندما يفكّر، وقال:

ـ مبروك عليك الشغل الجديد. حاكلّف الشؤون القانونيّة تحضّر العقد، وأنا مستعدّ لكلّ طلباتك.

ـ لي طلب واحد وعَشَمي في كرم حضرتك.

اتّسعت عينا الحاجّ، وقال:

ـ عمرنا ما نختلف. شوفي المرتّب اللي يرضيكِ.

أطرقت نورهان لحظة، ثم رفعت رأسها ببطء، وتطلّعت إليه فيما يشبه الحزن، وقالت:

ـ عمري ما كانت المادّة تهمّني. المرتّب اللّي حضرتك تحدّده أنا راضية به.

بدت الدهشة على وجه الحاجّ، وقال بحذر:

ـ أمّال، إيه طلبك؟!

تنهّدت نورهان وقالت:

ـ طلبي الوحيد أنّ حضرتك تسمح لي أظهر على الشاشة بالحجاب. أنا اضطررت أخلعه لأنّ تليفزيون الدولة يمنع الحجاب.

ـ لكنّك غير محجّبة.

ـ أنا أعاني مشكلة يمكن حضرتك أكثر حدّ يحسّ بها... لو لبست الحجاب في حياتي العاديّة وقلعته قدّام الكاميرا، لا يمكن أحتمل إحساسي بالذنب. كلّ أملي أنّ ربّنا يكرمني وألبس الحجاب لغاية لمّا أموت.

تمتم الحاجّ:

ـ بعْد الشرّ، ربّنا يعطيك الصحّة.

زمّت نورهان شفتيها وتطلّعت إليه بما يشبه المرح، وبدت كأنّها طفل يستأذن في اللعب:

ـ يعني سيادتك ناوي تسمح لي أظهر بالحجاب في القناة.

ـ حاشا لله أن أمنع ما شرّعه الله.

ـ شكرًا يا حاجّ. والله حادعيلك في كلّ صلاة. على فكرة أنا دعوتي مستجابة.

ضحك الحاجّ لأوّل مرّة، وقال:

ـ والله، يبقى كتّر خيرك. أنا فعلًا محتاج دعواتك.

استأذنت نورهان بعد قليل لتنصرف، وكاد الحاجّ يستبقيها، لكنّه كظم رغبته ووقف ليودّعها. عندما نهضت بسرعة، انضغط ثوبها ـ رغمًا عنها ـ فحدّد ثدييها وجزءًا من مؤخّرتها. حدث ذلك بسرعة، لكنّ الحاجّ لمحه. قالت نورهان بصوت خافت:

ـ مش عارفة أشكر سيادتك إزّاي؟ عاوزة أعتذر لأنّي لا أصافح الرجال عملًا بوصيَّة أشرف الخلق.

قاطعها الحاجّ قائلًا:

ـ عليه أفضل الصلاة والسلام. أنا سعيد بك يا نورهان، وربّنا يديم المعروف...

هكذا كان لقاؤهما الأوّل. هل حاولت نورهان غواية الحاجّ شنواني؟ الإجابة نفي قاطع. نورهان سيِّدة مسلمة متزوِّجة تراعي ربّها، وتحفظ عرض زوجها في حضوره أو غيابه. كما أنّها في لقائها شنواني، التزمت بالشرع الحنيف واحتشمت في حديثها، بل إنّها لم تصافحه بيدها عملًا برأي جمهور أهل السُّنَّة والجماعة. صحيح أنّها جلست معه في المكتب وحدهما، الأمر الذي يُعتَبر خلوة بغريب، وهي محرَّمة شرعًا، لكنَّها عندما دخلت المكتب كان هناك المدير ومساعده، وقد انصرفا لأمر طارئ. وبالتالي، لم تكن مسؤولة عن وجودها وحدها مع الحاجّ. لم تسعَ نورهان إطلاقًا لإغواء الحاج شنواني، كما أنَّ إغواءه ليس بالأمر السهل لأنَّ حوله نساء كثيرات... أجمل جميلات مصر يتمنَّين رضاه الذي سينجم عنه خير كثير. كما أنّه متزوِّج من سيِّدتين: الحاجّة أمّ العيال والممثِّلة سلوى حمدان التي تزوَّجها، فكانت هدايتها على يديه، فتحجَّبت وصارت تظهر فقط في الدراما الدينيَّة. وقَّعت نورهان العقد وسُعدت بالمبلغ الكبير الذي منحها إيَّاه الحاجّ كمرتَّب مع نسبة جميلة من دخل الإعلانات خلال برنامجها. والأهمّ أنّها أحسَّت براحة نفسيَّة عميقة، لأنّها، لأوّل مرَّة، ستظهر أمام الكاميرات بالحجاب. كانت راضية ومستبشرة خيرًا بعملها الجديد، وبذلت كلّ مجهودها في الإعداد للبرنامج، على أنَّ بعض

المشاكل بدأت تظهر في علاقتها بزوجها عصام شعلان. من ناحية، لم يكن لديها الوقت ولا الطاقةُ كي تلتقيه، كما تعوَّدت في الماضي. اتَّصل بها، وطلبها بإلحاح، فاعتذرت كثيرًا، لكنَّها في النهاية اضطرَّت إلى الذهاب خوفًا من معصية الله، لأنَّ المراة التي ترفض إعطاء زوجها حقَّه الشرعي تبيت الملائكة تلعنها. في ذلك اليوم، مرَّت على شقَّته بعد نهاية عملها. كانت مرهقة ومتعجِّلة، وكان عصام سكرانَ كالعادة، وراح يثرثر بكلام مكرَّر عن فشل المصريين في كلِّ ثوراتهم. كانت قد سمعت هذه الآراء منه كثيرًا، ولم تكن في حالة تسمح بمناقشته، فسحبته من يده ودخلت به إلى حجرة النوم حيث أعطته حقَّه الشرعيَّ ثم دخلت الحمَّام. وفوجئت لمَّا خرجت، بأنَّه نام من التعب والسُّكر... لملمت أشياءها وانصرفت... ووجدته، في المرَّة التالية سكرانَ أيضًا، فأعطته الحقّ الشرعي. وعندما خرجت من الحمَّام وجدته في الصالة يشرب، فأحسَّت بغيظ مفاجئ، وقالت بحدَّة:

ـ على فكرة، أنت بقيت تشرب كثير. طبعًا أنت حرّ، لكن عاوزة أقول لك إنَّ الخمر من الكبائر، وربُّنا لعن شاربها وساقيها وحاملها.

تطلَّع إليها عصام مستهجنًا، وقال:

ـ أنت عاوزة إيه؟!

ـ عاوزاك تتَّقي الله.

ـ اتَّقي الله أنت وسيبيني في حالي.

ـ ربُّنا أمرني أنصحك. ده واجب الزوجة المسلمة. الخمرة حرام، يا عصام.

ـ مالكيش دعوة بالخمرة. خلِّيك أنت مع شنواني.

بدأت تلملم أشياءها استعدادًا للانصراف، لكنَّ عصامًا قال فجأة:

ـ عارفة أنَّ الشنواني رئيسك دَه أكبر نصَّاب.

ردَّت بغضب:

ـ من فضلك يا عصام... حرام نتكلَّم بالسوء على أيّ شخص في غيابه.

ـ والأراضي وقروض البنوك اللِّي نهبها تُعتَبَر حلال شرعًا؟

لاذت بالصمت، ووقفت وهي تحمل حقيبتها، واتَّجهت إلى المرآة لتُلقي نظرة أخيرة على نفسها، لكنَّ عصامًا جاء خلفها وصاح:

ـ الأشكال القذرة زيّ شنواني هم السبب في سقوط مبارك.

قالت بهدوء:

ـ أنا ماشية... سلام.

صاح عصام فجأة:

ـ اقعدي معايا شويَّة.

صاحت نورهان:

ـ أنت قاعد بتشرب وما فيش وراك شغل. أنا باشتغل طول النهار، ونفسي أنام عشان أصحى بكره بدري.

قال عصام، وقد بدا في تلك اللحظة سكرانَ تمامًا:

ـ أمَّال أنت بتيجي ليه؟!

ـ عشان ربِّنا ما يغضبش عليّ.

ـ إذا كنت بتيجي عشان ربِّنا مش عشاني، يبقى أحسن ما تجيش تاني.

انصرفت وأغلقت الباب بعنف. وفي اليوم التالي، اتَّصل بها معتذرًا، لكنَّها لدهشته قالت:

ـ أنا نسيت اللّي حصل خلاص. بس أنا عاوزة أشوفك.

رحَّب بها، وأحسَّت بصوته سعيدًا في التليفون. جاءت في الموعد. كان يشرب كالعادة، فلم تعلِّق. صافحته وجلست أمامه في الصالة، وقالت:

ـ عصام... أشكرك على كلّ اللّي عملته من أجلي.

قال بمرح:

ـ لا شكر على واجب.

تطلَّعت إليه عندئذ، وقالت بهدوء:

ـ إحنا حكايتنا خلصت على كده.

ـ يعني إيه؟!

ـ يعني زيّ ما دخلنا بالمعروف نخرج بالمعروف.

حملق فيها كأنَّه لا يستوعب. ابتسمت وقالت بودّ:

ـ يا عصام، أنت إنسان شهم، ولا يمكن أنسى وقفتك جنبي، لكن نصيبنا خلص... أنا طالبة الطلاق.

أشعل سيجارة وقد أفاق قليلًا، ووضع يده على كتفها فأبعدتها برفق حازم. قال برقَّة:

ـ من فضلك، فكّري يا نور. لا يمكن نهدّ حياتنا بالسهولة دي.

ـ كلّ شيء قسمة ونصيب.

ـ إذا كنت كلِّمتك بطريقة بايخة فأنا كنت سكران واعتذرت.

ـ اسمع، يا عصام... الحمد لله، ما فيش حاجة باعملها في حياتي إلّا لمَّا أتأكِّد أنَّها موافقة للشرع. المرأة المسلمة إذا أرادت

الطلاق فليس عليها أن تُبدي الأسباب، وفيه أكثر من حديث صحيح بهذا المعنى.. ربّنا، سبحانه وتعالى، قال إمَّا إمساك بمعروف وإمَّا تسريح بإحسان.

ـ طيِّب. أقترح عليك أنَّك تاخذي فترة تفكَّري.

ـ أنا فكَّرت وقرَّرت.

أطرق قليلًا، ثم قال بغضب:

ـ بُصّي، يا نور، أنا فاهم أنت طالبة الطلاق ليه؟

ـ مش المهمّ السبب. من فضلك طلَّقني.

استطرد قائلًا، كأنَّه لم يسمعها:

ـ أنت تمسَّكت بي لمَّا كنت مفيد. دلوقتِ بقيت عبء عليك.

ـ أستغفر الله العظيم.

ـ بطَّلي نَصب. أنت عاملة شيخة الإسلام وأنت كذَّابة وانتهازيَّة.

ـ ربَّنا يسامحك.

تصاعد غضبه فجأة، وقال بصوت عال:

ـ بُصّي يا روح أمّك، أنا اسمي عصام شعلان، وعمر ما حدّ ضحك عليّ. مش أنا اللِّي تاخذي منِّي غرضك وتسيبيني.

ـ طلبي للطلاق حقِّي الشرعي.

ـ أنا ما ليش في الشرع.

ـ اتَّقي الله، يا عصام.

ـ مش حاطلَّقك، يا نور. عاوز أشوف حتعملي إيه.

(٣٩)

عزيزتي أسماء...

مصر استيقظت... الثورة أخرجت أفضلَ ما في المصريِّين، كما أخرج الاستبداد أسوأَ ما فيهم. أتفهَّم تمامًا تأييد ناظر المدرسة والمدرِّسين للثورة، لكنَّ الاختبار الحقيقيّ سيكون في قدرتهم على تغيير سلوكهم. لقد انتصرنا في أوَّل معركة، لكنَّ الحرب ما زالت طويلة. لقد أسقطنا الديكتاتور، لكنَّ النظام الفاسد ما زال في السلطة. تحالفُ الرأسماليين اللصوص ما زال كما هو، لم يَمْسَسْه أحد، وهو يتلوَّن كالحرباء الآن ليستمرّ في السلطة. كما تلاحظين، فإنَّ كلامي عبر التليفون مختصر. بالطبع ما زلنا مراقَبين. أجهزة الأمن ما زالت كما هي، وإن كانت تغيِّر مقرَّاتها. هذه معلومات مؤكَّدة. لذلك، احتفظ دائمًا بأيّ تفاصيل مهمَّة لأكتبها إليك كما اتَّفقنا. بعد أن ركب عصام شعلان سيَّارته وانصرف، اصطحبني ضابط الشرطة العسكريَّة إلى مكتب القائد.

سألته وأنا أمشي خلفه:

ـ هل أنا مقبوض عليَّ؟

ضحك وقال:

ـ أعوذ بالله. سيادة القائد يريد أن يتعرَّف إليك.

توجَّهنا إلى مبنًى صغير خلف المصنع كان تابعًا لوزارة التموين، ثم اتَّخذه الجيش مقرًّا له بعد انسحاب الشرطة. كانت الساعة تجاوزت السادسة صباحًا واستقبلني القائد بترحيب. كان في الأربعينيَّات من عمره برتبة عقيد. المفاجأة أنني وجدت في مكتبه فابيو، العضوَ المنتدب للإدارة الإيطاليَّة. استغربت حضوره في هذه الساعة المبكرة، كما أنَّه اصطحب مترجمًا، وهو لا يفعل ذلك إلَّا في اللقاءات المهمَّة. كان هناك شابّ، في زيّ مدنيّ، عرَّفه القائد بقوله: الرائد نامر... (أعتقد أنَّه من أمن الدولة). صافحت الجميع، ولمَّا سألني القائد ماذا أشرب طلبت نسكافيه. كنت متعَبًا وأحتاج إلى التركيز. أدركت أنَّ كلّ كلمة أنطقها في هذا اللقاء ستؤثِّر فيما يحدث في المصنع. بدأ العقيد الحوار، قائلًا:

ـ أهلًا بزعيم العمَّال.

ـ أنا مش زعيم. أنا مجرَّد ممثِّل للعمَّال لأنَّهم انتخبوني في اللجنة النقابيَّة واللجنة الرباعيَّة.

ـ ممكن تشرح لي معنى اللجنة الرباعيَّة؟

ـ دي لجنة انتخبها العمَّال لإدارة المصنع بدلًا من المهندس عصام شعلان.

ـ يعني قرَّرتم تأميم المصنع؟

ـ غير صحيح. إقالة المهندس عصام مطلب أساسيّ للعمّال. المصنع لن يتوقّف لحظةً عن الإنتاج. والأرباح ستصل بالكامل إلى مُلّاك المصنع بعد اقتطاع حقوق العمّال.

كان فابيو يستمع إلى ترجمة فوريّة لما أقوله. قاطعني غاضبًا ونقل المترجم كلامه إلى العربيّة:

ـ هذا الكلام خطأ ولن أسمح بحدوثه. ليس من حقّ العمّال إقالةُ المدير. هذه صلاحيّات مجلس الإدارة. ثم أيّ أرباح تطلبونها إذا كان المصنع خسران.

نظرت إلى العقيد، وقلت:

ـ إذا سمحت سيادتك، أريد أن أتكلّم بغير أن يقاطعني أحد.

نظر العقيد إلى فابيو، وقال:

ـ من فضلك سيبه يخلّص كلامه.

شرحت للعقيد لماذا تتعمّد الشركة الإيطاليّة تحقيق خسائر في مصنعنا، بينما تحقّق كلّ مكاسبها في مصانعها الثلاثة الأخرى التي تنفرد بملكيّتها. استوضح العقيد بعض النقاط، فأجبته بالتفصيل. بدأ في تدوين بعض الملاحظات، وأحسست بأنّه متعاطف معي على عكس الرائد نامر الذي لم ينطق بكلمة، ولمحته أكثر من مرّة ينظر إليّ باستخفاف وكراهية... أعطى العقيد الكلمة لفابيو، فتكلّم بغضب وغطرسة، مكرّرًا ما قاله من قبلُ عن صلاحيّات مجلس الإدارة. تركه العقيد حتى انتهى، ثم سألني عن رأيي، فقلت:

ـ السيّد فابيو يتحدّث كأنّنا لم نقم بثورة ولم نخلع حسني مبارك. من الآن فصاعدًا، العمّال سيفرضون إرادتهم، ولن تتمكّن الإدارة من

نمهم، كما كانت تفعل من قبل.

قال فابيو:

ـ أنا أحذِّرك وزملاءك لأنَّ ما تفعلونه ضدّ القانون.

قلت:

ـ الثورة تفرض قوانينها.

ـ سأقاضيكم في مصر وفي إيطاليا.

ـ لن تستطيع، لأنَّنا سوف نُدير المصنع وسوف نعطي شركتك حقَّها ونُعطي الحكومة المصريَّة حقَّها، ولكن بعد أن نُعطي العمَّال كلّ أرباحهم المتأخِّرة كما ينصّ العقد. كلّ ما نفعله قانونيّ. أنتم الذين خالفتم العقد وحرمتم العمَّال الأرباح التي التزمتم بدفعها.

ـ لن ندفع أرباحًا إلى عمَّال مصنع خسران.

ـ يا سيِّد فابيو، أنا لن أُعيد ما قلته. كلّ كلامك الآن بلا جدوى. المصنع تحت سيطرة العمَّال.

نظر هنا فابيو إلى العقيد، وصاح:

ـ كيف يسمح الجيش المصريّ بهذه الفوضى؟!

قال العقيد:

ـ الكلام لكم جميعًا... الجيش الآن يؤدِّي مهمَّة وطنيَّة بالحفاظ على البلد بعد اختفاء الشرطة.

قلت له:

ـ انسحاب الشرطة متعمَّد، يا فندم. الشرطة قرَّرت أن تعاقب الشعب على الثورة بأن تنسحب من أجل إحداث فوضًى في البلد.

بدا الضِّيق على العقيد، وقال:

ـ دَه مش موضوعنا، يا مازن. أنا مهمَّتي أحافظ على منطقة طره كلّها. وبالتالي، أنا حامنع أيّ مشاكل تحصل في أيّ مكان، ومعي صلاحيَّات كاملة.

سكتنا جميعًا، واستطرد العقيد بهدوء:

ـ اسمع، يا مازن، هل تتعهَّد أمامي بالمحافظة على المصنع من حيث المنشآت والإنتاج؟!

قلت:

ـ يا فندم، العمَّال لن يسمحوا بأيّ تلف في المصنع، وهم تعهَّدوا بألّا يتوقَّف الإنتاج لحظة واحدة. أنا وزملائي في اللجنة الرباعيَّة مستعدُّون لأن نكتب أيّ تعهُّد تطلبه الإدارة، سواء بسلامة المصنع أو ضمان الأرباح...

بدا الارتياح على وجه العقيد، وتطلَّع إلى فابيو، ثم قال ببطء ليُعطي فرصة للترجمة:

ـ يا سيِّد فابيو، اكتب أيّ تعهُّد وأنا حاخلِّيهم يوقَّعوه قدَّامي.

رافق فابيو على مضض... شكرت العقيد وصافحتهم جميعًا، وخرجت. وبينما أمشي عائدًا إلى المصنع، رأيت الرائد تامرًا راكبًا إلى جوار فابيو في سيَّارته الهامر. كان النهار قد طلع، وفوجئت بأنَّ عمَّال ورديَّة الليل لم ينصرفوا وانضمُّوا إلى عمَّال ورديَّة الصبح. كان هناك عمَّال كثيرون جاءوا من بيوتهم للانضمام إلى زملائهم. وبسبب عدد العمَّال المتزايد، قرَّرنا أن نجتمع في ملعب الكرة. تحدَّثت عبر الميكروفون، وأخبرت العمَّال بما حدث، فهلَّلوا وكبَّروا، وتردَّدت الهتافات:

ـ تحيا الثورة.

ـ عاش نضال العمّال.

ـ عِيْش... حرّيّة... عدالة اجتماعيّة...

الغريب أنّني تأثّرت جدًّا بفرحة العمّال وهتافاتهم. تصوّري، يا أسماء، انّني بكيت. لا أعرف لماذا... ربّما لأنّني تذكّرت أبي الذي امضى أعوامًا في المعتقل وتحمّل التعذيب والتشريد من أجل لحظة كهذه... إنّنا ننتصر، يا أسماء. الثورة تحقّق انتصارًا، وراء الآخر، لكنْ، ما زال أمامنا عملٌ كثير. أنا مشغول في المصنع تمامًا، فاعذريني لو قصّرت في الاتّصال بك. أحبّك...

مازن

(٤٠)

ردهات مستشفى القصر العيني طويلة ومظلمة، قطعها مدني بخطوات سريعة، تحوَّلت في النهاية إلى ركض بقدر ما سمح به جسده المسنّ والمنهَك... دخل الحجرة وهو يلهث. كان خالد مسجًّى على الفراش، وقد تلطَّخ معطفه الأبيض بالدم، وأغمض عينيه واسترخت ملامح وجهه كأنَّه على وشك الابتسام، وفي منتصف جبهته ثقبٌ مستدير بدا لأوَّل وهلة كأنَّه مرسوم وغير حقيقيّ. هرع زملاء خالد إلى استقبال عمّ مدني. كان بعضهم يبكي. أحاطوا به لحظةً، ثم ظلُّوا صامتين كأنَّهم لم يجدوا ما يقولونه. تجاهلهم مدني، واندفع نحو السرير، وقد بدا على وجهه تعبيرٌ مألوف (كأنَّ ما يراه أمر مزعج، لكنَّه عاديّ)، ثم قال، بصوت مشفق:

ـ خالد.. فيه إيه؟!

حاول أحد الزملاء أن يسحبه بعيدًا، لكنَّ مدني دفع يده بعنف، وعلا صوته من جديد:

ـ ما تردّ يا خالد. قوم كلّمني يا بُني.

ساد السكون لحظة، ثم صاح مدني:

ـ ما بتردش عليّ ليه، يا خالد؟

بدا وقع صوته محشرجًا غريبًا، واستدار فجأة متوجّهًا نحو الباب، كأنّه قرّر الانصراف. لكنّه بعد بضع خطوات، توقّف وهبط فجأة على ركبتيه، وصرخ:

«خالد... ابني»، وراح ينتحب بصوت عالٍ وجسده يرتجف بشدّة. التفّ حوله زملاء خالد يواسونه واحتضنه بعضهم. توقّف مدني بعد ذلك عن البكاء، واكتسب وجهه تعبيرًا جامدًا لن يفارقه بعد ذلك أبدًا. كأنّ ما حدث قد خرج به عن نطاق التعبير؛ كأنّه ارتدّ إلى عالم داخليّ غامض يستغرقه تمامًا. وصلت هند، بعد ذلك، وصرخت ولطمت وجهها، والتفّ حولها الحاضرون وجذبتها الممرّضات وشددن يديها عندما بدأت تخمش وجهها بأظافرها. قام زملاء خالد بكلّ ما يلزم. استخرجوا تقرير الطبّ الشرعي وتصريحَ الدفن، واستدعوا الحانوتيّ، واتّفقوا معه وأعدُّوا كلّ شيء للجنازة. حضر مدني الغسل والتكفين، وظلّ صامتًا، لم يبكِ، ولم ينطق بكلمة، لكنّه بين الحين والحين، كان ينحني على جسد خالد ليتحسّسه، يمرّر يده بيده على صدره ويديه وقدميه. ظلّت نظراته ذاهلة كأنّه لا يعي ما يحدث. انتهت الإجراءات وخرجت الجنازة من جامع صلاح الدين المجاور للقصر العينيّ، وحضرها آلاف من شباب الثورة، وارتفع فيها الهتاف كالرعد:

«يا شهيد نام وارتاح، وإحنا نكمّل الكفاح...».

«يا نجيب حقّهم، يا نموت زيّهم».

احتضن مدني النعش بقوّة، بينما كانوا يُنزلونه إلى المقبرة، ثم عاد خطوة إلى الخلف، وقال بصوت عالٍ «مع السلامة يا خالد. أشوف وشك بخير يا بُني...».

انقطع مدني عن العمل نحو شهر، ولمّا عاد كان عصام شعلان قد أُقيل وتسلّمت اللجنة الرباعيّة إدارة المصنع، فقدّم إليها طلبًا بنقله مرّة أخرى إلى إدارة الإسعاف. بعد ذلك، صار يجلس في الجراج يقرأ القرآن بلا انقطاع، ولا يلتفت حوله ولا يتحدّث مع أحد، غارقًا تمامًا في عالمه الداخليّ، حتى تأتيه مهمّة فيستقلّ سيّارة الإسعاف ليؤدّيها. فشلت كلّ محاولات زملائه لجرّه إلى الحوار. كان يردّ عليهم باقتضاب، وأحيانًا كان يتطلّع إلى من يحدّثه بغير أن يردّ. أخذه زملاء خالد إلى الشهر العقاريّ، حيث عمل توكيلًا للمحامي الذي تابع البلاغ ضدَّ الضابط القاتل حتى أُحيل على القضاء. ليلة المحاكمة، لم ينم عمّ مدني. أخذ إجازة من المصنع وتوجّه إلى مسجد السيِّدة زينب، حيث أدّى صلاة الفجر، وذهب إلى المحكمة التي لم تكن قد فتحت أبوابها بعدُ. جلس في المقهى المجاور، وراح يشرب القهوة ويدخّن حتى جاء المحامي وهند ودانية وزملاء خالد، وأخذوه إلى الجلسة. أصرَّ مدني على الجلوس إلى جوار قفص الاتّهام، وطلب من زملاء خالد أن يشيروا إلى قاتل ابنه عندما يصل... دخل الضبّاط المتّهمون بقتل المتظاهرين إلى القاعة، واصطحبهم الحرّاس إلى القفص. عندئذ، استغرق مدني في تأمّل الضابط الذي قتل ابنه. كان شابًّا لا يزيد عمره على ثلاثين عامًا، يرتدي ثيابًا أنيقة. ويضع على عينيه نظّارة شمس، مفتول العضلات ولديه صلع خفيف في مقدّمة رأسه، استبدّت بمدني رغبة غريبة جعلته يحدّق في يد القاتل اليمنى. لم يستطع أن يحوّل

نظره عنها. كانت يدًا ممتلئة وأصابعها قصيرة مكتنزة. هذه اليد هي التي قتلت خالدًا. هذه الإصبع هي التي ضغطت الزناد فانطلقت الرصاصة واستقرَّت في رأسه. ألم يكن ممكنًا للضابط أن يعتقل خالدًا بدلًا من أن يقتله؟! ألم يكن ممكنًا أن تخطئ يد الضابط في إطلاق الرصاصة؟ ألم يكن ممكنًا أن تهتزّ اليد أو ترتبك فتطيش الرصاصة؟! ألم يكن ممكنًا أن ينحني خالد فتصيبه الرصاصة في كتفه أو ذراعه، ولا تقتله؟! ظلّ مدني مستغرقًا في تأمُّل الضابط حتى انتهت الجلسة، وأخبره المحامون بأنَّ القضيَّة تمّ تأجيلها. خرج مدني مع هند من المحكمة، وصافحا المحامين والزملاء، لكنَّ دانية أصرَّت على توصيلهما بسيَّارتها، وقالت لمدني بصوت خافت:

ـ أنا عاوزة حضرتك في موضوع مهمّ.

ركب مدني إلى جوار السائق، وركبت هند ودانية في المقعد الخلفيّ. لم يتبادلوا كلمة في أثناء الطريق. كان مدني قد عرف دانية مع زملاء خالد بعد مقتله. كان يحبّهم جميعًا، وعندما يراهم يبدو على وجهه تعبيرٌ حنون سرعان ما يتلاشى ليعود التعبير الجامد الذي يلازمه. فكَّر مرَّةً واحدة في أنَّ حزن دانية على خالد مختلف. لم يفكِّر أبعد من ذلك، لأنَّه فَقَدَ القدرة على التفكير في أيّ موضوع. كانت الأفكار تعبر ذهنه كشذرات متقطّعة، ثم سرعان ما يصطدم بالحقيقة ذاتها: خالد ابنه مات. لن يراه ثانية، ولن يفرح بتخرُّجه، ولن يحتاج إلى المال الذي أدّخره ليشتري له عيادة. لن يتزوَّج خالد، ولن يفرح بأولاده كما طالما حلم. بدا على سائق دانية نوعٌ من الاستياء، وهو يسأل عمّ مدني عن الطريق في حواري المعصرة. وكانت هند تردّ على السائق، وفي النهاية وصلوا. كانت هذه أوَّل مرَّة ترى فيها دانية بيت خالد. تطلَّعت حولها،

وانتابها حنان جارف حتى كادت تبتسم. من هنا خرج خالد؛ من هذا الحيّ الفقير حيث يلعب الأطفال الحفاة؛ من هذا السلّم المتآكل؛ من هذه الشقَّة المدهونة بالجير المتساقط، كان خالد يأتي إليها في القصر العيني وهو ممتلئ بالثقة. كيف تحمَّل كلّ هذا الفقر، فلم ينكسر ولا ييئس ولا كره الدنيا. كيف كان يحتفظ بابتسامته الواثقة ونظراته المتفهِّمة من خلف النظَّارة، وهو قادم من كلّ هذا البؤس. تذكَّرت دانية حديثه عن أبيه. استعادت صوته المرح وهو يقول:

ـ «ربّنا بيحبّني يا دانية، أعطاني أبّ فقير ومحترم بدل ما كان يبتليني بأب غنيّ وفاسد».

استغرقت تمامًا في أفكارها، وراحت تتأمَّل الشقَّة من جديد، حتى انتبهت إلى استغفار عم مدني. كان قد أدَّى صلاة الظهر وجلس أمامها على الأريكة، وهو يسبِّح بمسبحة طويلة، كأنَّما كان ينتظر منها أن تبدأ.

قالت بصوت خافت:

ـ حضرتك عارف أنَّ المرحوم خالد كان قريب منَّا كلُّنا. أنا بالذات كان عزيز عليَّ جدًّا.

بدت على وجه مدني شبهُ ابتسامة، لاحت، ثم اختفت في الحال. حَكَتْ دانية كلّ شيء. الغريب أنَّها لم تخجل ولم تختصر. قالت بالتفصيل ما حدث في مواجهتها مع أُسرتها وإحساسها بالذنب إذا شهدت، وإذا لم تشهد. أشعل مدني سيجارة، ثم قال بنبرة حازمة:

ـ طبعًا ما تشهديش.

تطلَّعت إليه بدهشة، فقال:

ـ خالد لا يرضيه أنّك تخسري أسرتك. عندنا شهود كفاية. كلّ المحامين أكّدوا أنَّ عندنا شهود كفاية.

قالت بلهجة متردِّدة:

ـ يعني حضرتك. . .

قاطعها عمّ مدني:

ـ ما تشهديش، يا بنتي. أنا والد خالد باقولك ما تشهديش.

لم تعد دانية إلى الحديث في الموضوع، وخجلت في أعماقها لأنّها أحسَّت براحة عندما أعفاها من الشهادة. استاذنت لتنصرف، وعندما سألت عمّ مدني إن كان يحتاج إلى أيّ شيء، تطلّع إليها وتردَّد لحظة، ثم جذبها وعانقها، ولدهشته ارتمت في حضنه وأحسَّ بذراعيها تطوِّقان ظهره، ثم شعر بجسدها يرتجف وهي تبكي. أوصلها إلى باب البيت، واصطحبتها هند إلى السيَّارة، ثم عادت، وسألت أباها إذا كانت تعدّ له الغداء، فقال وهو يدخل حجرته إنَّه ليس جائعًا، لكنَّه سينام قليلًا. ألقى بجسده على الفراش، وسرعان ما استسلم لنوم ثقيل استيقظ منه على هزَّة خفيفة، وفتح عينيه فوجد هند تهمس برقَّة:

ـ فيه ناس برَّه عاوزينك.

استغرق لحظة ليستعيد انتباهه، وسأل بصوت خافت:

ـ ناس مين؟

قالت:

ـ ناس أوَّل مرَّة أشوفهم. بيقولوا عاوزينك بخصوص المرحوم خالد.

(٤١)

شهادة سميرة إبراهيم

أنا اتقبض عليَّ في اعتصام ٩ مارس... أوَّل ما رحت عند المتحف قابلني ضابط معرفوش قالي:

ـ أهلًا يا سميرة أنت جيت؟ ده أنا مستنيكي.

أوَّل حاجة عملها كهربني في بطني، وقالوا علينا إحنا جايبينهم من بيت دعارة. كانوا بيدلقوا علينا ميَّه ويكهربونا ويشتمونا بألفاظ مقزِّزة جدًّا... تصوَّري، ناس بتتفّ عليكِ وبتشتمك وبتضربك بالجزمة في وشك... بيندِّمونا على يوم ٢٥ يناير، بيندِّمونا إن إحنا عملنا ثورة. بعد كده، ودُّونا المكان اللِّي اسمه س ٢٨... أنا قلت هيحقَّقوا معانا ويروَّحونا. هيعملوا بينا إيه؟! خلاص، هُمَّا عملوا اللي عملوه عند المتحف... حطُّونا في الأوتوبيسات، طبعًا إيدينا متربطة ومش

مضروبين، مسحولين. لمّا دخلوا بينا س ٢٨ وقّفونا صفّ واحد وجابوا أزايز فاضية فعلًا شكلها مولوتوف، كلّها رصّوها قدّامنا. صوّرونا معاها على اعتبار إنّ الحاجة دي بتاعتنا، وإحنا البنات بتوع دعارة والولاد بلطجيّة... تخيّلي بعد كده حطّونا في الأوتوبيس لحدّ الصبح... ده كلّه ومحدّش حقّق معانا غير بقى لسانهم قعدوا يشتمونا ويقولولنا «إنتوا خربتوا البلد، إنتوا عاوزين إيه من البلد»؟

بالطريقة دي ابتدوا يستلموا علينا ورديّات طول الليل... يعني أربع عساكر يروحوا يجي الأربعة التانيين يضربوا فينا... طول الليل بنتضرب... أوّل ما دخلنا قالولنا اللي هتنطق هنا واللي هتتكلّم هندفنها في الرمل، محدّش شايف حاجة ومحدّش سامع حاجة... وصّلونا لدرجة إنّا واحدة خرجت من السجن متبهدلة نفسيًّا وجسديًّا ومعنويًّا... لحدّ ما وصلنا السجن الحربي خدونا وقّفونا صفّ واحد. قالوا كلّ اللي معاها حاجة تسلّمها. أنا كانوا واخدين شنطتي وحاجتي، بس كان معايا البطاقة في جيبي، وكان معايا خمسين جنيه اللي هي بصرف بيها. سلّمت الكارنيهات. خدوا الشنطة كلّها، مش مشكلة، يعني كلّ ده مش فارق... اللّي لابسة حاجة قلعتها. اللّي لابسة خاتم دهب. سلّمنا لهم موبايلاتنا. سلّمنا لهم بطايقنا.. إحنا واقفين صفّ واحد، والله العظيم، لقيت صورة للمخلوع حسني مبارك جديدة متعلّقة، فسألت الضابط:

- بعد إذن حضرتك يا فندم... هو صورة مبارك بتعمل إيه هنا؟

قال لي إنتي مالك... طبعًا شتيمة. قال إحنا بنحبّه، إنتوا مش عايزينه يبقى رئيس ليكوا هو الرئيس بتاعنا إنتي مالك وماله... الضابط قال لنا ياالله عشان هتتفتّشوا. قال مين فيكم فيها إصابات. أنا

قلت له كلّنا فينا إصابات يا فندم من كتر الضرب ومن كتر التلطيش فينا. فضّلوا ياخدوا الواحدة التانية التالتة لحدّ ما جه الدور عليّا. انا روّحت أوضة كده غرفة شبّاكها متر ونصّ في متر ونصّ... شبّاك كبير وبابها مفتوح وعساكر شايفاكي من الناحية التانية. لقيت واحدة ستّ حتفتّشني. أنا دخلت فاكراها هتفتّشني كده زيّ ما بنتفتّش في المطار بيعملوا كده تفتيش عادي، لقيتها بتقولي اقلعي هدومك. رحت قالعة الجاكيت. لقيتها بتقولي اقلعي هدومك كلّها. قلت لها طبّ أستأذن حضرتك تقفلي الشبّاك واقفلي الباب وأنا مع حضرتك. قالت لي لا، ودخلت حد يقعد يضربني. اضطرّيت اقلع غصب عنّي.

طبعًا العساكر واقفين عند الشبّاك بيضحكوا وبيغمزوا لبعض كده وأنا عريانة، واللي على الباب شايفني رايح جاي عساكر وضبّاط، يعني رايحين جايّين يتفرّجوا عليّ وأنا عريانة... بجدّ أنا في اليوم ده اتمنّيت الموت، وانا والله قعدت أقول لنفسي هي الناس بتجيلها سكتة قلبيّة... أنا ليه ميجلبش سكتة قلبيّة وأموت زيّ الناس اللي بتموت دي... مهما حكيتلك اللي حصل في اليوم ده. يا ريت اكتفوا بكده وبسّ، خرّجونا قعدت على الأرض وقسّمونا مجموعتين، مجموعة دخلت زنزانة كده ومجموعة دخلت زنزانة تانية... هم ذلّونا. يعني فاهمة؟! الواحد كان بيتمنّى الموت، يعني الواحد بقى يقول كلّ الناس دي ماتت اشمعنا أنا مجاش دوري في الموت، اشمعنا أنا ما موتش... بعديها بشويّة دخل علينا الضابط وكان معاه الصول إبراهيم ده كان معانا في الأوّل وكان بيكهربنا. ابتدوا يشتمونا بألفاظ بذيئة، يعني كانوا بيشوفوا شطارتهم مين يشتم أحسن. الضابط قال المدامات يقفوا لوحدهم والبنات لوحدهم... وقفت الناحية اللي فيها البنات.

الضابط قال عشان هنشوفكم بتوع دعارة ولا مش بتوع دعارة... رنفت ابتدت تخرج البنت التانية، التالتة، الرابعة. جه الدور بتاعي أنا، ماكنتش بكلِّم حدّ أنا، ماكنتش بعترض ولا أقدر أتكلّم أساسًا، لقيتها بتقولي نامي وافتحي رجليكي عشان البيه هيكشف عليكي... البيه ده دكتور ملازم لابس زيتي. أنا اتعرّيت قدّامهم كلّهم... كان فرح... بيتفرَّج عليّا كمّيّة ضبّاط وعساكر، قولتلها طبّ بعد إذنك اقفلي الشبّاك. ابتدا العسكري يكهربني في بطني ويشتمني بألفاظ مقرِّزة، فاستسلمت ونمت وفتحت رجليّا. دكتور قعد بيجي خمس دقايق بيكشف على إيه عارفة ليه؟ أنا نايمة عريانة وفاتحة رجليّا والستّ واقفة من ناحية راسي. تصوّري الدكتور سايبني بالوضع ده وماسك الموبايل بيلعب فيه... يعني شوفي الذلّ قد إيه... شوفي بيذلّوكي أد إيه، بيكسروا نفسك عشان خاطر متفكّريش تقولي أنا عايزة حقّ البلد دي، عشان متفكّريش تنزلي تاني مظاهرات، أو تعملي أيّ احتجاجات ضدّ أيّ ظلم... بعد ما كشف لقيته بيقولي يلّا بقى عشان تمضي على إقرار إنّ إنتي بنت... أنا يمكن حسن حظّي متجوزتش، طبّ لو أنا كنت متجوّزة كنت شلت قضيّة دعارة. دلوقتِ يعني مش حقّهم يعملوا كده، بسّ ماكنتيش تقدري تتكلّمي. بتنفّذي اللي بيتقالك وخلاص. لقيته سايب مسافة كبيرة كده بين الكلام وعاوزني بعد كام سطر كده أمضي، قلتله لا أستأذن حضرتك يا فندم أنا همضي تحت الكلام على طول... كان ساعتها على جثّتي، يعني كان إحساس إنّي لو مضيت تحت بعد كام سطر كان ممكن يحصل حاجة تانية وأشيل القضيّة، مضيت. دخّلونا بعد كده في زنزانتين. بعدما خلّصوا الكشف خدونا على مجموعات، كلّ واحد رجّعوه على زنزانته. أنا كنت قاعدة يعني

مصدومة مش متخيّلة أبدًا إنّ ده يحصل منهم. مخطرش على بالي أبدًا إنّ ده يكون منهم... أنا عاوزة أقولّك المفاجأة إن كانت في ناس بنوع صاعقة بيتدرَّبوا علينا. يعني البنات اللي خرجت وراحت لبيوتها وسكتت، لهم حقّ من اللي شافته منهم بجدّ... أنا شخصيًا بعد اللي شفته منهم أتوقَّع منهم أيّ حاجة... اسمعي بقى التهم اللّي وجُّهوها لي: محاولة اعتداء على ضبّاط جيش أثناء خدمة عملهم، وتاني تهمة حيازة عشر أزايز مولوتوف، وتالت تهمة حيازة أسلحة بيضا، ورابع تهمة كسر حاجز التجوال. كان حظر التجوال ساعتها الساعة اتنين بالليل وأنا مقبوض عليا الساعة تلاتة ونصّ العصر. تعطيل حركة المرور، والكاميرات والعالم كلّه كان عارف أنّ المرور كان ماشي رابع جاي مافيش أيّ مشكلة... دي كانت التهم. لمَّا رحت لوكيل النيابة قلت له والنبي يا فندم أنا حضرتك بنت مافيش أيّ حاجة من دي صحّ. وكيل النيابة مفروض أنا متوقّعة منه يقولي إيه اللي مبهدلك كده. المفروض هو اللي بدافع عنّي... وكيل النيابة جه عليّا شتمني وهزّأني وخلّى حدّ يكهربني قدامه... أنا والله ما كنت متوقّعة منهم ده خالص... ماكنتش متوقّعة خالص ده يحصل... أنا كنت عشمانة في وكيل النيابة يجيبلي حقّي، لقيته زيُّهم بيقولي دي ورقة جاية من المجلس الأعلى للقوّات المسلَّحة بتتّهمكم بكده... بعديها نزلنا تحت عند القاضي. جابوا يعني محامين من عندهم كده تمثيليّة، عارفة التمثيليّة؟! القاضي ابتدا يتّهمني بكلّ التُّهم، وفي الآخر سأل:

– أنتم لازم كنتوا معتصمين في التحرير عشان إنتوا شكلكوا متبهدل.

قلت كويّس سأل السوال ده، لسّه هنطق وأقول له ده الضبّاط بنوع

الجيش همّا اللي عملوا فينا كده... لقيت نفسي اتسحبت. رجعت ورا. سحبوني ضبّاط الجيش قدّام القاضي. في الجلسة بتاعتي كان في ولاد مرميّة في الأرض مش عارفة تنطق، يعني وكيل النيابة يقول فلان الفلاني كان يعمل كده بإيده يَدُوَبَك، لأنّه مش قادر ينطق لأنّه مضروب مرمي في الأرض... كان في ناس مش قادرة تمشي من التعذيب جايبينها شايلينها حاطينها في الأرض معروضة في الجلسة. أنا شخصيًا بقول للشعب المصري انجدني من إيديهم انجدوني منهم. الشعب المصري هو اللّي هينجدني منهم، هو اللي هيجيبلي حقّي، مش قضيّة ولا قاضي ولا نائب عام. ولا همّا هيعترفوا ولا هيدُّوني حقّي. اللي هيجيبلي حقّي هو الشعب.

شهادة رشا عبد الرحمن

واحد صول بيسألني:

- إنتي حامل يا بتّ؟!

قلت له لأ أنا بنت. قالي عامّةً هنعرف إذا كنتي بنت ولّا لأ...

دخلنا الهايكستاب السجن الحربيّ. أوّل لقطة كده تشوفيها بعد ما تنزلي جوّه السجن تلاتي في وشك كده صورة مبارك كده على طول لسّه متعلّقة زيّ ما هي. ابتدينا نخشّ تفتيش. كانوا أوضتين مفتوحين على بعض. أوضة تخشّيها تستنّي دورك في التفتيش. الأوضة التانية فيها واحدة سجّانة اسمها عزّة، كانت لابسة أسدال أسود. كان فيها باب موارب مش مقفول. التفتيش ده بقى عبارة عن إيه يا أستاذة، عبارة إنّك تقلعي تمامًا وتقفي مجرّدة من الملابس. تخيّلي نفسك بقي

وانتي واقفة بتتجرّدي من ملابسك وبيتبص على معالم جسمك، وبيتقالّك لو في إصابة عندك الإصابة دي من إيه، وبتقعدي تعملي حركة تني ومدّ والشبّاك مفتوح والأبواب مفتوحة والعساكر رايحة جايّة تتفرّج عليكي. شعورك بيبقى عامل إزّاي؟! عايزة أقولّك إنّ ده كان إحساس فظيع، لحدّ النهارده فعلًا أنا مش عارفة أتخلّص منه... لحدّ النهارده فعلًا أنا بعاني من الموضوع ده.

جه مامور القسم اتكلّم معايا... في اللحظة دي كان في بنات جوّه عريانة بتعمل نحص. بيقول لي فيه إيه؟!

بقوله يا فندم فيه عورة ما بين الستّ والستّ، ما ينفعش نظهر إسلاميًا. على الأقلّ إزّاي أنا أعمل الطريقة دي؟! قال لي لو ما خلّيش مدام عزّة تفتّشك هخلّي عسكري يجي يفتّشك.

دخلت وأنا مجبرة إنّو هي اللي تفتّشني بدل ما واحد تاني هو اللي يجي يفتّشني. الوضع كان هيبقى عامل إزّاي لو عسكري جه يفتّشني؟ عزّة فتّشتنا لدرجة أنّها فكّت شعرنا، خدت الدبابيس اللي في الطُرَح. بس فيه موقف مميّز أنّها ندهت العسكري وأنا عريانة. تخيّلي أنا جوّه عريانة وهي بتسأل العسكري والعسكري واقف وإحنا عريانين: أشيل التوكة دي ولّا لأ؟ إنسانة مجرّدة من كلّ الشعور فعلًا... دي مش بني آدمة بجدّ، اللي هي تدخّل عسكري وأنا عريانة وتسأله حاجة زيّ كده... ما رضيتش حتى تطلّعه بره.. لأ، هي دخّلته وإحنا عريانين من غير ملابس... مش عارفة أقولك إحساسي كان عامل إزّاي مهما أتكلّم أو أوصف، مش هقدر أوصف الإحساس ده، بسّ كان سخط وغضب شديد بجدّ. أنا مش عارفة بيتعاملوا مع بشر ولّا بيتعاملوا مع حيوانات. أنا مش عارفة أحدّد... بعديها دخل علينا

دكتور كان معناه كده كشف بيان خَدْ فيه اسم كلّ واحدة فينا، وإذا كانت آنسة ولّا مدام ومضت وبَصَمِتْ. بعد كده دخل العسكري إبراهيم ده وقالي اللي هتقول إنَّ هي بنت وهي مش بنت هكهربها واضربها، وقال لفظ تاني فيما معناه أنَّه هو هيمارس معاها جنس. بالألفاظ دي نفسها، بس كان لفظ قميء شويَّة بس أنا ما ينفعش أذكره... إحنا قلناله لأ إنت ليه بتقول كده، قال عشان هيحصل كشف. اعترضنا إزَّاي يحصل الكلام ده؟ قال دي أوامر. بعليها بشويَّة جه خدنا العسكري، دخَّلنا الأوضة التانية اللي هي كان فيها ١٣ بنت كنَّا مع بعض. قال لنا البنات تيجي على جنب والمدامات تيجي على جنب. كنَّا سبع فتيات كنَّا على جنب. أمَّا المدامات فكانوا قاعدين.

إحنا كنّا رافضين الكشف، لكن ده حصل رغم عنّنا وبمنتهى الإهانة. وعايزة أقولك لو مكشفتيش هتتضربي وهتتكهربي وبرضو هتكشفي. خرجت برَّه لقيتهم جايبين سرير في الطرقة اللي ما بين الأوضتين. كان دوري رقم خمسة في الكشف. كانوا اللي موجودين إبراهيم العسكري والدكتور وعزَّة السجَّانة. أنا كنت خايفة ومرعوبة من اللي هيحصل... طب ليه هُمَّا بيعملوا كده. طبعًا باب السجن مفتوح. بعني معرَّض إنّ إنتي أيّ حد يجي وإنتي في الوضع ده. طبعًا ابتديت أقلع وطلعت على السرير وكشف عليًّا الدكتور. وبعد ما كشف عليًّا وعرف واتأكّد إنَّ أنا بنت كتب تقرير إنَّ أنا بنت وبِكر وفيه غشاء البكارة، وأنا مضيت وراه... حُطُّوا نفسكم مكاني أو أولادكم مكاني، وشوفوا ردّ فعلكم هيبقى عامل إزَّاي... تخيَّلي بسّ أختك أو إنتي أو يا أمّ يا فاضلة باللِّي قاعدة في البيت وبتقولي ليه إنتوا بتنزلوا ميدان التحرير، تخيَّلي بنتك في الموقف ده، شوفي ممكن تتصرَّفي إزّاي.

شهادة سلوى الحسيني جودة

أنا سلوى الحسيني جودة، أنا كنت معتصمة في ميدان التحرير وبعدين حصل الضرب يوم الأربع روَّحت أشوف فيه إيه، وأدافع عن زمايلي، وأحاول أرجَّعهم عشان خايفة عليهم... فجأة لقيت ضرب نار وناس عاوزين يضربوا أيّ حدّ. الجيش ضرب نار حيّ... بصراحة مش عارفة جبت الشجاعة دي منين وقفت قدّامهم وقلتلهم:

ـ يا تضربوني بالنار، يا تجيبولي أصحابي.

طبعًا محدّش عبّرني. بعد الضرب ما هدي جاية أرجع لسّه موصّلتش قدّام المتحف لقيت اتقبض عليّا. واحد من الأهالي قال لي الجيش عاوزك، ومش واحد ده حوالى ١٥ واحد واقفين حواليّا... واحد ماسك إيديّا كده زيّ ما يكون ماسك واحدة حراميّة أو بلطجيّة، يعني ماشية في وسط رجّالة، خَدني ودّاني لغاية اللوا، اللوا ده مش عارفة بصراحة أقول عليه إيه ربّنا يسهّل له.. مش عارفة أقول إيه... أوّل ما شافني قال لي إهدي إهدي. أنا افتكرته راجل طيّب وكويّس، لقيته راح نازل بالأقلام على وشّي وقال:

ـ ما هو إنتو بتوع الدعارة اللي ملّيتوا البلد ومشّيتوا الناس وراكوا عاملين نفسكم مش خايفين، وانتم أصلًا جُبَنا. ما إنتي عاملة زيّ الفرخة قدّامنا أهُو.

قلتله أنا حضرتك اتقبض عليّا ليه، بتهمة إيه، عملتلك إيه؟ المهمّ قبضوا علينا. طبعًا الكهربا اشتغلت في رجليّا. الإليكتريك كده كهربا في رجليّا... البنت على فكرة كانوا بيكهربوها في صدرها، وفي رجليها، وآخر قلّة أدب وقلّة ذوق والفاظ رديئة ما فيش حدّ

بيتحملها... أنا كان عندي انهيار عصبي في الوقت ده، وبعدين فيه واحد من زمايلنا أوّل ما شافني دخل، وقال للضبَّاط يا جماعة دي خطيبتي، راحوا خدوه ونزلوا عليه ضرب. هو أصلًا كان مكسور دراعه نكسروله دراعه التانية وفضلوا يكهربوا فيه، وبعدين خدوه وودّوه عند الرجّالة... إحنا ساعة ما رحنا السجن الحربي أنا والبنات، دخلنا أُوضة فيها بابين وشبّاك. البابين مفتوحين على الآخر. قمدنا نتحايل على الستّ دي إنّها تقفل البابين والشبَّاك مش راضية، والبنت بتقلع هدومها كلّها وبتتفتّش وفي كاميرات برَّه بتصوَّرنا عشان يتعملنا ملفَّات دعارة، ومحدِّش عارف ده كله، محدّش خد باله. مش كلّ البنات خدت بالها من الكاميرات بره بتصوَّرنا عشان يتعملّنا ملفَّات دعارة هناك، وإحنا قالعين هدومنا خالص. والبنت اللي كانت بتقول آنسة بيتكشف عليها من واحد مش عارفين أصلًا إذا كان دكتور، ولَّا عسكريّ، ولَّا هو أيّ واحد من اللّي عندهم.

(٤٢)

عندما يستعيد أشرف ويصا ما حدث في ذلك اليوم، يحسّ بدهشة. كان في شقّة الدُّور الأرضي ومعه إكرام وشابّان وثلاث بنات. كانوا محاصَرين تمامًا. في الخارج كان هناك أكثر من عشرين بلطجيًا مسلّحين بالسكاكين وبنادق خرطوش، وقد بدأوا فعليًا في اقتحام الشقّة بعد أن قذفوها بالحجارة وكسروا زجاج النوافذ. كيف احتفظ بثباته في تلك اللحظات العصيبة؟! كان كلّ همّه أن يحمي إكرام والبنات، فأدخلهنّ حجرة داخليّة بينما اتّصل الشابّان بزملائهما فجاؤوا بسرعة من الميدان لتبدأ معركة رهيبة مع البلطجيّة، أُصيب بعض الشبّان، فتمّ نقلهم إلى المستشفى الميدانيّ. مع ضراوة المقاومة، لاذ البلطجيّة بالفرار، وتمّ القبض على ثلاثة منهم وتجريدهم من أسلحتهم، ثم تصويرهم بالفيديو وهم يعترفون بأنّهم تلقّوا أموالًا من رجال أعمال في مقابل الاعتداء على الثوّار وإجلائهم من ميدان التحرير. اعترفوا أيضًا بأنّ ضبّاط أمن الدولة أعطوهم معلومات تفصيليّة وخطّةً للهجوم على

أماكن محدَّدة، من ضمنها بيت أشرف ويصا حيث تُعقد اجتماعات الثورة. تدخَّل أشرف في أثناء اعترافات البلطجيَّة، حتى لا يعتدي الشباب عليهم. اعترض شابّ وصاح:

ـ يا أستاذ أشرف سيبنا نربِّيهم. دُول جايّين يقتلونا.

ردَّ أشرف بحزم:

ـ ما دمت قبضت عليه يبقى في ذمّتك. لو أذيته تبقى قلَّة شرف منك.

يبتسم أشرف بمرارة عندما يتذكَّر أنَّهم سلَّموا البلطجيَّة وفيديوهات الاعترافات إلى ضابط برتبة مقدّم في الشرطة العسكريَّة (التي سيتبيَّنون فيما بعد أنَّها أطلقت سراحهم). كانوا حينئذ ما زالوا يعتقدون أنَّ الجيش يساند الثورة، وسرعان ما تبيَّنوا نيَّاته الحقيقيَّة... كيف عاش أشرف كلّ هذه المعارك؟ من أين أتته القوَّة والشجاعة هاتان؟! إنَّه حتى لم يؤدِّ الخدمة العسكريَّة لأنَّه وحيد والديه. لقد وجد نفسه في عالم غريب مدهش، يُخيَّل إليه أحيانًا أنَّه يحلم، أو أنَّ حياته الأصليَّة التي يعرفها قد انتهت، وهو الآن يبدأ حياة جديدة. كيف يخوض كلّ هذه الاشتباكات ويواجه الموت فلا يخاف، وهو الذي لم يشترك في مشاجرة واحدة في حياته... كان تلميذًا مثاليًا في مدرسة الليسيه، لا يتذكَّر أنَّه تسبَّب بمشكلة أو اشترك في شغب. ولأنَّه قبطيّ، كان وضعه دائمًا هشًا. تعلَّم أن يتَّبع القواعد ويستعين بالأصول ليتغلَّب بالودّ على عدوانيَّة الآخرين؛ تعلَّم أن يُؤْثِر السلامة على العدل في مجتمع يميِّز بين الناس على أساس الدين. ولأنَّه ابن أسرة أرستقراطيَّة، كان دائمًا التلميذ المهذَّب والأنيق والذي يأتي وثيابه مكويَّة جيِّدًا وحذاؤه لامع.

ثم تخرَّج من الليسيه والتحق بالجامعة الأميركيَّة ليعيش في مجتمع ثريٍّ مغلَق لا يعنيه كثيرًا ما يحدث في مصر. هذه العزلة طبعت حياته. ومع إحباطه في التمثيل وفشل زواجه، نمت داخله مشاعرُ الإحباط والمرارة، التي جعلته يهرب إلى الحشيش. كأنَّه الآن قد كسر القوقعة التي انحبس فيها طوال حياته، وانطلق ليعيش بشكل حقيقيّ. يحسّ بأنَّه بات يفكِّر ويتحرَّك ويمشي بطريقة مختلفة. حتى نبرة صوته صارت أكثر ثقة وحرارة... حياته الآن مشحونة بالمهمَّات التي يجب أن ينجزها: تجهيزِ الطعام والأدوية، واجتماعاتِ اللجنة التنسيقيَّة التي صارت تُعقَد في الدور الأرضي. لن ينسى أبدًا اللحظة التي عاشها في الميدان عندما تمَّ إعلان سقوط مبارك. لم يكن يتخيَّل أن يعيش ليرى مليون شخص يهتفون ويصيحون ويبكون من الفرح. احتضن عندئذ إكرام وانهمرت دموعه وأخذ يصيح:

- أوَّل حقّ الشهداء يا إكرام.

ظلّ يردِّد هذه الجملة بصوت عال. لم يسمعه أحد لأنَّ الهتاف كان صاخبًا. مئات الألوف كانوا ينشدون:

- ارفع رأسك فوق. أنت مصري.

ألحَّ تلك الليلة على إكرام حتى شربت زجاجة بيرة احتفالًا بانتصار الثورة. رقصت له وأمضيا ليلة لن ينساها... على أنَّ تنحّي مبارك سرعان ما تبعته أحداث أخرى. كان رأيُ أشرف وبعض الثوريين أن يظلّ المعتصمون في الميادين وينتخبوا لجنة عُليا منهم تشرف على تنفيذ مطالب الثورة كلّها. لكنَّ الرأي الغالب كان أن ينسحب الناس ويتركوا السلطة للمجلس العسكريّ، على أن أشرف ويصا ومَنْ معه

نجحوا في جعل اللجنة تنعقد مرَّة أسبوعيًّا على الأقلّ، بالإضافة إلى الاجتماعات الطارئة التي يدعو إليها الدكتور عبد الصمد رئيس اللجنة أو ثلاثة من الأعضاء. اتَّصلت به ماجدة، غداة تنحّي مبارك، وقالت بلهجة ساخرة:

ـ قلت أبارك لك على استقالة الرئيس.

ردّ أشرف قائلًا:

ـ الله يبارك فيك.

ـ أظنّ آن الأوان ترجع لحياتك الطبيعيَّة.

ـ أنا حياتي طبيعيَّة يا ماجدة.

ـ قصدي يعني تسيبك من الثورة والكلام ده.

ـ لمّا الثورة تحقَّق أهدافها.

ـ عاوزين إيه تاني؟

ـ الهدف ما كانش مجرّد إسقاط مبارك. لازم النظام كلّه يتغيَّر.

ـ يبقى أنت مش عاوزني أرجع البيت.

ـ عاوزة تيجي في أيّ وقت أهلًا وسهلًا.

ـ لا يمكن أجي إلّا لمّا يرجع البيت زيّ ما كان.

ـ عمره ما يرجع زيّ ما كان.

ـ ليه؟

ـ لأنَّ الثورة غيَّرت كلّ حاجة.

سكتت ماجدة لحظة، ثم صاحت بغضب:

ـ أشرف، أنت فعلًا حصل لك حاجة في دماغك. مع السلامة.

أنهت المكالمة، لكنَّها واصلت ضغوطها بطرائق مختلفة. بعد أيّام، اتّصل به بطرس وسارة. كانا قد اتَّصلا في الأيَّام الأولى للثورة، فأخبرهما باشتراكه في المظاهرات. أحسَّ عندئذ بأنَّهما لم يستوعبا الأمر تمامًا، لكنَّه طمأنهما من دون الدخول في تفاصيل. هذه المرَّة، أحسَّ بأنَّ في لهجتهما نوعًا من الامتعاض خلف عبارات الودّ المهذَّبة. . . كان يعرف أنَّ أمَّهما وراء الاتِّصال. كانت تعرف دائمًا كيف تؤثِّر فيهما فيفعلان ما تريده. تبادل معهما حديثًا وديًّا، ثم قال بنبرة جادَّة:

ـ اطَّمنوا عليّ، أنا في أحسن حال. أنا مضطر أقفل عشان عندي اجتماع في اللجنة التنسيقيَّة.

أحسَّ أشرف بحزن بعد هذه المكالمة. لماذا لا يقتنع بطرس وسارة بمنطقه أبدًا. لماذا تستطيع أمّهما أن تزرع في ذهنيهما أيّ فكرة تريدها؟ هل لأنَّ الأمّ كانت النموذج الناجح، وهو الفاشل. هذه الفكرة كانت تؤلمه. يلتمس أحيانًا لهما العذر لأنَّها أمُّهما، لكنَّه يعود فيقول لنفسه: حتى لو كان تأثير الأمّ فيهما طاغيًا، ألا يُفترض أن يكون رأيهما مستقلًّا بعد أن صارا شابَّين ناضجين؟ فوجئ بعد أسبوع بزيارة مارينا ابنة عمّ ماجدة، وهي تحمل حقيبة كبيرة فارغة، أرسلتها ماجدة لتأخذ ثيابها من البيت. بالطبع، توقَّعت مارينا مشهدًا دراميًا مؤثِّرًا يليق بالمناسبة الحزينة، كون زوجته هجرت البيت وبعثت تأخذ ثيابها. دُهشت مارينا لأنَّه تقبَّل الأمر ببساطة وتحدَّث معها بودٍّ كأنَّهما في نزهة. ظلَّت ماجدة على التليفون معها وهي تجمع ثيابها، وقد لاحظ أنَّها لم تأخذ ثيابها كلّها. كان يعرف أنَّ ماجدة ستظلّ تحاول التأثير فيه، وكان يراقب ما تفعله بهدوء. لماذا لم تتطرَّق ماجدة إطلاقًا

إلى موضوع إكرام؟ إنَّها تتشاجر معه بسبب الثورة، ولا تشير إلى إكرام بكلمة. إنَّه يعيش وحده في الشقَّة مع إكرام... ألا يُثير ذلك غيرة أيَّ زوجة؟ كان يعرفها. إنَّها تتجاهل موضوع إكرام لأنَّها تعتبر نفسها أرقى بكثير من منافسة خادمة، ولأنَّ الحديث عن إكرام سيُثير «القيل والقال» في أسرتها، الأمر الذي سيُحرجها، ولأنَّها لا تحبّه إلى درجة الغيرة، أو هي في الحقيقة لم تحبّه قطّ. وهو أيضًا لم يحبّها، ولم يعد يعبأ بها، كأنَّه تحرَّر منها إلى الأبد. كأنَّها تنتمي إلى ماضٍ صار خلف ظهره وقد قرَّر ألَّا ينظر إلى الوراء... إنَّه الآن يفعل ما يريده، وهو يحسّ، ربَّما لأوَّل مرَّة، بأنَّ حياته مفيدة... لديه الآن أيقونة يلوذ بها. كلَّما أحسّ بتعب أو انتابته شكوك في جدوى ما يفعله، يستعيد في ذهنه الشابّ الذي سقط مقتولًا أمام عينيه في جمعة الغضب... يتذكَّر جسده المسجَّى على أكتاف المتظاهرين، وثيابَه العاديَّة الرخيصة: البنطلون الجينز والحذاء الرياضيّ والبلوفر الأسود المهترئ. يتذكَّر نظرته الثابتة المحدقة في الفراغ كأنَّه قد رأى بالموت ما نعجز عن رؤيته في الحياة... عندما بدأت اعتداءات الجيش على المتظاهرين وتمّ انتهاك البنات بكشوف العذريَّة، قال أشرف في الاجتماع:

- كان رأيي من البداية هو أنَّ هؤلاء الألوية أبناءُ مبارك ولا يجب أن نثق بهم.

ثم اقترح تشكيل لجنة من أجل رفع دعوًى قضائيَّة ضدَّ الجيش. شكَّك بعض الأعضاء في جدوى الفكرة، وقالوا:

- ستكون الدعوى أمام القضاء العسكريّ، فهل تتوقَّعون أن يدين الجيش نفسه؟!

تدخَّل عندئذ كريم المحامي، مؤكِّدًا أنَّ من الممكن أيضًا رفعَ دعوَى أمام القضاء الإداريّ. انتظر أشرف حتى فرغوا، ثم قال:

ـ الغرض من كشوف العذريَّة كان كسرَ إرادة البنات وإذلالَهنَّ. للأسف، تقاليد المجتمع المتخلِّفة تساعد على ذلك. الهدف من القضيَّة ليس أن نكسبها أمام القضاء العسكريّ، وإنَّما أن نركِّز الأضواء في كشوف العذريَّة. يجب أن نشجِّع البنات على الحديث ونخلِّصهنَّ من الإحساس بالعار. لو تحقَّق أحد هذين الهدفين نكون أنجزنا شيئًا.

جرى التصويت على الاقتراح وفاز بأغلبيَّة كبيرة. يا يسوع الربّ. مَن الذي يقدِّم اقتراحات لفضح جرائم المجلس العسكريّ؟ أشرف ويصا الحشَّاشُ الكومبارسُ، والذي انسحب من العالم من سنوات؟ كلّ ما يفعله الآن لم يكن في مقدوره أن يفعله، أو حتى يتخيَّل أن يفعله في حياته القديمة. كيف تغيَّر إلى هذا الحدّ؟ وما الذي جعله إنسانًا جديدًا؟ الإجابة كلمة واحدة:

ـ الثورة.

ألحَّ على إكرام حتى أخذت منه ألف جنيه أعطتها لمنصور زوجها، وقالت له إنَّها ستأخذ شهد لتبيت معها عند أشرف بك لأنَّ الحالة الأمنيَّة سيِّئة وهي تخاف على نفسها وابنتها، وسوف تدفع إليه هذا المبلغ أوَّل كلِّ شهر. حكت إكرام لأشرف أنَّ منصور تناول المال بسرعة، وتطلَّع إليها وهو ذاهل كالعادة، وقال:

ـ كتَّر خيرك. أوعي تنسيني. أنت عارفة الحال واقف.

ستظلُّ إكرام تذكر يوم اصطحبت شهد إلى بيت أشرف. كانت قد غسلت جسدَها الصغير بحمَّام ساخن، وصفَّفت شعرها على هيئة

ضفيرتين صغيرتين، وألبستها الحذاء اللميع والفستانَ اللذين اشترتهما في العيد مع «شراب» أبيض يصل إلى تحت الركبة، وحملت الحقيبة التي تحتوي على ثيابها القليلة وغياراتها... عندما فتحت باب الشقّة، وجدت مفاجاة لن تنساها. كان أشرف قد علّق بالونات ملوّنة، واشترى لها شوكولاتة وآيس كريم وعروسة بلاستيك كبيرة جميلة. وما إن رأى شهد حتى احتضنها وقبّلها. الغريب أنَّ الطفلة، التي لم تتجاوز أربع سنوات، تعلّقت برقبته مع أنّها لم تكن قد رأته من قبل. كان مشهدهما مؤثّرًا إلى درجة أنَّ إكرام تمالكت نفسها بصعوبة. كأنَّها تحلم. صارت حياتها العائليّة مكتملة في بيت بدأت فيه كخادمة. تلك الليلة، عندما مارسا الحبّ، أعطته جسدها بحفاوة، بسخاء، بما يشبه الامتنان. وبينما هما متعانقان وعاريان في الظلام، همست:

- عارف أنّي خفت النهارده.

- ليه؟

- صحيح أنا انظلمت كثير في حياتي، لكن معقول ربّنا ينصفني للدرجة دي؟! أنت كتير عليَّ يا أشرف بك. خايفة ربّنا ياخد منّي كلّ الهنا ده وأرجع تعيسة تاني. عارف دَه لو حصل يبقى أموت أحسن.

كاد يقول شيئًا، لكنَّه احتضنها بقوّة وقبّلها، فلم يعد يحتاج إلى الكلام كأنَّما يؤكّد لها بحرارة جسده أنَّه سيظلّ دائمًا معها. كانا ينامان كلّ ليلة متعانقين. تستيقظ هي وحدها في السابعة فتنسلّ بخفّة من الفراش. توقظ شهد، وتفطّرها ثم تصحبها إلى الحضانة المجاورة وتعود لتنظّف المقرّ في الدور الأرضي، ثم الشقّة. اشترت زوجين من القفّازات، بناء على طلب أشرف، لتحمي يديها من التشقّق وهي

تنظّف. وبعد التنظيف، تصعد إلى الشقّة وتأخذ حمّامًا ثم ترتدي ثيابها وتوقظه. تتأمّله وهو نائم، ثم تلمس جبهته وشفتيه وتقبّله برقّة فيفتح عينيه ويبتسم. يدخل الحمّام وتعدّ هي الإفطار. بعد القهوة والاصطباحة، ينزل معها إلى المقرّ وينشغلان طوال النهار بشؤون الميدان. تنسحب في وسط النهار لتأخذ شهد من الحضانة وتعود بها إلى البيت... ويعود في المساء فيجدها تنتظره وشهد نائمة في حجرتها... يتعشّيان، وربّما يتفرّجان على التليفزيون. تحسّ بمتعة وهي تتزيّن له: تكحّل عينيها لأنّه يحبّ الكحل، وتدهن قدميها ويديها بالكريم لأنّه يحبّها ناعمة. ينامان معًا كزوجين. إنّه الآن يمارس الحبّ معها بشكل مختلف. انتهى ذلك الاختلاس الآثم المتوتّر، وحلّ محلّه اطمئنانُ رجل وامرأة ينامان معًا بلا حَرَج ولا خوف، بتروٍّ آمن، يرتشفان اللذّة ببطء وتمعُّن. ذات يوم، ذهبت إكرام لتأتي بشهد من الحضانة وظلّ أشرف وحده في الدور الأرضيّ، وسمع فجأة طَرْقًا على الباب. فتح الباب فوجد جارين يسكنان في بيته: رجلًا مسنًّا قبطيًّا اسمه نسيم يعيش وحده في الدور الأخير بعد وفاة زوجته وهجرة أولاده إلى أميركا، ورجلًا مسلمًا في الخمسينيّات يعمل موظّفًا في هيئة المعارض، اسمه أحمد دندراوي. رحّب بهما أشرف ودعاهما إلى الدخول. تبادلا التحيّات المعتادة، ثم راح الرجلان يتأمّلان الملصقات الثوريّة على الحائط والأسرّة وأنابيب الأوكسجين والمعدّات الطبّيّة. قال دندراوي بلهجة مَن أعدّ حديثه مسبقًا:

- يا أشرف بك، سيادتك عِشْرة عمر، وكلّنا نحبّك ونحترمك.

ابتسم أشرف وقال:

- شكرًا جزيلًا، وأنا طول عمري باعتزّ بكم.

قال نسيم بابتسامة متملّقة:

ـ أشرف بك ويصا ابن أكابر. دائمًا بنضرب به المثل في الذوق والأخلاق.

ساد الصمت لحظات، ونظر نسيم إلى دندراوي كأنّما يستحثّه فقال:

ـ سيادتك عارف إنّ إحنا سِبنا العمارة بسبب المظاهرات والغاز والضرب ووجع القلب. رحنا عند قرايبنا، وبعضنا نزل في فنادق. آخر تعب. دلوقتِ رجعنا وعاوزين نستريح.

قال نسيم مدعمًا:

ـ أبسط حقوق الإنسان أنّه يستريح في بيته.

هزّ أشرف رأسه متفهّمًا، وقد بدأ يخمّن الغرض من الزيارة. عاد دندراوي يقول:

ـ سيادتك من حقّك طبعًا تكون ضدّ الرئيس مبارك، ولو أنّ فيه ناس كثيرة رأيها أنّه ما يستاهلش منّا اللّي عملناه فيه.

تدخّل نسيم قائلًا:

ـ إلّا صحيح يا أشرف بك، هوّ الرئيس مبارك آذى سيادتك في حاجة؟

ردّ أشرف بحماسة:

ـ مبارك آذى البلد كلّها وحتى الآن لم يُحاسَب. لازم يتحاكم على الجرائم اللّي ارتكبها في حقّ الشعب.

اصطنع دندراوي ابتسامة، وقال:

ـ هوّ الرئيس مبارك ارتكب جرائم؟

بذل أشرف مجهودًا ليسيطر على نفسه، وقال بغيظ:

ـ تحبّ أقول لك جرائم مبارك؟!

قال نسيم:

ـ مهما عمل، المفروض نشكره لأنّه حافظ على بلدنا وحماها من الحرب.

أحسَّ أشرف فجأة بعبثيَّة الحوار، فقال بصوت عالٍ:

ـ بُص، مبارك مش موضوعنا. فيه أيّ خدمة أقدر أقدّمها لك؟

ابتسم دندراوي بعصبيَّة، ثم تطلَّع إلى زميله كأنّما يتأكَّد من تضامنه، ثم قال:

ـ سيادتك فتحت الدور الأرضي هنا للشباب بتوع التحرير. طبعًا ده بيعرّضنا كلّنا للخطر. في أيّ لحظة ممكن تحصل معركة داخل العمارة. يترمي غاز أو ينضرب رصاص. أنا ابني ساكن معي ومعه أطفال. أظنّ سيادتك لا يمكن ترضى لنا بالأذى.

قال نسيم بتأثُّر:

ـ أنا يا أشرف بك حالتي صعبة برْضُه. سيادتك عارف. أنا رجل كبير وصاحب مرض وعايش وحدي. يعني منتظر ملك الموت في أيّ لحظة.

عقّب دندراوي قائلًا:

ـ ربّنا يدّيك الصحّة يا عمّ نسيم.

أحسّ أشرف فجأة بالنفور من الرجلين. ظلّ صامتًا، لكنّ

دندراوي استطرد بصوت خافت ليوحي بخطورة الأمر:

ـ على فكرة برضه مش السكّان بس اللّي متضرّرين، أصحاب المحلّات مستائين جدًّا، وكانوا عاوزين يقابلوك، لكن لمّا عرفوا إنّ إحنا حنكلّم سيادتك قالولنا البركة فيكم.

ـ همّ من أصحاب المحلّات المتضرّرين؟

ـ كلّهم يا أشرف بك. صاحب الفرن وصاحب معرض الموبيليا، حتى بيّاع الجرايد مش عارف يشتغل. الناس دول أكل عيشهم وقف، وطبعًا وجود شباب التحرير في العمارة بيعرضهم ويعرّضنا للخطر. بصراحة، أصحاب المحلّات كانوا ناويين يمنعوا الشباب من دخول العمارة، لكن إحنا الحمد لله عرفنا نقنعهم أنّهم يتعاملوا بالعقل.

قال أشرف بغضب:

ـ ما تقنعش حدّ. اللّي عاوز يمنع الشباب يحاول ويشوف اللّي حيحصل له.

ساد الصمت من جديد، ثم استطرد أشرف قائلًا وهو يحاول السيطرة على غضبه:

ـ بصّوا يا جماعة، أنتم جيراني وإخواني من زمان. لكن بصراحة أنا مالك العمارة، ومن حقّي أنّي أتصرّف فيها.

ـ على شرط ما يحصلش ضرر للسكّان.

هكذا قال دندراوي بينما لاذ نسيم بالصمت، فردّ أشرف قائلًا:

ـ يعني يهمّكم ضرر السكّان ولا يهمّكم ضرر البلد كلّها؟! عندي سؤال يا أستاذ دندراوي: هو الشباب اللّي انقتل بالرصاص في الميدان مش كان لهم أهل يخافوا عليهم زيّ ما أنت خايف على أولادك.

ـ اللّي انقتلوا ربّنا يرحمهم، لكنّه ما حدّش قال لهم يعملوا مظاهرات.

ـ الشباب تظاهروا دفاعًا عن حقّي وحقّك.

ـ أنا ما طلبتش من حدّ يتظاهر...

ـ أنت حرّ طبعًا في رأيك، لكن للأسف مش حاقدر ألبّي طلبك.

ـ يعني إيه؟

ـ يعني المقرّ ده بتاع شباب الثورة، وما حدّش يقدر يمنعهم...

ـ سيادتك في الحالة دي تتحمّل مسؤوليّة أيّ ضرر يقع على السكّان.

هكذا قال دندراوي منفعلًا، فوقف أشرف معلنًا انتهاء المقابلة، وقال:

ـ شرّفتم.

سأل دندراوي:

ـ يعني نقول إيه لأصحاب المحلّات؟

ردّ أشرف بحزم:

ـ قل لهم اللّي أنا قلته.

وقف الساكنان وقد بدا عليهما الغيظ، وتوجّها نحو الباب. وفجأة، قال دندراوي بصوت عالٍ:

ـ على فكرة، سلّم لنا على الستّ إكرام.

كانت نبرته تحمل معنًى وقحًا، فردّ أشرف باستهانة وهو يمسك بباب شقّته المفتوح كأنّه يتعجّل خروجهما منه:

ـ حاضر، حاوصّل سلامك للستّ إكرام. هي بتجيب البنت من

الحضانة، وبعد كده حتجهّز الأكل للشباب اللّي في الميدان...

ظلّ أشرف مستاءً من هذه الزيارة طوال النهار. وفي الليل، عندما أوى إلى الفراش مع إكرام، حكى لها ما حدث. استمعت وقالت:

ـ ناوي تعمل إيه؟

ـ ولا حاجة. أنا صاحب العمارة. أعلى ما في خِيلهم يركبوه.

ـ تفتكر إنّهم وحدهم؟

ـ لا، طبعًا... ماجدة معهم، وأكيد هم بيحكوا لها عن كلّ حاجة.

ـ أنا خايفة.

هكذا همست بصوت خافت. قال أشرف:

ـ إكرام، من فضلك. قلت لك ما تخافيش. أنا مع الثورة وعايش معك قدّام الناس. اللّي مش عاجبه يروح في ستّين داهية.

زحزحت جسدها في الفراش والتصقت به حتى أحسّ بدفئها، ثم احتضنته في الظلام، وهمست:

ـ خلاص، ما تزعلش. مش حاخاف.

استأنفا في اليوم التالي حياتيهما كالمعتاد. أيقظته إكرام، فأخذ حمّامًا وارتدى ثيابه وأفطر، ثم بينما هو جالس في المكتب يدخّن الاصطباحة مع فنجان القهوة، دخلت إكرام وقد بدت مرتبكة. تطلّع إليها مبتسمًا، وقال:

ـ مالك يا إكرام. فيه حاجة؟!

قالت بصوت خافت:

ـ في واحد قسّيس عاوز يقابلك.

(٤٣)

مازن،

لم أركَ لمدَّة أسبوع كامل، لكنَّك كنت معي طوال الوقت. عندما علمت بالجريمة البشعة التي ارتكبها الجيش في حقِّ البنات، لم أصدِّق في البداية حتى تأكَّدت للأسف. تصوَّرْ أن تتمّ تعرية ١٧ بنتًا تمامًا أمام الجنود والضبَّاط، ويتمّ إجبار كلّ واحدة منهنَّ على أن تفتح ساقيها حتى يكشف عليها البك الضابط، بينما الجنود يتفرَّجون على جسدها العاري ويتبادلون التعليقات والضحكات. كلّ هذه المهانة كانت عقابًا للبنات على أنَّهنّ طالبن بالعدل والحرِّيَّة للمصريِّين... بكيت طويلًا، يا مازن، وأنا أتصوَّر نفسي مكان أيّ بنت من هؤلاء. تذكَّرت عندئذ كلماتك. تذكَّرت عهد الثورة الذي قطعناه على أنفسنا للشهداء... تذكَّرت أنَّ النظام القديم لن يستسلم بسهولة، وأنَّه سيُمعن في ارتكاب جرائم بشعة. إنَّهم يريدون أن يكسرونا، لكنَّنا لن ننكسر. ذهبت في اليوم التالي إلى المدرسة وأنا لم أنَمْ طوال الليل. انتهيت من

الحصص، وتوجَّهت إلى المقرّ في بيت الأستاذ أشرف، حيث عقدنا اجتماعًا موسَّعًا ضمّ زملاءنا من كفاية و٦ أبريل والائتلاف والجمعيَّة الوطنيَّة والاشتراكيين الثوريين، وكان معنا الأستاذ أشرف طبعًا. هذا الرجل يُبهرني دائمًا بشجاعته وحكمته وإخلاصه للثورة. هو الذي اقترح رفع قضيَّة على الجيش ووافقنا على الاقتراح بأغلبيَّة كبيرة. تشكَّلت لجنة، وتمَّ اختياري عضوًا فيها بناءً على طلبي. نحن ثلاثة في اللجنة، أنا وأسمهان علي وكريم أحمد المحامي. كانت مهمَّتنا مقابلة ضحايا كشف العذريَّة، وإقناعهنَّ برفع دعوى قضائيَّة ضدَّ الجيش... استطعنا أن نحصل على أرقام تليفونات عشر بنات من عدد سبع عشرة بنتًا، وما زلنا نحاول الحصول على أرقام بقيَّة البنات. المفاجأة المؤسفة أنَّ البنات بعد أن هُتكت أعراضهنّ، لم يعدنَ يُرِدْنَ أيّ شيء. رفضن جميعًا الاشتراك في القضيَّة. واحدة منهنَّ، لمَّا عرضتُ عليها رفع الدعوى، أعطت السمَّاعة لأمّها التي قالت لي:

- عاوزين منها إيه؟! كفاية أنَّها مشيت وراكم لغاية لمَّا حصل اللِّي حصل. عاوزين تفضحوها أكثر ما هي مفضوحة. إيَّاك تتكلِّمي هنا تاني.

كلّ البنات تقريبًا قلن الإجابة نفسها:

- مش حانرفع قضيَّة. البلد بلد الجيش، وما حدِّش حيرجّع لنا حقّنا.

انفعلتُ على واحدة منهنَّ، وقلت لها:

- اللِّي حصل لك كان ممكن يحصل لي أو لأيّ بنت من الثورة. أنت بانسحابك بتحقِّقي لهم غرضهم.

لمَّا سمعت صوت بكائها في التليفون، لمت نفسي واعتذرت إليها.

لم تتجاوب معنا إلَّا بنتٌ واحدة اسمها سميرةٌ وبنتٌ أخرى اسمها رشا طلبت وقتًا للتفكير، الأمر الذي يعني أنَّ اشتراكها معنا ممكن. سميرة، قالت إنَّ أباها شجَّعها على أن ترفع قضيَّة لاسترداد حقّها. رأي كريم المحامي أنَّنا لو رفعنا قضيَّة واحدة لهذه البنت فسنحصل على حقوق البنات جميعًا، كما أنَّهنَّ غالبًا سينضممن إلى الدعوى في وقت ما... في اليوم التالي، التقينا نحن الأربعة أنا وأسمهان وكريم وسميرة. ذهبنا إلى الشهر العقاريّ، وعملت سميرة التوكيل لكريم. كان لا بدَّ بعد ذلك من أن نذهب إلى مبنى القضاء العسكريّ، س ٢٨، لعمل المحضر. تصوَّرْ أنَّ سميرة انهارت في اللحظة الأخيرة، وعجزت عن دخول المبنى. تصوَّرْ أن تتمّ إهانة إنسانة إلى درجة أنَّها تعجز فعلًا عن دخول المبنى الذي أُهينت فيه، مع أنَّها جاءت معنا أساسًا لتقديم شكوًى. تركناها في الخارج مع أسمهان، ودخلت مع كريم، فقابلنا ضابط برتبة نقيب. ولمَّا قدَّم إليه كريم الشكوى طلب الاطِّلاع على كارنيه المحاماة، فأعطاه له. قرأ الشكوى ثم قال بسخرية:

- الآنسة سميرة دي خيالها واسع. تنفع مؤلِّفة مسلسلات. الكلام دَه لا يمكن يكون حصل.

قلت له:

- الكلام ده حصل مش لسميرة وحدها. حصل لسبعة عشر بنتًا اتعلِّبوا وانهتك عرضهنّ هنا وفي السجن الحربيّ.

نظر إليّ الضابط وقال:

ـ أنتِ مين؟!

ـ أنا صاحبة سميرة.

ـ مالكيش صفة تتكلّمي.

حاولت أن أعترض، لكنَّه قال:

ـ اسكتي يا بنت.

ـ ما تقولش بنت.

ـ أنا ممكن أحبسك حالّاً بتهمة إهانة النيابة. اشرح لها يا أستاذ.

أقنعني كريم بالسكوت حتى لا يتفاقم الأمر، وأصرّ الضابط على إخراجي من الحجرة فخرجت. استلم الضابط الشكوى من كريم رسميًا، وسنعرف موعد فتح التحقيق خلال أيّام. خرجنا واصطحبنا سميرة وأسمهان، وأصبح لدينا مشكلةٌ جديدة سيتوقّف عليها مصير القضيّة. لا بدَّ من شهود. عندما فكّرنا، وجدنا أنَّ من شهد الواقعة هم إمّا عسكريّون، وهؤلاء طبعًا يستحيل أن يشهدوا معنا، وإمّا البنات أنفسهنّ، ومعظمُهنّ كما قلت لك منكسراتٌ نفسيًا، يرفضن مجرّد الحديث عمّا حدث. لكنّني لن أيأس، كما علّمتني يا مازن. سأظلّ ألحّ على البنات حتى أُقنعهنّ بالشهادة. هدفنا من هذه القضيّة ليس محاسبة المجرمين الذين هتكوا عرض البنات. لسنا بالسذاجة التي تجعلنا نعتقد أنَّ القضاء العسكريّ سوف يُدين الجيش. هدفنا، كما قال الأستاذ أشرف، إلقاءُ الضوء على القضيّة، وفي الوقت نفسه رفعُ الحالة المعنويَّة للبنات وتخليصُهنّ من الإحساس بالعار. ثورتنا مستمرّة ومنتصرة، يا مازن، كما علّمتني... أحبّك.

أسماء

(٤٤)

خرج عمّ مدني إلى الصالة فوجد زائرَين، الشيخ شامل ومعه رجلٌ يناهز الخمسين أصلعُ الرأس ما عدا إطارًا دائريًا من الشعر مصبوغًا بالأسود، يحمل في يده حقيبة سامسونايت متوسِّطة الحجم، ويرتدي بدلة سوداء أنيقة وربطة عنق سوداء (علامة الحداد) على قميص أبيض.
كان مدني يعرف الشيخ شاملًا من التليفزيون، وقد استمع إلى دروسه على قناة «الصراط» أكثر من مرَّة. صافحهما مدني ودعاهما إلى الصالون، وسألتهما هند، فطلب الشيخ شامل نعناعًا ساخنًا، وطلب الرجل الذي معه فنجانًا من القهوة... الصالون حجرة ضيِّقة مغلقة لا تُفتح إلَّا في المناسبات، فيها طقم عبارة عن أربعة مقاعد فوتيل وأريكة؛ تقليد ركيك لطقم لويس السادس عشر. وفي وسط الحجرة مائدةٌ مغطَّاة بالرخام الصناعيّ الأبيض، عليها «بونبونييرة» بورسولين زرقاء. وعلى الحائط آياتٌ قرآنيَّة وأحاديثُ نبويَّة وصورةُ الكعبة المشرَّفة. لم يكن ترحيب مدني بالضيفين كبيرًا. لم يكن أفاقَ تمامًا من

أثر النوم، وكان ذهنه منهَكًا من رحلة المحكمة، كما أنَّه استغرب الزيارة وتحوَّل استغرابه إلى نوع من البرود أقرب إلى اللامبالاة. رحَّب بهما بكلمات مقتضبة، ثم سكت وراح يتطلَّع إليهما كأنَّما يطلب تفسيرًا للزيارة. اعتذر الشيخ شامل عن كون الزيارة مفاجئة. دمدم مدني باقتضاب، فتطلَّع الشيخ إلى الرجل الذي معه كأنَّما يستأذنه، ثم قال لمدني:

- يا حاجّ مدني. أعرِّفك بأخ فاضل هو سيادة العقيد حسن بازرعه من العلاقات العامَّة في وزارة الداخليَّة، وهو من أكثر الضبَّاط معرفةً والتزامًا بالدين، ولا نزكّي على الله أحدًا.

أطرق العقيد كأنَّما يستحي من الثناء، بينما راح مدني يتطلَّع إليهما بغير أن يعلّق. ساد الصمت لحظة، ثم بدأ الشيخ شامل الحديث، فحمد الله وأثنى عليه، وصلَّى على رسول الله، أشرف الخلق، ثم قال إنَّه جاء أوَّلًا لتقديم واجب العزاء في المرحوم خالد وأنَّه يحتسبه عند الله شهيدًا بإذن الله. جاءت هند بالقهوة والنعناع، ونظر إليها مدني ففهمت وخرجت من الحجرة. راح العقيد يشرب القهوة وهو لا يحوّل نظراته القويَّة عن وجه مدني، بينما بسمل الشيخ شامل وأخذ رشفة من النعناع، ثم استطرد قائلًا إنَّه يعلم بأن لا شيء يؤلم في الدنيا مثل فقدان الابن، وضرب مثلًا بالرسول الكريم ﷺ الذي بكى عندما توفّي ابنه الوحيد إبراهيم، وهو أفضل خلق الله وأكثرهم صبرًا على المكاره...

ظلَّ مدني يحدِّق صامتًا في وجه الشيخ شامل، حتى قال:

- أنت الآن يا أخ مدني وليّ الدم، والشرع يعطيك الحقّ في القصاص إذا كان القتل قد تمّ عمدًا.

قال مدني:

ـ القتل كان عمدًا.

ـ هل استوثقت من ذلك؟

ـ زملاء المرحوم خالد سيشهدون جميعًا في المحكمة بأنَّ الضابط قتله عمدًا.

ـ ومن قال لك إنَّ الضابط المتَّهَم هو القاتل؟

ـ كلّهم تعرَّفوا إليه وأكَّدوا أنَّ الضابط هيثم المليجي قتل خالد قدّام عينيهم.

أطرق الشيخ شامل واستغفر الله، وبدا عليه الأسف، ثم رفع رأسه وقال:

ـ يا أخ مدني، الشرع الحنيف يعطيك الحقّ في القصاص، لكن ربّنا سبحانه وتعالى أمرنا بالعفو عند المقدرة.

كاد مدني يقول شيئًا لكنَّ الشيخ شاملًا رفع صوته وهو يبتسم:

ـ صلِّ على أشرف الخلق.

تمتم مدني بالصلاة، فاستطرد الشيخ شامل بصوت هادئ:

ـ اسمع كلامي حتى النهاية ثم اقبله أو ارفضه كما تشاء... واللهِ، الذي نفسي بيده، أنا لا أستهدف إلَّا خيرًا. لقد قمت بهذه المبادرة من تلقاء نفسي، وتحدَّثت مع كبار المسؤولين في الدولة، وهدفنا بإذن الله نزعُ فتيل الفتنة التي وقعنا فيها كأخوة مسلمين. الحمد لله الذي باركَ في جهدي المتواضع، واقتنع المسؤولون بتخصيص مبالغ ماليَّة كبيرة تُعرَض على أهالي الضحايا كديَة شرعيَّة. وها أنا أزور أهالي الضحايا، واحدًا واحدًا، مع أخي سيادة العقيد حسن، ولا أستهدف من جهدي هذا إلَّا رضا الله سبحانه وتعالى ورسوله الكريم.

ظلَّ مدني كما هو، يحدِّق فيهما بتعبير جامد ونظرة غائبة.

استطرد الشيخ قائلًا:

ـ فكِّر جيِّدًا يا أخ مدني. المرحوم ابنك انتهى أجَله وكان سيموت في كلِّ حال حتى لو لم يشترك في هذه الفتنة. ألم يقل ربّنا، سبحانه وتعالى، في سورة الأعراف ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ...﴾. صدق الله العظيم.

المرحوم ابنك ذهب إلى خالقه في موعده، في اللحظة التي انتهى فيها أجَلُه... لا أنت ولا أنا ولا البشر جميعًا قادرون على أن يمنعوا الموت عن إنسان جاءه الأجَل المحتوم... إن لم يمت المرحوم خالد مقتولًا، كان سيموت في حادث، أو يصيبه مرض قاتل، أو حتى كان سيموت في فراشه. أنت مؤمن يا أخ مدني، والمؤمن كيس فطن. أرى أنَّ لديك بنتًا، آنسة جميلة ستتزوَّج إن شاء الله، وتحتاج إلى مصاريف، ومن حقّها عليك أن تؤمِّن مستقبلها بإذن الله...

ظلَّ مدني صامتًا، وعاد الشيخ يقول:

ـ اقبل الديَّة يا أخي مدني، واعفُ يعفُ الله عنك يوم القيامة بإذن الله.

قال مدني:

ـ ديَّة إيه؟

ـ الديَّة مبلغ من المال حدَّده الشرع الحنيف يدفعه أهل القاتل إلى أهل القتيل حتى يُعفيهم من القصاص.

تطلَّع مدني إلى الرجلين، وسأل بصوت خافت:

ـ والمبلغ كم؟

بدا الارتياح على وجه الشيخ شامل وقال:

ـ في أيّام الرسول ﷺ كانت الديَّة الشرعيَّة مئة من الإبل، وقد حسبناها إن شاء الله فوجدنا المبلغ بأسعار اليوم نصف مليون جنيه.

نظر مدني إلى العقيد وسأل:

ـ والمطلوب مقابل الديَّة؟!

قال العقيد بصوته القويّ:

ـ المطلوب أن تتنازل عن البلاغ المقدَّم باسمك، وسيب الباقي علينا.

سكت مدني، بينما استطرد العقيد بحماسة:

ـ اسمع كلامي يا حاجّ مدني. الحيّ أبقى من الميِّت. ابنك عند ربِّنا في الجنَّة، بإذن الله. ماذا تستفيد إذا أخذ الضابط حكم إعدام أو مؤبَّد... التفكير السليم أنَّك تقبل الديَّة.

قال الشيخ شامل:

ـ بقبولك الديَّة يا أخ مدني تكون من الرابحين إن شاء الله دنيا وآخرة. تكون قد عفوت، والله يحبّ العفو، وحصلت على مبلغ محترم يعينك على أعباء الحياة. ظلَّ مدني ينظر إليه، وكاد يقول شيئًا، لكنَّه عدل وعاد إلى الصمت. عندئذ رفع العقيد الحقيبة من على الأرض ووضعها على ركبتيه، ثم فتحها وقال بصوت مرتفع:

ـ على بركة الله. إحنا جاهزين يا أخ مدني وخير البرّ عاجله. خذ المبلغ وعدّه على مهلك. ولمَّا تتأكَّد أنَّه مضبوط أعطيك التنازل توقّع عليه...

(٤٥)

كانت مكالمة غير متوقَّعة، مقتضبة وغريبة، لم تأتِ من ضبَّاط أمن الدولة الذين يعرفهم عصام شعلان، وإنَّما جاءت من الجهاز. عرَّف الضابط نفسه، وقال لعصام إنَّه يريد أن يراه، وأعطاه عنوان فيلَّا في الزمالك، ثم قال بلهجة نهائيَّة:

- منتظرك بكره الساعة عشرة الصبح.

ظلَّ عصام تلك الليلة جالسًا في الشرفة، يشرب ويفكِّر: لماذا يريد المسؤولون في الجهاز مقابلته؟! كان يعلم بأنَّ الجهاز أهمّ من أمن الدولة... أيّ ضابط شابّ في هذا الجهاز نفوذه أكبر من ألوية كثيرين... لكن ذلك كان قبل إسقاط مبارك؟ هل ما زال الجهاز يتمتَّع بنفوذه القديم؟ ثم، ماذا يريدون منه؟ لا شكَّ في أنَّهم يحتاجون إليه في هذه الظروف العصيبة... هل سيمنحونه منصبًا جديدًا؟ بالطبع، سيقبل أيّ منصب يعرضونه عليه، وإن كان يفضِّل أن يعود إلى منصبه في المصنع... يتمنَّى لو أعادوه مديرًا له لمدَّة أسبوع واحد ينتقم فيه

من العمَّال الذين شتموه وكادوا يضربونه لولا حماية الجيش. إنّه يعرفهم واحدًا واحدًا بالاسم، وسوف ينكّل بهم جميعًا. حتى لو كان منصبه الجديد بعيدًا عن المصنع، يستطيع بنفوذ الجهاز أن ينتقم من هؤلاء الرعاع. خطرت له فكرة استغربها في البداية، ولم يلبث أن نفَّذها. راح يسجِّل أسماء العمَّال الذين شتموه واحدًا واحدًا في ورقة. كانوا ثمانية عمَّال. هؤلاء لم يكتفوا بالهتاف ضدَّه، وإنَّما شتموه في وجهه. احتفظ بأسمائهم في الورقة. أحسَّ بغيظه يزداد بتأثير الشراب. سوف أريكم عقوبة إهانتي يا عبيد، يا أولاد العبيد. ستفهمون متأخرًا بعد أن تدفعوا ثمنًا باهظًا، أنَّ الثورة ليست لكم ولا أنتم لها. ليس لكم إلَّا الكرباج مثلما كان لأجدادكم على مدى قرون. لم يحاول النوم لأنَّه كان يعرف أنَّه لن يستطيع. ما إن أشرقت الشمس حتى أخذ حمَّامًا ساخنًا، وحلق ذقنه بعناية، وتناول إفطارًا سريعًا، ثم شرب عدَّة أقداح من القهوة خلطها بقليل من الويسكي. لم يعد يحتمل العالم من دون ويسكي. قطرات قليلة منه في فنجان القهوة تمنحه صفاء الذهن وتُزيل توتّره. كان السائق الجديد شابًّا في العشرينيَّات أحضره بوَّاب العمارة. وصل بسهولة إلى عنوان الفيلَّا في الزمالك. تعرَّض عند البوَّابة لتفتيش دقيق اعتذر بعده الضابط الشابّ قائلًا:

- آسفين على الإزعاج. حضرتك طبعًا مقدّر الظروف.

هزَّ عصام رأسه متفهِّمًا. اقتادوه إلى مكتب يجلس عليه رجل في مثل سنِّه خمَّن أنَّه برتبة لواء. كان يعلم بأنَّهم في الجهاز لا يضعون لافتات بأسماء الضبَّاط، وغالبًا ما يستعملون أسماء مستعارة. استقبله اللواء بترحاب. صافحه مبتسمًا، ودعاه إلى الجلوس وسأله بمرح:

- تشرب إيه يا عصام بك؟

طلب عصام قهوة سادة، واستغرب لأنَّ اللواء بدا في حالة مزاجيَّة جيِّدة كأنَّ البلد في ظروف عاديَّة. ساد صمت ودود، وبدا اللواء كأنَّما يعدّ نفسه للكلام، لكنَّ عصامًا قال فجأة:

ـ ربِّنا يستر على مصر يا فندم.

نظر إليه اللواء بودّ، وقال:

ـ الحمد لله ربِّنا ستر. بلدنا مذكورة في القرآن، وربِّنا بيحميها.

ـ البركة فيكم يا فندم.

ـ كلّ شيء بأمر ربِّنا.

ـ أنا نفسي يا فندم، تعملوا محاكمة لكلِّ المتآمرين اللِّي ورَّطوا الشعب وراهم.

ابتسم اللواء وقال:

ـ بُصّ. إحنا عارفينهم بالاسم. وكلّ واحد حييجي دوره. أقسم بالله العظيم ما حد حيفلت منهم.

عاد اللواء بظهره في المقعد الوثير، وبدا كأنَّه قرَّر أن يُنهي هذا الحوار ويدخل إلى الموضوع، فقال.

ـ اسمع يا عصام بك. كلّنا في الجهاز عارفين وطنيّتك وإخلاصك. للأسف، الظروف الحاليَّة اضطرتك تسيب منصبك، لكن ولا يهمك. بإذن الله قريبًا سنستعين بك في منصب آخر مناسب.

ـ يا فندم، أنا تحت أمر الدولة في أيِّ وقت.

ـ ده المتوقَّع منك يا باشمهندس.

أحسّ عصام بتشوُّش. بدا الأمر فجاة غامضًا. اللواء يتحدَّث

عن منصب في المستقبل. لماذا طلبتني إذن؟ تذكَّر الورقة القابعة في جيبه وفيها أسماء العمَّال الذين يريد عقابهم. أحسّ بصداع من قلَّة النوم والخمر والتوتُّر. تطلَّع اللواء إلى السقف لحظات، وبدا كأنَّه يرتِّب أفكاره، ثم قال بنبرة ودود:

ـ الحقيقة أنا استدعيتك لأنِّي عاوز أكلِّمك في موضوع.

ـ تحت أمرك يا فندم.

ـ إحنا على فكرة قريبين في السنّ. عاوزك تعتبرني أخ أصغر لك.

ـ ده شرف لي يا فندم.

ـ موضوع مدام نورهان. هي طالبة الطلاق منك ومتنازلة عن أيّ حقوق ماديَّة. أرجو أنَّ الطلاق يتمّ بهدوء واحترام، وفي أقرب فرصة.

حدَّق عصام في وجه الضابط واستغرق لحظات حتى يستوعب المفاجأة، ثم قال وهو يحاول إخفاء غضبه:

ـ هي نورهان اتَّصلت بسيادتك؟

ـ لا.

ابتسم عصام بعصبيَّة، وقال:

ـ أظنّ سيادتك توافقني أنّ طلاقي من نورهان موضوع شخصي.

ـ عندي تعليمات من السيِّد رئيس الجهاز بإتمام الطلاق. سيادته طلب منِّي أكلِّمك بالحُسنى... بكره الصبح، إن شاء الله، تشرَّفني هنا ومعك عقد الزواج العرفي، ومدام نورهان تكون موجودة. ترمي عليها يمين الطلاق، ونقطّع العقد، وكلّ واحد يروح لحاله.

ـ ما علاقة السيِّد رئيس الجهاز بالطلاق والزواج؟

ـ مهمَّتي تنفيذ تعليمات سيادته، وليس مناقشتها.

ـ أنا أرفض التدخُّل في حياتي الشخصيَّة.

ـ اسمع، يا عصام، إذا كنت صحيح بتعتبرني أخ لك، أنصحك تطلَّق نورهان تجنُّبًا لمتاعب أنت في غنًى عنها.

هكذا قال اللواء وتغيَّر وجهه إلى تعبير جامد، كأنَّ التعبير الودود السابق كان مجرَّد قناع... قال عصام بصوت مرتفع:

ـ إذا كنت سيادتك بتهدِّدني، أنا أرفض التهديد.

صاح اللواء بصوت غاضب:

ـ بلاش شغل الشيوعيين ده لأنَّه حيضرّك مش حينفعك. إحنا بنحميك وممكن نشيل الحماية في أيّ وقت.

ـ بتحموني من إيه؟!

تنهَّد الضابط كأنَّ صبره قد نفد، وأمسك بملفّ مكتظّ بالأوراق على مكتبه، ومدّ يده به نحو عصام وصاح:

ـ يظهر ذاكرتك ضعفت من شرب الخمرة.

ـ أنا أعترض على كلام سيادتك.

قال هذا عصام بصوت خافت، لكنَّ اللواء استطرد وكأنَّه لم يسمعه:

ـ خذ اقرأ... دي صور من تقارير الرقابة الإداريَّة والجهاز المركزي للمحاسبات ضدَّك. ممكن الصبح نبعتها للنيابة العامَّة وأنت تتحاكم وتتسجن. ساعتها لا تلومنّ إلَّا نفسك.

(٤٦)

أسماء،

سبَّبت لي جريمة كشوف العذريَّة حالةَ حزن لا أستطيع أن أصفها. كيف يفعل ضابط أو جنديّ مصريّ ذلك بالبنات؟! كيف ينتهكهنَّ بهذه الوحشيَّة، ثم يعود مطمئنًّا إلى بيته وأولاده. أفهم أنْ يدافع الألوية عن مصالح النظام الذين هم جزء منه، وأفهم أنَّ النظام العسكريّ يفرض تنفيذ الأوامر، لكن لماذا هذا الإمعان في التنكيل ببنات لا حول لهنَّ ولا قوَّة؟! قال لي صديق، أخوه ضابط، إنَّ قيادة الجيش تلقِّن الجنود والضبَّاط أنَّ الثورة مؤامرة، وأنَّ الثوَّار عملاء قبضوا أموالًا لإحداث الفوضى وتدمير البلد... ألوية المجلس العسكريّ أنكروا ارتكاب هذه الجريمة، ثم صرَّح أحدهم لشبكة «سي ان ان» بأنَّ كشف العذريَّة تقليد في الجيش يتمّ إجراؤه عند القبض على أيّ بنت حتى لا تدَّعي بعد ذلك أنَّ أحدًا اعتدى عليها. كلام سخيف وغير منطقيّ. لا أريد أن أكره الجيش لأنه جيش الشعب، لا جيش

الديكتاتور. أستعيد دائمًا صورة النقيب ماجد بولس الذي دافع عن شباب الثورة عندما هاجمهم البلطجيّة يوم موقعة الجَمَل. لم يعد لدينا اختيار يا أسماء. لا نملك إلّا مواصلة المعركة احترامًا للآلاف الذين ضحُّوا من أجل الثورة: الذين ماتوا والذين فقدوا عيونهم والذين أُصيبوا إصابات أقعدتهم... العمّال طردوا عصام شعلان. أعتبر طرده انتصارًا مؤكّدًا للعمّال، لكنّني لا أستطيع أن أفرح به كما فرحوا. علاقتي بعصام معقّدة كما قلت لك. أنا ضدّه كمدير، لكنّي أحبّه لأنّه صديق أبي. تولّينا إدارة المصنع بالكامل، وكتبنا التعهُّد. وقّعنا عليه نحن أعضاء اللجنة الرباعيّة، وأودعناه لدى الشرطة العسكريّة. تعهّدنا بالمحافظة على المصنع وإدارته وتوريد الأرباح إلى المُلّاك بعد اقتطاع أرباح العمّال. هل تذكرين سؤالك عن الناس الذين كانوا يتفرّجون على الثورة من الشرفات من دون أن يشتركوا فيها؟ لدينا في المصنع أيضًا مثلهم. مجموعة عمّال وإداريين للأسف عددهم ليس بالقليل. هؤلاء ظلّوا يراقبون الأحداث من دون أن يتورّطوا في تأييد أيّ طرف. كانوا واثقين بأنّ الإدارة الإيطاليّة ستنتصر. وعندما انتصرنا ارتبكوا تمامًا. كثيرون منهم تغيّبوا عن المصنع انتظارًا لتطوُّر الأحداث. بعد نحو أسبوع، أوفدوا إليَّ أحد الإداريين، اسمه عمّ فهمي؛ موظّف قديم في المصنع. بعد التحيّات قال لي:

- اسمح لي يا باشمهندس، أنا وكثير من الزملاء مش فاهمين المصنع مع مين دلوقتِ؟

شرحت له ما يعرفه جيّدًا عن الوضع الجديد، فقال:

- اسمع، أنت في عمر ابني. إحنا الحقيقة مالناش في الثورة والكلام ده. إحنا عاوزين ناكل عِيْشْ ونربّي عيالنا.

ـ الثورة قامت عشان تاكل عِيْش وتربّي عيالك.

ـ افهمني. يعني دلوقتِ نفترض أنّنا قبلناكم كإدارة جديدة، وبعد شهر ولّا اثنين رجع صاحب المصنع استردَّه منكم وطردنا. ساعتها لا مؤاخذة ما حدّش حينفعنا.

كنت على وشك أن أناقش معه، لكنّي لمّا نظرت إلى وجهه الخائف أدركت أن لا فائدة من الحديث. قلت له:

ـ خلاص، يا عمّ فهمي. أنا حاتصرَّف في الموضوع ده.

عدت إلى قائد الشرطة العسكريَّة، وطلبت منه إعلانًا مكتوبًا من فايبو العضو المنتدب يعترف فيه باللجنة الرباعيَّة. قلت له:

ـ لا يمكن أن نفي بتعهّدنا من دون إعلان واضح من العضو المنتدب، نُطمئن به العمَّال والإداريين حتى يعملوا.

طلب منّي أن أترك له فرصة يوم واحد، وفعلًا ذهبت إلى مكتبه في اليوم التالي فوجدت بيانًا باللغة العربيَّة يعلن فيه العضو المنتدب قبوله اللجنة الرباعيَّة كإدارة للمصنع. تأثّرت وأنا أقرأ البيان. كانت لحظة رأيت فيها انتصار الثورة. عدت إلى المصنع وصوَّرت من الإعلان نسخًا كثيرة وعلّقتها في كلّ مكان. انضمَّ عندئذ إلينا المتردِّدون والمتشكّكون. بعض العمَّال الثوريين وجَّهوا إليهم كلمات قاسية، لكنّي منعتهم من الإساءة إليهم. الثورة يجب أن تأخذ من كلّ شخص بحسب طاقته. هذه كلمات أبي، رحمه الله، التي ردَّدها أمامي كثيرًا، وها أنا أعيش لأعرف قيمتها... يلازمني أبي دائمًا. كنت أتمنَّى أن يعيش حتى يرى انتصار الثورة، ليتأكّد من أنَّ التضحيات التي قام بها في حياته لم تضع عبثًا. سيطرنا على المصنع بالكامل... لا يمكن أن أصف لك انضباط العمَّال ولا حماستهم. إنَّهم رائعون. الورديَّات تتمّ في مواعيدها بالضبط. سوف نتولّى بيع الإنتاج، وسنعطي العمَّال الأرباح وفقًا للعقد، وبعد ذلك

سنرسل إيراد المصنع إلى المُلّاك. قدّم إلينا المهندسون اقتراحات مفصّلة لتشغيل الأفران العطلانة. وبناءً على الدراسات، لو أكملنا بهذه الطريقة نسوف يحقّق المصنع أرباحًا لم تحدث في عهد الإدارة الإيطاليّة... أنا أعتبر المصنع نموذجًا مصغّرًا لمصر كلّها. كلّ شيء تغيّر بالثورة، ولا يمكن أن يعود كما كان. المصنع الآن في أفضل أحواله. بالطبع، لا يخلو الأمر من بعض المشاكل. بالأمس، تمَّ الهجوم على سيّارة محمّلة بالإسمنت بعد خروجها من المصنع. اعترضها بلطجيّة وأطلقوا الرصاص، ثم قاموا بإنزال السائق والتباع وأخذوا السيّارة بحمولتها إلى مكان غير معروف. كلّفت أحد المحامين من الإدارة القانونيّة بتحرير محضر بالواقعة. تحمّس ضابط المباحث ووعد بتكثيف جهوده للقبض على اللصوص. اتّصلت بالضابط لأشكره، فقال لي:

ـ لا شكر على واجب. مصر بلدنا كلّنا ولن نسمح فيها بالفوضى.

اعذريني، يا أسماء، لأنّني اغيب عنك. أنا مُقيم بالمصنع. أنام في استراحة خالية كانت تستعملها الإدارة الإيطاليّة لاستضافة الخبراء الأجانب. لم أعد أذهب إلى شقّتي في وسط البلد إلّا كلّ يومين أو ثلاثة... نفسي أشوفك طبعًا، لكنّك أكثر من تقدّرين الوضع. أنت أيضًا تخوضين معركة للدفاع عن ثورتنا. سلامي وتحيّاتي للزملاء جميعًا. واحشاني جدًا. سأراك قريبًا بإذن الله...

ابتسمي يا حبيبتي. عندما أرى ابتسامتك (حتى في خيالي) أتأكّد من أنّنا سننتصر.

مع السلامة، يا أجمل إنسانة.

مازن

(٤٧)

كان أشرف يعرف القسّ متياس ويحبّه. كان رجلًا ضئيل الجسم نشيطًا، لا يمكن تحديد سنّه بدقّة لأنَّه يحتفظ بحيويَّة فائقة. أقبل عليه أشرف مرحِّبًا، بينما اختفت إكرام داخل الشقَّة، وفتح باب الصالون ودعاه إلى الجلوس، فابتسم وقال:

- أشكرك، لكن ما عندناش وقت.

تطلَّع إليه أشرف بدهشة، فاستطرد قائلًا:

- أنا عارف محبّتك لي، وأنا أيضًا أحبّك. أنت بتثق فيّ يا أشرف؟

- طبعًا.

- يعني لو طلبت منك حاجة تثق بأنَّها خير.

- بالتأكيد.

ابتسم أبونا متياس، وقال:

- يبقى البس وتعالَ معي.

ـ فين؟

ـ لو كنت واثق فيّ ما تسألنيش... حنعمل خير.

وقف أشرف متردّدًا، لكن أبونا متياس دفعه بمرح طفوليّ:

ـ خش البس ما تعطّلناش.

دخل أشرف فوجد إكرام ترتّب السرير في حجرة النوم، أحسّ بأنّها تنتظره. قال وهو يغيّر ملابسه:

ـ سأذهب مع أبونا متياس في مشوار.

ـ أنت تعرفه؟

قال أشرف وهو يرتدي ملابسه:

ـ أعرفه من زمان. فيه قساوسة كثير أنا مش باثق فيهم. متياس مختلف. أنا الحقيقة باحبّه وأثق فيه.

قالت ببساطة:

ـ عشان كده بعثوه لك.

نظر إليها وقال:

ـ من؟

ـ أنت فاهم هو هنا ليه؟

ـ رفض يقول لي.

ـ حيصالحك على مدام ماجدة.

لم يردّ أشرف. كان في داخله يعرف أنّ إكرام على حقّ. كانت دائمًا تُبهره بفراستها. تنطلق منها كلمة فتكشف الحقيقة بضربة واحدة. صفّف شعره، ووضع عطره المفضّل «بينو»، بينما ظلّت إكرام واقفة إلى جوار الباب. أحسّ بأنّها حزينة على نحو ما، فاحتضنها وهمس في أذنها:

ـ لازم تعرفي أنّي بحبّك ولا يمكن استغنى عنك... فاهمة؟!

حاولت أن تبتسم فتحوّل وجهها الجميل إلى تعبير بائس ومؤثّر. طبع قبلة سريعة على شفتيها ثم أسرع خارجًا. ركب السيّارة مع متياس وتحدّثا في موضوعات عامّة. لم يندهش أشرف عندما قاد متياس السيّارة إلى شارع صلاح سالم في طريقه إلى مصر الجديدة، ثم ركنها أمام بيت أسرة ماجدة في ميدان تريومف. دخلا العمارة، واستقلّا المصعد من دون أن يتكلّما. كان أشرف مدفوعًا برغبة ملحّة حتى يمضي إلى النهاية. كان يريد أن يواجه ماجدة وأسرتها مرّة واحدة وإلى الأبد. أكثر ما يضايقه أن تستمرّ ماجدة في التآمر من ورائه وتعبئة الناس ضدّه، بينما تؤدّي دور المظلومة. أنا جاهز للمواجهة يا ستّ ماجدة، هاتي ما عندك. في الصالة الفسيحة وجد الثلاثةَ جالسين، كأنّها هيئة محكمة. على المقعد الفوتيل إلى جوار النافذة، جلست حماته مدام وسيمة، وإلى يمينها ماجدة وإلى يسارها أخوها أمير. اندفع أشرف نحو حماته فصافحها وقبّل يدها. كان يحبّها بغض النظر عن مشاكله مع ابنتها... سيّدة أرستقراطيّة تجاوزت الثمانين، طيّبة وراقية وغير مؤذية إطلاقًا. وإذا انفعلت تعبّر عن غضبها بالفرنسيّة. كان أمير كعادته متأنّقًا كنجم سينمائيّ، صبغ شعره باللون الأسود، وترك بعض الخطوط البيضاء على جانبي الرأس وارتدى قميصًا حريريًّا منقوشًا هفهافًا، وعلّق كوليه من الذهب الخالص غاص في شعر صدره الأبيض الكثيف، بينما استقرّ في إصبع يده الصغيرة خاتمٌ من الماس... أمير هو الأخ الوحيد لماجدة، وصاحب محلّ مجوهرات «برسوم» في ميدان الجامع، كان يصغر أشرف بعام واحد، ولم يكن بينهما ودٌّ في يوم من الأيّام. كان، بالنسبة إلى أشرف، شخصيّةً سمجة ومتغطرسة يتباهى بثروته، وكان على قائمة الذين سيرسل إليهم نسخة

من كتابه ليصدمه في رضاه عن نفسه، ويعرِّفه الحقيقة... تمنَّى أشرف تلك اللحظة لو أنَّ معه سيجارة حشيش يهدِّئ بها أعصابه. لم يصافح أمير وماجدة. وإنَّما حيَّاهما بهزّ رأسه. ردَّ أمير بإشارة من يده، وتجاهلت ماجدة التحيَّةَ تمامًا. لاحظ أشرف أنَّها ارتدت ثوبًا من الحرير الأبيض كانت اشترته من باريس، وصفَّفت شعرها على هيئة جدائل تركت بعضها يتهدَّل على جبينها، وطلت أظفار يديها وقدميها بلون أحمر غامق. كانت في قمَّة زينتها، لكنَّها اتَّخذت مظهر الزوجة الغاضبة التي أُهينت بقسوة وتنتظر ردّ اعتبارها حالًا. تجاهلها أشرف، وبدأ الحديث مع مدام وسيمة التي بدت متردِّدة بين ترحيبها الصادق به وإحساسها بالواجب تجاه ابنتها. سألها أشرف عن صحَّتها. كان هذا موضوعًا أثيرًا لديها تتكلَّم فيه طويلًا: تستعرض أوَّلًا حالتها المَرَضيَّة وأنواع الأدويَّة التي تتناولها، ثم تقارن بين الأطبَّاء العظام زمان والطبّ الآن بعدما تحوَّل إلى تجارة. بدا نوع من الغيظ على وجه ماجدة، ورمقت أمّها بنظرة ذات مغزى، فقطعت حديثها وقالت:

- لازم نشكر أبونا متياس لأنَّه جاب لنا أشرف. أنت مخاصمنا يا أشرف؟!

كانت هذه كلمة البداية. وقال أمير ليحجز مكانًا في المعركة:

- بصراحة يا أشرف، ماجدة زعلانة منك.

قرَّر أشرف ألَّا يفقد أعصابه. أشعل سيجارة وقال بهدوء:

- الحقيقة يا أمير أنا مش سبب المشكلة. ماجدة سابت البيت ومارجعتش. ده قرارها...

- وأنت ما فكَّرتش تيجي تصالحها.

- أصالحها لمَّا أكون زعلّتها...

تكلَّمت ماجدة لأوَّل مرَّة:

ـ طبعًا أنت زعَّلتني يا أشرف.

قال أشرف بحزم:

ـ ماحصلش. أنت مشيت من البيت عشان خايفة من المظاهرات.

ـ بعد كده زعلت من تصرُّفاتك الغريبة.

ـ تصرُّفاتي طبيعيَّة، شرحتها لك وأنت رافضة تفهميني.

ردَّت ماجدة بلهجة حادَّة.

ـ مش أنا وحدي اللِّي متضايقة من تصرُّفاتك. الجيران كلّهم وأصحاب المحلَّات كلِّموني أكثر من مرَّة، واشتكوا من العيال اللِّي بتجيبهم في الدور الأرضيّ.

ردّ أشرف بصوت عال:

ـ أوَّلًا، سبق وقلت لك ما تقوليش على شباب التحرير عيال. لازم نحترمهم لأنَّهم عملوا اللِّي جيلنا ما عرفش يعمله... ثانيًا، أنا صاحب البيت، ومن حقِّي أعمل في الدور الأرضيّ أيّ حاجة ما دمت لم أخالف القانون... ثالثًا، أنا اشتركت في الثورة زيّ ملايين المصريين. إيه المشكلة؟

قال القسّ متياس:

ـ إذا سمحت لي، يا أشرف، أقول كلمة.

ـ تفضّل.

ـ أظنّ مدام ماجدة قصدها أنَّنا كأقباط لنا وضع خاصّ في مصر. الحكمة تقول إنَّنا نؤيِّد رئيس مصر حتى لو كان ظالمًا مقابل أنَّه يوفِّر لنا الأمن. حتى إنَّ سيِّدنا البابا حذَّر أبناءه من الاشتراك في المظاهرات.

ـ سيِّدنا البابا، بعدما نجحت الثورة، أعلن تأييده لها. وفيه أقباط كتير اشتركوا في الثورة. والحقيقة أنَّ سيِّدنا البابا سلطته روحيَّة وليست سياسيَّة. إذا كنَّا بنعيب على الإسلاميين خلط الدين بالسياسة، يبقى المفروض الكنيسة تبقى بعيدة عن السياسة.

ابتسم القسّ متياس، وقال بهدوء:

ـ سيِّدنا لا يعمل بالسياسة أبدًا. هو بينصحنا كأبناء الكنيسة ولا يفرض علينا أيّ شيء. سيِّدنا دائمًا بيكون عنده رؤية أبعد منَّا مستمَدَّة من حكمته ومعرفته بالكتاب المقدَّس.

قال أشرف فجأة:

ـ هو الكتاب المقدَّس قال لنا نؤيِّد الظلم؟

أصدر أمير طقطقة بشفتيه علامة على الاستياء، وصاحت ماجدة:

ـ من فضلك تكلَّم على الكتاب المقدَّس باحترام.

ـ أنت مش حتعلِّميني أحترم ديني.

هكذا ردَّ أشرف بحدَّة... وساد صمت متوتِّر، ثم علا صوت أمير ليستفزّه من جديد:

ـ أنا كواحد قبطيّ دعمت مبارك وزعلت لمَّا تنحَّى. كفاية أنّه حمى الأقباط.

ردَّ أشرف بتهكُّم:

ـ ممكن تقول لي كم مذبحة حصلت للأقباط في عهد مبارك اللِّي حمانا؟! من أوَّل مذبحة الكشح لغاية مذبحة القدِّيسين؟!

صاح أمير:

ـ وأنت عاجبك دلوقتِ؟! بعدما مبارك ماشي كم كنيسة اتحرقت.
كلّ قبطيّ في مصر عايش مهدَّد.

ابتسم أشرف وقال:

ـ يا جماعة، ممكن نفكَّر شويَّة. أثناء الثورة البوليس اختفى تمامًا، وعلى الرَّغم من ذلك ما حصلش اعتداء على أيّ كنيسة من إسكندريَّة لأسوان.. إيه تفسير أنَّ الاعتداءات كلّها حصلت بعد سقوط مبارك؟

قال أمير متهكِّمًا:

ـ اشرح لنا يا أشرف، ومنكم نستفيد.

ردّ عليه أشرف بتحدٍّ:

ـ الحقيقة، يا أمير، لو فهمت كلامي حتستفيد فعلًا. كلّ الاعتداءات على الكنائس مدبَّرة من أجهزة الأمن. عندنا أدلَّة كثيرة. كلّ الكنائس انحرقت بالطريقة نفسها، السيناريو نفسه، الشرطة العسكريَّة تنسحب من قدَّام الكنيسة، والنور ينقطع، وبعدين يوصل البلطجيَّة ويحرقوا الكنيسة براحتهم، وبعدين يختفوا فتظهر الشرطة العسكريَّة. النظام القديم غرضه يرعب الأقباط عشان يكرهوا الثورة، ويرتموا في حضن المجلس العسكري.

قالت ماجدة:

ـ بصراحة، أنا مش مهتمَّة بنظريَّاتك يا أشرف. إحنا كأقباط بسبب الثورة بتاعتك، فقدنا الأمان وبقينا في أسوأ حال... هي دي الحقيقة.

ـ الثورة ما وصلتش للسلطة عشان تحاسبيها.

ـ أنت أصلك قاعد مع حبايبك بتوع التحرير ومش دريان. كنائسنا بتتحرق كلّ يوم، وجماعات السلفيِّين بيهجموا علينا في البيوت، وما فيش حدّ يحمينا.

قال أشرف بهدوء:

ـ مصر بتتغير وما فيش تغيير من غير ثمن. ناس كثيرة دفعت ثمن الحرِّيَّة. لازم الأقباط يدفعوا زي بقيَّة المصريين.

هنا، علا صوت أمير واختلط بصوت ماجدة في عبارات غاضبة متداخلة... فأشار القسّ إليهما بيده فسكتا، وقال لأشرف:

ـ صعب نقنع الناس أنَّهم يتحمّلوا اعتداءات على كنائسهم وعلى أولادهم عشان التغيير.

ـ وإحنا ليه ننسى أنَّ آلاف المصريين انقتلوا أثناء الثورة؟ ليه بنفكَّر في معاناتنا كأقباط بسّ؟ ليه ما نفكَّرش في الشباب اللِّي عينيهم راحت بالخرطوش، واللِّي أُصيبوا إصابات خلَّتهم عاجزين؟

قال أمير:

ـ كفاية شعارات فارغة. الناس اللِّي عملوا المظاهرات دي كلّهم قابضين لأجل يخرَّبوا البلد...

ـ ما حدش بيقبض عشان يموت.

هزَّت ماجدة رأسها وقالت باستياء:

ـ مش قادرة أصدَّق أنَّ تفكيرك بقى كده يا أشرف.

ابتسم أشرف وقال:

ـ أنت عمرك ما عرفت تفكيري، ولا كان يهمّك تعرفي. يا

جماعة، خلّينا نتكلّم بصراحة. أنتم متضايقين من الثورة عشان حرق الكنائس ولّا عشان وقف الحال؟

ـ قصدك إيه؟

ـ قصدي، يا أمير، أنَّ شغلك في المجوهرات قطعًا تأثّر من الثورة، وأنت يا ماجدة أكيد مكتب المحاسبة بتاعك تأثّر.

ـ وهو لمَّا الإنسان يخاف على شغله يبقى غلطان؟

هكذا سأل أمير باستنكار، بينما تمتمت ماجدة بصوت خافت ولكن مسموع:

ـ موضوع الشغل عمره ما كان مهمّ بالنسبة لأشرف.

نظر إليها أشرف بغضب وقال:

ـ أنا لا أسمح لك بأيّ إهانة. أنا ما حدش صرف عليَّ جنيه عشان يقول لي الكلام ده...

تدخَّل القسّ قائلًا:

ـ يا أشرف، هي مش قصدها تضايقك.

لكن أمير قرَّر أن يسدِّد طعنة جديدة. ابتسم وقال بهدوء:

ـ عمومًا، لمَّا أكون أنا وماجدة ناجحين في شغلنا وخايفين عليه، ده شيء يشرَّفنا والمفروض أنَّه يشرّفك.

أطرق أشرف لحظة، ثم رفع رأسه وقال:

ـ النجاح موضوع نسبيّ. يعني، مثلًا، لمَّا أكون جواهرجي بأخذ ذهب مسروق وأسيَّحه وأبيعه وتتعمل لي قضايا وأدفع رشوة عشان ما أدخلش السجن، تقدر تسمِّي ده نجاح؟! ولمَّا أكون محاسبة شغلتي أن

أعمل ميزانيّات مزيّفة عشان الشركات الكبيرة تتهرّب من الضرائب، يبقى بتسمّي ده نجاح ولا غشّ؟!

صاح الحاضرون جميعًا معترضين، حتى الأمّ اعترضت قائلة:

ـ كلامك جارح يا أشرف.. جرى لك إيه؟

ـ Tu es devenu fou

قال أشرف:

ـ شفتم الحقيقة بتوجع إزّاي؟ أنا حبّيت بسّ أقول لكم إنّي مش فاشل. أنا رفضت النجاح المزيّف الكذّاب. ما حدش يدّيني دروس. كلّ واحد يشوف نفسه.

صاح أمير:

ـ أنت لازم تعتذر حالًا عن الكلام اللّي قلته.

قال أشرف:

ـ أعتذر عن الحقيقة؟! أنت مش كنت متّهم في قضايا سرقة ذهب نعلًا؟

اندفع أمير نحوه، لكن أبونا متياس منعه. قال أشرف وهو يستدير نحو الباب:

ـ قبل ما أمشي عاوز أقول لكم أنا مع الثورة. حفضل مع الثورة لغاية لمّا أموت. بيتك مفتوح يا ماجدة هانم. أيّ وقت تيجي أهلًا وسهلًا. وشباب الثورة دول أنا بتشرّف بيهم، وهم يشرّفوا أيّ إنسان بشرط يكون نظيف وبيفهم. مع السلامة.

انطلق القسّ وراءه، لكنّه قال وهو يلهث:

ـ خلّيك معهم يا أبونا. أنا حاخذ تاكسي.

(٤٨)

أيّ شخص حضر اللقاء كان سيتأكّد من أنّ عمّ مدني وافق على قبول الديَّة. صحيح أنَّه لم ينطق بالموافقة، لكنَّه أيضًا لم يعترض... ظلّ يراقب الشيخ والعقيد وهو هادئ تمامًا، ينصت إليهما كأنَّ ما يقولانه متوقَّع ومقبول، بل إنَّه سأل عن مبلغ الديَّة الذي سيقبضه. فقط، عندما فتح العقيد الحقيبة وهمَّ بإخراج رزم الأوراق الماليَّة ليعطيها لعمّ مدني حتى يعدّها قبل أن يوقِّع التنازل، في تلك اللحظة فقط، خرج عمّ مدني عن سكونه، ووثب من مقعده واندفع خارجًا من الصالون إلى باب الشقَّة، ثم فتحه وصاح بصوت محشرج بدا وقعه غريبًا:

- اطلعوا برَّه أنتم الاتنين.

مرَّت لحظة حتى استوعب الشيخ والعقيد ما يحدث، لكن عمّ مدني الذي كان عندئذ ينظر إلى أعلى كأنَّه يُشهد كائنًا ما على ما يفعله، أمسك بمقبض الباب وراح يلوِّح بيده الأخرى:

- اطلعوا برَّه حالًا.

هتف الشيخ:

ـ أستغفر الله العظيم... يا أخ مدني اخزِ الشيطان.

ـ بتعرض عليّ ثمن حياة ابني؟! اطلع برّه.

قال الشيخ:

ـ دي الديَّة الشرعيَّة اللّي حدّدها ربّنا.

صاح عمّ مدني:

ـ وهو أنت تعرف ربّنا يا ضَلالي؟

أحسَّ الشيخ شامل بخطورة الموقف، فتوجَّه بسرعة نحو الباب. أمّا العقيد فقد أغلق الحقيبة أوّلًا بعناية، وحملها، ووقف يتطلّع إلى مدني لحظة، ثم أصدر زمجرة غاضبة وصاح:

ـ أنت بتطردنا يا جربوع يا ابن الكلب.

اندفع العقيد نحو مدني ليضربه، لكنَّ الشيخ شاملًا ألقى نفسه عليه وجذبه بصعوبة حتى خرجا من الشقَّة. أغلق مدني الباب بعنف، وتناهت إلى سمعه الشتائمُ القبيحة التي ظلَّ العقيد يردِّدها. عاد بهدوء إلى الأريكة في الصالة، وجلس وربَّع ساقيه كأنَّ شيئًا لم يحدث. وسرعان ما ظهرت هند التي كانت تستمع إلى الحديث من المطبخ، فألقت نفسها على أبيها وهي تبكي، فاحتضنها وراح يمسِّد على شعرها بغير أن ينطق بكلمة. عندما ذهب إلى المصنع في اليوم التالي، لم يتحدَّث مع أحد. ظلَّ، كعادته، مستغرقًا في عالمه الداخليّ، يجلس صامتًا في الجراج، وعلى وجهه تعبيرٌ واجم لا يتغيَّر... يقرأ القرآن حتى تأتيه مهمَّة، فيقود سيَّارة الإسعاف ويؤدِّيها ويعود إلى جلسته الأولى. بين الحين والآخر، يخرج من سكونه بتعليق أو كلمة، أو ربَّما يخرج بتصرُّف مفاجئ عنيف كما حدث مع الشيخ والضابط، ثم سرعان ما يعود إلى هدوئه العميق الغامض. كالعادة، لم ينم ليلة جلسة

المحاكمة، وصلّى الصبح في مسجد السيِّدة زينب، ثم ذهب إلى المقهى المواجه للمحكمة وراح يشرب أقداح القهوة ويدخّن بشراهة، حتى إنَّه كان يشعل سيجارة من أخرى. عندما وصل زملاء خالد صافحهم بحرارة. هؤلاء هم الوحيدون الذين كان يبتسم من أجلهم. كانوا يذكّرونه بخالد. النظرات البريئة نفسها والحماسة والإحساس العميق الصادق بأحزانه يظهر في نبرات أصواتهم ووجوههم المُحبّة والمرتبكة وسؤالهم الدائم عن أيّ شيء يمكن أن يقدّموه. جلس عمّ مدني كالعادة إلى جوار القفص، وراح يتطلّع إلى الضابط هيثم الذي كان قد وكّل محاميًا شهيرًا يبدو في أناقته واعتزازه بنفسه كنجوم السينما، بينما كان محامو المرحوم خالد ثلاثة شبّان متطوّعين، ولكن كفاءتهم أحرجت المحامي القدير أكثر من مرّة. استمع القاضي إلى الشهود جميعًا، وأكّد زملاء خالد كلُّهم، أنَّهم رأوا الضابط هيثم المليجي يقتل خالدًا برصاصة أطلقها من مسدَّسه الميري وهو في سيّارة الشرطة. حاول المحامي الشهير أن يُربك الشهود ويُبرز أيّ تناقض في شهاداتهم فتصدَّى له المحامون الشبّان وأرغموه على السكوت بناءً على طلب القاضي، ثم اشتبك المحامون معه من جديد رافضين التأجيل لمدَّة طويلة كما طلب. في معمعة المناقشات، خرج عمّ مدني فجأة من عالمه وأخذ يصيح فحدث هرج ومرج في القاعة، وبدا الانزعاج على وجه رئيس المحكمة الذي دقّ على المنصّة بالشاكوش الخشبيّ، وقال:

- سكوت. اللّي حيعمل دوشة حاجبسه.

لكن عمّ مدني كان قد اندفع، ولم يعد يملك أن يتوقّف. صاح بأعلى صوته:

- يا سيادة القاضي، عندي كلمتين لازم أقول لهم لسيادتك حالًا.

(٤٩)

عندما ظهرت نورهان على الشاشة بالحجاب ازدادت شعبيَّتها. ملايين المُشاهدات المحجَّبات أحسسنَ بنوع من الاعتزاز عندما رأينها بالحجاب، كأنَّهنَّ انتصرن في معركة مهمَّة. بالإضافة إلى هذا النصر الرمزيّ للإسلام، فقد أعطت نورهان مثلًا في أناقة المرأة المسلمة. ثيابها محتشمة، لكنَّها تحمل توقيع أكبر بيوت الأزياء العالميَّة. غالبًا ما تُجري عليها نورهان (التي تتقن الخياطة من أيَّام المنصورة) بعضَ التعديلات التي يفرضها الشرع. أمَّا أغطية الرأس، فهي إيشاربات بألوان زاهية وبديعة. من أجمل ما قاله لها الشيخ شامل:

- أدعو الله، عزَّ وجلَّ، أن يبارك لك بقدر تأثيرك الطيِّب.

كان فضيلة الشيخ يقصد أنَّ أناقة نورهان الإسلاميَّة ستدفع بنات كثيرات إلى تقليدها في ارتداء الحجاب. على أنَّ بهاء نورهان قد تعدَّى زيّها إلى وجهها، وكأنَّها عندما تحجَّبت اكتملت. استدارت كالقمر، وبانت على وجهها الجميل سكينةُ الإيمان، وظهرت الابتسامةُ

المطمئنة لمؤمنة ذاقت حلاوة الطاعة فأرضت ربّها ورضيت. صارت نورهان من أبرز المذيعين في القنوات جميعًا. وسجّل برنامجها اليوميّ «مع نورهان» درجاتٍ مُشاهَدة غيرَ مسبوقة وفقًا لجهاز رصد المشاهدة وإحصائيّات الشركات المتخصّصة. كلّ ليلة، يشاهد المصريُّون نورهان وهي تستضيف أساتذة في الجامعة ومفكِّرين وخبراء إستراتيجيّين يؤكّدون جميعًا، بالأدلّة العلميّة، أنّ الثورة في مصر لم تكن إلّا مؤامرة موّلتها وخطّطت لها المخابرات الأميركيّة بالاشتراك مع المخابرات الإسرائيليّة «الموساد». وفي كلِّ مرّة، يبدو على وجه نورهان الجميل التأثُّرُ وتُنهي الحلقة بدعاء تردِّده بصوت خاشع، والكاميرا في وضع «كلوز» على وجهها، تقول:

ـ يا ربّ اجعل مصر بلدًا آمنًا ونجِّها من الأشرار والخَوَنة.

تتسلَّل أحيانًا دمعةٌ إلى عينيها الجميليتين، فتُخرج منديلها الملوَّن تمسحها، بينما تترات البرنامج تنزل على الشاشة. كلّ هؤلاء الضيوف كانت ترشِّحهم أجهزة الأمن، لكن نورهان كانت لها إضافاتها. ففي حلقة شهيرة ربَّما تكون الأكثر تأثيرًا في الرأي العامّ، بدأتها نورهان بكلمة صغيرة كتبتها بنفسها، وقرأتها وقد ضبطت وجهها على تعبير من التأفُّف الأنيق:

ـ بسم الله الرحمٰن الرحيم... أعزائي المشاهدات والمشاهدين، تعوَّدنا في برنامجكم على الشفافيّة والصراحة. تعوَّدنا أن نقول الحقيقة كاملة مهما تكن مؤلمة. لقد استضفنا أكبر العقول في مصر، وكلّهم أجمعوا على أنَّ ما يسمُّونها ثورة ما هي إلّا مؤامرة حقيرة لتدمير بلدنا. الليلة أنا سأستضيف شخصيّة غريبة. هي التي طلبت الظهور معنا، واشترطت أن تظلّ مجهولة».

قامت نورهان من مكانها، وتحرَّكت معها الكاميرا إلى حيث تجلس الضيفة. تعمَّد المخرج وضع دائرة على وجه البنت حتى لا يتعرَّف إليها أحد. جلست نورهان أمامها، وقالت:

ـ طبعًا، إحنا مش حنقول اسمك بناءً على طلبك...

ـ شكرًا يا مدام نورهان.

ـ أنت ليه عاوزة تفضلي تبقي مجهولة؟!

ـ عشان عندي إحساس بالعار.

هكذا قالت البنت بصوت مرتبك، فسألتها نورهان:

ـ إيه السبب إنِّك طلبت الظهور في البرنامج؟!

ـ ضميري وجعني. عاوزة أفهِّم الشعب حجم المخطَّط اللِّي أنا اشتركت فيه ضدّ مصر.

ـ ده كلام خطير، من فضلك تكلِّمي.

ـ أنا وكلّ شباب التحرير قبضنا أموالًا من جهات أجنبيَّة.

ـ قبضتم مِمَّن بالضبط؟ قولي كلام محدَّد.

ـ قبضنا من أُناس أجانب ما نعرفش شخصيَّاتهم، لكنَّهم تقريبًا من مخابرات غربيَّة.

ـ قبضتم كم؟

ـ كلّ واحد فينا كان يقبض ألف دولار كلّ يوم يقضيه في التحرير.

ـ معقول آلاف المعتصمين قبضوا؟!

ـ الشباب اللِّي حرَّكوا الناس كلّهم قبضوا، لكن فيه ناس صدّقتنا ومشيت ورانا.

ـ بتقولي كلّ واحد من شباب الثورة كان يقبض ألف دولار في اليوم؟!

ـ ألف دولار في اليوم غير السفريَّات.

بدا على وجه نورهان انزعاجٌ بالغ، وقالت:

ـ أرجوك، اشرحي لنا موضوع السفريَّات.

ـ إحنا سافرنا صربيا وإسرائيل، وتمَّ تدريبنا على عمل المظاهرات من أجل إسقاط النظام، وأخذنا مقابل التدريب مبالغ كبيرة.

ـ أخذتم كم؟

ـ أنا مثلًا سافرت إسرائيل. قبضت خمسين ألف دولار وتدرَّبت على حاجات هناك على مدى ثلاثة أشهر.

ـ فين؟!

ـ في معسكر في ضواحي تلّ أبيب.

ـ اتدرَّبت على إيه بالضبط؟

ـ على تهييج الرأي العامّ عن طريق فيسبوك وتويتر؛ تنظيم المظاهرات؛ إنهاك قوَّات الأمن؛ مجموعة فعاليَّات تؤدّي في النهاية حتمًا إلى إسقاط الدولة.

ـ وبقيَّة شباب التحرير؟

ـ بُصّي، إحنا حوالى خمسة آلاف شابّ وشابَّة من كلِّ محافظات مصر. كلّنا تدرَّبنا وقبضنا. ناس تدرَّبت في إسرائيل، وناس تدرَّبت في صربيا وفي قطر وتركيا. لكنَّ المدرب كان غالبًا بيبقى إسرائيلي أو أميركي. الناس صدَّقتنا واندفعت للمظاهرات. لكنَّنا كنَّا بنفِّذ تعليمات الهيئات اللّي درَّبتنا.

انقطع هنا الحوارُ فجأة، ثم اقتربت الكاميرا من وجه نورهان وقد بدا عليه الاشمئزاز:

ـ يعني إنت واللّي زيّك خَوَنة وقبضتم من أجل تخريب مصر. والمصريّين الطيّبين صدّقوكم ومشيوا وراكم. حرام عليكم... مصر بلدكم تخونوها وتدمّروها.

صرخت الفتاة:

ـ كفاية. أنا باحتقر نفسي.

ثم أجهشت بالبكاء، بينما وجهها ما زال محجوبًا.

عادت الكاميرا إلى نورهان التي اتّخذ وجهها هيئةَ مَن فوجئت بخدعة دنيئة، وقالت:

ـ الحقيقة، لا أجد كلمات لأصف ما فعله هؤلاء الخَوَنة. احذروا منهم يا مصريّين. دُول خَوَنة. يا ربّ احفظ مصر من شرّهم.

خرجت نورهان من البرنامج واقتادت الفتاة إلى ضابط التشغيل الذي بدا عليه الرضا، وقال:

ـ برافو يا منى. كنت هايلة.

كانت فتاة ضئيلة الحجم محجّبة، ترتدي ثيابًا أنيقة، وهزّت رأسها بامتنان وهي تلهث كأنّها ممثّلة منفعلة بعد انتهاء العرض. قال الضابط لنورهان:

ـ أشكرك يا مدام نورهان على وطنيّتك.

كان ضابط التشغيل في المحطّة يخصّ نورهان بمعاملة خاصّة، أوّلًا لأنّها أفضل المذيعين وأكثرهم تأثيرًا، وثانيًا لأنّه يعلم بمدى قربها من الحاجّ شنواني. يجب هنا أن نؤكّد، من جديد، أنّ نورهان لم توقِع شنواني في حبائلها... نورهان المسلمة الملتزمة يستحيل أن تحاول إغواء شنواني أو غيره، لكنّ كلّ شيء قسمة ونصيب، وبنو آدم

لا يرفع أحدهم قدمًا ويضع أخرى إلّا بأمر الله... كلّ ما حدث أنّها لمَّا زادت مشاكلها مع عصام السكّير، طلبت موعدًا مع الحاجّ شنواني، من مدير مكتبه، فحدَّد لها موعدًا في اليوم التالي، وهو أمر نادر الحدوث نظرًا إلى كثرة مشاغله. ذهبت نورهان إلى شنواني وحكت له عن عصام، ولم تتمالك نفسها فبكت بمرارة. تأثَّر شنواني وقال:

ـ نورهان. عندي سؤال وعاوزك تجاوبي بصراحة.

نظلَّعت إليه بعينيها المكحولتين الدامعتين (وكانت تستعمل نوعًا من الكحل المستورَد لا يسيح مع الدموع)، وقالت بصوت متهدِّج:

ـ أنا تحت أمرك، يا حاجّ.

ـ هل فعلًا استحالت حياتك مع عصام؟

ردَّت بحرارة:

ـ لا يمكن أعاشر إنسان يشرب الخمر بالليل والنهار، وعنده أفكار غريبة عن الدين.

ـ ممكن تشرحي لي؟

ـ هو غير مقتنع بالأديان.

بان الغضب على وجه الحاجّ الناعم البرَّاق من أثر الماسكات التي يُجريها له حلّاقه الخاصّ كلّ أسبوع، ثم قال:

ـ إذا كنت متأكّدة من أنّه على غير الإسلام يبقى يجب التفريق بينكما.

ردَّت نورهان بصوت منكسر:

ـ هو قال لي إنّه مش مسلم، ولمَّا طلبت الطلاق رفض

ويبهدّلني. أنا خايفة يعمل حاجة في ابني يا حاجّ. خايفة قوي.

استعملت نورهان، مرّة أخرى، النبرة التي جعلت وجه الحاج يربدّ وتغيم عيناه لحظة، ثم تمالك نفسه وقال:

ـ ولا يهمّك. سيبي لي الموضوع ده. حيطلّقك غصبًا عنه.

ـ والنبي يا حاجّ صحيح؟! لو طلّقني حافضل طول عمري أدعيلك، ولا يمكن أنسى جميلك عليّ.

ابتسم شنواني وقال:

ـ حيطلّقك ومن عارف؟ يمكن ربّنا يعوّضك برجل أحسن منه.

رنّت الجملة في أذن نورهان فتغافلت عنها، لكن تعبيرًا من رضًا عَبَرَ وجهَها كومضة ظهرت واختفت. وهكذا طلّقها عصام بضغط من الجهاز. ذهبت إلى ڤيلّا الزمالك، ورفضت أن تتكلّم معه أو حتى تنظر إليه حتى تمّ تمزيق العقد العرفي ورمى عليها يمين الطلاق. شكرت اللواء، ثم ذهبت إلى شنواني لتشكره، فنظر إليها مليًّا ثم ابتسم وقال:

ـ بُصّي يا ستّ نورهان، صلّي على حضرة النبي.

ـ عليه أفضل الصلاة والسلام.

ـ أنا، والحمد لله، أعيش وأموت على طاعة الله ورسوله. أنا طالب الزواج منك. لديّ زوجتان. أمّ العيال وزوجة أخرى يمكن تعرفيها: سلوى حمدان الممثّلة، وستكونين الثالثة، وإن شاء الله سأعدل بينكنّ.

لم يقل الحاجّ شنواني شيئًا لا تعرفه، لكنّها تطلّعت إليه لحظة وكادت تقول شيئًا ثم ارتبكت بشدّة. بدا نوع من الانزعاج الملكيّ على الحاجّ شنواني، وسألها:

ـ مالك يا نورهان؟

أجابت بصوت متقطّع من الانفعال:

ـ ده كثير عليّ. أنا مش مصدَّقة. مَن أكون أنا لأجل أتزوَّج سيادتك؟!

ـ أنت ستّ الستّات.

هكذا قال شنواني وهو يتأمَّل وجهها الجميل الذي تغيَّر فجأة كما يتغيَّر لون البحر، وقالت:

ـ ربّنا يبارك لك يا حاجّ على قد ما أنصفتني.

عندما سألها عن طلباتها، قالت بصوت خاشع:

ـ والله يا حاجّ لو كان مهري حبّات تمر لكنت أسعد إنسانة في الدنيا.

كانت قد سمعت هذه الجملة في درس الشيخ شامل، قالتها امرأة لواحد من صحابة النبي عندما طلبها للزواج. أُجفل الحاجّ شنواني وبدا عليه التأثُّر، وقال:

ـ بارك الله فيك.

تزوَّجها شنواني في اليوم التالي لانقضاء العدَّة. أقام حفلًا بسيطًا في الفيلَّا التي اشتراها لها في التجمُّع الخامس حضره أخوةُ نورهان وخالُها الذي كان وليَّها في كتابة العقد، وبضعةُ أصدقاء مقرَّبين إلى الحاجّ شنواني (بينهم لواءان في المجلس العسكريّ الحاكم). لم يعلن شنواني في القناة زواجه بشكل كامل. قال لمدير القناة، وهو في مكتبه، كأنَّه يصرِّح بأمر عاديّ وعابر:

ـ على فكرة، أنا تزوَّجت نورهان على سُنَّة الله ورسوله.

بارك له مدير القناة على استحياء، وانتشر الخبر بسرعة البرق، لكن أحدًا لم يجرؤ على تهنئته على الملأ، كما يحدث مع الناس العاديين. ربَّما واحد أو اثنان تجرّآ وتحيَّنا الفرصة، وقالا همسًا:

ـ ألف مبروك يا حاجّ... بالرفاه والبنين، إن شاء الله.

للإنصاف، فإنَّ الحاج شنواني هو أفضل من تزوَّجت به نورهان. لا يمكن مقارنته بزوجيها السابقين، ربَّما لأنَّه في الرابعة والسبعين كما اكتشفت في عقد الزواج، الأمر الذي يجعله يرعاها بمحبَّة الأب التي افتقدتها بوفاة أبيها المبكِّرة؛ ربَّما لأنَّ ثراءه يجعله أقدر على توفير معيشة مريحة لها أكثر من زوجيها السابقين؛ ربَّما لأنَّه كريم جدًّا بطبعه، ويرى في الإنفاق على زوجته نوعًا من التقرُّب من الله. يكفي أنَّه تزوَّجها رسميًّا، لأنَّ الزواج العرفي في رأيه مشكوك في صحَّته عند بعض الفقهاء. وقد رحَّبت نورهان، وهي تعلم بأنَّ زواجها رسميًّا سيؤدِّي إلى قطع معاشها الذي تقبضه عن زوجها الأوَّل المرحوم هاني الأعسر، لكن ثراء شنواني جعل حرصها على المعاش يبدو فكرة بعيدة وسخيفة. على أنَّ السبب الأساسيّ في توافق نورهان مع شنواني، هو إيمانهما معًا بأنَّ تقوى الله أهمّ من الدنيا وما فيها. الحاجّ شنواني من محبِّي الشيخ شامل، وكثيرًا ما يستدعيه ليعطي الدرس في أحد قصوره. حضر الشيخ شامل حفل الزواج، وهنَّأ العروسين، ثم قام بتحفيظ نورهان دعاءً تردِّده يوميًّا بعد صلاة العشاء ليمنع عنهما الحسد الذي هو مذكور في القرآن. وبخلاف فيلّا التجمُّع التي كتبها باسمها، اشترى لها سيَّارة مرسيدس أحدث موديل، ودفع مهرًا أكثر بكثير من المكتوب في عقد الزواج، وخصَّص لها مؤخَّر صداق قدره خمسة ملايين جنيه، وأهداها مجموعة مجوهرات خافت نورهان أن تعرضها على صديقاتها

خوفًا من الحسد. كما قام بتجهيز جناح خاصّ في الڤيلّا لإقامة ابنها. وعندما سألته بصوت مشفق إن كان وجود ابنها معهما سيضايقه، ابتسم وقال:

ـ أوّلًا، نفسيّتك لن ترتاح إلّا وابنك معك. ثانيًا، هل تريدين أن تحرميني ثواب رعاية اليتيم.

كادت نورهان تبكي ودعت له بحرارة. هكذا استقرَّ النظام. نقلت نورهان ابنها حمزة إلى المدرسة الأميركيّة في التجمُّع، وصار يُقيم معها طوال الأسبوع، ثم تبعث به يومي الجمعة والسبت إلى خالها في المنصورة حتى تتفرَّغ لزوجها. كان شنواني، عملًا بسُنَّة الرسول الكريم ﷺ، يُمضي مع كلّ زوجة يومين، ثم يستريح يومًا وحده في قصره الخاصّ في المريوطيّة، وكان لا يشتري لزوجة هديَّة إلّا واشترى للزوجتين مثلَها. تقصَّت نورهان بالطبع أخبار ضرَّتيها. الزوجة الأولى أمّ العيال كانت خارج المنافسة، لأنَّها كبيرة في السنّ وتُعالَج من أمراض كثيرة. الزوجة الثانية سلوى حمدان، ممثّلة تزوَّجها الحاجّ من خمس سنوات، فارتدت الحجاب، ولم تعد تؤدّي إلّا الأدوار الدينيّة. وقد شاهدت نورهان أدوراها في عدَّة مسلسلات عُرضت مؤخَّرًا وفحصتها بعناية، فاكتشفت أنَّها أجرت ـ على أقلّ تقدير ـ عمليَّتين لتجميل وجهها. نفخت شفتيها، وأزالت التجاعيد، وحقنت قطعًا خدَّيها بشيء ما، لأنَّهما يبدوان منتفخين إذا اقتربت منهما الكاميرا... أحسَّت نورهان في أعماقها براحة، وتحيَّنت فرصة والحاجّ مزاجه رائق في الفراش، ثم قالت بشكل عارض:

ـ سبحان الله، عمليَّات التجميل انتشرت جدًّا في مصر. شيء مقرف.

نظر إليها شنواني باستغراب، فاستطردت:

- أوّلًا، فضيلة الشيخ شامل أكّد أنَّ عمليّات التجميل حرام لأنّها تغيير في عمل الخالق، سبحانه وتعالى. ثانيًا، لماذا ترفض المرأة الاعتراف بأنَّها عجوز. وثالثًا، بصراحة، لا أفهم كيف يطيق رجل أن يعاشر زوجته وهي نافخة وجهها زيّ البالونة.

فهم شنواني، هنا فقط، غرضها فانتقل إلى موضوع آخر بلباقة. كانت نورهان، كعادتها، تُشبع زوجها جنسيًا، إلى درجة كان من الممكن أن يكتفي بمتعته معها لولا الشرع الذي يلزمه بمضاجعة زوجتيه الأُخريين. كان يخرج من عند نورهان ولم يتبقَّ من طاقته ما يمكن تبديده... بالإضافة إلى سنّه الكبيرة، فقد أجرى شنواني مؤخَّرًا عمليَّة قلب مفتوح، وهو يتناول كلّ صباح حبوبًا وكبسولات عديدة من أدوية مختلفة... أدركت نورهان أنَّها يجب أن تطبّق مع شنواني نسخة مختصرة من برنامج الفراش الذي كانت تستعمله مع زوجيها السابقين. ألغت فقرة الرقص الشرقيّ، وكذلك ألغت فقرة مداعبة المناطق السبع في جسد الرجل. وركّزت طاقتها في مصّ قضيب الحاج الذي كان ينتصب بصعوبة بسبب أدوية الضغط وتوسيع الشرايين. بعد الانتصاب، كان عليها أن تتظاهر بالنشوة لأنَّ الحاجّ، للأسف، كان أيضًا سريع القذف. أحيانًا، عندما تبذل مجهودها ثم يتعذَّر الانتصاب، كان شنواني يمدّ يديه ويرفع رأسها إليه ويهمس على استحياء:

- يبدو أنّني مرهَق الليلة.

كانت عندئذ تحتضنه وتهمس:

- ولا يهمّك... أنت حضنك لي بالدنيا كلّها.

لم تكن نورهان غشيمة ولا متطلّبة، بل كانت تعامل اللقاء الحميم مع الحاجّ باعتباره مهمَّة فنّيَّة دقيقة تجتهد لتؤدّيها على الوجه الصحيح.

كان لقاؤهما في لغة الموسيقى أقرب إلى الكونشيرتو منه إلى السيمفونيّة، إذ كانت نورهان تعزف منفردة، ثم تنتظر طويلًا حتى تجيب عليها آلات الحاجّ العتيقة ذاتُ الأوتار المهترئة. من هنا، فإنّها ليست مسؤولة عمّا حدث يوم الجمعة الماضي.

جاء إليها شنواني بعد الصلاة كعادته، وكانت قد أعدّت له صينيّة المعكرونة بالباشميل التي يحبّها، وقد أكل الحاجّ شنواني بشهيّة، ثم قال لها الجملة التي هي إشارة بينهما:

- ما تيجي ندخل نستريح شويّة.

قبّله وهمست:

- قوي يا حبيب قلبي.

سبقها كالعادة إلى حجرة النوم وخلع ثيابه وانتظر عاريًا تحت الغطاء، وجاءته بعد نحو ربع ساعة، وقد تجهّزت وتعطّرت وارتدت له قميص النوم الأحمر الذي يحبّه. بدأ الحاجّ شنواني بقبلة حارّة وتحسّس ثدييها، وأطلقت نورهان أنّة حارّة لتثيره، وتظاهرت بأنّها اهتاجت ثم هبطت برأسها إلى أسفل لتؤدّي مهمّتها المعتادة، فاستجاب قضيبه وازدادت صلابته شيئًا فشيئًا. وفجأة، أحسّت نورهان بأنّ جسد شنواني يرتعد. رفعت نظرها إليه فوجدته شاحبًا للغاية. تركت قضيبه وهتفت بلهفة:

- مالك يا حاجّ؟

كان يلهث ويتصبّب عرقًا، وبدت نظرته غريبة غائبة، كأنّه لم يعد يميّز ما يراه. فتح فمه وحاول أن يقول شيئًا، لكنّه شهق مرّة واحدة، ثم سقط رأسه على الوسادة.

(٥٠)

وفقًا للموعد، قبيل صلاة الظهر، توقَّفت سيَّارة بي أم دبليو سوداء أمام الفيلَّا، ونزل منها مساعدان وثلاثة حرّاس مسلَّحين أحاطوا بمرشد الإخوان. بالطبع، لم يسمح أمن الجهاز لحرَّاس المرشد بالدخول مسلَّحين. ما إن مرَّ المرشد من البوَّابة، حتى سلَّم الحرَّاس أسلحتهم إلى ضبَّاط الجهاز. بدأ الاجتماع بإقامة الصلاة. أمَّ اللواءُ علواني مديرَ مكتبه والمرشدَ ومساعديه وحرَّاسَه، ثم خرج الجميع لينفرد اللواء بالمرشد. عادة ما تكون لقاءات الرجلين سريعة ومركَّزة لضيق وقت اللواء علواني الذي قال للمرشد بعد التحيَّات المعتادة:

- باسم أعضاء المجلس الأعلى للقوَّات المسلَّحة، أشكرك وإخوانك لأنَّكم نفَّذتم ما تعهَّدتم به.

- لا شكر على واجب يا فندم. إنَّما يقول الله تعالى في سورة الإسراء ﴿وأوفوا بالعهد إنَّ العهد كان مسؤولًا﴾...

ـ وقوف الإخوان معنا ضدَّ كتابة دستور جديد أنقذ مصر من البلبلة والفوضى.

ـ حفظ الله مصر. لي عند سيادتك طلب.

ـ تفضَّل.

ـ أتمنَّى أن ألتقي السادة أعضاء المجلس الأعلى للقوَّات المسلحة. أريد أن أبلِّغهم بنفسي مبايعة الإخوان ودعمهم.

ابتسم اللواء وقال:

ـ اطمئنّ، أنا أبلِّغهم رسائلك أوَّلًا بأوَّل. لكنَّ الظروف لا تسمح بلقائهم الآن. بعد تنحِّي سيادة الرئيس مبارك صارت الصحافة في حالة توحُّش. دخولك مقرّ القيادة سيفتح بابًا لـ «القيل والقال» نحن في غنًى عنه.

هزَّ المرشد رأسه متفهِّمًا، وقال:

ـ فعلًا، الإعلام أصبح في حالة انفلات.

ـ رجال الأعمال الوطنيُّون قاموا بواجبهم وافتتحوا قنوات تليفزيونيَّة من أجل توعية المصريِّين، لكن ما زال جزء كبير من الإعلام يدعو إلى الفوضى.

ـ من عجائب القرآن أنَّه لم يترك صغيرة أو كبيرة في حياة المسلمين إلَّا ونظَّمها. قال ربّنا عزّ وجلَّ في سورة الحجرات: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيَّنوا أن تصيبوا قومًا بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين...﴾ صدق الله العظيم. ألا تعتبر هذه الآية ميثاقًا للإعلام؟

ـ ونِعْمَ بالله.

ساد الصمت لحظة، ثم قال اللواء علواني:

ـ استدعيتك اليوم لأكلِّمك في موضوع مهمّ.

ـ خير، بإذن الله.

ـ أنت عارف حجم المسؤوليَّة الملقاة على عاتقنا أنا والسادة أعضاء المجلس الأعلى.

ـ أعانكم الله وبارك فيكم.

ـ سنضطرّ في المرحلة المقبلة إلى بعض الإجراءات القاسية لضبط الأمن وإعادة هيبة الدولة. لن نسمح باعتصامات ولا مظاهرات في الشوارع.

ـ ونحن نؤيِّدك في ذلك إن شاء الله، حتى تدور العجلة وينتظم العمل في الدولة.

ابتسم اللواء علواني وقال:

ـ أنا أسألك من الناحية الشرعيَّة، أليس من حقّ وليّ الأمر في الإسلام أن يضرب على أيدي الذين يثيرون الفتنة؟

ـ ليس من حقِّه فقط، وإنَّما من واجبه... الفقهاء يُجمعون على أنَّ من يثير الفتنة عقوبته الحبس والجلد وبعض الفقهاء يصل بالعقوبة إلى القتل.

سكت اللواء علواني، ثم تطلَّع إلى المرشد وقال:

ـ لا نريد للإخوان أن يشتركوا في أيّ مظاهرة أو اعتصام.

ـ أتعهَّد لسيادتك بأنَّ فردًا واحدًا من الإخوان لن يشترك في أيّ شَغَب، وقد أعلنَّا من قبلُ أنَّ الاعتصامات مخالِفة لشرع الله لأنَّها

تسمح باختلاط الشبَّان مع الشابَّات على نحو قد يشجّعهم على ارتكاب المعاصي، والعياذ بالله.

- ولا أريد أن أسمع أيّ انتقاد من أيّ قيادة أو حتى فرد في الإخوان لأيّ إجراءات قاسية نتَّخذها.

- لن نمتنع فقط من انتقادها، وإنَّما، بإذن الله سنؤيّدها وندعمها.

تطلَّع إليه اللواء علواني بنظرة متفحّصة كأنَّما يسبر غوره، وقال ببطء:

- انتخابات مجلس الشعب اقتربت، وقد وعدتك بأن نترك للإخوان الفرصة كي يحصدوا ما شاؤوا من مقاعد بغير تدخُّل منَّا. إذا حدث واعترض أحد من الإخوان على أيّ إجراء نتَّخذه ضدّ المخرّبين، فسيكون اتّفاقنا بخصوص مجلس الشعب لاغيًا.

ابتسم المرشد وقال:

- دعم الإخوان لكم سيكون كاملًا، بإذن الله.

ابتسم اللواء علواني لأوَّل مرَّة، وقال:

- نقرأ الفاتحة.

أطرق الرجلان خاشعَين، وتمتما بفاتحة الكتاب.

- على بركة الله.

هكذا تمتم اللواء علواني راغبًا في إنهاء اللقاء، لكنَّ المرشد ابتسم وقال:

- أعلم بأنَّ وقت سيادتكم مشغول لكن عندي رجاء.

- خير يا مولانا.

هكذا قال اللواء علواني بنبرة ليست مرحِّبة تمامًا.

قال المرشد:

ـ كما تعلم سيادتك، هدفنا الأوَّل والأخير هو الدعوة إلى الله. نريد أن نفتتح مقرَّات جديدة للإخوان، ولدينا والحمد لله الأماكن والمال اللازم، لكنَّ الأمن يضيِّق علينا.

عبس اللواء علواني كأنَّه يستنكر:

ـ كيف يضيِّق عليكم الأمن؟!

ابتسم المرشد كأنَّ اللواء قال دعابة، وقال:

ـ سيادتك أدرى طبعًا... الأمن لديه عشرات الوسائل لمنع المقرَّات الجديدة

قال اللواء علواني:

ـ والمطلوب؟!

ـ كلمة واحدة من سيادتك تفتح مقرَّات الإخوان الجديدة.

قال اللواء:

ـ حاضر.

ظلَّ المرشد يردِّد الشكر حتى انصرف، وبدا الرضا على وجه اللواء علواني. كان كلّ شيء يمضي على ما يرام. كان أشبه بمخرج حفَّظ كلّ الممثِّلين أدوارهم، وهو ينتظر بدء العرض بثقة. استدعى مدير مكتبه وقال:

ـ قل للعقيد المسؤول في المجلس الأعلى أنَّ الإخوان وافقوا. استعمل الشيفرة. لا كتابة ولا تليفون.

هزَّ مدير المكتب رأسه متفهِّمًا، وقال اللواء علواني وهو ينهض:

ـ أنا رايح البيت وراجع بالليل.

عندما استقلَّ السيَّارة في طريقه إلى المنزل عاد إليه الإحساس بالقلق. في خضمّ المعركة التي يخوضها للسيطرة على البلد، كانت تغيب عن ذهنه معركته الأخرى في البيت. عندما وصل، وجد تهاني زوجته في حالة سيِّئة، وما إن سألها حتى صاحت وهي تبكي:

ـ هو أنا عندي عشر بنات يا أحمد؟! بنتي الوحيدة شايفاها بتنطفي قدَّامي، ومش عارفة أعمل حاجة.

توجَّه اللواء علواني نحو حجرة دانية، لكن أمّها اندفعت خلفه وأمسكت به وقالت:

ـ أرجوك ما تضغطش عليها، يا أحمد. هي مش ناقصة.

هزَّ اللواء رأسه ونقر بأصابعه على باب حجرة دانية، فلم تردّ. فتح الباب برفق فوجدها جالسة على الأريكة. كان شكلها متعَبًا. بدت كأنَّها لم تَنَمْ وأدرك أنَّها كانت تبكي... ابتسم وقال لها:

ـ أنا رجعت بدري من الشغل. قلت أسلِّم عليك. وحشتيني يا دانية.

تطلَّعت إليه وهزَّت رأسها، وحاولت أن تبتسم، لكنَّها لم تستطع.

جلس أمامها على المقعد وخطر له أنَّ هذه الجلسة معها كانت يومًا ما من أمتع لحظات حياته. تذكَّر تحذير تهاني، فقال بنبرة ودِّيَّة هادئة:

ـ يا دانية، أنت طول عمرك إنسانة ذكيَّة، وأنا دائمًا أفخر بطريقتك في التفكير. هل تعتقدي أنَّ طريقتك دي حتحلّ أيّ مشكلة؟!

لم تردّ، فاستطرد قائلًا بحنان:

ـ هل الحلّ أنَّك تتغيَّبي عن دراستك؟!

ـ مش قادرة أروح الكلّيَّة.

هكذا قالت دانية بصوت خافت، كأنَّها تخاطب نفسها.

ـ يا دانية، كل اللّي بتعمليه مش حيغيَّر أيّ حاجة. أنت بتدمَّري نفسك.

ـ مش قادرة أنسى خالد وهو بيتقتل قدَّام عيني.

ـ أنت مؤمنة بالله وعارفة أنَّ لكلّ أجَلٍ كتابًا.

ـ لا يمكن نقتل الناس ونقول إنَّ أجَلَهم انتهى.

ـ قصدك إيه؟!

ـ قصدي إنّ خالد ما ماتش وحده. شبَّان كتير اتقتلوا في الثورة.

ـ أرجوك، يا دانية... أنا قرَّرت أتجنَّب المناقشة معك. اللّي أنت بتسمِّيها ثورة دي مؤامرة، وعندنا تفاصيلها بالكامل.

ـ خالد ما كانش متآمر.

ـ طبعًا فيه ناس انخدعت ومشيت ورا المتآمرين. ذنبهم في رقبة اللّي دفعهم للتظاهر.

ـ حضرتك منعتني أشهد في المحكمة.

ـ زملاؤك شهدوا كلّهم والقاضي بعد سماع المرافعة حيحجز القضيَّة للحكم. وإذا كان الضابط هو اللّي قتل زميلك حياخذ جزاءه وفقًا للشرع والقانون.

ـ حضرتك متابع القضيَّة.

ـ طبعًا. ومتابع إنّك كلّ يوم بتزوري أهل خالد.

ـ أيوه بازورهم.

كان اللواء علواني يجهد ليسيطر على مشاعره. استطردت دانية بصوت خافت:

ـ أقلّ حاجة أعملها لخالد إنّي أطمئنّ على والده وأخته.

نهض اللواء وجذبها برفق من يدها، فارتمت فجأة في حضنه وراحت تبكي. راح يمرِّر يده على رأسها، وهو يهمس:

ـ دانية، أرجوك، قاومي الحالة اللّي أنتِ فيها... لاحظي أنّ والدتك حالتها الصحّيّة تدهورت بسببك. أوعديني ترجعي الكلّيّة.

(٥١)

شهادة لبنى درويش

للّي بعرفوني مش محتاجة أقدّم نفسي، للّي ما بعرفونيش، أنا اسمي لبنى درويش، عندي ٢٥ سنة.

أنا هاحكي شهادتي عن أحداث يوم ٩ أكتوبر قدّام ماسبيرو، علشان لمّا رحت البيت يوميها وشفت التلفزيون، حسّيت أنّهم اكيد كانوا بيتكلّموا عن بلد غير بلدنا.

يوم الحدّ أنا رحت شُبرا علشان أطلع مع المسيرة اللي طالعة على ماسبيرو من هناك. المسيرة كانت المفروض هتتحرّك الساعة ٣ وتنضمّ على الوقفة الصامتة بالشموع قدّام ماسبيرو الساعة ٥ حدادًا على عنف الجيش الأسبوع السابق ضدّ المتظاهرين السلميّين، وطبعًا للتأكيد على حقّ كلّ مصري، بغضّ النظر عن ديانته، أنّه يعيش آمن على حياته وبيته

ومكان عبادته، خاصّة بعد أحداث كنيسة ماريناب في أسوان.

وصلت الساعة ٣ الضهر. المظاهرة كانت بتتجمّع، أعداد كبيرة جدًّا، أُسر كاملة كتير: أطفال وآباء وجدود مع بعض، صلبان مرفوعة، شباب وشابّات لابسين مرايل مكتوب عليها «شهيدة تحت الطلب»، وهتافات بحرقة بتسأل ليه المصري لو مسيحي ما يبقاش آمن على كنيسته؟ ليه البوليس والجيش ما بيحموش الكنايس من التخريب؟ وليه بعد الثورة لسّه النظام بيستخدم أساليب أيّام مبارك نفسها؟

الهتافات كان فيها عاجبني وفيها مش عاجبني، ولمّا كنت باسمع حدّ بيشتكي من أنّ فيه هتافات دينيّة، كنت باطلب منه ينضمّ للمظاهرة، بيبّن تضامنه واهتمامه بكلّ مصري بلا تفريق، وساعتها الهتافات هتتغيّر.

بعثت على تويتر الساعة ٤،٣٠ «القسّيس المتحدّث بياكّد أنّ المسيرة سلميّة وبيحيّي المسلمين المتضامنين»، بعدها بشويّة، الهتاف كان: «يا طنطاوي جيشك فين، حرقوا بيوت المسيحيّين، حرقوا كنايس مصريّين».

كنّا بنهتف «يا ابن شبرا انزل من دارك، لسّه في مليون مبارك»، «انزل يا مصري»، والأعداد فعلًا كانت بتزيد، مسيحيّين ومسلمين كانوا بينضمّوا للمسيرة. أغلب المسلمين إلّي عدّوا علينا في شبرا كانوا بيبّنوا تضامنهم، بيتسموا، ويأكّدوا على الهتافات. ما حصلش ولا خناقة طائفيّة صغيرة في شبرا.

أوّل مشكلة حصلت تحت كوبري شبرا، عدّينا من تحت الكوبري عادي، وأوّل ما وصلنا الناحية التانية لقينا طوب وقزايز بيتحدفوا علينا

من شباب صغير في السنّ فوق الكوبري، ومن جوّة منطقة عابدين. أنا شخصيًا ما شفتش مين بيحدف. كان في كمان صوت بُمب وصواعق كهربائيّة جايّة من الناحية نفسها. الراجل إلّي جنبي زعّق فيّ: إجري واستخبّي، والستّ إلّي جنبي ابتدت تصلّي وتدعي ربّنا يكون عطوف بنا.

ده اللي بعته على تويتر وقت ٥,٣٥ «المسيرة بيتحدف عليها طوب من فوق الكوبري».

٥,٤٣: «ضرب الطوب وقّف من فوق الكوبري وابتدا من الشارع».

٦,٠٠: «ضرب طوب وقزاز من جوّة عابدين، المسيرة مكمّلة».

المعركة استمرّت ربع ساعة مثلًا، هم بيحدفوا طوب وقزاز وإحنا نردّ بشويّة طوب. وبعدها المسيرة كمّلت على ماسبيرو.

تحت كوبري الجلاء، كانت الروح المعنويّة للمسيرة عظيمة: هتافات قويّة. أغلب الهتافات ذات الطابع الدينيّ اختفت، وأنا شخصيًا كنت سعيدة، بس قلقانة. كنت خايفة هيحصل إيه لمّا نوصل ماسبيرو. وكتبت الساعة ٦,٤٠: «المظاهرة مليانة عواجيز وأطفال، لو حصل عنف هتبقى مأساة». كنّا بنهتف: «يسقط يسقط حكم العسكر»، إحنا الشعب الخطّ الأحمر» و«مصر لكلّ المصريين، أيّ ملّة وأيّ دين»، «الكنيسة اتحرقت ليه؟ العادلي راجع ولّا إيه؟». ساعتها قرأت من صديق على تويتر أنّ فيه حوالى ١٠ عربيّات أمن مركزي محمّلين بالعساكر راكنين عند جراج عبد المنعم رياض. ساعتها كنّا حوالى ٢٥ ألف شخص، وقرّبنا من ماسبيرو. جوّ المسيرة كان عظيم، وللحظة ابتديت أتطمّن. قلت إنّ أكيد الجيش والأمن ممكن يضربونا في نصّ

الليل، لكن مش مجانين علشان يضربونا وفي أطفال ماليين المسيرة، ومن غير أيّ داعي. لمّا قربنا نحوّد على ماسبيرو، أنا قرّرت أروح أشوف من الناحية التانية الوضع عامل إيه.

أوّل ما وصلت لأطراف مبنى ماسبيرو، وقبل ما المسيرة تلحق توصل من الناحية التانية، لقيت الناس بتوع الوقفة بيهتفوا، «مسلم ومسيحي يد واحدة»، وبعدها بحوالى ٣٠ ثانية لقيت صفوف من الأمن المركزي بتجري علينا وهم بيضربوا نار في الهوا، الناس كلّها جريت علشان تهرب من الضرب، والضرب اللّي كان في الهوا ابتدا يبقى على مستوى جسمنا. جريت لأوّل الشارع ولفّيت أشوف الوضع وأدوَّر على أصحابي الناحية التانية من ماسبيرو على النيل. لقيت ضرب النار مستمرّ، والناس كلّها بتجري. وعساكر الجيش والأمن المركزي محاصرينا من كلّ اتّجاه، فوق الكوبري، تحت الكوبري، شارع هيلتون رمسيس وميدان عبد المنعم رياض. الناس اللي معاها أطفال أو ناس كبيرة في السنّ، ابتدت تدوَّر على بعض وتحاول تبعد بعيد عن الخطر. كلّ الناس كانت مخضوضة جدًّا، ما حدّش كان مستعدّ للعنف ده.

الساعة ٦,٢٦ قلت على تويتر: «ولاد الكلب بيضربوا نار على مسيرة مليانة أطفال». ٦,٣٢: «ضرب نار تاني».

ساعتها كنت بقيت عند هيلتون رمسيس على النيل، وأغلب الناس اللّي فضلت كانت معايا، كنت واقفة في وسط الطريق باحاول أفهم اللي بيحصل. فجأة لقينا ناس بتزعّق فينا علشان نطلع على الرصيف. جرينا، لقينا مدرَّعتين من الجيش بيجروا بسرعة جنونيّة في وسط الشارع اللي مليان ناس. الأوّل افتكرتهم جنود أغبياء وهيموّتونا بغبائهم. وبعدين المدرّعات ابتدت تجري بسرعة مجنونة، رايح جاي في الشارع. تجري

في «زيغ زاغ». تشوف مجموعة بتحاول تهرب فتجري وراهم. تطلع فوق الرصيف وتدهس ناس، تشوف ناس الناحية التانية فتحوّد تدوس عليهم. ما كنتش مصدّقة نفسي. كنت مرعوبة. وبعدين المدرّعتين بدّلوا مع مدرّعتين تانيين، عملوا الحاجة نفسها: جري جنوني، دهس للناس، الناس بتجري في كلّ اتّجاه علشان تفادي محاولات الدهس. مجموعة من الناس، فيهم على الأقلّ شابّين صُغَيَّرين خالص، ١٤ ـ ١٥ سنة، كانوا مستخبيين ورا عربيّة خاصّة راكنة في المكان. شفت المدرّعة بتجري ناحيتهم، بتطلع فوق العربيّة وتحطّمها، وتدوس واحد من المستخبيين، الباقيين جريوا ناحية الأمن المركزي علشان ينجوا بنفسهم.

التلات مدرّعات جريوا واختفوا بسرعة، واحدة منهم تباطأت، فالناس اتجمّعوا وجريوا وراها بالطوب وهي بتمشي، وقّفوها ورموا عليها باقي إشارة مرور مكسورة وموّلعة، المدرّعة ولّعت، والطوب كمل. أغلب الناس ابتدوا يهتفوا «وقفوا الطوب». وقعدوا يهتفوا للعسكري علشان ما يخافش «اطلع اطلع اطلع». كانوا خايفين أنّه يتحرق جوّاها. العسكريّ أخيرًا طلع ونطّ، ناس قعدت تضربه، وناس أكتر قعدت تخلّص فيه. العسكري ده كان لسّه قاتل أخواتنا، كان لسّه طابح فينا كلّنا بقلب ميّت، لكنّ الناس قرّرت ما توسّخش إيديها بدم، شفته بيجري في حماية اتنين رجالة كبار في السنّ.

ساعتها انحرّكت ناحية عمارة قدّامها مجموعة من الناس، لقيت نفسي واقفة وقدّام رِجلي جثّة. كان صدره مليان خروم من الرصاص، قميصه متقطّع من كتر الدم والرصاص. اتجمّدت. لحدّ ما ولد زقّني وقالّي ما أقفش كده، وأساعده ننقل الجثمان لمدخل العمارة. دخلت مدخل العمارة، لقيت ناس كتير، واتنين دكاترة بيساعدوا جرحى كتير،

وقدّامي جثمانين. حطّينا الراجل المتخرّم بالرصاص جنبهم. واحد تاني كان واخد طلقة في صدره، والدكتور كان بيحاول يدوَّر على نبض ومش لاقي. وجنبهم كان ولد راسه مفموصة وصدره مطبق من دهس المدرَّعة. كلّ المصابين والجثامين إلّي شفتهم كانوا لابسين مدني. حاولت أساعد في «المستشفى» إلّي في بير العمارة وما كنتش عارفة أعمل حاجة من الخضّة. فخرجت. كلّ الناس برّة كانت مذهولة، كنت حاسّة أنّنا في حرب.

بعديها بدقايق كتبت على تويتر، «حسب إلّي شفته والشهادات الموثوقة، إلّي ماتوا تلاتة»، ماكنتش متخيّلة سوء الوضع.

طلعت عند هيلتون رمسيس أدوَّر على واحدة صاحبتي. كان في ناس كتير، خاصّة ستّات قد أمّي، واقفين يصلّوا في وسط الشارع ويطلبوا لنا الرحمة، وفجأة لقيت وابل رصاص بيتضرب علينا من فوق الكوبري. كان في صفّ طويل من عساكر الجيش بيضربوا علينا. كلّ الناس جريت، وشويّة ناس رجعت وواجهت الرصاص بالطوب بشجاعة. شفت في الهرج راجل بيقع برصاصة.

الضرب كمّل لمدّة وبعدين وقف، وابتدا ضرب الغاز المسيل، كان خانق جدًّا وبيحرق الجلد أكتر من المعتاد. دخلت شارع جانبي أشتري بيبسي علشان الغاز. لقيت ستّ بتصوَّت وبتقول «يا ربّ، مالناش مكان في بلدنا يا ربّ، يا ربّ، بتعرّفنا أنّ دينهم إلّي صحّ يا ربّ؟ ارحمنا يا ربّ». رحت أحضنها، لقيتها واقفة وتحت رِجلها جوزها مضروب بالرصاص. حاولنا ننقله علشان نوصّله الإسعاف، كان بيموت، بيطلّع أصوات حشرجة مخيفة، والدم بيطلع من صدره على دفقات. أصوات الحشرجة والدم وقفوا قبل ما نوصل للإسعاف،

الراجل بتاع الإسعاف قال لنا إنَّه مات وإنَّنا لازم نستنَّى عربيَّة تانية تنقله لأنَّ الأولويَّة للمصابين إلِّي في وضع خطر. كنت قاعدة حاضنة الستّ على الأرض وهي بتصوَّت، وجوزها جنبنا ميِّت. لحدّ دلوقتِ ما عرفش اسمه علشان أروح أعزِّيها.

طلعت على الشارع الرئيسيّ وأنا مرعوبة، كان ضرب الناس والغاز مكمِّل، ومن ناحيتنا، ضرب الطوب مكمِّل. قعدت أعيَّط على الرصيف شويَّة، لحدّ ما واحد صاحبي اسمه محمَّد شدِّني من إيدي يجرِّبني من قنبلة غاز اتضربت جنبي. فاكرة الهتاف إلِّي كان جنبي وسط كلّ ده، «مسلم، مسيحي، يد واحدة»...

الوضع ده استمرّ ساعات. وفجأة ظهر من ورانا مجموعة شباب لابسين هدوم بسيطة وماسكين سيوف، وبيهتفوا بكلام عنصري ضدّ المسيحيِّين. بعدين لمَّا اتكلِّمنا معاهم فهمنا أنَّهم من بولاق. سمعوا في التلفزيون أنَّ المسيحيين مسلَّحين وبيهاجموا الجيش، فنزلوا بدافعوا عن الجيش. واحد منهم قعد يسألنا هو فين سلاح المسيحيِّين؟

الليلة طويلة، وفِضِلنا نتضرب نار عند ماسبيرو ولحدّ وسط البلد لساعات. ظهروا ناس حقيرة بتقول شعارات «إسلاميَّة» وبتشتم المسيحيِّين، واحد صاحبنا شافهم نازلين من عربيَّة أمن مركزي. رجعنا للشغل الوسخ القديم نفسه.

أنا دلوقتِ مش قادرة أكمِّل حكي.

اللي حصل يوم الحد ما كنش له أيّ علاقة بمواجهات بين مسلمين ومسيحيِّين، ما كنش فتنة، كان ببساطة عنف السلطة ضدّ متظاهرين سلميِّين، إلِّي كان بيحصل أيَّام مبارك نفسه. مش بس كده،

لكنّ السلطة مستعدّة تستخدم الإعلام علشان تخلّي مصريّين يضربوا بعض بالكذب، مستغلّين يولّعوا في البلد.

لكن اللي واضح بالنسبة لي هو أنّ يوم الحد قلب كلّ الموازين. يوم الحد أثبت أنّ المجلس العسكريّ مستعدّ يضحّي بنا كلّنا، مسلمين ومسيحيين، ويخلق فتنة من ولا حاجة، ويطلب من مصريّين ينزلوا يضربوا مصريّين زيّهم، لمجرّد أنّه يحافظ على النظام، إلّي كنّا نريد إسقاطه، زيّ ما هو.

يومها سقط شهداء من المتظاهرين لسّه مش عارفين عددهم، أقلّ عدد قالته وزارة الصحّة كان ٢٥، أنا شخصيًّا شفت ١٧ جثمان. واحد من الجثامين دول كان شابّ أعرفه، اسمه مينا دانيال، مينا كان معرفة من التحرير، ما كنّاش أصحاب بس كنت أعرفه. مينا كان شابّ جدع، يوم معركة الجَمَل كان اتصاب برصاصة ونجي منها، لكن المرّة دي الرصاصة إلّي جت في صدره وعدّت من ضهره قتلته.

مينا الجدع إلّي كنت باشوفه في المظاهرات، شفته ميّت. ما كنش شبهه.

شهادة بيشوي سعد

ـ البداية:

مسيرة النهار ده كانت مختلفة عن المسيرتين اللّي خرجوا قبل كده للتنديد بهدم كنيسة القدّيس مارجرس بقرية الماريناب.

الأعداد كانت ضخمة جدًّا مقارنة بقبل كده.

شارع شبرا اتقفل ابتداءً من دوران شبرا... ولحدّ مسرة.

كلّ ده بني آدمين،

مسلمين وأقباط،

ما عجبهمش منظر فضّ الاعتصام الأخير قدّام ماسبيرو بالقوّة.

وماعجبهمش أنَّ الكنائس بتتحرق ظلم وما فيش عقاب وردع.

ف نزلوا يهتفوا... مسلم مسيحي إيد واحدة.

معظم الهتافات كانت موجَّهة ضدَّ طنطاوي والمجلس العسكريّ.

وكان معانا مسلمين أكتر من المرَّات اللِّي فاتت.

مشينا طبيعي جدًّا في شارع شبرا.

شويَّة احتكاكات بسيطة ومضايقات كالعادة.

بس لأنَّ العدد كان ضخم والناس غضبانة جدًّا، ما حدِّش تجرَّأ على أنَّه يشتمنا أو يتفّ علينا زيّ المرّتين اللِّي فاتو.

- أوَّل الغيث:

وصلنا أوَّل شبرا بسلام.

واحنا معدّيين في نفق شبرا،

تحت كوبري السبتيَّة،

لقينا سيل حجارة وطوب نازل علينا من فوق الكوبري.

شويَّة ناس اتصابت إصابات خفيفة تمَّ إسعافهم على طول.

فِضِلنا واقفين تحت الكوبري لحدّ لمَّا شباب من اتِّحاد ماسبيرو طلعوا فوق الكوبري.

والناس اللِّي كانوا بيرموا طوب أوَّل ما شافوهم جريوا.

اتأكّدنا أنَّ الحوار بسيط وأنَّ دول مجرَّد أهالي مش عاجبهم منظر الصلبان اللّي في المسيرة ف قالوا يصبَّحوا علينا بطريقتهم.

كمّلنا لحدّ القللي.

وعند مبنى هناك تابع للحيّ،

سمعنا ضرب نار شديد جدًّا.

الناس اتفرقت وابتدت تجري في كلّ حتَّة.

كان فيه أب كاهن واقف فوق عربيَّة من اللّي فيها الهيئة اللّي بيقودوا المظاهرة.

أوّل ما لقي القلق ده مسك المايكروفون وابتدا يهدّي الناس.

وقال بالحرف الواحد:

«يا جماعة إحنا مظاهرتنا دي سلميَّة... مهما ظهرت استفزازات أو احتكاكات هاتفضل سلميَّة... وبعد إذنكم مش عايزين أيّ حدّ يتنرفز ويفقد أعصابه... حتى بالشتيمة أو الإهانة مش عايزين نبوَّظ شكل المسيرة».

الناس هديت شويَّة وابتدت الهتافات تسخن ضدَّ المجلس وضدَّ طنطاوي وعنان.

المجزرة

وصلنا عند رمسيس هيلتون وقبل ما نكمّل على ماسبيرو،

فيه أب كاهن طلع فوق العربيَّة اللّي بتقود المظاهرة،

وقال «يا جماعة إحنا جايين نوصَّل رسالة وهانمشي على طول.

مهما حصل مسيرتنا هاتفضل سلميَّة. إحنا مش جايين نتخانق أو نحارب. إحنا بنقول يا ربّ وكيرياليسون (يا ربّ ارحم). لو أيّ حدّ جراله حاجة أو اتصاب أو مات أنا باقولّكم أنّه هايتحسب عند ربّنا شهيد على اسم المسيح».

زيّ ما يكون الأب الكاهن ده كان حاسس باللّي حايحصل. بعدها بنصّ ساعة الناس سمعت الكلام ده واتحمّست جدًّا وكمّلنا المسيرة.

وقفت اشتري كان بيبسي من كشك قدّام رمسيس هليتون،

واتّصلت بأمّي وبأختي عشان أطمنّهم عليّا.

المهمّ اتأخّرت حوالى عشر دقايق.

كان الجروب اللّي كنت طالع معاه سبقني بكتير وأنا بقيت في آخر المسيرة.

أوّل ما دخلنا على الكورنيش،

مرّة واحدة سمعنا صوت طلقات رصاص غزيرة جدًّا،

ومرة واحدة لقينا كلّ اللّي قدّامنا بيلفّوا ويجروا علينا وبيصرخوا «اجروا... دول بيضربوا نار».

أنا افتكرت أنّ الجيش بيخوّفنا كالعادة بكام طلقة في الهوا

مرّة واحدة الأنوار كلّها فصلت،

وسمعت صوت عربيّة بتفرك في الأرض.

بابصّ لقيت مدرّعة جيش جايّة من بعيد بسرعة جنونيّة،

وفيه عسكري فوق المدفع بتاعها فاتح الرشّاش في كلّ اتّجاه.

الناس كانت بتجري زيّ المجانين في كلّ اتّجاه.

والمدرَّعة كانت بتدهس أيّ حدّ في سكّتها.
النور كان ضعيف جدًّا، وما حدّش كان شايف قدّامه تقريبًا.
سامعين بس أصوات صراخ وأزاز بتاع المبنى اللّي قبل ماسبيرو بيتكسر من الرصاص.
جريت أستخبّى بين عربيّتين راكنين لحدّ لمّا المدرَّعة عدِت وافتكرت أنّ خلاص كده.
لقيت مدرَّعتين تانيين بيجروا بالطريقة نفسها،
ويدهسوا أيّ حدّ في سكّتهم بَرْضُه.
وخلصوا الشارع ولفُّوا ورجعوا كرَّروا اللّي عملوه الناحية التانية.
تخيَّلوا بقى منظر الناس وهي مذعورة،
خصوصًا أنّ أغلبيَّة المسيرة كانت ستَّات وشباب صُغَيَّرين.
جرينا على حارة بتنفّد على الشارع الموازي،
والدنيا ضلمة كحل...
أصوات بكا وصريخ في كلّ حتّة.
فِضِلت أجري لحدّ لمّا وصلت عند رمسيس هيلتون...
وقفت بحاول أستوعب إيه المشهد اللّي شفته ده. كنت مصدوم من ردّ فعل قوّات الجيش لأنّه ما كنش متوقَّع يبقى بالعنف ده.
كنت مصدوم من منظر الأشلاء اللّي مَلِتِ المكان،
وصوت بكا وصراخ بينادي يا ربّ يا عذرا، يا يسوع.
بعدها بحوالى عشر دقايق ابتدوا الشباب يحاولوا يشيلوا المصابين ويطلّعوهم.
مهما كتبت أو قلت مش هاقدر أوصف بشاعة المنظر الدموي اللّي شفته.

لقيت اتنين شايلين واحد نصّه التحتاني مش موجود.

بابصّ في وشه لقيته اللّي كان بيهتف قدّامي قبل ما ندخل كنت ماشي جنبه من مكان ما انضمّيت للمسيرة ولحدّ ما وقفت أجيب البيبسي، يعني لو ما كنتش جيبت بيبسي واتأخّرت كان زماني مكانه.

ولقيت كذا واحد واخدين رصاص في كلّ حتّة في جسمهم،

ودمهم غرّق الشارع...

الناس هاجت جدًّا.

وفيه جزء منهم حاولوا يشيلوا مصابين ويدخلوا بيهم رمسيس هيلتون.

بس الأمن منعهم واعتدوا عليهم.

ف الناس اتجنّنت وابتدت تخبّط وترزع في الإزاز.

وأنا ماشي، شفت حوالى عشر عربيّات أمن مركزي داخلين على ماسبيرو.

وما عرفتش بعدها إيه اللّي حصل لأنّي ما كنتش دريان بنفسي.

ووقفت حوالى نصّ ساعة في الشارع مش حاسس بأيّ حاجة حواليّا من الصدمة.

لمّا رجعت بيتي، لقيت أهلي طبعًا خاربين الدنيا عليّا،

ولقيت التليفزيون المصري، اللّي مش لاقيله وصف قدر كفاية أوصفه بيه، بيحكي في هَذْي غريب جدًّا، زيّ مثلًا استشهاد جنديين على أيدي متظاهرين أقباط.

وإزّاي المتظاهرين الأقباط بيحاولوا اقتحام ماسبيرو ويطلقوا الأعيرة الناريّة على قوّات الجيش.

وكلّه كُوم، والمذيعين المستفزّين ولاد إلّي كوم تاني.

خلاصة القول، حبّيت أوضّح كام حاجة كده عشان الناس تبقى فاهمة حقيقة اللّي حصل:

أوّلًا: إحنا كان معانا في المسيرة مسلمين يمكن مش كتير بسّ أكتر من المسيرتين اللّي فاتوا.. وكانوا بيشاركونا حتى في بعض الهتافات المسيحيّة.

ثانيًا: لمّا اتعرّضنا للضرب في أوّل شبرا، كلّ اللّي عملناه انّنا جرينا، ولو كان معانا سلاح زيّ ما الإعلام بيقول، كان أقلّ واجب نردّ على الاعتداءات دي.

ثالثًا: طول المسيرة كنّا بنأكّد على السلميّة، وأبونا حذّر أكتر من مرّة من الاستفزاز أو الاحتكاك المثير للمنف.

رابعًا: عدد الناس اللّي اتدهست وماتت بالرصاص... أضعاف أضعاف اللّي الإعلام أعلن عنه لحدّ دلوقتِ (٣٩ شهيدًا)...

خامسًا: زيّ ما قلت قبل كده، فيه ناس انفعلت جدًّا من منظر الدم وأشلاء الشهداء في كلّ حتّة. عشان كده، أيّ أحداث عنف أو اعتداءات حصلت بعد كده بين المتظاهرين والجيش أو الشرطة، كانت نتيجة طبيعيّة جدًّا للّي حصل (نفس سيناريو أحداث الثورة).

دلوقتِ... أبوس إيديكم ما حدّش يصدّق حرف من إلّي بيتقال في التليفزيون المصري، مهما كانت شخصيّة محترمة أو محلّ ثقة المكان القذر ده.

ماسبيرو ما فيهوش خرم إبرة مش خاضعة للعسكر... ما فيش كلمة بتتقال فيه من غير تخطيط وحساب مسبق.

ما تصدَّقوش أيّ إشاعات أو أيّ كلام عن فتن بين المسيحيين والمسلمين غير لمَّا تتأكّدوا من المصدر لأنَّ دي اللعبة القذرة دلوقتِ اللّي من خلالها انقلبت الموازين... اتحوّل مجلس العار من جاني لمجني عليه... وكسب تعاطف معظم المسلمين اللّي ما عرفوش حقيقة اللّي حصل... وكسب تعاطف كتير كمان من المسيحيِّين اللّي كانوا معترضين على المسيرة وشايفين أنَّها غلط وأنَّ اللّي خرجوا دول يستاهلو اللّي حصلّهم!

انشروا أيّ معلومات أو ميديا توضح للناس حقيقة اللّي حصل، وصلّوا وادّعوا أنَّ كابوس العسكر ده ينتهي قبل خراب مصر.

أوعوا تزوِّدوا الطينة بلّة وتمسكوا في بعض عشان خاطر الناس اللّي ماتت النهار ده وهي بتهتف سلميَّة سلميَّة:

ربّنا يرحم كلّ بطل استشهد النهار ده،

ويحمي بلدنا المباركة من الخراب.

شهادة محمَّد الزيَّات:

أوّلًا، يجب أن أقدِّم التعازي إلى أهالي الشهداء، وأنعى جميع شهدائنا المصريّين، وأحتسبهم عند الله من الشهداء.

ثانيًا، دي شهادة مش تحليل. يعني أنا بقول اللي شفته فقط من دون أيّ تحليلات أو إيماءات.

الشهادة:

يوم المسيرة كنت فى الشغل ومتابع المسيرة على تويتر من أوّل

نحرّكها من شبرا. عند نفق شبرا طلع عليهم بلطجيّة، بس ربّنا سترها معاهم، وكمّلوا، وكلّ ده أنا لسّه بتابع على تويتر. وقالوا إنّهم عدّوا على الأهرام فى شارع الجلاء وكلّ الناس بتتجمّع معاهم. قلت أنا عيب عليّا لازم أشارك فى هذه المسيرة، هنزل أقابلهم في عبد المنعم رياض، يعني عيب أبقى متضامن مع قضيّتهم وعمّال أصوّت وأنا قاعد عالكومبيوتر. بس ضميري قاللّي يا واد روح حتى لو نصّ ساعة بسّ إثبات وجود، وعلى الأقلّ أبقى متّسق مع نفسي ومبادئي. وكده قمت نازل واخد تاكسي، وسيبت العربيّة وحتى معييش محفظة، لأنّي مش نازل التحرير ولا نازل مظاهرة خطيرة.

المهمّ نزلت ووصلت عند هيلتون رمسيس ولقيت الأعداد كبيرة، ووصلوا عند التليفزيون. وزيّ ما توقّعت مظاهرة مسيحيين بقى وناس مؤنّبة زيادة وشايلين يفط وصلبان وشموع. أخدت شمعة وانمشّيت شويّة وسط المظاهرة عشان انفرّج، المظاهرة كانت مليانة مسلمين وناس بدقون وبنات وستّات محجّبات. وصلت على الكورنيش عند بتاع النظّارات اللّي جنب راديوشاك، ومرّة واحدة واحد مِسِك إيدي اليمين. بصّيت لقيت شابّ مبتسم لي ابتسامة إحنا إيد واحدة، فابتسمت ومشيت معاه. الواد ماشي وماسك إيدى كأنّنا بنعلن موقف، يعني ولا سألني إنت مين ولا أنا سألته، ولا سألني إنت مسلم ولّا مسيحي ولا أنا سألته. وكان فيه قسّيس فوق عربيّة كلّها ساندوتشات. كده عمّال يقول كرياليسون وإحنا بنردّد وراه: كيرياليسون يا ربّ ارحمنا.

فجأة سمعت طلقات نار كتير، وصوت ستّات بتصوّت، وحصل هرج ومرج في المكان. قام الواد شادِدْني ناحية الرصيف لأنّ كلّ الناس كانت بتجري في هلع وأنا مش فاهم فيه إيه ومرعوب لأنّ

صوت طلقات الرصاص جاي من كلّ اتجاه. مرّة واحدة لقيت إيدي بتنشدّ لتحت، ببصّ عالواد لقيت رجله تترنّح وفيه رصاصة في جنب راسه اليمين، وتقريبًا طلعت من الناحية التانية، الواد بدأ يترنّح ووقع متكعبل عالأرض وباصِصْلي فوق نظرة؛ نظرة عدم تصديق للّي حصل؛ نظرة هو أنا بموت طبّ ليه وإزّاي؛ نظرة عدم تصديق للموت نفسه. الأوّل كنت فاكره باصِصْلِي، لكن بعد ما راجعت الموقف اكتشفت إنّه كان باصص فوق لربّنا. بسّ أنا اللّي كنت في وشّه. نظرته مفيهاش غضب ولا زعل. فيها عدم تصديق فقط وذهول واستفهام ونُصّ ابتسامة. أقسم بالله أنا معرفش الواد ده مسيحي ولّا مسلم، وماجتش فرصة أسأله ماكنش لابس صليب وماخدتش بالي كان فيه صليب في إيده ولّا لأ، لأنّي ماكنتش مركّز. كلّ ده وهو ماسك إيدي. وبهدوء ساب إيدي ونزل كلّه عالأرض وعينه مفتوحة. أنا من الخضّة نزلت جنبه وقعدت أهزّ فيه وأقول فُوق... فُوق... وكام واحد جُمّ وبصُّولي وقالولي: فُوق إيه، بس شيل معانا. شيلناه فوق الأرض وبصّ شمال ناحية التليفزيون لقيت الناس بتتبدّر زيّ النمل وبيتفركشوا. ليه بقى عشان مدرّعة كانت ماشية زيّ المجنونة ولا كأنّ اللّي سايقها سكران وبيتطوح المدرّعة دي كانت متّجهة ناحيتنا، لدرجة أنّنا بعد ما رفعنا الواد فوق الأرض كلّنا ومن دون تفكير سبناه يقع تاني وجرينا. شفتوا مهانة أكتر من كده؟!! عارفين يعني إيه إحساس راجل لمّا يجري ويسيب واحد ميّت أو مصاب؟ يجري بحياته لأنّه خايف على روحه... هي دي المهانة والرجّالة سيتفهّمون.

جريت أنا ناحية النيل وقنابل الغاز مَلِتِ الجوّ، وأنا بعيّط مش عارف من الغاز، ولّا من الواد اللّي مات، ولّا على نفسي، ولّا على

كلّه. وانا بتراجع شفت بعيني كمّيّة أشلاء سايباهم المدرَّعة وراها أمعاء وأمخاخ ورجلين ونصّ بني آدم. كلّ ده شفته. بس الأقذر بقى إنّي شفت ناس بتجري ومن الهلع بتدوس على هذه الأشلاء. ماحدّش بيفكّر. كلّه بيلحق نفسه... عارفين يعني إيه جثّة شهيد قدّامك تفضل تتهان وبتداس عليها وتلفّ وتتحرَّك لأنّ الناس بتجري فوقها وبتمشي فوتها وماحدّش بيفكّر يبصّ تحت.

فضلت أتراجع لحدّ مقرّ الحزب الوطنيّ، وشفت ناس فوق كوبري أكتوبر بيرموا طوب عالناس تحت، والمنظر بدا يبقى منطقة حرب وناس بتصوَّت وناس بتجري راجعة جوَّا تاني، ولمحت ناس بتجري ورا المدرَّعة اللّي كانت هتدوسنا من شويّة، وهي راجعة بعد ما خلصت لفّتها.

كنت أنا بجري الناحية التانية ورجعت عالشغل. أحبّ أقول إنّي لو كنت اتقتلت يومها ما كنش حدّ هيعرف ولا كنت هظهر لأنّي نازل من غير بطاقة، حتى يعني كنت هبقى شهيد من بتوع مقابر الصدقة اللّي همّا بيدفنوهم جماعة دول. سؤالي هو سؤال الواد نفسه اللّي مات، اللّي بقى أعزّ أصدقائي وماعرفش اسمه أصلًا: ليه ده حصل؟ اللّي عنده ردّ يتفضّل يفهمّني وشكرًا.

انتهت الشهادة

(٥٢)

كيف استطاعت نورهان أن تتمالك نفسها في هذا الموقف العصيب؟! التفسير الوحيد أنَّ ربّنا، سبحانه وتعالى، ألهمها الحكمة وثبّت قلبها جزاءً لها على تقواها. كان الحاجّ شنواني عاريًا وكانت عارية. ارتدت بسرعة ثوبًا وحذاءً من دون كعب، وسرَّحت شعرها على عجل، ثم أحضرت غيارًا وبيجاما لشنواني وبذلت مجهودًا حتى ألبسته. كان جسده جامدًا وعضلاته متصلّبة، حرَّكت قدميه ورفعتهما بصعوبة، وبذلت مجهودًا أكبر لترفع جسده وتُسنده إلى ظهر السرير. استغرق الأمر نحو نصف ساعة حتى أصبح الحاجّ شنواني يبدو نائمًا بشكل عاديٍّ ببيجامته على فراشه، فتحت بعد ذلك الخزنة المثبَّتة في الحائط وأخرجت وثيقة الزواج واثنتين وثلاثين قطعة مجوهرات كانت تعرفها جيِّدًا، أحصتها واحدة واحدة، ووضعتها في حقيبة يد كبيرة ماركة شانيل بوي. لقد ألهمها الله بهذا الإجراء الاحترازيّ لسبب مهمّ: الحاجّ شنواني متزوِّج من سيِّدتين غيرها، وله أولاد كبار يملكون

نفوذًا كبيرًا في الدولة، وهي تعلم بأنَّ زواجها منه لا يعجب كثيرين. من الممكن أن يسطو أحد على وثيقة الزواج أو المجوهرات (التي اشترى الحاجّ شنواني عشرين قطعة منها). بعد أن اطمأنّت إلى وضع الوثيقة والمجوهرات في حقيبة يدها التي لن تفارقها بعد ذلك، انتقلت إلى الخطوة التالية، فاتّصلت بطبيب شنواني الخاصّ، وهي تصرخ:

ـ الحاجّ رجع من الشغل وتغدّى وقال لي حانام ساعة. جيت أصحّيه لقيته...

لم تكمل نورهان الجملة من البكاء وتصرخ:

ـ يا حاجّ قوم... ردّ عليَّ يا حاجّ.

بعد دقائق جاءت سيّارة الإسعاف ومعها الطبيبُ الخاصّ (الذي يسكن في جوارهم في التجمّع). أجبر الطبيب نورهان على ابتلاع حبّة مهدّئة لأنّها لم تتوقّف عن الصراخ والبكاء والمحاولات المتكرّرة للّطم على وجهها التي تصدّى لها الخدم والمسعفون حتى لا تؤذي نفسها. كشف الطبيب بعناية على شنواني، ثم انفرجت أساريره وهتف:

ـ الحاجّ صاحي، الحمد لله.

اقتربت عندئذ منه وهتفت:

ـ دكتور أرجوك اعمل له أيّ حاجة. أبوس إيدك. أنا ما ليش غيره في الدنيا.

تمّ نقل الحاجّ في سيّارة إسعاف مجهّزة حملته إلى مطار حربيّ يبعد عن الفيلّا نحو ربع ساعة، حيث كانت تنتظره طائرة هليكوبتر عسكريّة مجهّزة للإسعاف أمر بها المشير قائد الجيش لمّا أخبره مكتبه بما حدث. نقلته الطائرة إلى المستشفى العسكريّ العالميّ، وهو أكثر

مستشفيات مصر كفاءة وتجهيزًا. وقد استجاب الحاجّ شنواني للإسعاف في الطائرة، ففتح عينيه مرَّة، وقال بصوت ضعيف:

ـ آه.

هتفت نورهان بصوت مؤثِّر:

ـ سلامتك من الآه يا حبيب قلبي.

بعد الفحوص الكاملة التي تمَّ إجراؤها بمجرَّد وصوله، صرَّح الطبيب لنورهان بأنَّ الحاجّ تعرَّض لإجهاد شديد، ثم سأل بصوت خافت وابتسامة حذرة:

ـ هو حضرتك لقيتيه تعب لوحده.

تجاهلت نورهان نظرة الطبيب المتشكِّكة، وقالت بصوت عالٍ:

ـ أيوه، دخلت لقيته يا حبيبي زيّ ما شفته.

لم يعلِّق الطبيب، وإنَّما طمأنها إلى أنَّه يحتاج إلى أسبوع راحة في المستشفى. تصرَّفت هنا نورهان كما يجب على الزوجة المسلمة. فقد طلبت من الطبيب إخبار زوجته الأولى وأولاده، وانسحبت هي إلى بيتها بعدما أوصت الطبيب بأن يستدعيها عندما تحين الفرصة الملائمة. انتشر خبر وجود الحاجّ شنواني في المستشفى، فامتلأت حجرته والممرّ المُفضي إليها بباقات الزهور المستورَدة والثمينة، وتوافد كثيرون لزيارته، الأمر الذي دفع الطبيب إلى منع الزيارة عنه نهائيًا، باستثناء الشخصيَّات المهمَّة بالطبع، فقد تفضَّل المشير القائد الأعلى للقوَّات المسلَّحة بزيارة الحاجّ شنواني بنفسه، ثم زاره اللواء أحمد علواني وأعضاء المجلس العسكريّ والوزراء جميعًا. كما زاره مرشد الإخوان المسلمين مع عضوين من مكتب الإرشاد. بعد أسبوع، كما تنبَّأ الطبيب، تحسَّنت حالة شنواني وإن كان وجهه ما زال شاحبًا وحركته

صعبة ومحدودة. على أنّه أصرَّ، وهو في هذه الحالة، على حضور الاجتماع الذي عقده اللواء علواني للإعلاميين. اصطحب شنواني طبيبه الخاصّ، وطلب إليه أن ينتظر خارج القاعة تحسُّبًا لأيّ تَعَب قد يلمّ به. كان الاجتماع في القاعة الكبرى التي عُقد فيها اجتماع التنحّي. شتَّان ما بين اليوم ويوم تنحّي مبارك. يبدو اللواء علواني اليوم هادئًا مطمئنًّا. تمَّت دعوة كلّ الإعلاميين البارزين وأصحاب القنوات الخاصَّة وكبار المسؤولين في إعلام الدولة. خمسون شخصًا تقريبًا تمَّ إجلاسهم إلى الموائد المستديرة، بينما جلس اللواء علواني وحده على المنصَّة، وإلى جواره الرائد مدير مكتبه الذي ظلَّ يتابع الاجتماع واقفًا، ويخرج من القاعة بين الحين والحين ويعود ليهمس بخبر لسيادة اللواء، أو يتلقّى تعليماته. التفت اللواء علواني إلى الحاجّ شنواني، وقال بودّ:

- أوَّلًا، أحبّ أن أهنّئ الحاجّ شنواني بالسلامة...

سَرَتْ في القاعة همهمات وِدّيّة، وابتسم الحاجّ ورفع يده بضعف ليحيّي الجالسين. واستطرد اللواء علواني، وهو ينظر إلى نورهان إلى جوار زوجها.

- ثانيًا، لازم أحيّيك يا نورهان على الجهد العظيم اللّي بتقومي به في قناة «مصر الأصيلة». عارفة أنَّ أجهزة الرصد بتقول إنَّ برنامجك بقى الأوَّل في المشاهدة على مستوى الجمهوريّة!

ابتسمت نورهان بحياء، وهزَّت رأسها، لكنَّ اللواء استمرَّ بحماسة:

- الحقيقة يا جماعة، نورهان نموذج. هي مش بتكتفي بتنفيذ التعليمات، إنَّما هي تبتكر أفكار من عندها لتوعية الناس... أنتِ

المفروض تبقي مديرة القناة.

سَرَتْ همسات وضحكات، وقالت نورهان بلهجة ذات مغزى:

ـ المنصب ده عاوز واسطة، يا فندم.

ضجَّ الحاضرون بالضحك، وتطلَّع اللواء علواني إلى شنواني وقال:

ـ أنا واسطتك. أنفع يا حاجّ شنواني.

ـ على عيني، وعلى رأسي.

ـ خلاص مبروك يا نورهان، بقيت مديرة القناة.

علت تعليقات ضاحكة، وهنَّأ بعض الحاضرين نورهان، وانتشر جوّ من المرح. احتفظ اللواء علواني بمزاجه الرائق، وبدأ حديثه قائلًا:

ـ قبل ما أقول لكم الغرض من الاجتماع. أحبّ أكلِّمكم على الجهاز اللّي أتشَرَّف برئاسته. ضبَّاط الجهاز ليسوا فقط رجال أمن. كلّنا درسنا علم نفس واجتماع، وفيه ضبَّاط كثير معهم شهادات من جامعات كبيرة. إحنا كلّنا من المصريِّين الوطنيِّين وأنا هنا أتكلَّم بصراحة... شعبنا جاهل وتفكيره متخلِّف. معظم المصريِّين لا يعرفون كيف يفكِّرون لأنفسهم. شعبنا مثل الطفل إذا تركته يقرّر بنفسه سيؤذي نفسه. دور الإعلام في مصر غير دوره في الدول المتقدِّمة. مهمَّتكم كإعلاميِّين هي التفكير بدل الشعب... مهمَّتكم صناعة دماغ الإنسان المصري وتكوين آرائه. بعد فترة من التأثير الإعلامي الفعَّال، الناس تعتبر أنَّ ما يقوله الإعلام هو الحقيقة. إذا قلتم إنَّ فلان حرامي يبقى حرامي. إذا قلتم إنَّ فلان بطل الناس تؤمن بأنَّه بطل. أنا مش باهين

الشعب. أنا ابن الشعب ده. أنا باكلِّمك على تكوين الشخصيَّة المصريَّة. المصري العادي رجل بسيط في حاله، كلّ مطالبه في الحياة أنَّه عاوز يأكل ويربّي عياله ويتفرَّج على كرة القدم، ويوم الخميس يدخِّن نَفَسين حشيش أو يشرب بيرة ويعمل جنس مع مراته.

ارتفعت ضحكات في أنحاء القاعة، وضحك اللواء علواني، لكنَّه استطرد قائلًا:

ـ مش هي دي الحقيقة؟! عمر المصري ما فكَّر في أيّ شيء أكثر من كده. الأكل والعيال والكرة والجنس... الحاكم في مصر له هيبة وله وضع غير أيّ بلد في الدنيا. المصري عمره ما يتمرَّد ضدَّ الحاكم. عارفين مؤامرة يناير نجحت في الأوَّل ليه؟ لأنَّ فيه عيال عملوا إعلام لوحدهم. كلّ الموضوعات اللّي هيَّجت الناس ابتدأت على فيسبوك وتويتر. دي كانت غلطتنا كدولة، وإحنا اتعلّمنا وبنصلّح الغلط. أنا عاوز أقول لكم إنَّ المهمَّة اللّي ملقاة على عاتقكم كبيرة. أنتم بتشكّلوا تفكير المصريين في فترة صعبة. تخيَّلوا لو ماكنتوش غطّيتم أحداث ماسبيرو بشكل جيِّد كان ممكن إيه اللّي يحصل في البلد؟ أنتم بتقودوا الدفاع عن الدولة المصريَّة. أنتم مثل المدفعيَّة في الحرب، لازم تمهِّد بقصف مركّز قبل تقدُّم المشاة... العيال الخَوَنة اللّي عملوا مؤامرة يناير ممكن اعتقلهم كلّهم في ليلة واحدة، لكن لازم الإعلام يكشفهم الأوَّل. لازم يفقدوا أيّ مساندة من الشعب. لازم الشعب يكرههم، ولازم لمَّا أقبض عليهم الناس تفرح... أنا جمعتكم النهار ده عشان أقول لكم إنَّ الدولة المصريَّة، في الفترة القادمة، ستدخل في مواجهات عنيفة مع المخرِّبين. ما حدث في ماسبيرو كان مجرَّد بداية.. كلّ اختياراتنا مفتوحة، وسنحتاج إلى دعمكم أكثر من أيّ وقت.

(٥٣)

مازن،

لولا كلماتك التي أستعيدها فتمنحني الأمل، لما تحمّلت ساعة واحدة ممّا عشته بالأمس. أمضيت النهار مع أهالي شهداء ماسبيرو في مستشفى القبطي. شممت رائحة الموت. تأكّدت، في الأمس، من أنّ للموت رائحة. لا أستطيع أن أصفها، لكنّني أصبحت أعرفها. رائحة ثقيلة سوداء كئيبة. رأيت الشهداء الذين دهستهم مدرّعات الجيش المصريّ. رأيت بنتًا تحتضن خطيبها، وقد انطحن رأسه وخرج منه المخّ. رأيت الأمّ تنحني على جسد ابنها، وقد طحنت المدرّعة نصفه الأعلى بالكامل. هل تتخيّل أنّ الأستاذ أشرف، على الرّغم من تجربته في الحياة، انهار وراح يبكي كالطفل، وغاب عن الوعي حتى أسعفه الأطبّاء. وعلى الرّغم من ذلك، فإنّه رفض أن يذهب إلى بيته، وأصرّ على البقاء معنا حتى دفن الشهداء. كيف يصل الإجرام بالمجلس العسكريّ إلى أن يُصدر الأوامر بدهس الأقباط بالمدرّعات؟! لماذا لم

يكتفوا بقتلهم بالرصاص؟ هل تعمَّدوا ذلك من أجل ترويع الأقباط؟ أسئلة كثيرة الحَّت على ذهني وسط الجحيم الذي عشته بالأمس. وحتى تكتمل المأساة، كان هناك مواطنون مسلمون متجمهرون أمام المستشفى يهتفون ضدَّ الأقباط ويتوعَّدونهم بالموت. هؤلاء صدَّقوا أنَّ الأقباط هم الذين اعتدوا على الجيش، كما كان التليفزيون يردِّد (المذيعة الحقيرة نورهان وأشباهها)... حكى لي أهالي الشهداء عن مسلمين تضامنوا معهم وحاولوا حمايتهم من المذبحة، لكنَّهم حكوا أيضًا عن مسلمين اعتدوا عليهم وكانوا سعداء لأنَّ الجيش يقتلهم. لقد رأيت أمس مصر القبيحة التي ثرنا ضدَّها: التعصُّب الديني؛ الظلم؛ إجرام السلطة؛ قتل الأبرياء؛ تزوير الطبِّ الشرعي؛ خضوع النيابة لإرادة الأمن. كلّ شيء حقير في هذا البلد رأيته بالأمس. تخيَّلْ أنَّني وزملائي ومعنا الأستاذ أشرف خضنا معركة طويلة من أجل السماح بتشريح جثث الشهداء. كانت معركتنا ضدّ مَن؟ ضدّ وكيل النيابة طبعًا الذي يتلقَّى تعليماته من ضبَّاط أمن الدولة، ويرفض التشريح لأنَّه سيكون دليلًا قاطعًا على الجريمة. للأسف، لم تكن معركتنا ضدّ وكيل النيابة وحده، وإنَّما ضدّ أهالي الشهداء أنفسهم.

هل تصدِّق؟ لأنَّ القساوسة أقنعوهم بأن لا داعي للتشريح لأنَّه سيؤدِّي إلى تمزيق جثث أحبَّائهم، كما أنَّ سرعة الدفن ستجعل سيِّدنا «البابا» يصلِّي عليهم قبل أن يعود إلى عزلته في القلاية. إلى هذا الحدّ، يمكن أن يؤثِّر الدين في الإنسان، فيجعلَه يتنازل عن حقوقه؟ أنا لا ألوم الأهالي، فهم بسطاء وفقراء. أتساءل لماذا لا يحصد الموت إلَّا الفقراءَ في مصر؟ بعد أن أقنعنا الأهالي والقساوسة بضرورة التشريح وأهمِّيَّته، طلبت منَّا النيابة تعهُّدًا كتابيًّا بأن نتولَّى حماية

الأطبّاء الشرعيّين الذين سيتولّون تشريح الجثث. محاولة أخرى من النيابة لإرهاب الأهالي ومنع التشريح. تصوَّرْ: في بلد فيه شرطة وجيش، يُطلَب إلى مواطنين عُزَّل حماية الأطبّاء الذين سيشرّحون جثث أولادهم الذين قتلهم الجيش. دخل الأستاذ أشرف إلى وكيل النيابة وقال:

ـ اسمي أشرف ويصا. أنا قبطي وأكبر الموجودين سنًّا، وأتعهّد بحماية الأطبّاء الشرعيّين.

تحوّلت المأساة إلى عبث. يحمّل وكيل النيابة أشرف ويصا حمايةَ الأطبّاء بدلًا من أن يأمر بحراستهم. وقّع الأستاذ أشرف على التعهُّد، ووقّعنا جميعًا وراءه. في النهاية خرجت التقارير، وبتنا مع الأهالي حتى تمّت الصلاة على الشهداء في الكنيسة. لن أنسى هذه الأحزان، يا مازن. لن أنسى صرخات الأمّهات والزوجات. لن أنسى الجثث وهي متراصّة في النعوش. خرجنا من الكنيسة وعدت إلى البيت. ليس أمامي إلَّا ثلاثُ ساعات حتى موعد الاجتماع. طبعًا لن أنام. سآخذ حمّامًا وأشرب قهوة وأذهب إلى الاجتماع. كان لا بدّ من أن أحكي لك. أحبّك، يا مازن، كما أحبّ ثورتنا التي ستنتصر...

أسماء

(٥٤)

ما إن صاح مدني «يا سيادة القاضي أنا عاوز أتكلّم»، حتى سرى الهرج في القاعة. تدافع الحرّاس وأحاطوا بمدني الذي كان قد استسلم تمامًا للحالة التي انتابته، فاستمرَّ في الصياح وقد اربدّ وجهه ولمعت عيناه، وراح يلوّح بذراعيه للقاضي الذي بدا عليه الانزعاج، وقال بصوت مرتفع:

- مين ده؟

قال مدني:

- يا سيادة القاضي، أنا والد الطالب خالد اللّي انقتل.

بدت على وجه القاضي انفراجةٌ ما، وقال:

- طيِّب، تعالَ.

اندفع مدني نحو المنصَّة، وقال القاضي وقد أصبح تعاطفه واضحًا:

ـ اسمك إيه حاجّ؟!

ـ مدني حميد عبد الوارث.

ـ معك بطاقة؟

استغرق مدني لحظات حتى أخرج البطاقة من جيبه وقدَّمها إلى القاضي الذي عاد وسأله بالصوت المتعاطف نفسه:

ـ طلباتك يا حاجّ مدني؟

ـ عاوز أقول لسيادتك كلمتين.

ـ تفضّل.

تململ محامي الضابط وهمّ بالاعتراض، لكنَّ القاضي رفع يده، وقال بصوت حازم:

ـ من فضلك، يا أستاذ، سيبه يتكلّم.

بدا بعض الهدوء على وجه مدني وتنحنح، وبان كأنَّه يرتِّب في ذهنه ما سيقوله.. إنَّه الآن أمام المنصَّة، وإن كان لا يزال محوطًا بالحرس المتأهِّبين للقبض عليه في أيّ لحظة، ومحاميه الشبَّان القلقين عليه من غضب القاضي لو تجاوز في كلامه... راح عضوا اليمين واليسار ينظران إليه بودٍّ كأنَّما تأثَّرا بتعاطف رئيس المحكمة الذي مال برأسه إلى الأمام، وأسند ذقنه إلى كفَّيه لينصت إلى مدني الذي قال:

ـ أنا ربِّيت ابني خالد أحسن تربية. أنا رجل بسيط باشتغل سوَّاق. يعني شقيت عشان خالد يتعلّم ويدخل كلِّيَّة الطبّ، والضابط هيثم قتله، وكلّ الشهود أكّدوا لسيادتك أنّه قتله. أنا عاوز عدل ربّنا.

ردَّ القاضي بنبرة حانية:

ـ حقّك حتاخذه يا حاجّ... اطمئنّ... إحنا هنا لأجل نطبّق العدل... رُفعت الجلسة.

قام القضاة وانصرفوا وأحاط المحامون وزملاء خالد بعمّ مدني الذي بدا كأنّه لم يستوعب ما حدث. وعندما خرجوا من قاعة المحاكمة إلى البهو، حاول المحامون شرح ما حدث لمدني:

ـ رفع القاضي الجلسة لأنّه لو صدرت منه أيّ كلمة تعاطف معك من حقّ محامي الضابط أنّه يردّ المحكمة.

ـ يعني إيه يردّها؟

ـ يعني يطلب أنّها تتنحّى عن النظر في القضيّة ويجيبوا قاضي تاني.

ـ ليه؟

ـ لأنّ القانون بيقول إنّ القاضي إذا عبّر عن رأيه في القضيّة قبل الحكم يبقى لازم يتنحّى.

لم يبدُ على عمّ مدني أنّه فهم تمامًا. كان يطرح السؤال ولا يستمع إلى الإجابة. بدا قلقًا وراح ينظر إلى الواقفين معه، ثم يتطلّع إلى المارّة في الشارع، ويُشعل سيجارة أخرى ويعود إلى طرح السؤال من جديد:

ـ هو القاضي مشي ليه؟

صافحه المحامون وانصرفوا، وأصرّت دانية، كالعادة، على توصيله بسيّارتها، ولاحظت عندما وصلوا إلى البيت، أنّه لا يزال قلِقًا ولا يردّ على كلامها، فقالت لهند:

ـ بابا محتاج يستريّح.

انصرفت دانية، وخطر لها في الطريق إلى البيت أنَّ السائق قطعًا ينقل إلى أبيها كلّ تحرُّكاتها، لكنَّها فكَّرت أيضًا في أنَّها أخبرت أباها بزياراتها لأسرة خالد، وأنَّه لا يمكن لأحد أن يمنعها عنها. عادت إلى البيت وحيَّت أمّها ودخلت حجرتها. أخذت حمَّامًا وأطفأت الأنوار. كانت مرهَقة وتمنَّت لو استطاعت أن تنام قليلًا. وما إن أغمضت عينيها حتى رنَّ جرس التليفون، وجاءها صوت هند وهي تبكي:

ـ دانية... بابا تعبان جدًّا... عمَّال يكلِّم نفسه ويمشي في الشقَّة. أرجوك ساعديني.

(٥٥)

كان الاجتماع كبيرًا. حضره ممثّلون عن حركة كفاية و٦ أبريل والجمعيّة الوطنيّة والاشتراكيّين الثوريّين وبعض الشخصيّات المستقلّة التي ارتبطت بالثورة. كان الحاضرون نحو عشرين شخصًا، واضطرت إكرام إلى إحضار مقعدين إضافيين من الشقّة في الدور الرابع. أعدّت الشاي والقهوة للجميع، وجلست إلى جوار المجتمعين كعادتها صامتة تنتظر تلبية أيّ طلب منهم. بدأ الدكتور عبد الصمد قائلًا:

«أنا سعيد بوجودكم لأنّكم دائمًا على مستوى المسؤوليّة. عندما قمنا بهذه الثورة لم نكن نتوهّم أنّ المعركة سهلة، كنّا نعلم بأنّ الطريق مليء بالتضحيات. النظام القديم لم يستسلم، لكنّهم ضحّوا بمبارك ليستمرّ النظام. معركتنا الآن، بكلّ وضوح، ضدّ المجلس العسكريّ المتحالف مع الإخوان المسلمين. خطّة الثورة المضادّة واضحة: سحبُ الشرطة، ثم انفلاتٌ أمنيٌ وفتحُ السجون وإطلاقُ الجنائيّين من أجل ترويع المصريّين، وفي الوقت نفسه، تشويهُ الثورة عن طريق آلة

إعلاميَّة جبّارة. التليفزيون يذيع كلّ يوم مكالمات وڤيديوهات وتقارير ملفّقة تتّهمنا بالخيانة والعمالة لمخابرات غربيَّة. طبعًا قدَّمنا بلاغات إلى النائب العامّ نتّهمهم بالسبّ والقذف، وطلبنا فحص المكالمات والڤيديوهات لإثبات أنَّها مزيَّفة، لكنَّ البلاغات جميعًا تمّ حفظها. بعد أن تمَّ تمهيد الأرض، جاء وقت المذابح. مذبحة ماسبيرو استهدفت الأقباط الثوريّين. دهسُهم بالمدرَّعات أمام الكاميرات كان المقصود منه ترويعَ الأقباط جميعًا حتى لا تنتقل إليهم روح الثورة. سوف تستمرّ هذه المذابح في تقديري. المجلس العسكريّ سيستهدف كلّ القطاعات التي اشتركت في الثورة، واحدًا بعد الآخر.

صاح شابّ من الاشتراكيين الثوريين:

- اسمع لي، يا دكتور، الكلام، ده معروف. إحنا هنا عشان نعرف ما العمل.

بان الاستياء على وجه الدكتور، لكنَّه تمالك نفسه وقال للشابّ:

- حتى لو كنت تعرف الكلام، من فضلك اسمعني. أنا أقدِّم لفكرة سأعرضها عليكم.

اعتذر الشابّ وسكت، واستطرد عبد الصمد قائلًا:

- نحتاج إلى إعلام للثورة. لا يجب أن نترك الجماهير لأكاذيب الإعلام المضادّ. طبعًا، نحن لا نملك الأموال مثل شنواني وكبار اللصوص الذين افتتحوا قنوات تليفزيونيَّة لتشويه الثورة، لكنَّنا نملك الحقّ والعقل. فكرتي بسيطة: هل يمكنكم أن تصنعوا ڤيديوهات تضمّ كلّ جرائم المجلس العسكري بدءًا من اعتقالات ٩ مارس وكشوف العذريَّة وماسبيرو، ثم ننشر هذا الڤيديو في حملة كبيرة على السوشيال ميديا.

قال شابّ من ٦ أبريل:

ـ من الناحية الفنّيّة ممكن نعمل الفيديو، لأنّ كلّ الجرائم متصوَّرة. لكن، لماذا نعرضه على السوشيال ميديا فقط. إحنا عاوزين نوصل للناس العاديّين اللّي في الشارع.

ابتسم الدكتور عبد الصمد وسأله:

ـ نوصل للناس إزّاي في رأيك؟

قال الشابّ:

ـ ننظّم حملة في الشوارع نعرض فيها جرائم المجلس العسكري على الناس. نروح من مكان لمكان، من شارع لشارع، في كلّ مكان في مصر.

سَرَتْ همهمات وقالت شابّة:

ـ أنت متصوِّر أنّ المجلس العسكري حيسيبك تعمل حملة ضدّه؟

ـ ومن إمتى بنحتاج إذن المجلس العسكريّ؟

هكذا ردّ الشابّ فورًا، وقال شابّ آخر:

ـ لو كنّا انتظرنا الإذن ما كنّاش عملنا الثورة.

قال الدكتور عبد الصمد:

ـ لو عملنا الحملة لازم يكون لها تأمين قويّ.

قال شابّ:

ـ إحنا في ٦ أبريل قادرين بإذن الله على التأمين، وممكن نستعين بشباب الألتراس لأنّ عندهم خبرة كبيرة في المواجهة مع الأمن.

قال الدكتور عبد الصمد:

ـ عظيم يبقى الفكرة المطروحة: تسجيل جرائم المجلس العسكريّ على ڤيديو وعرضها في كلّ مكان نقدر نوصل له... هل فيه حدّ عاوز يتكلّم على الفكرة تاني...

لم يردّ أحد، فاستطرد عبد الصمد:

ـ يبقى نطرحها للتصويت. الموافق على الفكرة يرفع إيده من فضلكم.

فازت الفكرة بأغلبيّة كبيرة، إذ لم يعترض عليها إلّا ثلاثة من المجتمعين.

ابتسم الدكتور عبد الصمد الذي صوَّت لمصلحة الفكرة، وقال بهدوء:

ـ الآن إلى التفاصيل. إلامَ تحتاجون لتنفيذ الفكرة؟!

قال شابّ:

ـ إحنا محتاجين نشتري حاجات كثيرة. نشتري قماش خيم عشان نعمل السرادق وكراسي للجمهور. محتاجين نؤجّر عربيّة نقل صغيرة. الأهمّ محتاجين شاشات كبيرة، وعلى الأقلّ ٣ لاب توب من أنواع جيّدة.

تكلّم أشرف ويصا لأوّل مرّة، فقال:

ـ من فضلك اكتب في ورقة كلّ ما يلزمك وقدّر لي ثمنه وأنا أدفعه حالًا. مش عاوزين نضيّع وقت.

(٥٦)

أسماء الجميلة،

قَدَرنا أن نخوض معركة ضدَّ نظام جبَّار إجراميّ يملك الإعلام والجيش والشرطة، بينما لا نملك إلّا إخلاصَنا وأحلامنا واستعدادنا للتضحية من أجل الثورة. أشاهد التليفزيون أحيانًا، فيذهلني هذا التضليل الرهيب الذي يمارسونه على الشعب. كلّ يوم يتمّ اختراع أكاذيب جديدة من أجل إقناع الناس بأنَّ الثورة مؤامرة. هل تعلمين بأنَّ القنوات الخاصَّة التي افتتحها رجال الأعمال تخسر الملايين. لماذا يفتح رجل أعمال قناة تليفزيونيَّة يعلم بأنَّها ستحقّق خسائر؟ من أجل إجهاض الثورة لأنّها لو وصلت إلى الحكم فسوف يخسر ثروته كلّها، وفي الغالب سيحاكَم على جرائمه ويُلقى به في السجن. النظام القديم يخوض معركته الأخيرة. مشكلتنا في المصنع ما زالت كما هي. الهجوم على اللواري التي تنقل الإسمنت مستمرّ بالطريقة نفسها. تخرج السيَّارة محمَّلة بأطنان الإسمنت، فيتصدَّى لها بلطجيَّة ملثَّمون ويُطلقون

النار، ويقومون بإنزال السائق والتباع، ثم يقودون السيّارة بحمولتها إلى مكان مجهول. تقدّمنا ببلاغات عديدة، وللأسف فإنّ ضابط الشرطة الذي أبدى حماسته في البداية، لم يفعل شيئًا. قابلت مأمور القسم، واطلعته على خطورة هذه الهجمات، وطلبت منه تأمين المصنع. فوجئت به يقول:

- انتم مش عملتم ثورة وأسقطتم الرئيس وحرقتم أقسام الشرطة؟! أمّنوا انتم المصنع.

قلت له:

- أوّلًا، شرف لنا أنّنا عملنا ثورة. ثانيًا، إحنا ماحرقناش أقسام الشرطة وأنتم عارفين من اللّي حرقها ومن فتح السجون وطلّع المجرمين لترويع الشعب. ثالثًا، أنا عضو في لجنة إدارة المصنع وباقول لك لواري الإسمنت البلطجيَّة بيخطفوها. إن ما كانتش الشرطة تقوم بتأمين المصنع، تبقى وظيفتها إيه؟

لن أنسى نظرته الكارهة وابتسامة التشفّي على وجهه وهو يقول:

- ربّنا يسهّل. إحنا بنعمل تحرّياتنا، ولمّا نوصل لحاجة حنقول لكم.

خرجت طبعًا من القسم وأنا متأكّد من أنّ الشرطة لن تفعل شيئًا لحمايتنا. ذهبت إلى الشرطة العسكريَّة فطلبوا منّي كتابة شكوًى مفصّلة، كتبتها وسلّمتها رسميًّا إلى العقيد ووعدني خيرًا، لكنّ الهجمات استمرّت وزادت، إلى درجة أنّ تمّ بالأمس خطفُ ثلاث لواري بحمولتها... لدينا في المصنع عناصر أمن تدريبهم سيّئ، ونحو عشر طبنجات قديمة مرخّصة. فكّرنا في أن يخرج مع كلّ لوري عنصر

أمن مسلَّح، لكنَّنا وجدنا أنَّ البلطجيَّة يكتفون حتى الآن بطرد السائق والتباعين والاستيلاء على السيَّارة. هؤلاء البلطجيَّة مسلَّحون ببنادق آليَّة، كما يؤكِّد الشهود. لو حدث أنَّ عنصر أمن أطلق عليهم طلقة واحدة من الطبنجة القديمة فسيردُّون بالنار ويقتلون الجميع. لذلك، استبعدنا الفكرة. نحن في مشكلة حقيقيَّة. مع كلِّ حمولة يتمّ خطفها، يخسر المصنع ثمنها، بالإضافة إلى ثمن السيَّارة. الأخطر من ذلك أنَّ حالة من التوتُّر بدأت تنتاب السائقين والتباعين مع خروجهم بكلِّ حمولة، وبالطبع فإنَّ التجَّار الذين نتعامل معهم إذا استمرَّت هذه الغارات سيوقفون تعاملهم مع المصنع ويشترون الإسمنت من مصانع أخرى. سنعقد اليوم اجتماعًا مع رؤساء الإدارات والأقسام. يجب أن نجد حلًّا، وبسرعة. آسف، يا أسماء، لأنَّني استغرقت الإيميل كلّه في الحديث عن المصنع. أنت أقرب إنسانة إليَّ، ولا بدَّ من أن أحكي لك.

أحبّك.

مازن

(٥٧)

ما إن تولّت نورهان منصب مدير البرامج حتى كشفت عن قدرتها الإداريّة المدهشة. ليس من السهل السيطرة على ٢٥ مذيعًا ومذيعة، بالإضافة إلى المخرجين والمُعدِّين والفنّيّين، كانت نورهان تراجع «اسكريبتات» البرامج، واحدًا واحدًا، ثم تصطحب تسجيلات البرامج معها إلى البيت لتشاهدها، وتستدعي في اليوم التالي المخرجَ أو المذيع وتقدّم إليه ملاحظاتها بابتسامة عذبة ولهجة حازمة ونهائيّة. خلال أقلّ من شهرين، وصلت قناة «مصر الأصيلة» إلى القمّة، وصارت الأكثر مُشاهَدة في مصر بناءً على أجهزة الرصد... كلّ ليلة، كان المصريّون يشاهدون أدلّة مؤكّدة ومتنوّعة على أنّ الثورة لم تكن سوى مؤامرة لإسقاط مصر في الفوضى. كلّ ليلة، كانت نورهان تذيع مكالمات مسجّلة بين مسؤولين أجانب وشباب من الثورة كدليل على خيانتهم. كلّ ليلة، كانت تُطلع المشاهدين على تقارير من جهات سياديّة تؤكّد علاقة شباب الثورة بالسفارات الأجنبيّة. وكانت هناك

فقرات عن ثورات حدثت في أماكن أخرى من العالم خطَّطت لها المخابرات الأميركيَّة. كانت هناك لقاءات مع مواطنين عاديين يلعنون الثورة لأنَّها تسبَّبت بوقف حالهم. ومع مواطنين آخرين يعتبرون أنَّ الشعب أساء كثيرًا إلى الرئيس مبارك بعزله ومحاكمته. كلّ فقرة من كلام هؤلاء كانت تتمّ على أفضل وجه من الناحية التقنيَّة، وكانت نورهان وراء كلّ تفصيلة دقيقة، كالإضاءة والصوت وزوايا التصوير، وعلى الرَّغم من أنَّها لم تدرس الإعلام، فإنَّها كانت تناقش أيّ فنّي في عمله وتفحمه وتوبِّخه، إذا استلزم الأمر. مع كلّ هذه الفقرات الناجحة، كانت نورهان تحتفظ لنفسها بالفقرة الأهمّ دائمًا. كانت الإعلانات عن فقرتها تستمرّ طوال اليوم حتى ظهورها في العاشرة مساءً. هناك حلقات من برنامج نورهان لا تُنسى، فقد كان تأثيرها بالغًا إلى درجة أنَّ الناس في اليوم التالي كانوا يتحدَّثون عنها في كلّ مكان. في أكثر من حلقة، استضافت شبَّانًا مع حَجب وجوههم، وكلّهم أكَّدوا أنَّهم اشتركوا في الثورة واعترفوا بأنَّهم تلقُّوا أموالًا وتدرَّبوا في إسرائيل. قدَّمت حلقة أخرى شهيرة عرضت فيها ڤيديو لشباب الثورة وهم يحتفلون بعيد ميلاد أحدهم وهم يشربون البيرة. هذه الحلقة استضافت فيها الشيخ شامل الذي صال وجال في لعن شارب الخمر، وأكَّد أنَّه يكون فاقدًا للمروءة ولا تُقبَل شهادته شرعًا أمام القاضي. وانتقلت الكاميرا إلى وجه نورهان الذي كان يعبِّر عن الاستياء البالغ. سألت الشيخ:

- يا فضيلة الشيخ، هل نستطيع أن نثق بمن يسمُّونهم شباب الثورة بعد أن رأيناهم وهم يشربون الخمر ويستهزئون بديننا؟

قال الشيخ بصوت عالٍ ولهجة قاطعة:

ـ لا واللهِ. والذي نفسي بيده لا أثق بهؤلاء بعد أن رأيتهم يُغضبون الله ورسوله. وأنا أدعو المسلمين كافَّة إلى مقاطعة هؤلاء الفاسقين المقيمين على الخمر. لا تستمعوا إليهم فإنَّهم خَوَنة. خانوا الله ورسوله، وخانوا مصر وطننا الغالي...

كانت هذه من أقوى الحلقات تأثيرًا، إلى درجة أنَّ مسؤولًا كبيرًا في الجهاز اتَّصل بنورهان بعد الحلقة من خلال رقم محجوب، وقال لها:

ـ أنا مكلَّف من السيِّد رئيس الجهاز بتهنئتك على هذه الحلقة العظيمة. إنَّه يشكرك على إخلاصك للدولة، ويؤكِّد لك أنَّ الجهاز يستطيع أن يلبِّي لك أيّ رغبة.

تنهَّدت نورهان، وقالت إنَّها تشكر سيادة اللواء رئيس الجهاز، وإنَّها والحمد لله لا تحتاج إلى أيّ شيء. مع سيطرتها الكاملة وتفوُّقها المهني، فرضت نورهان ما يمكن تسميته «إجراءات احترازيَّة» على القناة. منذ تولِّيها الإدارة لم يستطع مذيع واحد، سواء كان رجلًا أو امرأة، أن يقابل الحاجّ شنواني منفردًا. صاروا يرونه فقط في الاجتماعات، بحيث تجلس نورهان إلى جواره كمديرة للقناة وتسيطر على الاجتماع. لم يعترض الحاجّ شنواني على هذا الإجراء إلَّا مرَّة واحدة، قال لها بابتسامة مستأذنة:

ـ يظهر فيه مذيعين عاوزين يقابلوني وأنت رفضت؟

كان ذلك في أثناء جلوسهما في حديقة الفيلَّا. وعلى الرَّغم من وجود السفرجيَّة حولهما، فإنَّ نورهان قامت من مقعدها وجلست إلى جوار شنواني والتصقت به، ثم مدَّت يدها ووضعتها على فخذه وهمست:

ـ همّ مذيعين ولّا مذيعات اللّي عاوزين يقابلوك يا حبيب قلبي؟!

ارتبك الحاجّ وبان على وجهه نوعٌ من الصراع بين رأيه الموضوعيّ ورغبته في اللذّة العارمة التي تعرف نورهان كيف تمنحها له... نهضت نورهان وقبضت على يده، وقالت:

ـ يالله بينا ندخل نستريّح.

لم يعد شنواني إلى الحديث في الموضوع مرّة أخرى وتمَّ إرساء القاعدة: كلّ من يريد شيئًا من الحاجّ شنواني يجب أن يوصل رسالته عن طريق مدام نورهان التي كانت تراقب كلّ ما يحدث عن طريق عيونها المنتشرين في القناة، مثل عبد الستَّار الساعي وحسن مرعي المخرج واش اش الكوافير وآخرين. كانت هذه الشبكة من الجواسيس تغذّي نورهان بالمعلومات غالبًا من دون الذهاب إلى مكتبها، عن طريق مكالمات أو رسائل على التليفون. لم يكن هناك ما يُقلقها إلّا مذيعة اسمها بسنت جاءت إلى القناة بتوصية من لواء في أمن الدولة (أشيع أنّها رفيقته)، الأمر الذي جعلها تتصرَّف بنوع من الثقة كان غريبًا على سلوك العاملين في القناة... للإنصاف، كانت بسنت جميلة، لكن جمالها أقلّ بكثير من جمال نورهان. المشكلة كانت في ثياب بسنت الضيّقة العارية التي تلفت أنظار الرجال... في البداية، عملت نورهان بالأصول فاستدعت بسنت إلى مكتبها وقالت لها بصراحة وديّة:

ـ بُصّي يا حبيبتي، أنت طبعًا حرّة تلبسي عريانة براحتك. ده موضوع ربّنا وحده يحاسبك عليه، لكن إحنا كمذيعات بندخل بيوت ملايين الناس، لازم نبقى قدوة.

حدَّقت فيها بسنت بقدر ما سمحت لها العدسات اللاصقة، وقالت:

ـ حضرتك، أنا مش محجَّبة.

ـ أنا ما جبتش سيرة الحجاب. أنا باتكلّم على الزيّ اللّي المفروض تظهر به أيّ مذيعة محترمة.

ساد صمت مشحون بطاقة من النفور والتربُّص بين المرأتين، ثم نظرت نورهان إلى أوراق أمامها على المكتب وأشارت بيدها إلى بسنت، وقالت:

ـ خلاص شكرًا... تفضّلي على شغلك.

أصدرت نورهان، في اليوم التالي مرسومًا تمّ توزيعه على المذيعات، حدَّدت فيه الزيّ المسموح به بالتفصيل. تمّ منع فتحات الصدر الواسعة وكلّ الأزياء الشفَّافة والضيّقة، كما أكّد المرسوم أنَّ أيّ مذيعة تخالف هذه التعليمات ستتعرَّض لعقوبات تبدأ من الحرمان من الظهور وتنتهي بالطرد من القناة. التزمت المذيعات جميعًا بالزيّ المطلوب، وبدا الأمر كأنَّ المشكلة انتهت، لكن ألاعيب بسنت لا تنتهي. صارت ترتدي الزيّ المسموح به أمام الكاميرات، لكنَّها في الأيّام التي لا تظهر فيها على الشاشة كانت تأتي بثيابها الفاضحة وتتجوّل في القناة كأنَّها تتحدَّى نورهان. كما أنَّها قالت لزملائها كلامًا مسيئًا عن نورهان وصل بحذافيره إليها. ثم كانت الواقعة الكبرى، في يوم كانت نورهان على الهواء، ووصلتها على تليفونها رسالة من أحد عيونها يحذّرها من أنَّ بسنت في طريقها إلى مكتب الحاجّ شنواني. من حسن الحظّ أنَّها تلقَّت الرسالة في أثناء إذاعة تقرير، فأمرت المخرج بأن يطلع في فاصل إعلانيّ طويل، وهرعت بأقصى ما سمح لها الكعب العالي إلى الردهة التي تُفضي إلى مكتب شنواني. كانت

السجّادة الحمراء الفاخرة تكتم صوت حذاء نورهان، فتمكّنت من مداهمة بسنت وهي تتبختر بفستان توركواز قصير جدًّا يكشف عن فخذيها ومفتوح الصدر إلى درجة أنّ ثدييها ـ فيما عدا الحلمتين ـ كانا يترجرجان بحرّيّة كاملة. لا يمكن وصف كيف تحوّل وجه نورهان الوَرِع الجميل إلى سحنة نمِرة شرسة وصاحت:

ـ رايحة فين يا حبيبة ماما؟

فوجئت بسنت للحظة، لكنّها قرّرت أن تخوض المعركة، فقالت بصوت مرتفع:

ـ عاوزة أقابل الحاجّ شنواني صاحب القناة. أظنّ دَه من حقّي كمذيعة.

ـ لا، مش من حقّك لأنّ عندك مديرة ما ينفعش تتخطّيها.

ـ افرضي إنّي عاوزاه في موضوع شخصي.

ـ يعني إيه شخصي؟

ـ يعني موضوع بيني وبينه.

لم يكن ممكنًا لنورهان أن تتحمّل أكثر من ذلك، فشدّت بسنت من ذراعها ودوّى صوتها في الردهة:

ـ عاوزاه في موضوع شخصيّ، ولّا عاوزة تفرّجيه على صدرك يا روح أمّك.

(٥٨)

عزيزي مازن،

أكتب إليك وأنا في موقف غريب لم أكن أتخيَّل أبدًا أن يحدث لي... بالأمس، ذهبت إلى شارع محمَّد محمود قبل أن أذهب إلى المدرسة... هناك تحدث مجزرة جديدة ينفِّذها العسكر ضدَّ شباب الثورة. كلام الدكتور عبد الصمد صحيح. لقد تمَّ استدراجنا إلى مخطَّط أُعِدَّ بعناية لتصفية الثورة... بعد الانفلات الأمنيّ وترويع المصريِّين، ثم دعاية إعلاميَّة مكثَّفة تتَّهمنا بأنَّنا عملاء، راحوا ينفِّذون المذابح ضدَّنا، واحدةً تلو الأخرى. بالأمس، هاجمت قوَّات الجيش والشرطة أهالي الشهداء ومصابي الثورة المعتصمين في الميدان. كان عددهم قليلًا لا يزيد على مئة شخص، كثيرون منهم معاقون. فوجئوا، من دون سابق إنذار، بقوَّات الجيش تهاجمهم وتضربهم بوحشيَّة. تصوَّر الجنود يضربون رجلًا كسيحًا على مقعد متحرِّك، أو سيِّدةً عجوزًا أمّ شهيد جاءت تطالب بحقِّه... كان هذا هو الطُّعم. كانوا

يعرفون أنَّ شباب الثورة لن يسكتوا على ضرب المصابين وأهالي الشهداء. فعلًا نزل الشباب ليجدوا قوّات الأمن المركزي والشرطة العسكريّة في انتظارهم. هتف المتظاهرون «يسقط حكم العسكر»، وطالبوا بتنحّي المجلس العسكريّ عن الحكم لسلطة مدنيّة موقّتة إلى حين إجراء انتخابات. وكان الردّ مجزرة حقيقيّة رأيتها بعيني. مجزرة كلّ شيء فيها مباح، بدءًا من قتل المتظاهرين بالرصاص الحيّ إلى إطلاق الخرطوش في عيون الشباب. هل تعرف أحمد حرارة؟ الطبيب الذي فقد عينه في يوم جمعة الغضب، لقد فقد بالأمس عينه الأخرى. مالك مصطفى فقد عينه. شباب كثيرون فقدوا عيونهم لأنَّ الضبّاط يصوّبون على العيون. هناك مشهد سيلاحق الجيش المصريّ بالعار إلى أن تتمّ محاكمة المجرمين. شبّان قتلهم الجيش بالرصاص يقوم الجنود بإلقاء جثثهم إلى جوار صناديق القمامة. المشهد مصوَّر على يوتيوب، وقد رأيته بعينَيّ، يا مازن. ماذا بعد أن تُلقى جثثنا في القمامة، يا مازن؟ لا أستطيع أن أمنع دموعي وأنا اكتب. كلّ واحد من هؤلاء الراقدين في القمامة أتخيّل فرحة أهله بولادته، وأتخيّله طفلًا، وأتخيّله في الجامعة، وأتخيّل فرحته بانتصار الثورة، ثم ها أنا أراه مقتولًا ومُلقًى في القمامة. زملاؤنا يجمعون كلّ هذه الفيديوهات ليضمّوها إلى الحملة التي تطوف لتعرض على المصريّين جرائم العسكر. كما تعلم، الإخوان المسلمون باعوا الثورة من البداية، فلم يشتركوا مع المتظاهرين في محمّد محمود ولم يعلّقوا على المذبحة بكلمة واحدة. الإخوان يريدون السلطة، ولو كان الثمن أن نموت جميعًا... أمّا المصيبة الكبرى، فهي تأثير الآلة الإعلاميّة الجبّارة. شاهد التليفزيون لترى كمّيّة الأكاذيب التي يروّج لها المجلس العسكريّ. إنّهم يردّدون

أنَّ شباب المتظاهرين في محمَّد محمود بلطجيَّة مأجورون يريدون الهجوم على وزارة الداخليَّة ليحرقوها حتى تعمّ الفوضى. بالطبع، لا يقول أحد إنَّ شارع محمَّد محمود لا يُفضي إلى وزارة الداخليَّة أساسًا، يبدو أنّنا أخطأنا عندما قلَّلنا من خطورة تأثير الإعلام في الناس؛ أخطأنا عندما اعتبرنا أنَّ الثوريِّين في ميدان التحرير يمثِّلون المصريين جميعًا. حان موعد المدرسة، فمشيت من شارع محمَّد محمود إلى الكورنيش، وأخذت سيَّارة تاكسي إلى المدرسة. ما إن ركبت حتى سألني السائق بتوجُّس:

ـ أنت من بتوع التحرير؟!

هززت رأسي بالنفي، فقال:

ـ أنا قلت كده بَرْضُه. حضرتك شكلك محترم.

ثم بدأ وصلة لعن للثورة وشبابها الذين يريدون تخريب البلد. لقد ردَّد جملًا بالنصّ من برنامج «مع نورهان» والبرامج الأخرى. إنَّه مقتنع تمامًا بأنّنا عملاء تمَّ تدريبنا في إسرائيل. كنت ما زلت أعاني جرّاء منظر الشهداء الذين ألقوهم في القمامة. تركته يشتم الثورة كما يشاء. لم أكن مستعدَّة نفسيًّا لمناقشته. قلت لنفسي: حتى لو أقنعت هذا الرجل، فماذا عن ملايين المصريين الذين صدَّقوا الإعلام وأصبحوا يتحدَّثون مثله؟ تصوَّرْ أنَّ من يلعن الثورة ليس مليونيرًا ولا لواءً في الشرطة، وإنَّما هو سائق تاكسي؛ أيْ أنَّه رجل بسيط قامت الثورة للدفاع عن حقوقه أساسًا. صعب عليَّ جدًّا أن يموت الشباب دفاعًا عن حقوقه، بينما هو يلعنهم ويتَّهمهم بالخيانة. كان هذا المشهد الأوَّل. المشهد الثاني حدث في المدرسة. كنت قد توقَّفت عن

الحديث عن الثورة في المدرسة لأنَّ الجوّ أصبح عدائيًّا، لم أعد أحتمل مشاحنات ومجادلات لن تُفضي إلى شيء. مررت اليوم في الردهة، وكانت أبلة منال، المدرِّسة الأولى، واقفةً عند باب الفصل. ابتسمتُ وحيّيتها، ففوجئت بها تقول بصوت عالٍ:

ـ كفاية بقى ارحموا مصر. عاوزين منها إيه. حرام عليكم؟

اقتربت منها وقلت:

ـ حضرتك بتكلّميني؟

فقالت بوقاحة:

ـ أيوه باكلمك. مش إنتي من بتوع التحرير؟ كفاية. عاوزين تحرقوا وزارة الداخليّة وتوقّعوا الدولة ليه؟

حاولت أن أشرح لها مطالب المتظاهرين في محمّد محمود، وأنّهم بعيدون عن الداخليّة، لكنّها كانت تستغلّ كلّ كلمة أقولها حتى تهاجم الثورة. وعلا صوتها إلى درجة أنَّ المدرِّسين خرجوا على وقع صداه. انسحبت وسمعت بأذنَيَّ اتّهاماتٍ بالخيانة والعمالة من المدرِّسين. قالوا إنَّ شباب التحرير قبضوا وتمرّنوا في إسرائيل، إلى آخر هذا الهراء الذي يشاهدونه ويسمعونه في التليفزيون. تذكُرُ، يا مازن، عندما اندهشتَ من تأييد المدرِّسين للثورة بعد سقوط مبارك، أنت قلت لي يومها إنَّ المستقبل سيكشف إن كانت فرحتهم حقيقيّة أم مزيّفة. اتَّضح لي قطعًا أنّها مزيّفة. إنَّهم فاسدون تمامًا، وقد علّمتهم الوظيفة المداهنةَ والانحناء للريح. أعتقد أنّهم هنّأوني لأنّهم كانوا يعتقدون أنَّ الثورة ستتولّى الحكم، فأرادوا أن يحجزوا مقاعد في السلطة الجديدة. وعندما تأكّدوا من أنَّ المجلس العسكريّ يعادي

الثورة، بانوا على حقيقتهم.

كنت أنوي المرور على محمَّد محمود بعد المدرسة، لكنّني كنت مكتئبة إلى درجة جعلتني أقرِّر العودة إلى البيت. وما إن فتحت باب الشقّة حتى وجدت المفاجأة الكبرى في انتظاري. رأيت أبي جالسًا في الصالة. اعتقد أنّني لم أرحِّب به كما كان يجب. هو أيضًا كان ترحيبه بي متوتِّرًا على نحو ما. لا يمكن أن يكون لقائي به على هذا النحو بعد عام كامل من الغياب. احتضنته بقوّة وقبّلته، لكن ظلَّ هناك شيء ما بيننا. شيء رأيته على وجه أمّي. تحدَّثنا في موضوعات عامَّة، كأنّنا نؤجِّل المواجهة التي لم تتأخَّر. بعد أن انتهينا من الغداء، وبينما كنت أساعد أمّي في رفع الصحون، قال لي أبي:

ـ أسماء، تعالي في الصالون عاوزك في كلمة.

لن أحكي لك الحوار بالتفصيل، يا مازن، لأنّه يؤلمني كلَّما تذكَّرته. يرى أبي أنّني كنت سبب مشاكله في الحياة، لأنّني أرفض الحجاب، وأرفض الزواج، وأرفض العمل في الخليج؛ أرفض كلّ ما هو طبيعيّ وأفعل أشياء شاذَّة. وهو يعتبر أنَّ جدِّي كارم هو الذي أفسد تفكيري لأنّه كان شيوعيًّا يشرب الخمر. أنا، في رأيه، البنتُ العاقَّة التي ابتلاه الله بها ليختبر صبره وإيمانه. قال إنَّه بسبب الآلام التي أسبِّبها له قرَّر تجاهلي تمامًا لأنّه مريض، وقد حذَّره الطبيب من التوتُّر، ولأنّني لن أنفعه إذا جرى له شيء. كما أنَّ الهداية من عند ربّنا (باعتباري في ضلال). إلّا أنّه لـمّا رآني تجاوزت كلّ الحدود، قرَّر القدوم من السعوديّة خصّيصًا لأنّي أحتاج إلى وقفة. قال لي إنَّ قراراتي لا تخصّني وحدي لأنّني أعيش في بيته. وحتى أذهب إلى بيت زوجي، سيكون أبي صاحب القرار الأخير في أيّ شيء يخصّني. وأكَّد لي أنّه

لن يسكت على موضوع اشتراكي في الثورة أكثر من ذلك لأنَّ الكيل طفح به. سوف تُصدَم، يا مازن، عندما تعلم بأنَّ أبي يرى أنَّ البلد قبل الثورة أفضل. تصوَّرْ أنَّه قال:

ـ أنا فرحت لمَّا مبارك استقال، لكن دلوقتِ أتمنَّى أنَّه كان يبقى في الرئاسة.

تصوَّرْ أنَّه سألني:

ـ أنا طبعًا عارف أخلاقك وتربيتك يا أسماء، لكن كيف كنتم تنامون في التحرير، الشبَّان والبنات مع بعض؟!

لقد تأثَّر للأسف، بالكلام الساقط الذي يردِّده الإعلام عن العلاقات الجنسيَّة بين شباب الثورة. بل لقد ألمح، في أثناء حديثه أكثر من مرَّة، إلى أنَّ هناك شبابًا مموَّلين من أجهزة المخابرات... عندما وصل الأمر إلى هذا الحدّ سكتُّ. احسست بأن لا جدوى من مناقشته. عندئذ، تقدَّم أبي بالعرض الذي جاء من أجله. الحقيقة هو ليس عرضًا، وإنَّما فرمان أبويّ واجب التنفيذ، يقضي بالتالي:

أوَّلًا: أن أمتنع من الاشتراك في المظاهرات أو الاجتماعات أو أيّ أنشطة في الثورة...

ثانيًا: اتَّفق أبي مع سائق خاصّ ليأخذني بسيَّارته إلى المدرسة ويُعيدني إلى البيت، والغرض طبعًا هو التأكُّد من أنَّني لا أشترك في المظاهرات...

هنا، لم أستطع أن أتمالك نفسي، فقلت:

ـ أنا أرفض ذلك.

قال أبي:

ـ ليه إن شاء الله؟!

ـ لا يمكن أتخلّى عن زملائي في الثورة.

صرخت هنا أمّي كأنّها كانت تنتظر دورها في المسرحيّة:

ـ زملاوك اللّي عاوزين يخربوا البلد؟!

قلت:

ـ زملائي هم أنظف ناس في البلد. زملائي عملوا ثورة وماتوا وهم بيتقتلوا دلوقتِ وبتترمي جثثهم في الزبالة عشان بيدافعوا عن كرامتنا...

كنت أتحدَّث بحماسة طبعًا، لكن أبي قال لي بهدوء غريب:

ـ بصّي يا أسماء، أنا غُرِّمت بمبلغ كبير بسببك. السفريّة دي على حسابي، والكفيل أعطاني إذن السفر بالعافية. أنا مش حارجع إلّا لمّا أتأكّد أنّك عقلت.

ـ أنا رافضة العرض بتاع حضرتك.

صاح في وجهي:

ـ أنا غلطان أنّي عرضت عليك أيّ حاجة. أنا سحبت العرض. أنا أبوك وشرعًا أنت ملزمة بتنفيذ أوامري. ما فيش خروج ولا مظاهرات ولا حتتحرّكي أبدًا إلّا مع السوّاق. ولو خرجت في غير أوقات المدرسة تبقى أمّك معك. عاجبك عاجبك مش عاجبك اخبطي دماغك في الحيط.

أطلقت أمّي طبعًا فاصلًا من الموسيقى التصويريّة، وراحت تصرخ في وجهي:

ـ حرام عليك، انت عاوزة تموّتي أبوك.

تركتهما ودخلت حجرتي وأغلقت الباب. ولم أخرج منذ الأمس... أنا في ورطة، يا مازن. لم أذهب اليوم إلى المدرسة. أنا أرفض أن انخلّى عن الثورة، وأرفض أن أُوضَع تحت المراقبة، لكن أبي وضعني في هذه المصيدة، ولا أعرف كيف أتصرَّف؟ مازن، سأضطرّ إلى إنهاء الإيميل لأنّ أبي يناديني. ربّنا يستر!

(٥٩)

أعطى أشرف النقود للشباب الذين ذهبوا في الصباح واشتروا كلّ الأدوات المطلوبة: ثلاثة أجهزة لاب توب، وشاشتي عرض، وكشّافات إضاءة كبيرة، ووصلات كثيرة تمّ تحديد مقاساتها وأنواعها بدقّة، وأربع دستات كراسي ومستلزمات السرادق. في النهاية، اتّفقوا مع سيّارة نقل صغيرة حملت الأدوات من شارع عبد العزيز إلى شارع طلعت حرب. وبعد أن تمّ إدخالها المقرّ، انهمك الشبّان في العمل على مدى يومين كاملين، كانت خلالهما إكرام تمدّهم بالساندوتشات والقهوة والمرطّبات، وتقوم بتنظيف الطفّايات من أعقاب عشرات السجائر. في النهاية، انتهى العمل ودعا الشباب أشرف إلى رؤية الفيديو. أطفأوا الأنوار، وبدأ العرض. كانت هناك الكلمات الجميلة من قادة الجيش، وهم يؤكّدون أنّ الجيش لم ولن يعتدي على المصريّين، ثم تعقّب ذلك شهاداتُ البنات اللاتي انتُهكن في كشوف العذريّة، تعقبها مشاهد المدرّعات وهي تدهس المتظاهرين في

ماسبيرو، وقتلُ المتظاهرين بالرصاص وإلقاءُ جثثهم في القمامة في محمَّد محمود. خلال العرض، بدا على أشرف التأثُّرُ، وأحسَّت به إكرام فأمسكت بيده، لكنَّه خرج إلى الردهة ودخَّن سيجارة حتى تمالك نفسه ثم عاد إلى الحجرة. استمرَّ العرض نحو عشرين دقيقة، ثم أُضيئت الأنوار. راح الشباب يُبدون ملاحظاتهم للمخرج الذي كان طالبًا في معهد السينما. ظلَّ أشرف صامتًا حتى سأله المخرج عن رأيه، فقال بهدوء:

ـ أظنّ أنّ العرض واضح وحقيقيّ. أيّ حدّ يشوفه لا بدّ من أن يطالب بمحاكمة كلّ المسؤولين عن هذه الجرائم.

بعد أن اطمأنُّوا إلى العرض، بدأوا في مناقشة تفاصيل الحملة. أخرج شابٌ من ٦ أبريل خريطة، وقال:

ـ نستطيع أن نبدأ في دار السلام، ثم المعصرة وطره.

قال شابٌ آخر:

ـ ولماذا لا نبدأ بالأقرب، ثم الأبعد؟

اتَّفقوا على أن يبدأوا في منطقة المنيرة في السيِّدة زينب، على أن يكون العرض يوم الجمعة بعد المغرب مباشرة حتى يراه أكبر عدد من الناس. انصرف الشباب، وتفقَّد أشرف أجهزة اللاب توب وشاشات العرض والميكروفونات، ثم أطفأ الأنوار، وأقفل الباب بالمفتاح، وصعد مع إكرام إلى الشقَّة. لم تكن إكرام قد علَّقت بكلمة على فكرة العرض المتجوِّل. كانت تنتظر الوقت المناسب. لها طريقتها الخاصَّة للتعامل مع أشرف. مزيج من ذكائها الفطريّ، وخبرتها بالرجال، وحساسيَّةِ العشيقة وحنان الأمّ. من نظرة واحدة باتت تفهم أشرف،

ندرك فورًا إن كان مسطولًا، أو جائعًا، أو متعَبًا، أو غاضبًا، أو حتى هائجًا يريد أن يمارس الحبّ معها. لكلّ حالة تعدّ ما يناسبها. إنّها لا تواجهه أبدًا، بل تدلّه بلباقة على ما تريده. تطاردها أحيانًا الهواجسُ. ماذا لو قرّر أن يعود إلى زوجته ويطردها؟! ماذا لو خجل من كونها خادمة فقرّر إنهاء العلاقة؟! تلجأ عندئذ إليه ليطمئنها، ليؤكّد لها أنّه سيظلّ يحبّها ولن يتخلّى عنها. تبكي أحيانًا من خوفها عليه، وتبكي أحيانًا من حبّها له. إنّ حبّها له يبلغ من القوّة أنّه كثيرًا ما يُربكها. حبُّها له أكثر من حبّ. هناك الحبّ العاطفيّ، وهناك العشق الجسديّ، فهي لم تعرف تلك اللذّة الطاغية الحارقة المتجدّدة، كما عرفتها معه. هناك أيضًا إحساس عميق بالامتنان. هذا الرجل آواها من الشارع، وهو ينفق ألوف الجنيهات حتى يخلّصها من شرّ زوجها منصور، مدمن البرشام والماكس. كما أنّه يحب شهد كأنّها ابنته أو حفيدته. لقد أصبح أشرف محور حياتها، منذ أن تستيقظ وحتى تنام، لا تهتمّ في هذا العالم إلّا بشخصين، هما أشرف وشهد. كلّ شيء تفعله وفي ذهنها أشرف، بدءًا من العناية بكعبيها اللذين يحبّهما ناعمين، وحتى حبوب الضغط التي تحرص على إعطائها له في الصباح بعد أزمته الصحّيّة يوم ماسبيرو، نجحت في إقناعه بأهمّيّة الوصفات الشعبيّة التي تعلّمتها من المرحومة جدّتها... يا له من مشهد كان بعيدًا حتى عن الخيال. أشرف بك الأرستقراطيّ سليل الباشوات، يرقد عاريًا مستسلمًا ليدي إكرام الخادمة وهي تفرد أوراق الجرائد على صدره، ثم تغطّيها بالفانيلة الصوف حتى تمتصّ الرطوبة من صدره، أو وهي تسقيه مشروبًا لتخفيض الضغط تصنعه من أعشاب تأتي بها من عند العطّار. تحاصر إكرام أشرف بالكوب وتهمس بنعومة:

ـ يالله، يا شاطر، اشرب.

يبدو أشرف مستمتعًا بالموقف، فيقول وهو يتأفّف كطفل:

ـ الوصفة دي طعمها مريع. أنا عاوز مكافأة.

يشرق وجه إكرام بابتسامة. وكلّما شرب رشفة قبّلته. تتصاعد أحيانًا الرغبة فتضع إكرام الكوب على أقرب مائدة ويبدآن نوبة غرام.

تلك الليلة لمّا عادا إلى البيت، كان بينهما شيء ما معلّق في الهواء. كلام يعرف أشرف أنّها ستقوله. وعلى الرّغم من ذلك، أو ربّما بسبب ذلك، تحدّث أشرف في موضوعات أخرى. قال لها إنّه لاحظ أنّ شهد ترسم أشكالًا جميلة، ولذلك قرّر أن يشتري لها علبة ألوان كبيرة. وإذا تأكّدت موهبتها فسيُلحقها بمدرسة للرسم.

قالت إكرام بنبرة ممازحة:

ـ مش لمّا تتعلّم الأوّل تبقى ترسم.

شرح لها بالتفصيل لماذا يجب رعاية موهبة الطفل مبكرًا... كان أشرف مقتنعًا بما يقوله، لكنّه أيضًا كان يحاول تأجيل الكلام الآخر. أخذت إكرام حمّام المساء، وعادت بقميص نوم أزرق وقد تزيّنت. كان أشرف قد دخّن سيجارتين ملفوفتين جعلتاه في حالة متأمّلة أقرب إلى المرح. استلقت إلى جواره على الفراش، فلم يتمالك نفسه والتحما في نوبة غرام. وبعدما فرغا، أشعل سيجارة وقبّلته على خدّه، وقالت:

ـ أنت فعلًا حتنزل مع الشباب في الحملة؟

نظر إليها كأنّه اندهش، وقال:

ـ طبعًا.

ـ أنت عارف إنَّ الحكومة ممكن تبعث بلطجيَّة يضربوكم؟

ـ الشباب عاملين حسابهم وفيه مجموعات تأمين.

ـ أنت فاكر أنَّ الدكتور قال لك تبعد عن أيّ انفعال؟

لم يردّ، فاستطردت بحرارة:

ـ الدكتور قال إنَّك لو تعرَّضت لانفعال جامد ممكن ضغط الدم يزيد عليك فجأة وتتعب، لا قدَّر الله.

أشاح بوجهه وقال:

ـ لو ما نزلتش في الحملة انفعالي حيكون أكبر.

ثم سكت لحظة، واستطرد بحزن:

ـ دي أقلّ حاجة أقدِّمها لشباب شفت المدرّعات وهي بتدهسهم، وشفتهم بينضربوا بالرصاص قدَّام عينَيَّ.

شيء في نبرة أشرف جعلها تحسّ بأنَّ محاولاتها لصرفه عن النزول لن تُجدي. ناما متعانقين. ولمَّا كان اليوم التالي الجمعة، فقد أمضى أشرف مع شهد طوال النهار. لعب معها، وطلب منها أن ترسم أشكالًا بسيطة. وفي كلّ مرَّة، كان يكافئها بقطعة من الحلوى، ثم يحتضنها ويقبِّلها. كانت إكرام تستمع إلى حديث شهد وأشرف وهي في المطبخ تعدّ الطعام كأيّ ربَّة أسرة عاديَّة. نام أشرف ساعة بعد الغداء، واستيقظ فوجد إكرام وشهد في ثياب الخروج. تطلَّع إليهما بدهشة، فقالت إكرام:

ـ أنا نازلة وراجعة بسرعة.

ـ رايحة فين؟

ـ حاسيب شهد عند جارتي في الحوامديَّة لأجل أنزل معك.

كاد أشرف يعترض، لكن ابتسامة عريضة من إكرام أسكتته. قبَّل

شهد عندئذ، وأخذ حمّامًا وارتدى ثيابه حتى عادت إكرام ونزلا إلى الشارع فوجدا الشباب في انتظارهما. كانت هناك، بالإضافة إلى سيّارة أشرف، ثلاثُ سيّارات أخرى وسيّارة نقل صغيرة استأجروها لتحمل الكراسي والخشب والقماش الذي سيقيم السرادق. مرّ موكب السيّارات من الكورنيش، ثم اجتاز غاردن سيتي إلى شارع القصر العيني. كان الاختيار قد وقع على شارع مسدود إلى جوار المركز الفرنسيّ في المنيرة. أنزلوا الكراسي وبدأوا في نصب السرادق. وبعد دقائق، كان هناك عدد من الناس يسألون عن الغرض منه. قال شاب:

ـ نحن مجموعة شباب نعقد ندوة ثقافيّة.

كان هذا الردّ الذي اتّفقوا عليه حتى لا يدخلوا في مهاترات مع المارّة قد تمنعهم من إقامة السرادق. بعد نحو نصف ساعة، كان كلّ شيء جاهزًا. السرادق والمقاعد والكشّافات وشاشتا عرض تمّ توصيلهما بأجهزة اللاب توب... كانت المقاعد قد امتلأت إلى النصف تقريبًا، بينما وقف كثيرون في آخر السرادق بدافع الفضول، كأنّهم يتفرّجون على مشاجرة في الشارع... كان أشرف قد اتّفق مع الشباب على أن يبدأ الحديث، فتردّد صوته في الميكروفون وهو يقول:

ـ مساء الخير. إنّ اسمي أشرف ويصا... قبطيّ مصريّ وعاوز أسألكم سؤال: مش الإنسان لمّا يشوف جريمة واجبه أنّه يبلّغ عنها؟! في المسيحيّة والإسلام وفي القانون، الإنسان اللّي يشوف جريمة وما يبلغش عنها يبقى مشترك فيها، زيّه زيّ المجرم بالضبط. الهدف من الندوة دي أنّنا نبلغكم. إحنا شفنا جرائم بشعة ارتُكبت ضدّ مواطنين مصريّين أبرياء، وعشان ما نبقاش مشتركين في الجريمة. إحنا صوّرنا لكم الفيديو اللّي حنعرضه عليكم دلوقتِ.

(٦٠)

ـ موضوع تأمين لوريات الإسمنت ممكن نعمله، كلّ لوري حيطلع معه اتنين من الأفراد مسلّحين ببنادق آليّة. لكن أنا شاغلني موضوع أهمّ.

كان الرجل في الخمسينيّات من عمره. شعره محلوق تمامًا، ونظراته ثاقبة متفحّصة، وجسده رياضيّ. كلّ ذلك منحه مظهرًا عسكريًّا على الرّغم من ارتدائه ملابس مدنيّة. كان جالسًا على الفوتيل الكبير في الصالة في شقّة مازن الصغيرة. الشقّة عبارة عن حجرة نوم داخليّة، وصالةٍ صغيرة فيها عدّةُ مقاعد ومائدةُ أرابيسك يستعملها مازن للأكل والقراءة، والحوائط مطليّة بالأبيض وعليها صورُ لوحات لفنّانين عالميّين ومصريّين. نظر مازن إلى الرجل وقال:

- قصدك إيه؟!

ابتسم الرجل وقال:

ـ ممكن تقول لي إزَّاي البلطجيَّة بيعرفوا كلّ مرَّة خطوط سير اللواري؟

لم يردّ مازن، واستطرد الرجل قائلًا:

ـ التفسير الوحيد أنَّ عندك داخل المصنع ناس بيبلّغوا البلطجيَّة بخطّ السير. يبقى لو عملت لك تأمين اللواري مش كفاية، لأنّ ممكن يتحوَّل الهجوم إلى داخل المصنع، وأفراد الأمن اللّي عندك غير مؤهَّلين.

فكَّر مازن قليلًا، ثم قال:

ـ طيِّب. إيه اقتراحك؟

ـ اقتراحي أنَّ المصنع يوقِّع معي عقد تأمين شامل. في الحالة دي حيبقى عندك مئة فرد مدرَّبين ومسلَّحين على أعلى مستوى. عمليَّة التأمين حتشمل اللواري والأفران والطواحين وكلّ مراحل الإنتاج.

ـ التكلفة كم؟!

ـ حاحسبها وابعتها لك على الإيميل.

ـ ممكن تحسبها دلوقتِ؟! الحقيقة الموضوع مستعجل.

ـ حاضر.

فتح الرجل اللاب توب وبدا منهمكًا في إجراء حسابات. فجأة رنَّ جرس الباب. بدا القلق على الرجل وقال:

ـ أنتَ منتظر ضيوف؟!

هزَّ مازن رأسه بالنفي، ثم نهض وألقى بنظرة سريعة على المكان. لم يكن يحتفظ في بيته بأيّ معلومات أو أوراق. حتى تليفونه المحمول

واللاب توب كانا مجرَّدين من أيّ شيء يدلّ على نشاطه. رنَّ جرس الباب مرّة أخرى، فتطلَّع مازن من العين السحريَّة وبدت عليه الدهشة. فتح بسرعة فدخلت أسماء، وقالت وهي لم تنتبه بعدُ لوجود شخص ثالث:

- الحمد لله أنّي لقيتك.. ما بتردُّش على التليفون ليه؟

قال مازن بعد أن تجاوز المفاجأة:

- تفضَّلي...

بدا الحرج على الرجل، وقال:

- ممكن نكمّل الاجتماع في وقت تاني لو تحبّ.

قال مازن:

- لا، أبدًا... دي أسماء زميلتنا. وسيادة العميد عنده شركة تأمين خاصّة، وإحنا بنتّفق على تأمين المصنع.

هزَّت أسماء رأسها وألقت بنفسها على المقعد البعيد. بدت واجمةً ومستغرقة تمامًا في التفكير. عاد مازن وجلس أمام العميد الذي انهمك في الكتابة على ورقة لم يلبث أن أعطاها لمازن، وقال بودّ:

- أنا كتبت لك الأتعاب لتأمين المصنع كلّه، وعملت تخفيض ١٠ في المئة من نفسي.

- أنا مش معترض على المبلغ. التأمين حيوفّر لنا ملايين. لكن ضروري زملائي في اللجنة الرباعيَّة يوافقوا، ولازم ناخذ موافقة الشؤون القانونيَّة.

- أنا تحت أمرك.

ـ حارذ عليك بكره آخر النهار. لو وافقنا تقدر تبتدي الحراسة إمتى؟!

ـ لو مضينا العقد ودفعتم الدفعة الأولى، حيكون عندك أفراد الحراسة في اليوم نفسه.

ـ عظيم.

سكت مازن ونظر إلى العميد مبتسمًا، كأنَّما يشير إلى نهاية اللقاء. استأذن العميد لينصرف، فصافح مازن بحرارة وألقى السلام على أسماء التي ردَّت عليه بصوت خافت. وما إن أغلق مازن الباب حتى توجَّه بسرعة نحو أسماء وصاح بمرح:

ـ إيه المفاجأة الحلوة دي؟

تطلَّعت إليه أسماء لحظة، وقالت بهدوء:

ـ أنا مبيت البيت.

(٦١)

لم تتأخّر دانية إلّا بقدر ما استغرق الطريق من التجمُّع إلى المعصرة. وصلتْ إلى بيت عمّ مدني ومعها أستاذ طبّ نفسيّ كانت تعرفه من نادي الجزيرة، وقد اتّصلت به فلم يتأخّر. التقيا في ميدان روكسي حيث ترك سيّارته واستقلّ سيّارتها، حكت له في الطريق كلّ شيء. وما إن طرقا الباب حتى خرجت إليهما هند، وهمست بفزع:

- بابا عَمّال يتكلّم على طول مش عاوز يقعد ولا ينام ولا ياكل. باكلّمه ما بيردُّش عليّ، وكأنّه مش سامعني. عَمّال يكرّر الكلام نفسه من ساعة لمّا كنّا في المحكمة. قام الطبيب بتهدئتها واتّفقوا على تقديمه على أنّه أستاذ في كلّيّة الطبّ كان مسافرًا إلى الخارج، ولمّا عاد وعرف بوفاة خالد جاء للتعزية. دخلوا فوجدوا عمّ مدني واقفًا في الصالة بالثياب نفسها التي كان يرتديها في المحكمة. بدا متوتّرًا وراح يحلّق فيهم. وما إن رأى الطبيب حتى قال:

- يا فندم، أنا عندي سؤال من فضلك: لمّا يكون ابني انقتل في

عزّ النهار، وكلّ الشهود قالوا إنّ الضابط هيثم المليجي قتله، مش من حقّي إنّي أكلّم القاضي ويبقى واجب عليه أنّه يسمعني... صحّ يا فندم؟!

صاحت هند بصوت باكٍ:

ـ يا بابا كلّ المحامين قالوا لحضرتك إنّ القاضي لا يمكن يبيِّن رأيه في القضيّة وإلّا بيستبعدوه.

قال مدني كأنّه لم يسمعها:

ـ أنا قلت للقاضي كلمتين لقيته قطع كلامي، وقال رُفعت الجلسة.

أشار الطبيب إلى هند حتى لا تستطرد في الحوار، وتقدّم نحو مدني وصافحه بودٍّ وقدّم نفسه وتعازيه. تطلّع إليه عمّ مدني وانفعل فجأة قائلًا:

ـ حضرتك كنت بتدرِّس المرحوم خالد... أهلًا وسهلًا.

دعاه إلى الصالون وسأله ماذا يشرب، وألحّ عليه حتى طلب قهوة ذهبت هند لإعدادها. جلس مدني أمامه وقال مرحِّبًا من جديد:

ـ أهلًا وسهلًا، يا دكتور.

استمرّت الجلسة نحو ساعة، استطاع الطبيب خلالها ببراعة أن يُخفي نظراته المتفحِّصة خلف ابتسامته وحديثه الذي بدا عاديًا ومناسبًا للموقف، ثم استأذن منصرفًا ومعه دانية فحيّاهما عمّ مدني بحرارة، وخرجت هند معهما إلى خارج الشقّة حيث تحدّث الدكتور إليها همسًا، وقد ظهر على وجهه تعبيرٌ جادّ ومهنيّ تمامًا:

ـ اللّي عند عمّ مدني اسمه أعراض ما بعد الصدمة. الإنسان لمّا

بتعرّض لصدمة قويّة عادة تحصل له اضطرابات. هو عنده ميل انسحابيّ، يعني قلّة كلام وعدم رغبة في أيّ شيء، وفجأة يصيبه انفعال قوي يستمرّ فترة طويلة. إنّما هو محتفظ تمامًا بذاكرته وتركيزه. الحمد لله، حالته كان ممكن تبقى أسوأ بكثير... حاكتب لك على مهدّئ يستعمله فقط لو كان عنده صعوبة في النوم. في المرحلة دي محتاجين نراقبه من غير ما نحسّسه بأنّه غير طبيعيّ... وبّنا معه.

(٦٢)

المعركة التي نشبت بين نورهان وبسنت كانت مفعَمة بالشراسة والكراهية والمرارة إلى درجة منحتها طابعًا حيوانيًا ما، كأنَّ المرأتين حيوانان يتصارعان من أجل البقاء. لا بدَّ من موت إحداهما لتعيش الأخرى. دارت المعركة وسط قصف مركّز متبادل بألفاظ بذيئة للغاية. كانت نورهان قد بدأت الهجوم، فجذبت بسنت بشدَّة من ذراعها حتى تأرجحت وكادت تقع، واستطاعت بيدها الأخرى أن تنزع شعرها المستعار فصاحت بسنت تشتم أمّ نورهان، وأدركت بسرعة أنّ الزيّ الشرعيّ يحمي جسد نورهان من الضربات، فراحت تركلها بكلّ قوّتها، بحذائها ذي الطرف المعدنيّ المدبَّب، على قصبة ساقها، مرَّة تلو الأخرى، في المكان نفسه، حتى تعمَّق الإصابة. على أنَّ نورهان استطاعت، على الرَّغم من الألم، أن تصل بيديها إلى وجه بسنت، وأنشبت أظفارها فيه، ثم جذبتها بقوَّة نحوها، وهوت بفمها على كتفها وعضَّتها بأقصى قوَّة أسنانها، فأطلقت بسنت صرخات حادَّة متتابعة.

وصل هنا العاملون في القناة إلى ميدان المعركة، واستطاعوا أن يفصلوا بين الغريمتين. كانت إصابات بسنت بالغة، فقد تمزَّق وجهها في أكثر من موقع من أظفار نورهان الطويلة، كما أنَّ عضَّة نورهان في كتفها مزَّقت الجلد تمامًا، بالإضافة إلى كدمات زرقاء كثيرة من أثر الضرب، بينما لم تتعدَّ إصابات نورهان بضع كدمات في ساقيها من أثر ضربات حذاء بسنت. من الغريب أنَّ الحاج شنواني الذي تمَّت المعركة الرهيبة أمام باب مكتبه لم يخرج إطلاقًا ليستطلع الأمر. بعض الناس عزوا ذلك إلى سمعه الثقيل بسبب تقدُّمه في السنّ. الحقّ أنّه سمع كلّ شيء، لكنَّه ـ بخبرته الطويلة في الحياة ـ أدرك أنَّ تدخُّله في معركة بهذه الضراوة مخاطرةٌ غير مأمونة العواقب. ظلَّ جالسًا في مكتبه يستطلع الموقف عبر التليفون من بعض العاملين في القناة، حتى دفعت نورهان الباب ودخلت المكتب وهي تصرخ وتبكي:

ـ الحقني يا حاجّ. أنا اتضربت واتهنت وعاوزة حقِّي.

كانت بسنت، في الوقت نفسه، تُجري مكالمة باكية لرفيقها اللواء الذي نصحها بالتوجُّه فورًا إلى قسم أكتوبر لعمل محضر ضدَّ نورهان مع طلب كشف طبّي ليسجِّل إصاباتها. وما إن وصلت إلى القسم حتى وجدت المأمور في انتظارها ليعمل المحضر بنفسه. واستطاعت أن تحصل على تقرير طبّي بأنَّ إصاباتها تحتاج إلى علاج يزيد على ٢١ يومًا، الأمر الذي يفرض على النيابة إحالة نورهان على المحاكمة. تغيَّبت المرأتان عن القناة، وظهر أكبر المذيعين سنًّا مكان نورهان، واعتذر إلى المشاهدين لأنَّها في إجازة لمدَّة أسبوع بسبب إرهاقها في العمل. استمتع العاملون في القناة باستعادة الواقعة مرارًا، بإيقاعات مختلفة، وإضافات وتعليقات طريفة، وفي النهاية، وجدوا أنفسهم أمام

السؤال الأهمّ: أيّ امرأة من الاثنتين ستخرج منتصرة في هذه الحرب؟ لم يشهد أحد مع بسنت. الذين شهدوا في النيابة أكّدوا أنَّ مدام نورهان كانت ضحيَّة عدوان همجيّ خسيس من بسنت. معظم العاملين كانوا واثقين بأنَّ نورهان ستنتصر، لأنَّ زوجها صاحب القناة، ونفوذه راسخ في الدولة، كما أنَّه في يدها كالخاتم تضعه وتخلعه كما تشاء. هؤلاء سارعوا إلى إعلان تأييدهم المطلق لمدام نورهان، وأثنوا على أخلاقها وتديُّنها، وراحوا يلمِّحون إلى أنَّ بسنت سيِّئة السلوك، وحولها شبهات أخلاقيَّة كثيفة يمنعهم تديُّنهم من ذكرها، لأنَّ عندهم بنات وهم لا يحبُّون الحديث عن الأعراض. كانوا يعلمون بأنَّ كلّ كلمة يتفوَّهون بها ستصل إلى مدام نورهان، وستجلب رضاها عليهم. بعض العاملين كانوا يعتقدون أنَّ بسنت قد تنتصر لأنَّ رفيقها لواء في أمن الدولة. هؤلاء لاذوا بالصمت الحكيم، لم يعلنوا تأييدهم لأيّ طرف، وظلُّوا على الحياد تحسُّبًا لأسوأ الأحوال، بحيث إنَّ همَّهم الوحيد أن يأكلوا عِيْشْ ويربُّوا عيالهم لا أكثر ولا أقلّ. استمرَّت الضغوط على اللواء والحاجّ من المرأتين، وقد تردَّد أنَّ اللواء أجرى اتِّصالات على أعلى مستوى للمطالبة بحقّ بسنت المهدور. أمَّا الحاجّ شنواني، فإنَّ استجابته كانت أبطأ، ربَّما بسبب الحكمة التي تمنحها السنّ، أو ربَّما لأنَّه كان يعلم بأنَّ زوجته هي المعتدية. على أنَّ نورهان لم تستسلم؛ فبعد أن صرخت وبكت وأظهرت له إصاباتها في ساقيها (البديعتين)، قرَّرت لأوَّل مرَّة منذ زواجهما أن تحرمه حقَّه الشرعيّ. هكذا، بعد أن عاد شنواني من صلاة الجمعة وتغدَّى وسبقها إلى حجرة النوم، ارتدت نورهان قميص النوم، وتزيَّنت كعادتها، لكنَّها استلقت إلى جواره في حالة وجوم غريب. وعندما مدّ يده يداعب ثدييها مفتتحًا اللقاء كعادته،

ابتعدت وقالت بغضب المظلوم:

ـ أنا آسفة، يا حاجّ، مش قادرة. أنا عارفة أنَّ الرسول ﷺ قال إنَّ المرأة التي ترفض طلب زوجها للفراش تبيت والملائكة تلعنها. أرجوك، سامحني. مش عاوزة الملائكة تلعنِّي.

تهدَّج صوتها بالجملة الأخيرة، ولمعت الدموع في عينيها، فتأثَّر الحاجّ، وقال لها بحنان ممتزج بالهيجان:

ـ يا حبيبتي، هدِّي أعصابك.

لم تتمالك نورهان عندئذ نفسها وأجهشت بالبكاء وهي تردِّد:

ـ أنا اتهنت يا حاجّ واتبهدلت، وأنت ما جبتليش حقِّي.

كانت الرسالة واضحة. لن تنسى نورهان ثأرها أبدًا، وسوف تنغِّص على شنواني ساعة اللذَّة التي ينتظرها طوال الأسبوع... وعدها الحاجّ خيرًا. ولأنَّ حلّ أيّ صراع يعكس توازن القوى المتصارعة على الأرض (بلغة العلوم السياسيَّة)، فقد تمّ التوصُّل إلى حلّ وسط. يتمّ الاستغناء عن خدمات بسنت في القناة على أن تعوَّض بوظيفة في قناة أخرى بالمرتب والامتيازات نفسها في مقابل تنازلها عن القضيَّة المرفوعة ضدّ نورهان. تظاهرت نورهان بأنَّها غير راضية عن الحلّ، لكنَّها أدركت، بذكائها، أنَّه أفضل ما يمكن تحقيقه، فمن ناحية، كان اللواء سيعيِّن رفيقته بسنت في أيّ قناة بنفوذه. ومن ناحية أخرى، اعتبرت نورهان أنَّها انتصرت لأنَّها طردت بسنت من القناة بعد أن ضربتها ومرَّغت كرامتها في الأرض أمام الجميع، ستظلّ هذه الحادثة ماثلة في ذهن كلّ من يفكِّر في التطاول على نورهان التي اجتمعت بالعاملين في القناة أوَّل يوم بعد عودتها، وتحدَّثت في أمور العمل

بطريقة عاديَّة، من دون الإشارة إلى ما حدث إطلاقًا (لأنَّها فكَّرت في أنَّ ذلك الغموض سيضاعف هيبتها). وستشهد فترة ما بعد المعركة نشاطًا مكثَّفًا لقناة «مصر الأصيلة» بقيادة نورهان التي استدعاها ضابط التشغيل إلى مكتبه وقال لها:

ـ من الأسبوع القادم، عاوزك تعملي فقرة اسمها اللائحة السوداء.

قالت بمرح:

ـ سيادتك تحبّ نحطّ فيها مين؟

نظر إليها الضابط بما يُشبه اللوم، وقال بجدِّيَّة:

ـ الفقرة دي يمكن تكون أهمّ فقرة تقدِّميها. هناك مجموعة شخصيَّات عامَّة اشتركت في مؤامرة ٢٥ يناير... معظم أفرادها لهم علاقات دوليَّة ومعروفين في العالم، وبالتالي في الوقت الحالي صعب نقبض عليهم. عاوزين نعرَّف الرأي العام أنَّهم خَوَنة وعملاء قابضين من أجل تدمير البلد. البركة فيك يا مدام نورهان.

بدأت إعلانات برنامج «مع نورهان»، منذ اليوم التالي، تعلن عن الفقرة الجديدة. ترقَّبوا فقرة اللائحة السوداء. لم تبذل نورهان أيّ جهد في إعداد هذه الفقرة. كان كلّ شيء يأتي مُعَدًّا بدقَّة من ضابط التشغيل. وكانت نورهان تقرأ الفقرة المكتوبة على المونيتور، بينما تظهر صور المُعارض مع أجانب، ثم تقول:

ـ سنستمع الآن إلى دليل الخيانة.

ثم يتمّ بثّ تسجيل لمكالمة تليفونيَّة للمُعارض مع شخص أجنبي.

ثم تقطع التسجيل وتقرأ:

ـ إحنا استمعنا بأنفسنا للخائن وهو يتحدَّث لمسؤول المخابرات الأميركيَّة.

وقد أضافت نورهان لمستها، إذ اتَّفقت مع المخرج، في نهاية الفقرة، على أن تقترب الكاميرا من وجهها، وقد بدا عليه التأثُّر، ثم تبتسم بحزن وتقول:

ـ حضرات المشاهدين... مش قادرة أتصوَّر إن فيه إنسان يخون مصر. تخون بلدك مقابل إيه؟ مقابل دولارات؟ مقابل مناصب؟ مقابل جوائز دوليَّة. تهون عليك مصر اللِّي أكَّلتك وشرَّبتك وكبَّرتك وعلِّمتك وخلِّتك بني آدم. آه، يا خائن، يا حقير. حضرات المشاهدين، أنا طالبة منكم حاجة واحدة. لو شفتم أيّ واحد من الخَوَنة دول، عرَّفوه أنكم رافضين لخيانته. قولوا له أنت خائن. أستغفر الله العظيم.

ذهبت إلى الضابط تسأله عن رأيه، فضحك عاليًا وقال:

- برافو، يا مدام نورهان. لو كمِّلت بالمستوى ده ما حدِّش فيهم حيقدر يخرج من بيته. الناس حتضربه بالجزَم في الشارع.

(٦٣)

حبيبي مازن،

لو متُّ اليوم أو عشت مئة عام، فلن أنسى ما حدث بالأمس، وسأظلّ أذكر تلك اللحظة بقلبي وعقلي، أتذكّر الإضاءة الخافتة في مدخل الشقّة وصوتَ الموسيقى (قلت لي إنّها مقطوعة لشوبان... صحّ)؟ سأتذكّر وأنا أصافحك قبل أن أنصرف. كان كلّ شيء يبدو عاديًا، وفجأة أحسست برجفة غريبة وعنيفة، ثم رأيت وجهك يقترب منّي، وأحسست برائحة أنفاسك، ثم وجدتني أحتضنك وأقبّلك. كأنّها قبلة الحياة، كأنّها محت ما قبلها لنبدأ بحبّنا صفحةً جديدة. ما أدهشني أنّني لم أخجل من قبلتنا. بالعكس، كنت فخورة بها. بعد أن نزلت من عندك، كنت أريد أن أستوقف الناس في الشارع وأقول لهم: أنا قبّلت حبيبي مازنًا. سأصارحك الآن بسرّ مدهش: في اللحظة التي قبّلتني فيها، كنت مستعدّة تمامًا لك، كأنّني وردة تفتّحت وصارت جاهزة تمامًا لمنح رحيقها. لو كنت سحبتني إلى الداخل لكنت مشيت

خلفك بمنتهى الطاعة وأسلمتُ إليك نفسي وأنا سعيدة. واللهِ العظيم، لم أكن لأندم لحظة واحدة لأنني فعلًا أعتبر نفسي زوجتك. أنا مُلكك وأنت مُلكي حتى لو لم نسجّل حبّنا في السجلّ المدنيّ. ما قيمة الأوراق الرسميّة؟! قد تثبت الحقوقَ القانونيّة، لكنّها لا تثبت الحبّ. لعلّك أحسستَ بي في تلك اللحظة عندما احتضنتك بقوّة وكأنّني ألوذ بك من كلّ هذا العالم الغبيّ العدوانيّ الذي يطاردني. أنا متأكّدة من أنك قرّرت أن تتمالك نفسك حتى لا تعقّد حياتي أكثر ممّا هي. هذا عهدي بك. دائمًا نبيل وشريف. ما زلت أعيش هذه اللحظة، يا مازن. سأظلّ فيها دائمًا لأنّني ساحبّك دائمًا. سألتني بالأمس عن أبي وأمّي. قلت لك طبعًا أحبّهما. ولكن، كان لا بدّ من أن أترك البيت. لم أكن أستطيع أن أتخلّى عن الثورة، ولا أن أعيش تحت المراقبة. والأسوأ من ذلك كلامُ أبي على أنّ ربّنا ابتلاه بي. صعبت عليَّ نفسي جدًّا. ماذا فعلت كي يعتبرني أبي السببَ في مصائبه؟! هل لأنّي أمينة مع نفسي ومع الآخرين؟! هل لأنّني ثرت مثل ملايين المصريين من أجل العدل والحرّيّة؟! ما لم أقله لك بالأمس، أنَّ أبي وأمّي ذهبا في المساء للتعزية في قريب لأبي. كنت قد أعددت كلّ شيء، فأخذت حقيبتي وخرجت من البيت. تركت لأبي ورقة علّقتها على باب الثلّاجة قلت فيها:

«عزيزي بابا... لا أستطيع أن أتخلّى عن زملائي الذين يموتون من أجل الثورة، وبحيث إنّك قلت إنّني مصيبة ربّنا ابتلاك بها... قرّرت أن أريحك وأخرج من حياتك إلى الأبد. مع السلامة».

هل تتصوّر أنّني بكيت وأنا أترك البيت. نظرت إليه مرّة أخيرة لأنّي لا أعرف متى أعود. لست نادمة على القرار. بالطبع، سأتّصل

بأمّي كي أطمئنها إلى أنّني بخير، لكنّني لن أعود إليهما أبدًا. ذهبت إلى صديقتي أسمهان في شارع مراد، لا أعرف إن كنت تذكرها. معيدة في كلّيّة الإعلام، جامعة القاهرة، وعضو في الجمعيّة الوطنيّة. ذهبت بحقيبتي. كنت قد اتّفقت معها عبر اتّصال بالتليفون فوجدتها في انتظاري. أخرجت ثيابي ووضعتها في الدواليب، ثم أخذت حمّامًا وشربت قهوة مع أسمهان، ثم احسست بأنّني لا بدّ من أن أراك. لم أستطع الانتظار. كنت أريد أن ألقاك بأيّ طريقة، كأنّما أستمدّ منك القوّة. أنت الذي ستؤكّد لي أنّني على حقّ. اتّصلت بك فلم تردّ، وكان أمامي اختياران: أن أذهب إلى المصنع، أو البيت. طبعًا البيت أقرب، وإن كان احتمال وجودك فيه ضئيلًا. تحمّلت طبعًا نظرةَ القهوجيّ أسفل البيت عندما سألته عن شقّتك، نظر إليّ كأنّني ساقطة. لم أتضايق. هذا جزء من الغباء الذي ثرنا ضدّه. سأحكي لك عن سكني الجديد. الشقّة عبارة عن صالة ومطبخ صغير وحمّام وحجرتين للنوم. أسمهان تنام في واحدة وأعطتني الأخرى... حجرتي الجديدة متّسعة ونظيفة ونافذتها تطلّ على حديقة الحيوان. العمارة قديمة وفخمة، وأسمهان قالت لي إنّ الشقق الصغيرة مثل شقّتها في العمارة كان الأغنياء زمان يستأجرونها ليقابلوا عشيقاتهم فيها سرًّا. رحت أتخيّل حجرتي وأحد الإقطاعيين يلتقي فيها راقصةً في الأربعينيّات. أنت طبعًا عارفني، خيالي واسع (حتى الآن لم أُطلعك على قصصي القصيرة). أسمهان من أُسرة ثريّة من طنطا، وقد استأجر لها أبوها الطبيب هذه الشقّة. هو قطعًا رجل مستنير، لأنّه ترك ابنته تدرس ما تحبّ، وتعيش وحدها، وإن كانوا لا ينقطعون عن زيارتها. استيقظت اليوم مبكرًا، وذهبت إلى الاعتصام الذي انتقل من شارع محمّد محمود

إلى أمام مجلس الوزراء. المجلس العسكريّ مصرٌّ على البقاء في الحكم. وبعد المذابح التي نفَّذها، فتح دولاب مبارك وأخرج لنا مومياء اسمه الجنزوري ليكون رئيس الوزراء. نحن تحرَّكنا إلى مجلس الوزراء لنمنع رئيس وزراء النظام القديم من دخول مكتبه. ساعة واحدة امضيتها مع زملائنا المعتصمين أكَّدت لي كلامك يا مازن. هذه الثورة ستنتصر، بإذن الله. كلّ من تعرفهم يحبُّونك، وهم يعلمون بأنَّك تخوض معركة صعبة في مصنع الإسمنت. هذا الصباحَ، قابلت أحمد حرارة. تصوَّرْ أنَّ الضحكة لا تفارق وجهه. رحت أتامَّله. من أين يستمدّ هذه القوَّة؟ هذا الشابّ، في الحسابات العاديَّة، قد خسر كلّ شيء. كان طبيبًا ناجحًا وأُسرته مستورة. فَقَدَ عينه في جمعة الغضب، ثم نزل في محمَّد محمود فَفَقَدَ عينه الأخرى. انتهى مستقبله المهنيّ، وما زال متفائلًا، وما زال يضحك. لا يمكن أن ننهزم وبيننا أمثال حرارة. بالمناسبة، هو كلَّفني بالسلام عليك، ويقول لك: شدّ حيلك. غادرت الاعتصام وذهبت إلى المدرسة بشعور مختلف. بعد أن تركت البيت وقابلتك بالأمس والتقيت الزملاء في الاعتصام، أحسست بأنَّني أقوى. لم يعد يهمّني ما يقوله المدرِّسون عن الثورة. فليقولوا ما يشاؤون. كما قلتَ لي بالأمس: نحن قادمون وهم ذاهبون. نحن الذين سنغيِّر مصر. أعطيت حصصي كالمعتاد، والغريب أنَّ أحدًا من المدرِّسين لم يضايقني، كما اعتادوا في الفترة الأخيرة. توقَّعت أن يتحدَّثوا عن اعتصام مجلس الوزراء ويتَّهمونا بالخيانة. وكنت هذه المرَّة مستعدَّة تمامًا كي أردّ عليهم وأُفحمهم بكلامي، لكن أحدًا لم يقل كلمة واحدة. يبدو أنَّهم خافوا منِّي. هل تنتقل حالتنا النفسيَّة إلى المحيطين بنا حتى لو لم نتكلَّم؟ أنا الآن في أحسن حالاتي النفسيَّة.

متفائلة تمامًا. أحسّ بحريّة لأنني لن أضطر إلى العودة إلى البيت مبكرًا، ولن أضطرّ إلى الكذب. أحسّ بسعادة لأنّي أحبّك ولأنك تحبّني. سوف أمضي المساء وجزءًا من الليل مع الزملاء في مجلس الوزراء. لن نقبل تعيين رئيس وزراء من النظام الذي ثرنا ضدّه. لا يمكن أن نقبل. سوف نُسقط هذا الجنزوري، وسنفرض على العسكر الرحيلَ وتشكيلَ مجلس رئاسيّ مدنيّ حتى انتخابات الرئاسة. أنا مؤمنة مثلك، بأنّ ثورتنا ستنتصر. هل تعرف ما هي أمنيتي الآن؟ أن أقبّلك كما فعلت الأمس.

سلام، يا حبيبي.

أسماء

(٦٤)

ارتفعت بعض صيحات الاعتراض، إلَّا أنَّهم تمكَّنوا من عرض الفيديو كاملًا. كان الحاضرون نحو خمسين شخصًا، جلس بعضهم وظلَّ بعضهم واقفًا، لكنَّهم جميعًا تابعوا الفيلم حتى النهاية. أُضيئت الكشَّافات، وتكلَّم الشابّ الواقف إلى جوار أشرف ويصا في الميكروفون قائلًا:

- أشكركم على إعطائنا الفرصةَ لإظهار الحقيقة. مرَّة أخرى، نؤكِّد أنَّا لسنا ضدّ الجيش. كلّ ما نطالب به أن يُحاكَم كلُّ من ارتكب هذه الجرائم، سواء من أعطى الأوامر أو من نفَّذها.

صاح رجل بدين يرتدي جلبابًا:

- واحنا إيش عرَّفنا أنَّ الصور دي حقيقيَّة؟! ما يمكن تكون كذب في كذب.

ردَّ الشاب بنبرة هادئة وواضحة:

ـ أسماء الضحايا عندنا بالكامل، وهي موجودة على موقعنا على الإنترنت، ومعها أرقام التليفونات لمن يريد أن يتَّصل بأهالي الضحايا، سواء للعزاء، أو للمساعدة، أو حتى للتأكُّد من الحقيقة.

ارتفعت أصوات تطرح أسئلة أخرى، لكنَّ الشابّ لم يردّ. كان هذا أقصى ما يُسمح به من مناقشة. الجزء الثاني من المهمَّة كان فكّ السرادق بأقصى سرعة، وتحميله على اللوري، بينما كان الشباب في الخارج يتولَّون تأمين الانسحاب إلى السيَّارات. كان التخطيط دقيقًا وجيِّدًا. تُمضي مجموعة الاستطلاع يومًا كاملًا في استكشاف الأماكن الصالحة للعرض. يجب أن يكون المكان حيويًا؛ ليس مزدحمًا للغاية وليس فيه مرور كثيف حتى لا تحدث مشاكل. كما يجب أن يكون صالحًا لتأمين الانسحاب بعد العرض. في المساء، تعود مجموعة الاستطلاع وتقترح عدَّة أماكن يتمّ اختيار أحدها. وفي الساعة المحدَّدة، يكون هناك شباب في انتظار الحملة في المكان المختار حتى يُنذروا زملاءهم لو حدث أيّ طارئ. يتمّ نصب السرادق بأقصى سرعة، ويراعى عدم الدخول في أيّ مناقشة قد تؤدِّي إلى صدام. أثناء نصب السرادق، يظهر دائمًا مواطنون فضوليُّون يسألون بإلحاح:

ـ مَن أنتم، وماذا تريدون؟

تكون عندئذ إجابة الشباب مقتضبة ومهذَّبة:

ـ نحن متطوّعون لإقامة ندوة تثقيفيّة.

وإذا سألوا:

ـ ما هو موضوع الندوة؟

تكون الإجابة:

ـ نفرّج عليها وأنت تعرف.

لا مانع من تبادل تعليقات ضاحكة مع الفضوليّين من دون إعطائهم معلوماتٍ محدَّدةً.

بمجرَّد الانتهاء من إعداد السرادق، يقدّم أشرف ويصا العرض لأنّ بسبب سنّه وأناقته ولباقته يُعطي انطباعًا جيّدًا. في أثناء عرض الفيلم، يُحيط شباب التأمين بالسرادق من كلّ مكان، ليمنعوا أيّ شاغب من الدخول. وبمجرَّد انتهاء الڤيديو، يُلقي شابّ كلمة الختام، ثم ينصرف الجميع على عجل. عنصر المفاجأة كان سرّ النجاح المتكرِّر... كانت حساباتهم دقيقة وصحيحة. إخبار الأمن بوجود الحملة في مكان ما، وإرسال بلطجيّة، يستغرقان ساعة على الأقلّ، يكونون في تلك الأثناء قد عرضوا وانصرفوا.

قال أشرف في الاجتماع الذي عُقد لتقييم الحملة:

ـ ليست مهمّتنا أن نُقنع أحدًا. مهمَّتنا إبلاغ الحقيقة، ونترك الناس لضمائرهم.

نجحت الحملة بشكل لم يتوقّعه أكثر المتفائلين. تمكّنوا من عمل عشرة عروض على مدى أسبوعين. كانوا يكتفون بعرض واحد في اليوم تحسُّبًا لتعقُّب الأمن. كان البلطجيّة يصلون في النهاية، عادة في أثناء فكّ السرادق أو تحميله على اللوري، يجدون عندئذ شباب التأمين في انتظارهم. معظمهم من شباب ألتراس، ولديهم خبرة كبيرة في اشتباكات الشوارع، وبعضهم تمّ اختيارهم لأنّهم يمارسون رياضات قتاليّة. يستمرّ الاشتباك مع البلطجيّة حتى يتمكّن الجميع من تحميل المنقولات والركوب، ثم ينسحب شباب التأمين في النهاية. ربّما يكون

الخطأ الوحيد الذي ارتكبته الحملة أنَّها عادت إلى الحيّ نفسه الذي بدأت منه: السيِّدة زينب. حدَّدت مجموعة الاستطلاع المكان في شارع رضا، وهو شارع صغير يُفْضي إلى شارع بور سعيد. وبحسب الخطَّة، ذهبت المجموعة الأولى ولم تجد ما يريب، فأعطت الإشارة للحملة فجاءت. ولكن، عندما بدأ الشباب في إنزال الكراسيّ والأعمدة الخشبيَّة للسرادق من فوق اللوري، فوجئوا بأشخاص يخرجون من المحالّ ويقتربون منهم. كان في الشارع عدَّةُ ورش متجاورة لإصلاح السيَّارات، وفي الناحية الأخرى محلٌّ لبيع الإطارات والبطَّاريَّات، وإلى جواره بقالة على الطراز القديم تحمل لافتة عتيقة مهترئة مكتوبًا عليها بالرقعة «بقالة علي سلامة وأولاده». لم يكن الناس الذين خرجوا يشبهون بلطجيَّة الأمن، كان شكلهم عاديًا ولم يطرحوا الأسئلة الفضوليَّة المتشكِّكة المعتادة، لكنَّهم أحاطوا بالشباب وقد بدت ملامحهم جامدة ونظراتهم متحدِّية وعدوانيَّة. كان أكبرهم سنًّا وأضخمهم في نحو الخمسين يرتدي زيّ العمَّال الأزرق، وقد غطَّى الشحم يديه تمامًا. اقترب من الشباب وسأل بصوت عالٍ كأنَّه يبدأ دوره على المسرح:

- أنتم عاوزين إيه؟

تجمَّع حوله الباقون كأنَّهم في انتظار ما سيسفر عنه الحديث.

قال شابّ:

- إحنا جايين نعمل ندوة ثقافيَّة.

- تعملها لمن؟!

- للناس في الشارع.

- متشكِّرين. إحنا مش عاوزين ندوات.

كانت الإجابة غير متوقَّعة. صمت الشابّ لحظة. تقدَّم أشرف وصافح الرجل وابتسم بودٍّ وقال:

ـ يا حاجّ، دُول مجموعة شباب معهم ڤيديو عاوزين يعرضوه. اللِّي عاوز يتفرَّج أهلًا وسهلًا، واللِّي مش عاوز يتفرَّج هو حرّ.

ردَّ الرجل قائلًا:

ـ إحنا أهل المنطقة هنا. إحنا لا عاوزين ندوات ولا عاوزين ڤيديوهات. اتفضَّلوا مع السلامة.

قال أشرف:

ـ ممكن أعرف السبب؟!

صاح هنا الرجل بغضب:

ـ السبب أنّكم جايين تشتموا الجيش، وإحنا مع الجيش. فهمت ولّا ما فهمتش.

تجاوب الواقفون مع كلمات الرجل، وارتفعت أصواتهم وتداخلت. ردَّ أحد الشباب قائلًا:

ـ إحنا كمان مع الجيش، لكن فيه ناس في الجيش ارتكبت جرائم ولازم تتحاكم.

قال عامل:

ـ أنت مين يا روح أمّك عشان تحاكم الجيش؟

تدخَّل هنا أشرف قائلًا:

ـ يا ريت يكون الحوار بيننا باحترام من فضلكم.

صاح أحد العمَّال:

ـ إزّاي. إذا كنتم نفسكم مش محترمين.

ارتفعت صيحات اعتراض بين الشباب، فأشار إليهم أشرف بيده ليهدأوا. كاد يقول شيئًا، لكن رئيس العمَّال صاح من جديد:

ـ بُصّ يا بني، أنت وهو: الجيش يعمل زيّ ما هو عاوز. اللّي حيتكلّم ضدّ الجيش كلمة واحدة أقسم بالله لأقطع له لسانه.

قال أشرف:

ـ إزَّاي يا حاجّ بقى. هو العسكري أو الضابط مش بني آدم وممكن يغلط؟ يبقى لمَّا يغلط لازم يتحاسب.

تقدَّم الرجل خطوة مقتربًا منهم وصاح:

ـ باقولكم إيه... اتفضَّلوا. لمُّوا الحاجات دي، ومع السلامة. انصرفوا بالذوق أحسن لكم.

سَرَت همهمة غضب بين الشباب، وصاح أحدهم:

ـ أنتم مش من حقكّم تمنعونا من العرض. الشارع بتاع الناس كلّها، مش ملكيَّة خاصَّة لكم. إحنا حنعرض ولو مش عاجبكم ما تتفرَّجوش.

كأنَّ العمَّال كانوا ينتظرون هذه الجملة، انقضُّوا جميعًا على الشباب وبدأت معركة طاحنة... هرع بعض العمَّال إلى الورش، وأحضروا أدوات وعصيًّا حديديَّة، وراحوا يضربون الشباب بعنف بالغ. واندفع أحدهم وهو يلوِّح بكوريك حديديّ، ثم هبط به بكلّ قوَّته على أشرف. مدَّت إكرام ذراعها لتحمي رأسه، وصرخت بصوت تردَّد صداه في الشارع:

ـ حرام عليك... ده رجل كبير ومريض... أنت إيه كافر؟!

(٦٥)

أسماء الجميلة،

اعذريني، لم أتمكَّن من الاتِّصال لأنَّ الأحداث تتلاحق بسرعة. زادت الهجمات على اللواري بشكل غريب. يوم الخميس، تمَّت سرقة خمسة لواري بحمولاتها. اتَّخذنا قرارًا في اللجنة الرباعيَّة بإيقاف شحن الإسمنت على اللواري حتى نتمكَّن من تأمينها. كلّ لوريّ مسروق بحمولته يكلِّف المصنع ملايين الجنيهات خسائرَ. من العبث أن أنتظر مساعدة من أفراد الشرطة أو الجيش. إنَّهم ببساطة لا يريدون تأمين المصنع. الغريب أنَّ صاحب شركة التأمين (الذي قابلتِه عندي في البيت) اختفى تمامًا بعد أن وافقنا على السعر الذي حدَّده. اتَّصلت به عدَّة مرَّات فلم يردّ. اندهشت من اختفائه، مع أنَّه كان يتعجَّل إتمام الاتِّفاق. أرسلت إليه رسالة قلت فيها إنَّ أبسط أصول التعامل أن يردّ عليَّ حتى لو كان غيَّر رأيه. ردَّ برسالة قصيرة وغريبة:

«اعذرني، يا مازن. لا أستطيع تأمين المصنع، ولا أستطيع ذكر

الأسباب. أنت موضوعك كبير. ربّنا معك».

لم أعد إلى الاتّصال به. استغربت ردّه... ماذا يقصد بـ «موضوعك كبير»؟!

كان يعلم حجم التأمين المطلوب منه، وأكّد لي أنّ في إمكانه أن يقوم به. كنت مرهَقًا جدًّا، فقرَّرت أن أذهب إلى البيت قليلًا... وجودي الدائم في المصنع يُصيبني بتوتُّر يؤثِّر في تفكيري وتصرُّفاتي. عندما أحسّ بذلك، أعود إلى البيت فأمضي ليلة أو حتى بضع ساعات وأعود إلى المصنع بمعنويَّات جيِّدة. عدت إلى البيت وأخذت حمَّامًا ساخنًا ودخلت لأنام قليلًا. نمت فعلًا، لكنّي استيقظت على جرس التليفون (الذي أتركه مفتوحًا كما تعرفين تحسُّبًا للطوارئ). كانت الساعة الخامسة صباحًا. أخبرني العمَّال بأنّ الجيش قد أغلق المصنع. لم أصدّق في البداية، ثم تأكّدت. أغلقت قوّات الجيش البوَّابات. استبقى الضبَّاط بعض المهندسين والعمَّال من أجل إغلاق الأفران، ومنعوا بقيّة العمَّال من الدخول. قالوا للعمَّال إنّ إدارة المصنع قرَّرت إغلاقه نتيجة للخسائر والانفلات الأمنيّ. اتَّضحت لي عندئذ الصورةُ الكاملة. مرَّت كلّ الأحداث التي عشتها كمَشاهد متلاحقة لفيلم أراه لأوّل مرّة كاملًا، وأفهمه. أدركت لأوَّل مرَّة مغزى رسالة صاحب شركة التأمين: «أنت موضوعك كبير». ارتديت ثيابي وتوجَّهت إلى المصنع بسرعة. قرَّرت أن أذهب إلى قائد الشرطة العسكريَّة. وجدت الضابط المناوب برتبة رائد. كانت الساعة قد جاوزت السادسة صباحًا، وبدا وجهه متعَبًا من السهر. ما إن فتحت موضوع المصنع حتى قال:

- اتّخذ قائد المنطقة قرارًا بإغلاق المصنع بناءً على رغبة الشركة الإيطاليّة.

سألته عن السبب. ابتسم بأدب، وقال:

ـ الحقيقة، لم أتابع الموضوع. سيادة العقيد هو الذي يتولّى هذا الملف. أظنّ أنّ هناك مشكلة في تأمين المصنع على نحو يسبّب خسائر.

حكيت له وقائع السطو على اللواري، وقلت له إنّني قدّمت مذكّرة إلى الشرطة العسكريّة ولم يحدث شيء. قال كلامًا مهذّبًا وعائمًا. أدركت أنّ الحوار معه بلا طائل. صافحته وانصرفت. الساعة الآن تقترب من السابعة. أنا جالس في مقهًى هنا في طرف خلف المصنع. الحمد لله معي اللاب توب الجديد. سوف أرسل خبر إغلاق المصنع إلى المسؤول الإعلاميّ في الحركة. يجب أن يُنشَر في أكبر عدد من الصحف والمواقع. يجب أن نضغط على الإدارة والجيش بكلّ طريقة ممكنة. سأنتظر حتى موعد تغيير الورديّة في الثامنة صباحًا. سأدعو العمّال إلى الاعتصام أمام المصنع المغلق. لن نستلم أبدًا. عندما يأتي عمّال ورديّة الصباح لاستلام عملهم سيفاجأون بإغلاق المصنع. عندئذ، يجب أن نبدأ الاعتصام. تصوّري: على الرّغم من الأزمة التي أعيشها فإنّني أحسّ براحة لمجرّد أنّي حكيت لك ما حدث؛ أحسّ بأنّ حبّنا والثورة لهما معنًى واحد. نحن في المعركة نفسها والخندق نفسه. بعد قليل، سأخوض مع العمّال معركتنا الفاصلة، وسننتصر بإذن الله.

أحبّك.

مازن

ملحوظة: وصلتني معلومة بأنّ الجيش سيفضّ الاعتصام عند مجلس الوزراء بالقوّة. خلّي بالك من نفسك، وتحيّاتي لكلّ الزملاء.

(٦٦)

سيظلّ أشرف وإكرام يستعيدان تلك اللحظة. ثمّة عناية إلٰهيّة أنقذتهما. هوى العامل بالكوريك على أشرف الذي تمكّن من القفز مبتعدًا بينما رفعت إكرام يدها لتحميه، فتلقّت الضربة لحسن الحظّ بطرف الكوريك وليس بعموده. انطلق الاثنان يركضان إلى السيّارة التي قادها أشرف بسرعة هاربًا. لم يطاردهما العامل، واستدار ليشترك في المعركة المحتدمة بين الشباب والأهالي. سأل أشرف إكرام عن يدها، فأكّدت أنّها بخير. ذهبا أوّلًا لاصطحاب شهد من عند جيران إكرام في الحوامديّة. ما إن جلست شهد على المقعد الخلفيّ حتى نامت. عندما وصلا إلى البيت كانا صامتين. أنامت إكرامُ شهدَ في فراشها، وصنعت فنجانًا من القهوة حملته لأشرف في المكتب، ثم استأذنت لتغيّر ملابسها وتستحمّ. دخّن أشرف سيجارة ملفوفة وأجرى عدّة اتّصالات. عادت إكرام بعد قليل وقد لمّت شعرها وارتدت فستانًا منزليًّا. تطلّع أشرف إليها، وقال بأسًى:

ـ قبضوا على ثلاثة شبّان من ٦ أبريل.

ـ وبقيّة الشباب؟

ـ ثلاثة منهم مُصابون في مستشفى المنيرة والباقون رجعوا إلى بيوتهم.

ـ حنعمل إيه؟!

ـ فيه محامين راحوا يشوفوا المقبوض عليهم، وفيه مجموعة مع المصابين.

ـ عاوزين نشوفهم.

ـ ضروريّ. أنا بس محتاج أفكّر شويّة. اللّي حصل النهار ده غريب.

ـ ولا غريب ولا حاجة. دول بلطجيّة الحكومة زيّ كلّ مرّة.

أشعل سيجارة ملفوفة أخرى، وقال:

ـ اللّي هاجمونا النهار ده مش مأجورين.

بدا على إكرام التفكيرُ، وقالت:

ـ يعني الحكومة مش وراهم؟!

نظر إليها وقال:

ـ للأسف يا إكرام، الناس دول هاجمونا من أنفسهم. دول ناس عاديِّين بيكرهوا الثورة.

ظلّت إكرام صامتة، وقال أشرف بصوت خافت كأنّما يحدّث نفسه:

ـ أنا أفهم أنّ الناس الأغنياء يكرهوا الثورة لأنّها بتهدّد

مصالحهم. لكنَّ الناس الفقراء اللّي الثورة قامت أساسًا للدفاع عن حقوقهم، إزّاي يكرهوها؟

ـ أعمل لك قهوة تاني.

هزَّ أشرف رأسه، لكنَّه لاحظ لأوَّل مرَّة أنَّ إكرام ترفع الفنجان بيدها اليسرى. سألها، من جديد، عن يدها فهوَّنت الأمر، لكنَّه أصرّ على أن يذهب بها إلى مستشفى رمسيس القريب. وبعد عمل الأشعَّة، قال لها الطبيب:

ـ أنت محظوظة أنَّ الضربة ما كسرتش المعصم.

صنع لها الطبيب رباطًا ضاغطًا على اليد. وعندما عادا إلى البيت، ما إن دخلا من الباب حتى احتضنها أشرف وغابا في قبلة طويلة انتهت في الفراش، وهو يحاول جاهدًا ألّا يضغط على يدها المُصابة. في اليوم التالي، فرض أشرف على إكرام الراحةَ وعمل بدلًا منها في البيت. استيقظ مبكرًا وعمل الساندوتشات لشهد، وسرَّح شعرها بنفسه، وساعدها على ارتداء مريلة المدرسة، ثم أخذها إلى الحضانة. وقبل أن يخرج من باب الشقَّة، نظر إلى إكرام وهو ممسك بيد شهد، ثم قال بمرح:

ـ لو سألوني في الحضانة هاقول لهم أنا جدّها. لو أصرُّوا يعرفوا اسمي حاقولهم إحنا في عيلتنا أقباط على مسلمين، مخلَّطين على بعض.

أطلق ضحكة عالية وخرج بالبنت. ولمَّا عاد، اقتربت منه إكرام ونظرت إليه، وقالت بتأثُّر:

ـ لو قعدت طول عمري أخدمك، عمري ما أردّ جميلك.

قبّل أشرف رأسها، وهمس:

ـ أنا اللّي لازم أشكرك على حاجات كتيرة قوي.

في الأيَّام التالية لم يتوقَّف أشرف عن النشاط. استمرَّ في اجتماعات اللجنة التي قرَّرت تأجيل الحملة بعض الأيَّام حتى تتمَّ دراسة ما حدث وتفاديه في المستقبل. ذهب مع المحامين لزيارة المعتقلين، فوجدهم في حالة معنويَّة عالية. كان يزور المصابين يوميًّا وقد خرج منهم شابَّان وبقي مصاب واحد سيخرج الأسبوع القادم. لم يكن يصطحب إكرام في جولاته عملًا بنصيحة الطبيب الذي طلب منها أن تقلِّل الحركة حتى تسترد يدها حالتها الطبيعيَّة. ذلك اليوم، كانت الساعة تقترب من السادسة مساءً عندما عاد إلى البيت. فتح بالمفتاح، فوجد إكرام واقفة في الردهة كأنَّها تنتظره. وما إن رأته حتى قالت بصوت مضطرب:

ـ أولادك هنا.

تطلَّع إليها أشرف مندهشًا، فهمست:

ـ بطرس وسارة منتظرينك في الصالون.

(٦٧)

انصرف مازن في السابعة والنصف من المقهى في طريقه إلى المصنع، وراح يستحضر في ذهنه ما سيقوله للعمَّال. سيقول إنَّ اللجنة الرباعيَّة التي تمثِّلهم تعرَّضت لمؤامرة اشتركت فيها الإدارة الإيطاليَّة مع الجيش والشرطة. لن يخاف من تسمية الأشياء بأسمائها. يجب أن يفهم العمَّال أنَّ المجلس العسكريّ يقود الثورة المضادَّة التي تريد إفشال الثورة في كلّ مجال. لن يكون كلامه مُرْسَلًا. لديه أدلَّة قاطعة على أنَّ الهجوم على لواري الإسمنت كان منظَّمًا، وكان هناك تقاعس من أجهزة الأمن عن حماية المصنع. سيحكي لهم عن المَحاضر التي حرَّرها في قسم الشرطة، والمذكِّرةِ التي قدَّمها إلى الشرطة العسكريَّة. سيحكي لهم أنَّ أحدًا من الجيش أو الشرطة لم يفعل أيّ شيء لإنقاذ المصنع. يجب ألَّا تتعدَّى كلمته عشر دقائق. بعد أن يستعرض المؤامرة بتفاصيلها، سيدعو العمَّال إلى الاعتصام جميعًا أمام المصنع المغلَق... سيدعوهم إلى إحضار زوجاتهم وأطفالهم إلى الاعتصام،

كما فعل عمَّال كفر الدوّار. وجود النساء والأطفال سيذكِّر النظام بأنَّ هؤلاء هم أوَّل المتضرِّرين من إغلاق المصنع، وسوف يصعِّب على السلطة فضّ الاعتصام بالقوَّة. إذا اعتدوا على النساء والأطفال، فسوف تظهر صورتهم البشعة أمام العالم كلّه. استقرّ مازن على ما يجب أن يفعله، لكنَّه لمَّا اقترب من المصنع وجد مشهدًا غريبًا. احتشد مئات العمَّال أمام منصَّة منصوبة أمام البوَّابة الرئيسيَّة، ووقف بعض العمَّال عليها، عمّ فهمي يتكلَّم عبر الميكروفون:

«إحنا عاوزين ناكل عِيْش ونربِّي عيالنا. دخَّلونا في مشاكل ووجع قلب، وفي الآخر المصنع انقفل. من يصرف على عيالنا؟! إحنا مشينا في طريق غلط. اللجنة الرباعيَّة كلّهم من بتوع الثورة، عاوزين يولَّعوا البلد. إحنا كان لنا حقوق عند الإدارة. كان ممكن نطالب بحقوقنا بأدب وكنَّا حناخذها واحدة واحدة من غير مشاكل. اللِّي مش حناخذه من الإدارة النهار ده حناخذه بكره. عملوا لنا إيه بتوع اللجنة الرباعيَّة؟! عملولنا ثورة في المصنع، وناس منّنا للأسف مشيت وراهم. دخلنا في مظاهرات وإضرابات لغاية المصنع ما انقفل، وانقطع عِيشْنا».

ارتفع صياح حماسيّ من العمَّال. ووسط الحشد، أخذ بعض العمَّال المؤيِّدين للجنة الرباعيَّة يصيحون بغضب:

- الكلام دَه غلط.

- العمَّال لازم يمسكوا الإدارة لأجل ياخذوا حقوقهم بالكامل.

الواضح أنَّ أنصار اللجنة الرباعيَّة أصبحوا أقلّيَّة. كان عمّ فهمي قد عرف كيف يؤثِّر في معظم العمَّال، وراح أنصار مازن يدفعونه نحو المنصَّة، وهم يصيحون:

ـ مازن يتكلّم.

ـ عاوزين نسمع مازن.

التقط عمّ فهمي الخيط، وقال وهو يجول بنظره في العمّال المحتشدين:

ـ الباش مهندس مازن السقّا عاوز يتكلّم. أهلًا وسهلًا. حيقول لكم إيه مازن؟ حيقول لكم نعمل اعتصامات وإضرابات. تاني يا مازن؟ ما احنا شفنا آخرة شُورتك. أهو المصنع انقفل وبقينا في الشارع. عاجبك إنَّ عيالنا تجوع؟! يا مازن ارحمنا. يا مازن سيبنا ناكل عيش. أنا عاوز أسألك يا مازن: لمّا المصنع ينقفل من حيصرف عليك. من بيصرف عليك أنت والشباب بتوع التحرير اللّي قلبوا البلد وخلّوها فوضى. حتى لو كان مبارك فاسد، إنّما كان فيه أمن. دلوقتِ البلطجيّة والمجرمين في كلِّ مكان وبقينا خايفين على عيالنا. إحنا عيشنا انقطع، حتعمل لنا إيه يا مازن؟ إن كنت بتاخذ فلوس من برَّه ربّنا يبارك لك، لكن إحنا عُمَّال غلابة ماحيلتناش إلّا شغلنا في المصنع. حلّ عن سمانا وكفاية مشاكل. إحنا عاوزين نفتح المصنع عشان نصرف على عيالنا.

تعالت الأصوات واختلطت. قلّة من العمّال حول مازن تطالب بإعطائه الكلمة، والأغلبيّةُ ترفض صعوده على المنصّة. استطرد عمّ فهمي:

«عاوزين كلام العقل؟! أنا عملت عريضة للعضو المنتدب نتعهّد فيها بعدم الإضراب أو الاعتصام، وبنوافق أنّه يعيّن مدير جديد للمصنع بمعرفته، مقابل إعادة فتح المصنع. موافقين»؟

ارتفعت صيحات الموافقة، فقال عمّ فهمي:

«على بركة الله، العريضة تحت هنا. من فضلكم كلّ واحد فيكم يوقّع عليها. العضو المنتدب وعدني لو وقّعتم على العريضة، المصنع يفتح خلال يومين بالكثير، ووعدني أنّكم تاخذوا أجركم كامل عن أيّام قفل المصنع».

بدا لمازن أنَّ كلّ شيء كان مُعَدًّا من قبل. كانت هناك تحت المنصّة مائدةٌ يجلس إليها موظَّف ليأخذ توقيعات العمَّال. ما عدا مجموعة مازن القليلة العدد، تَسابَقَ العمَّال على توقيع العريضة، الأمر الذي اضطرّ بعضهم إلى التدخُّل وتنظيمهم في طابور طويل، وراح كلّ واحد منهم يوقّع باسمه ورقم البطاقة. اقترب مازن من الطابور وكان بعض الواقفين يشيحون بوجوههم كي يتفادوا النظر إليه، بينما لوَّح بعضهم له بغضب وتمتموا بعبارات استهجان. ظلَّ مازن واقفًا مع أنصاره، ثم التفت إليهم فجأة وقال:

- أنا ماشي.

لم ينتظر ردّهم ولم يصافحهم. مشى ببطء وحده حتى خرج من المصنع واجتاز الطريق إلى الكورنيش، حيث وجد ميكروباصًا، استقلّه متوجِّهًا إلى وسط البلد.

(٦٨)

هل كانت أسماء تحلم، أم تعيش الحقيقة؟!

كانت تحسّ بأنَّها بين النوم واليقظة. كلّ ما تراه حولها كان ينطبع في ذهنها في صُوَر مهترئة وغير واضحة. كانت فقط واثقة بأنَّها تتوجَّع. آلام شديدة لا تُحتمل في جسدها كلّه، تهدأ قليلًا في موضع لتتجدَّد في موضع آخر. كانت واثقة بأنَّ ذراعها اليمنى ملفوفة في غطاء سميك من الجبس الأبيض. تتذكَّر وجه الطبيب وهو يحيط ذراعها بالجبس، بينما يتحاشى النظر إليها. كانت واثقة بذلك القيد الحديديّ الذي يربط معصمها الأيسر بظهر السرير. تُتابع في ذهنها المتعَب وجوهَ الممرِّضات الشابَّات اللاتي يدخلن ويخرجن، يعطينها حبوب الدواء ويغيِّرن الضمَّادات بغير أن يتحدَّثن إليها، ثم تتذكَّر رئيسة الممرِّضات. لن تنسى تعبير وجهها الذي يفيض بالكراهيَّة والاحتقار. لن تنسى عندما اقتربت منها وقالت ببطء وهي تضغط على الحروف كأنَّها تطعنها:

ـ يا واطية، يا خائنة. أنت وأمثالك قبضتم من أميركا عشان تفيْعوا البلد. يا ريتهم كانوا قتلوكي وريَّحونا. لازم الأشكال اللّي زيّك تتقتل عشان البلد تنضف.

لم تكن أسماء تستطيع أن تعلّق. كان الكلام يؤلمها. كلّ حركة كانت تؤلمها. كان الجبس في يدٍ، والكلبش في اليد الأخرى، يجعلان حركتها مستحيلة. ممرّضة واحدة طيِّبة كانت تأتي إليها عندما تكون وحدها في الحجرة (كأنَّما تعطف عليها سرًّا). تبتسم وتنحني عليها وتهمس:

ـ عاوزة تعملي ميّة؟!

كانت أسماء تهزّ رأسها فتحضر لها قصريَّة من الصاج وتضعها تحتها. كانت تتفادى الذهاب إلى الحمَّام بقدر الإمكان لأنَّه عمليَّة معقَّدة. كان هناك جنديّ يفكّ الكلبش ويحرسها، وكرسيٌّ متحرِّك تنتقل إليه فتحسّ بآلام شديدة، وممرِّضةٌ تدخل معها لتُجلسها على التواليت. كانت منهَكة تمامًا. تغيب عن الوعي فترة، ثم تفتح عينيها فتجد الإضاءة الشاحبةَ نفسَها، والحوائطَ المطليَّة بالأبيض، والسريرَ الخاوي أمامها. لا تعرف إذا كان الوقت ليلًا أو نهارًا. أحيانًا، فجأة، تتذكَّر ما حدث فتلهث وتتصبَّب عرقًا، وتحسّ بأنَّها تريد أن تصرخ. ترى نفسها في اللحظة الأخيرة: كانت واقفة تتحدَّث مع كريم وأسمهان وبعض المعتصمين أمام مجلس الوزراء، ثم سمعت الضجيج والصراخ، وصاح أحد الواقفين وهو يجري:

ـ الجيش هجم.

كلّ الواقفين هربوا. كريم وأسمهان ركضا في اتّجاه التحرير. لا

تعرف لماذا ركضت في الاتّجاه المقابل. خطر لها أنَّ الجيش يهجم من التحرير. بعد أن ركضت أمتارًا قليلة في اتّجاه القصر العيني، تمَّ اعتقالها. لم ترَ جنودًا بهذه الأعداد الضخمة من قبل (عرفت بعد ذلك أنّهم فرقة خاصّة من الجيش، اسمها ٧٧٧). لم يتحدَّث الجندي معها، ولم يسألها. شدَّها من شعرها وسحلها على الأرض، بينما راح زملاؤه يضربونها بعصيّ في أيديهم، ثم دخلوا بها إلى مجلس الشورى. اقتادوها هناك إلى «قسم الحريم»، كما يسمّيه الضبّاط. رأت هناك أكثر من عشرين جنديًا يضربون سبع متظاهرات بالعصيّ بكلّ قوّتهم. تحاول البنت أن تتّقي الضربات بيديها، فينكشف جسدها، فينهال الضرب على الجزء المكشوف منه، ثم تتّقي الضربات على جسدها فيعاود الجنود الضرب على رأسها. تعرَّضت أسماء لحفلة الاستقبال كاملة، ثم جاء الضابط. تتذكَّر عينيه الثاقبتين وشاربَه وصوتَه الأجشّ. أشار إليها وهي ملقاة على الأرض، وصاح في العساكر:

ـ «هاتولي البتّ دي».

سحبوها، وهم مستمرُّون في ضربها، إلى حجرة جانبيّة. انفرد بها الضابط هناك وثلاثة عساكر، ضحك وقال:

ـ اسمك إيه يا زعيمة؟!

لا تذكر كيف أجابت، لكنّه قال:

ـ بُصّي يا أسماء، إنت النهار ده عروستنا. حنعمل عليك الحفلة.

سكت الضابط ونظر إلى العساكر، كأنّها كانت إشارة. انهالت عليها الضربات بلا توقُّف. ضرب على كلّ موضع في جسمها. راحت تصرخ حتى انقطع صوتها. صار الألم لا يُطاق إلى درجة أنّها تمنَّت لو

تفقد الوعي. أشار إليهم الضابط، فتوقّفوا واقترب منها وقال:

ـ عاوزاني أبطّل الضرب؟! قولي أنا أسماء المومس.

لم تردّ، فأشار إلى العساكر، فاستأنفوا الضرب بكلّ قوّتهم، وارتفع صوت الضابط:

ـ واللهِ، يا بنت الوسخة لنموّتك من الضرب لغاية لمّا تقولي أنا أسماء المومس.

لم تعد تتحمّل، فصاحت بصوت باكٍ كأنّها تعتذر:

ـ أنا أسماء المومس.

أوقف الضابط الضرب، وقال:

ـ مش سامعك. ارفعي صوتك.

صاحت:

ـ أنا أسماء المومس.

ـ كمان.

ـ أنا أسماء المومس.

ـ كمان.

ـ أنا أسماء المومس.

توقّف الضرب، وأطلق الضابط ضحكة عاديّة تمامًا، ثم أشعل سيجارة، وقال:

ـ طيّب، يا أسماء، لمّا إنت مومس زعلانة ليه؟

نظر إلى العساكر وقال:

ـ قلّعوا المومس.

تقدَّم اثنان من العساكر، بينما وقف الثالث إلى جوارهما. لم تعد أسماء تقاوم. لم تعد تصرخ. استسلمت. تركتهم يفعلون بها ما يريدون. خلعوا البنطلون والبلوزة الصوفيَّة التي كانت ترتديها. صارت مستلقية الآن بملابسها الداخليَّة. قال الضابط:

ـ قلّعها السوتيان يا عسكري.

نزع العسكري السوتيان بشدَّة، فتمزَّق وتدلَّى ثدياها، فقال الضابط:

ـ العب لها في بزازها.

ظلت ممدَّدة صامتة تمامًا. اقترب العسكريّ وراح يمسك بأصابعه ثدييها.

ثم تراجع، ونظر إلى الضابط الذي قال:

ـ عاوزكم كلّكم تلعبوا في بزازها... واحد واحد.

جاء العسكري الثاني وانحنى وراح يقبض بأصابعه على ثدييها، ثم اقترب العسكري الثالث ولمس ثدييها بسرعة. صاح الضابط:

ـ العب في بزازها كويِّس.

راح العسكري الثالث يدعك ثدييها، ولاحظت لأوَّل مرَّة أنَّه يبكي.

قال الضابط:

ـ كفاية كده عليك يا مومس؟ لأ... مش كفاية.

صاح بصوت أجشّ كأنَّه يُصدر أمرًا بالقتال:

ـ امسك كسّها يا عسكري.

أحسّت بأصابع العسكري الأوّل تعبث بين فخذيها، ثم جاء العسكريّ الثاني فأدخل أصابعه. أمّا العسكريّ الثالث فلم يتحرَّك، وقد تحوَّل بكاؤه إلى نحيب، وراح يردِّد:

ـ خلاص، يا باشا.. كده حرام، يا باشا.

علا صوت الضابط غاضبًا:

ـ نفِّذِ الأمر يا عسكري، يا خول.

اقترب العسكري الباكي منها وأدخل يده محاولًا أن يلمسها برفق.

اقترب الضابط منها وهي ملقاة على الأرض، ثم قال بصوت هادئ:

ـ شفتِ يا أسماء أنت مالكيش قيمة إزَّاي؟ مالكيش أيّ قيمة... أنا خلَّيت العساكر يلعبوا في بزازك وكسّك، وممكن أخلِّيهم ينيكوكي دلوقتِ قدّامي ولا تقدري تقولي لأ... أنت ولا حاجة يا أسماء... ولا حاجة. اعرفي قيمتك بقه، وبلاش تتطاولي على أسيادك. فاهمة؟

(٦٩)

منع القاضي الصحافيِّين وكاميرات القنوات الفضائيَّة من دخول القاعة، فاحتشدوا خارجها. لم يُسمح لأحد بالدخول إلّا للمحامين وأهالي المتَّهَمين والشهداء. دخل الضبَّاط المتَّهَمون إلى القفص. حاولوا أن يبدوا في حالة طبيعيَّة. كانوا يلوِّحون لأهاليهم في القاعة، ويتحدَّثون همسًا إلى بعضهم البعض، ويدخِّنون، لكن كلّ ذلك لم يُخْفِ توتّرهم... كان يمكن بنظرة واحدة تمييزُ أهالي الضحايا الفقراء من أهالي الضباط بملابسهم الأنيقة ونظَّارات الشمس الفخمة على وجوه السيِّدات. هذه المرَّةِ لم تستغرق الجلسة سوى دقائق. صرخ الحاجب:

«محكمة»، ودخل القاضي وعضوا اليمين واليسار، وجلسوا، وبدأ القاضي في قراءة أسماء المتَّهَمين، ثم الموادّ القانونيَّة التي استند إليها. وقال أخيرًا بصوت مرتفع:

ـ حكمت المحكمة ببراءة المتَّهَمين جميعًا... رُفعت الجلسة.

هرول القاضي إلى الداخل وخلفه عضوا اليمين واليسار، بينما علا الصراخ والولولة بين أهالي الضحايا، وارتفعت الزغاريد وسط أهالي الضبّاط الذين راحوا يحتضنون بعضهم البعض، ويكبّرون. استغرق عمّ مدني لحظات حتى يستوعب ما حدث، ثم راح يصرخ:

- يعني إيه براءة؟! الضابط هيثم قتل ابني.

تجمّع زملاء خالد لتهدئته، وصرخت هند «حرام عليكم» وأجهشت بالبكاء، فاحتضنتها دانية، ثم فوجئ الجميع بعمّ مدني ينطلق خارجًا بسرعة من القاعة. اجتاز باب المحكمة حتى وصل إلى الشارع وهم يركضون خلفه وينادون عليه. لحقوا به وهو يحاول إيقاف سيّارة تاكسي في الشارع:

- أنا خلاص. ماشي من البلد دي. أنا رايح البوسطة أسحب فلوسي عشان أسافر...

حاولوا تهدئته، لكنّ الفكرة كانت قد سيطرت عليه إلى درجة أنّه لم يعد يستمع إليهم. بدأ يستوقف المارّة. أمسك بشابّ وقال:

- ابني كان في سنّك. طالب في كلّيّة الطبّ اسمه خالد، قتله الضابط هيثم المليجي قدّام زملائه والقاضي حكم له بالبراءة؟

ارتفعت أصوات بين المارّة:

- هي بلدنا كده.

- لا حول ولا قوّة إلّا بالله.

- ربّنا يعوّض عليك.

- حتى لو أخذ براءة حيروح فين من حساب ربّنا.

صاح عمّ مدني بأعلى صوته:

ـ أنا مش عاوز أقعد في البلد دي ولا يوم واحد. أنا عندي في البوسطة ٦٠ ألف جنيه تحويشة عمري. حاسحبهم حالًا، ومن الصبح أسافر.

حاول بعض المارَّة تهدئته مع المحامين وزملاء خالد، لكنَّه ظلَّ يصيح ويكرِّر الكلام نفسه. وبدا أنَّه فَقَدَ السيطرة على نفسه تمامًا. تحدَّثت دانية مع هند، ثم توجَّهت إليه وأمسكت بيده:

ـ خلاص، تفضّل حضرتك معانا. حنروح البوسطة.

(٧٠)

حبيبتي أسماء،

هذه أوَّل مرَّة أكتب إليك خطابًا على ورقة بدلًا من الإيميل منذ جمعة الغضب عندما قطعوا الاتّصالات، وأوَّل مرَّة أكتب خطابًا على الإطلاق منذ شهرين. عندما وافق العمَّال على الخضوع للإدارة الإيطاليَّة، أحسست لأوَّل مرَّة بإحباط؛ أحسست بخيبة أملي نفسها وأنا طفل، عندما كنَّا نبني بيوتًا جميلة من الرمال على شاطئ الإسكندريَّة، ثم تجيء موجة من البحر تهدمها فتختفي في لحظة كأنَّها لم تكن. اتّصلت بك ذلك اليوم فوجدت تليفونك مغلَقًا. كتبت إليك إيميلًا أخبرتك فيه بما حدث. صدّقيني، لست غاضبًا من العمَّال. كلّ واحد فيهم لديه التزامات أُسرته، ويستحيل أن يغامر برزق عياله. كما أنَّ الإعلام الذي يلحّ عليهم بالأكاذيب للأسف جعلهم يكرهون الثورة. أنا مؤمن بأنهم سيكتشفون الحقيقة بسرعة. علَّمني أبي أن أثق بقدرات الشعب إلى النهاية، حتى لو تمّ تضليله موقَّتًا فسرعان ما يعود إلى

الحقيقة. لا يمكن خداع الناس إلى الأبد. سيفهم المصريُّون ما حدث غدًا أو بعد أسبوع أو بعد شهر. سيعودون إلى الثورة قطعًا. ليس لديَّ أدنى شكّ في ذلك. تصوَّري، يا أسماء، عندما ركبت الميكروباص عائدًا إلى البيت. كان لديَّ إحساس بأنَّهم سيقبضون عليَّ. فكَّرت في أنَّني لو كنت مكان السلطة لقبضت علينا الآن. بعد أن تمَّت تعبئة الرأي العامّ ضدَّنا وتشويه سمعتنا وإقناع الناس بأنَّ الثورة مؤامرة وترويعهم وإشعارهم بأنَّ بديل النظام القديم هو الفوضى، جاء الوقت المناسب للقبض علينا. ربَّما تسألينني إذا كنت واثقًا بأنَّهم سيقبضون عليّ، فلماذا عدت إلى البيت؟! لماذا لم أختبئ بعيدًا عند أحد الأصدقاء والأقرباء؟! كنت ما زلت أعاني صدمة خضوع العمَّال للإدارة ولم أكن أحتمل إحساسي بالهرب. لو اختبأت فربَّما كنت أنجو من الاعتقال، لكنِّي قطعًا لم أكن لأفلت من إحساسي بأنَّني هربت من المعركة. من حقّك أن ترفضي هذا المنطق، وتقولي إنَّه كان يجب أن أنجو بنفسي. لم أستطع نفسيًّا أن أفعل ذلك. عدت إلى البيت وسقطت نائمًا من التعب، وصحوت العصر، فأخذت حمَّامًا وشربت كوبًا من الشاي. الغريب أنَّني لمَّا سمعت طَرْقًا على الباب، كنت واثقًا بأنَّهم جاؤوا. فتحت، فوجدت أحد الضبَّاط ومعه عدَّة مخبرين يرتدون ملابس مدنيَّة. قال الضابط بطريقة مهذَّبة:

- يا أستاذ مازن، عاوزينك في كلمتين.

طلبت منه أن ينتظرني حتى أعدّ حقيبتي بسرعة فوافق. نزلت معهم وركبنا سيَّارة ميكروباص. وما إن تحرَّكت السيَّارة حتى انهالوا عليَّ بالضرب المبرّح. لا أريد أن أذكر تفاصيل التعذيب الذي تعرَّضت له. اثنان وأربعون يومًا وأنا منقطعٌ عن العالم. المسؤولون في وزارة

الداخليّة والشرطة العسكريّة أنكروا أمام المحامين أنّهم قبضوا عليّ. بقيتُ في معسكر للأمن المركزيّ لا أعرف مكانه، لأنّني كنت أتحرّك وأنا معصوب العينين. تعرّضت لتعذيب بشع، يا أسماء. كان هدفهم إجباري على الاعتراف بأنّه تمّ تمويلنا من المخابرات الأميركيّة. كان الضابط يقدّم إليّ إقرارًا بأسماء مسؤولين أجانب حتى أوقّع على اعتراف بأنّني تلقّيت أموالًا منهم. ويكرّر بعد كلّ نوبة تعذيب العرضَ وأكرّر الرفض، فيبدأ التعذيب من جديد. صرخت في وجهه مرّة:

ـ أنت بتتعب نفسك من دون فايدة. عاوز تقتلني اقتلني، لكن عمري ما أخون الثورة.

توقّف التعذيب فجأة، بعد اثنين وأربعين يومًا. ربّما لأنّهم يئسوا من إجباري على اعترافات كاذبة، أو ربّما لأنّ مساعي عصام شعلان لدى كبار المسؤولين قد نجحت، أو ربّما لأنّ زملاءنا صنعوا ضجّة عن اعتقالي في الصحافة الغربيّة، أو ربّما لهذه الأسباب جميعًا... استدعاني ضابط برتبة رائد كنت أراه لأوّل مرّة، وقال لي إنّه يأسف للمعاملة السيّئة التي تلقّيتها، ويرجوني أن أقدّر الظروف الدقيقة التي يمرّ بها البلد. وأكّد أنّهم، على الرّغم من كلّ شيء، لا يشكّون في وطنيّتي حتى لو اختلفنا في الرأي. طبعًا، من خبرتي، لا يمكن أن أصدّق هذا الكلام. إنّها مجرّد طريقة متكرّرة من الجلّادين لإعطائك الأمل، يستأنفون بعدها تعذيبك حتى تنهاري تمامًا. قلت له كلمات عاديّة بلا معنى. قال لي إنّني سأرى بنفسي كيف ستتغيّر المعاملة، وأنّني سأغادر غدًا إلى سجن طرّه حيث الظروف أفضل بكثير، كما أنّني سأتلقّى أوّل زيارة خلال أيّام قليلة. لم أصدّقه. ولكن، على غير ما توقّعت، تمّ ترحيلي فعلًا إلى سجن طرّه في اليوم التالي، واستقبلت

زيارة لأوّل مرّة بعد يومين. أوّل من زارني عصام شعلان. ترك لنا المأمور مكتبه مجاملةً لعصام. لن أنسى اللحظة التي رآني فيها عصام في ثياب السجن وأثار التعذيب على وجهي وجسدي. تصوَّري أنَّه احتضنني وأجهش بالبكاء كالأطفال. لم أدرك كم أحبّ هذا الرجل إلّا في هذه اللحظة. يُفترض أن تكون الزيارة ربع ساعة أو نصف ساعة، لكنَّ المأمور تركنا ساعتين كاملتين. عصام، ما زالت علاقاته قويَّة بأجهزة الأمن، وقد قال لي إنَّه علم باعتقالي وحاول أن يراني، لكنَّهم قالوا له:

ـ مازن السقّا عنصر خطر ومؤثّر. سيبه لنا كم يوم.

تغيَّر كلّ شيء في سجن طرّه. توقَّف التعذيب، وإن كان مساعد المأمور يصفعني من حين إلى آخر من باب إثبات السلطة، كأنَّه يقول لي:

ـ عصام شعلان أوصى بك، لكنَّني أستطيع أن أضربك في أيّ وقت.

زارتني أمّي وأختي مريم بعد عصام. انبهرتُ بصلابة أمّي، يا أسماء. تصوَّري أنَّها لم تبكِ. تصوَّري أنّها قالت لي:

ـ اثبتْ يا مازن. أنت على حقّ.

تصوَّري أنَّها نهرت أختي عندما بكت... قالت لها بصوت عالٍ:

ـ بتبكي على إيه؟ ما تخلّيش المجرمين يشمتوا فينا. أخوك بطل.

طبعًا، أنا واثق بأنَّها ستبكي طويلًا في البيت، لكنَّها كانت رائعة. تماسكتْ أمامي حتى لا تؤثّر في نفسيَّتي. عندما فكَّرت، وجدت أنَّها بالتأكيد تعلَّمت هذه الصلابة من حياتها مع أبي الذي أمضى سنوات في المعتقل. بعد زيارة أمّي بيومين، جاء كريم المحامي، وهو الذي

أخبرني بكلّ شيء. حكى لي ما حدث لك في مجلس الوزراء والمستشفى. تألّمت كثيرًا من أجلك، يا أسماء. كنت أتمنّى أن أكون معك، لكنّني اعتُقلت قبل فضّ الاعتصام بساعات. يزورني عصام شعلان كلّ يوم جمعة، وهو الذي سيبعث إليك بهذا الخطاب بعد أن حصلت على عنوانك من كريم. أكّد لي عصام أنّني سأُعرَض قريبًا على النيابة، وسوف تفرج عنّي بكفالة. وبعد فترة، سوف يقبضون عليّ في قضيّة أخرى كبيرة، سآخذ فيها حكمًا مشدَّدًا. يقول عصام:

ـ لا تصدّق أنّ هناك نيابة ولا قضاء. الأمن هو الذي يحكم مصر. إنّهم يريدون التخلُّص منكم إلى الأبد. يجب أن نكون أذكى منهم. بمجرَّد الإفراج عنك، يجب أن تسافر. أستطيع أن أحصل لك على ڤيزا بسرعة، وأوّل ما تخرج سافر إلى أيّ بلد أوروبيّ.

رفضت طبعًا، وقلت له إنّني أفضّل أن أموت على أن أهرب، لكنّه يُلحّ عليّ باستمرار إلى درجة أنّه صاح مرّة في وجهي:

- يا بْني، أنت عدوّ نفسك؟ باقولك أنا سمعت الخطّة دي من لواء في أمن الدولة. العناصر القياديّة زيّك عاملين لها قضيّة قلب نظام حكم حتاخذ فيها مؤبّد. ممكن تقول لي إيه البطولة في أنّك تبقى عارف إنّهم حيرموك في السجن خمسة وعشرين سنة وتفضل منتظرهم. اعقل بقى مرّة لوجه الله.

طبعًا، أنا أبتسم وأنا أكتب هذا الكلام لأنّني لا يمكن أن أهرب. أنت عارفاني. لا أعرف الظروف التي قرّرت أنت السفر فيها، يا أسماء، لكنّني يستحيل أن أترك مصر حتى لو قضيت عمري كلّه في السجن. ما زلت متفائلًا يا أسماء. سأحكي لك واقعة لتعرفي كيف

يفكِّر الضبَّاط. مأمور السجن رجل طيِّب تقليديّ، وإن كان ذلك لا يمنعه من التعذيب إذا لزم الأمر. طلبت مقابلته وقلت له:

ـ أنا لاحظت أنّ فيه مساجين جنائيِّين أميِّين. باستأذن حضرتك أنّي أعمل لهم دروس لمحو الأمِّيَّة.

نظر إليّ المأمور باستغراب وقال:

ـ مش فاهم... أنت عاوز تعلِّم المساجين القراءة والكتابة؟!

ـ بالضبط.

ـ وإيه هدفك من الحكاية دي؟

ـ أيّ متعلِّم في مصر عليه واجب نحو الأمِّيِّين.

ـ بلاش شعارات فارغة. إنت عاوز إيه من المساجين بالضبط؟

ـ عاوز أساعدهم.

قال بسخرية:

ـ يا بْني روح ساعد نفسك الأوَّل.

اتَّخذني الضبَّاط جميعًا مادَّة للسخرية بسبب مشروع محو الأمِّيَّة الذي اقترحته. أشعر في سخريَّتهم بنوع من الغيظ. إنَّهم غاضبون لأنَّنا لم ننكسر. أنا متفائل. ستنتصر الثورة على الرَّغم من كلّ ما تعرَّضنا له، وعلى الرَّغم من كلّ القتل والتعذيب والانتهاكات وحملات التشويه، فإنَّهم لم يستطيعوا أن يكسرونا. حتى المصريُّون الذين ضلَّلهم الإعلام، سوف يكتشفون قريبًا الحقيقة. الثورة مستمرَّة ومنتصرة، يا أسماء. إيَّاك أن تشكِّي في انتصارنا لحظة. ستجدين داخل الخطاب عنوان عصام. ابعثي رسائلك إليه، وهو سيوصلها إليّ في أثناء الزيارة.

أحبّك أكثر من أيّ وقت مضى.

مازن

(٧١)

جعلت المفاجأة أشرف مشوَّشًا للحظات. لم يكن قد رأى بطرس وسارة منذ أكثر من عام. كان الاستقبال حارًّا ومؤثّرًا، احتضنهما ونحسَّسهما وتطلّع إليهما مليًّا. كان يحسّ أحيانًا بأنَّهما هو. كان يرى نفسه فيهما... سارة شابَّة ممشوقة القوام، شعرها الأسود الناعم يتهدّل على كتفيها، وقد ورثت جمال أمّها. لكنَّها أحيانًا، عندما تلتفت أو تحدّق، كان يرى فيها شيئًا من نفسه. أمَّا بطرس فكان نسخة من أبيه «مع التحسينات»، كما كان يقول أشرف مداعبًا. بعد الترحيب... سألهما أشرف:

- تشربوا حاجة؟!

تمتم بطرس شاكرًا، وهزَّت سارة رأسها بطريقة متوتِّرة أعادت أشرف إلى فكرة حاول أن يطردها من ذهنه من البداية. ساد الصمت لحظات، ثم قالت سارة:

- إحنا جينا نطمئنّ على حضرتك وعلى ماما.

قال أشرف:

- أهلًا وسهلًا.

قالت سارة بالإنكليزيَّة:

- هل يمكن أن نتحدَّث بالإنكليزيَّة حتى لا تفهمنا السيِّدة التي فتحت لنا الباب؟!

هزّ أشرف رأسه وقد اتَّضح له الموقف تمامًا... قالت سارة بطلاقة مَن أعدّ الحديث مسبقًا:

- أنت تعلم كم نحبُّك ونحبّ ماما. نحن في الحقيقة نشعر بالقلق. لقد أصابنا الحزن بسبب الخلاف بينكما. أنتما كنتما دائمًا نموذجًا لأبوين رائعين. ماذا حدث؟

بدا لأشرف وقعُ صوته غريبًا وهو يتحدَّث بالإنكليزيَّة.

- لا أفهم لماذا توجِّهان إليَّ هذا الكلام. أمّكما هي التي تركت البيت وقد دعوتها إلى العودة أكثر من مرَّة، فرفضت.

ظلَّ بطرس ساكتًا، وردَّت سارة التي بدا أنَّها تقود المعارضة:

- إنَّها تقول إنَّ البيت أصبح غير آمن...

- إذا كان البيت غير آمن فهذا أدعى أن تبقى مع زوجها إذا كانت تحبّه.

نظرت سارة إلى بطرس كأنَّما تستحثّه على الحديث، فقال:

- ماما تقول إنَّ الشبَّان الذين تستضيفهم مطارَدون من البوليس.

قاطعه أشرف قائلًا بحدَّة:

- اسمع... أنا لن أُستدرج إلى أيّ مناقشة بشأن الثورة. لقد

شرحت موقفي لكما عبر التليفون، وشرحته في بيت جدّتك. كم مرّة من المفترض أن أكرِّر كلامي حتى تفهماه؟

ساد الصمت من جديد، وتنحنحت سارة، ثم مرَّرت يدها على شعرها وقالت:

ـ بأمانة، أعتقد أنَّ المشكلة بينكما تعدَّت السياسة.

ـ ماذا تقصدين؟

قالت سارة فورا:

ـ أقصد أنَّ هناك امرأةً أخرى.

ردَّ أشرف بغضب:

ـ ليس من حقّك يا سارة أن تحاسبيني.

ـ من حقّي أن أعرف.

ـ لم نكن أنا وأمّك في أيّ وقت سعيدَين. أظنّكما تعلمان ذلك. لولا تعقيدات الكنيسة لكنّا حصلنا على الطلاق من زمان. هذه الحقيقة.

نظرت سارة إلى بطرس الذي ظلَّ صامتًا هذه المرّة، فقالت:

- من حقّكما أن تُديرا علاقتكما الزوجيّة كما تريدان، ومن حقّك أن تحبّ امرأة أخرى أو تحبّ ماما رجلًا آخر. المشكلة أنّني لمّا عرفت مَن هي المرأة الأخرى، أصابتني صدمة.

ابتسم أشرف بمرارة، وقال:

- كلامك متناقض. إذا كنت ترين أنَّ من حقّي أن أحبّ امرأة أخرى، فشخصيّة هذه المرأة لا تهمّ. عمومًا، ليس لديَّ ما أُخفيه. أنا

أحبّ إكرام وأعيش معها هي وابنتها.

ـ إكرام الخادمة؟

ـ نعم، إكرام الخادمة.

قال بطرس بصوت مضطرب:

ـ هل تعتبر هذا أمرًا طبيعيًّا؟!

قال أشرف:

ـ أنت ما زلت شابًا... عندما تكبر في السنّ، ستُدرك أنَّ الرجل يمكن أن يحبّ المرأة بغض النظر عن وظيفتها.

قال بطرس:

ـ إنَّها مسلمة... صحّ؟

قال أشرف بثبات:

ـ نعم، هي وُلدت مسلمة، كما وُلدنا نحن مسيحيِّين. لا هي ولا نحن اخترنا ديننا. لكنِّي اخترتها لأنَّني أحبّها. إنَّها تمنحني السعادة، وسأظلّ معها لأنَّها المرأة الوحيدة التي أحببتها.

صاحت سارة:

ـ أنا لا أصدِّق... إنَّها خادمة ومسلمة ومتزوِّجة.

ـ واضح أنَّ أمّك أعطتك معلومات كاملة.

ـ كلّ الناس يعرفون.

ـ لا يهمّني رأي الناس إطلاقًا.

ـ هذه العلاقة تُغضب المسيح.

ضحك بمرارة، وقال:

ـ أنتما تظنّان أنّ المسيح يغضب فقط عندما تغضبان. اتركيني أنا والمسيح وحدنا، فأنا أحبّه وهو يحبّني ويفهمني ويباركني.

قالت سارة وهي تحاول أن تتمالك نفسها:

ـ طبعًا، نحن لا نملك السلطة لإبعادك عن هذه المرأة، لكن من حقّنا أن نخبرك بإحساسنا تجاه هذا الوضع. نحن نشعر بالصدمة.

ظلّ أشرف صامتًا لحظة، ثم أشعل سيجارة وقال:

ـ إذا كنتما هنا لتخبراني بشعوركما، فأنا أيضًا سأخبركما بشعوري. الحقيقة أنّني مستاء جدًّا من موقفكما لأنّكما كالعادة تتبنّيان موقف أمّكما ضدّي، كما فعلتما دائمًا.

همّ بطرس بالاعتراض، فصاح أشرف:

ـ لا تقاطعْني. كنت أفهم أن تأتيا من كندا حتى تطمئنّا عليّ أيّام الثورة عندما كان الناس يُقتَلون كلّ يوم. كنتما تعرفان أنّني أشترك في المظاهرات ويمكن أن أموت في أيّ لحظة. كنت أفهم أن تتدخّلا لإقناع أمّكما بأن تعود إلى البيت حتى لا تتركني وحدي في هذه الظروف الصعبة. لكنّكما تأتيان الآن لتنقذاني من جنوني. أنتما في الحقيقة تأتيان إليّ الآن فقط، بطلب من أمّكما، لتنقذا أموالي التي سترثانها بعد أن أموت. لقد تركتما كلّ شيء وجئتما لتلحقاني خوفًا على أموالي؛ خوفًا من أكون ذلك العجوز الذي سيبدّد أمواله على عشيقته وابنتها. أنتما في الحقيقة جئتما لتدافعا عن مصالحكما.

قال بطرس:

ـ غير صحيح.

قال أشرف:

ـ بكلِّ أسف، هذه الحقيقة. إنَّ تفكيركما مثل تفكير أمّكما: لا تفهمان الحياة إلّا عن طريق الأرقام.

قالت سارة وقد غضبت، فبدت عندئذ نسخة من أمّها:

ـ لسنا مضطرّين كي نثبت لك أنّنا نحبّك.

ـ أنتما تحبّانني على طريقتكما؛ طريقة ماجدة. هناك طريقة أخرى للحبّ. هذه المرأة التي تحتقرانها لأنّها خادمة ومسلمة؛ المرأة التي فتحت لكما الباب، هل لاحظتما أنَّ يدها ملفوفة في رباط ضاغط؟! هل تعلمان لماذا؟ لأنّها دافعت عنّي وتلقَّت بدلًا منّي ضربة بكوريك حديديّ، لو كان نزل على رأسي كنت سأموت فورًا. هذه طريقة في الحبِّ مختلفة عن طريقتكما أنتما.

وقفت سارة ووقف بطرس، فنهض أشرف واقترب منهما وقال:

ـ حسنًا... تريدان أن تنصرفا لأنَّ مهمّتكما فشلت. تفضَّلا مع السلامة. على الرَّغم من كلِّ شيء، فإنّني سأظلّ أحبّكما، وسيُسعدني أن أراكما في أيِّ وقت.

(٧٢)

حبيبي مازن،

لا يمكن أن أصف سعادتي وأنا أقرأ خطابك. أنا واثقة بأنَّ الناس الجالسين حولي في المقهى ظنُّوا أنِّي مجنونة، لأنِّي بعد أن قرأت الخطاب اكثر من مرَّة رحت أشمّه وأقبّله. كم وحشتني. كنت أتّصل بكريم كلَّ يوم لأعرف أخبارك... سأظلّ مَدينة طوال حياتي لكريم. أتساءل أحيانًا كيف يستطيع شابّ لم يتجاوز الخامسة والعشرين من العمر أن يتصرَّف بكلّ هذه الحكمة وهذه الشجاعة. كنت في المستشفى محطَّمة تمامًا جسديًّا ومعنويًّا، وكانوا قد قيَّدوني بالسرير حتى لا أهرب، مع أنِّي كنت عاجزة عن الحركة أساسًا، ثم جاء وكيل النيابة. أدركت منذ النظرة الأولى أنّه شابّ متغطرس ومُوالٍ للنظام. لم أطلب منه إثبات إصاباتي، ولم يسألني هو بالطبع. أجبت عن كلّ الأسئلة بكلمة واحدة:

- ما حصلش.

استفزّته ردودي فقال:

ـ إنت ما عندكيش غير ما حصلش؟

أُفرج عنّي بكفالة مقدارها ثلاثة آلاف جنيه على ذمّة القضيّة، جمعها الزملاء ودفعها كريم، ثم خرجت من المستشفى بعد أن وقّعت إقرارًا باستكمال العلاج على مسؤوليّتي (كأنّهم مهتمّون فعلًا بعلاجي). كان رأي كريم أنّ النائب العامّ سوف يُصدر قرارًا بمنعي من السفر في أيّ لحظة، وبالتالي لا بدَّ من أن أسافر إلى الخارج بسرعة، لأنَّ هذه الفرصة لو ضاعت فلن تعود. من حسن الحظّ أنّه كانت لديَّ فيزا إلى إنكلترا لمدّة خمس سنوات استخرجتها منذ عامين لأزور خالي الذي يُقيم بلندن. دفعت أسمهان ثمن تذكرة على الخطوط البريطانيّة، وجاء معي كريم وأسمهان إلى المطار... تصوَّرْ أنّني سافرت ووجهي ما زال متورّمًا من أثر الضرب، وذراعي اليمنى في الجبس وأمشي بصعوبة... كلّ مكان في جسدي كان يؤلمني، كنت منهَكة ومشتّتة الذهن تمامًا إلى درجة أنّني عندما أتذكّر نفسي في مطار القاهرة أحسّ بأنّني كنت أحلم. هاجمتني الآلام في الطائرة، وأخذتُ حبوبًا مسكّنة كانت معي. تصوَّرْ أنّني بمجرَّد وصولي بهذه الحالة إلى لندن قامت المضيفة الإنكليزيّة بإبلاغ إدارة مطار هيثرو، فقاموا بإحضار كرسيٍّ متحرّك وطبيب ليفحصني، وجاءت معي مضيفة لمساعدتي على إنهاء إجراءات الوصول. لم أطلب منهم أيّ شيء. لمجرَّد أنّهم لاحظوا أنّني مُصابة وأتألّم، قدّموا إليّ المساعدة فورًا. تصوَّرْ أنّ الطبيب الإنكليزي وهو يفحصني، ابتسم وقال:

ـ ستكونين على ما يرام، وستكون هذه آخر حادثة تتعرَّضين لها.

قال ذلك مداعبًا ليخفّف عنّي، لكنّني انفجرت بالبكاء. نعم، يا مازن، بكيت... كنت أريد أن أقول له إنّني لم أتعرّض لحادث، وإنّما مَن فعل بي ذلك جنود مصريّون. كنت أريد أن أقول له: هذا ما فعله بي بلدي الذي أحببته كما لم أحبّ شيئًا في الدنيا. بلدي الذي واجهت الموت من أجله، فلم أخف ولم أتردّد لحظة. نعم، بلدي هو الذي انتهكني وأهانني وأذلّني. صدّقني، يا مازن، أنا لم أسافر خوفًا من القضيّة الكبيرة التي سيلفّقونها لنا. لقد سافرت لأني عرفت الحقيقة؛ لأنّ الضابط الذي انتهكني مع جنوده، قال لي في النهاية:

ـ عرفت يا أسماء أنّك ولا حاجة؟

هذه الحقيقة، يا مازن. أنا فعلًا «ولا حاجة»، وأنت «ولا حاجة»، وكلّ شباب الثورة «ولا حاجة». لقد فعلوا بنا وسيفعلون بنا ما يشاؤون. سيقتلوننا ويهتكون أعراضنا ويصفّون عيوننا بالخرطوش، ولن يحاكمهم أحد ولن يحاسبهم أحد... عارف ليه؟ لأنّنا «ولا حاجة»؛ لأنّنا قمنا بثورة لا يحتاج إليها أحد ولا يريدها أحد. أعرف أنّك ما زلت مؤمنًا بالشعب. أمّا أنا، فلم أعد أؤمن به. هذا الشعب الذي مات أفضل مَن فينا دفاعًا عن حرّيّته وكرامته، لا يريد حرّيّة ولا كرامة. كنت تتساءل لماذا هذا الكره الذي نراه على وجوه الضبّاط وهم يقتلوننا؟ لأنّهم يكرهون ما نمثّله. لأنّنا نطالب بأن نكون مواطنين، لا عبيدًا. الشعب الذي ثرنا من أجله، يا مازن، يكرهنا ويكره الثورة. لن أنسى نظرات رئيسة الممرّضات الكارهة واتّهامها لي بالخيانة. لن أنسى أمنيتها بأن يقتلوا شباب الثورة جميعًا عشان البلد تنضف، لأنّنا عملاء وخَوَنة. لن أنسى تعليقات المدرّسين واتّهامات أبلة منال. لن أنسى لعنات سائق التاكسي للثورة، وشكوكَ أبي الذي

يعتقد أنّنا اعتصمنا في التحرير حتى نمارس الجنس... ستقول لي طبعًا هذا من تأثير الإعلام، وسأقول لك: لن أخدع نفسي مرّة أخرى. لقد تأثّر المصريُّون بالإعلام لأنّهم يريدون أن يتأثّروا به. القطاع الأكبر من المصريّين راضٍ بالقمع، وقد توافق مع الفساد وأصبح جزءًا منه... هؤلاء كرهوا الثورة من البداية لأنّها تُحرجهم أمام أنفسهم... لقد كرهوا الثورة أوّلًا، ثم أعطاهم الإعلام أسباب الكراهية... المصريُّون يعيشون في جمهوريّة كأنّ. إنّهم يعيشون في مجموعة أكاذيب تبدو كلّها كأنّها حقيقة. يمارسون طقوس الدين فيبدون كأنّهم متديّنون، لكنّهم في الحقيقة فاسدون تمامًا. كلّ شيء في مصر يبدو كأنّه حقيقيّ، لكنّه كذب في كذب، بدءًا من رئيس الجمهوريّة الذي يحكم بانتخابات مزوّرة، لكنَّ الشعب يهنّئه بالفوز فيها، وحتى أبي الذي يكيل المديح للكفيل الذي يذلّه ويهينه ويسرق مستحقّاته، وحتى ناظر مدرستي الذي يوقف الدراسة من أجل صلاة الظهر بينما هو أكبر فاسد، وحتى المدرّسين المتديّنين الملتحين والمحجّبات والمنقّبات الذين يبتزّون بنات فقيرات من أجل الدروس الخصوصيّة. كلّ شيء في مصر كاذب ما عدا الثورة. الثورة وحدها هي الحقيقة، لذلك يكرهونها لأنّها تفضح فسادهم ونفاقهم... مصر هي جمهوريّة كأنّ، ونحن قدّمنا إلى المصريين الحقيقة فكرهونا من أعماق قلوبهم... لقد سافرتُ لأنّني لن أقبل بأن أعيش في بلد أُعامَل فيه على أنّني «ولا حاجة». أنا في لندن إنسانة لي كرامة ولي حقوق. لن ينتهكني أحد ولن يتّهمني أحد بالخيانة، ولا يستطيع أحد أن يجبرني على خلع ثيابي ليعبث في جسدي. أكتشف الآن أنّني في مصر، عمري ما كنت إنسانة، يا مازن. كنت «ولا حاجة». الضابط الذي انتهكني عرّفني بالحقيقة. أقمت بلندن

مع خالي وزوجته الاسكتلنديَّة وابنته لمدَّة أسبوعين، ثم وجدت حجرة نظيفة ورخيصة في فندق صغير في منطقة بادينغتون. صاحب الفندق مصريّ اسمه مدحت حنَّا. رجل كبير في السنّ وطيِّب جدًا، يذكِّرني بالأستاذ أشرف ويصا. لن أعود إلى مصر يا مازن. سأعمل وأدرس هنا، لأنني أفضِّل أن أكون إنسانة في غير بلدي على أن أكون «ولا حاجة» في بلدي. أعرف طبعًا أنَّك لن توافق على ما سأقوله، لكن لا بدَّ من أن أقوله:

- اسمع كلام الأستاذ عصام وسافر بمجرَّد الإفراج عنك. هذا ليس هروبًا من المعركة أبدًا. لقد خسرنا المعركة، ليس لقلَّة شجاعتنا، ولكن لأنَّ المصريين خذلونا وتخلُّوا عنَّا. المصريُّون الذين ثرنا من أجلهم، ومات الآلاف منَّا وفقدوا عيونهم دفاعًا عن حقوقهم. هؤلاء المصريُّون رأونا ونحن نُعتقَل ونُقتَل ونُنتهَك، فصفَّقوا في فرح وشجَّعوا المذبحة بحماسة. لن أضحِّي بعد الآن دفاعًا عن هؤلاء الناس لسبب بسيط: لأنَّهم لا يستحقُّون التضحية. هم يحبُّون عصا الديكتاتور، ولا يفهمون أيّ طريقة أخرى في التعامل معهم. كانت ثورتنا العظيمة طفرة؛ وردةً جميلة وحيدة وغريبة ظهرت في مستنقع. كانت ثورتنا تغيّرًا مفاجئًا في مسار الجينات المصريَّة، ثم سرعان ما عاد كلّ شيء إلى طبيعته، وصرنا نحن خارجين عن السياق، منبوذين، لا يريدنا أحد، ولا يتعاطف معنا أحد، ويعتبرنا الجميع سببَ كلّ المصائب. هنيئًا للمصريين بإجهاض الثورة وهنيئًا لهم باكتشاف أنَّنا عملاء وخَوَنة. لن يعرفوا أبدًا أنَّ الثورة كانت فرصتهم الوحيدة للعدل والحرِّيَّة، لكنَّهم أهدروها بأيديهم عندما خذلونا... إنَّهم يعتبروننا خوَنَة لمجرَّد أنَّنا نطالب بمحاكمة العسكريِّين القَتَلة. إنَّهم ينظِّمون مظاهرات التأييد

للمجلس العسكري الذي قتلنا وانتهكنا ودهسنا بالمدرّعات... مهما شرحنا، فلن يفهموا أبدًا أنّنا لا نكره الجيش لكنّنا نكره الظلم. لن يفهموا أبدًا لأنّ كلّ واحد فيهم ما دام أولاده لم يقتلهم الجيش لا يهتمّ إطلاقًا بقتل أولاد الآخرين... لن يفهموا أبدًا أنّنا نفضّل الكرامة والحرّيّة على الحياة نفسها، بينما هم مستعدّون للتنازل عن كرامتهم وحرّيّتهم من أجل لقمة العيش. إنّهم على أتمّ استعداد لأن تدهسهم أيّ سلطة حتى يعيشوا ويربّوا عيالهم. لن يفهمنا المصريّون أبدًا، ولن نكون مثلهم أبدًا. أيّ معنى وأيّ فائدة في أن تضحّي بحرّيّتك وحياتك دفاعًا عن شعب يكرهك ويعتبرك خائنًا. اتركهم يا مازن، وتعالَ إلى بلد يحترم إنسانيّتك وتشعر فيه بأنّ لك قيمة، وأنّك لست «ولا حاجة».

أحبّك وأنتظرك وأعلم بأنّك ستأتي.

حبيبتك إلى الأبد.

اسماء

(٧٣)

منذ أن يخرج النقيب هيثم المليجي من معسكر الأمن المركزيّ على طريق الإسماعيليَّة وحتى يصل إلى بيته في المقطم، يتحرَّك بسيَّارته بسهولة لأنَّه يحفظ الطريق عن ظهر قلب. عندما تزوَّج هادية منذ سبع سنوات أهداه أبوه اللواء عزَّت المليجي (مدير أمن القاهرة السابق) شقَّة دوبلكس من دورين في شارع ٩، أعجبت هادية لأنَّها متَّسعة وتقسيمتها جميلة. حجرة الجلوس والصالة والسفرة في الدور الأرضيّ، وثلاث حجرات للنوم في الدور الثاني مع أربعة حمَّامات، اثنان في كلّ دور، أحدها ملحق بحجرة الزوجين مراعاة للخصوصيَّة. أنجب الزوجان أوَّلًا إسلام، ثم نادين، وقد ألحقتهما زوجته هادية بالحضانة الأميركيَّة، بحيث إنَّها تعمل في البنك العربي الأفريقي ولا تعود إلى البيت قبل الخامسة مساءً، بالإضافة إلى أوقات عمل النقيب هيثم المتغيِّرة باستمرار. لا يمكن أن تنسى هادية خوفها على زوجها في أثناء الثورة، حين ظلَّ ثلاثة أيَّام في الشوارع. اتَّصل بها مرَّة واحدة وقال لها إنَّ

البلد يتعرَّض لمؤامرة، وإنَّه لا يعرف متى سيعود. عاشت هادية، بعد سقوط مبارك، كلّ التفاصيل المحزنة لمحاكمة زوجها. صحيح أنَّه لم يُسجَن يومًا واحدًا، بل حتى لم يوقَف عن العمل، لكن فكرة أنَّه يُحاكَم بتهمة القتل ألقت بظلّها الكئيب على البيت. ظلَّت هادية تتفادى الحديث في الموضوع قدر الإمكان. مرَّة واحدة سألته:

ـ أنت صحيح قتلت الولد الطالب دَه؟

لم يكن هيثم يتوقَّع السؤال، فأشاح بوجهه تلقائيًا، وقال بانفعال:

ـ ضابط الشرطة بيدافع عن البلد كلّها، وممكن جدًّا يقتل إذا تلقَّى الأمر.

لم تعد هادية إلى فتح الموضوع مرَّة أخرى، لكنَّها بالطبع كانت تترك عملها في البنك وتحضر جلسات المحاكمة. وعندما حصل هيثم على البراءة راحت تصيح بفرح:

ـ الحمد لله، ألله أكبر.

واحتضنت زوجاتِ الضبَّاط المتَّهَمين لتهنّئهنّ، ثم قامت في الأسبوع نفسه بذبح عجل ووزَّعت لحمه على الفقراء في حيّ الزلزال في المقطم. في أوَّل يوم بعد البراءة، استدعاه قائده في الأمن المركزيّ. دخل هيثم وأدَّى التحيَّة العسكريَّة، فابتسم اللواء وقال:

ـ مبروك البراءة.

ابتسم هيثم وقال:

ـ الله يبارك فيك، يا فندم.

ظهر هنا تعبير جادّ على وجه اللواء، وخلع نظَّارته الطبّيَّة، ومرَّر إصبعه فوق أنفه، وقال:

ـ حكم البراءة لك أنت وزملائك رسالة إلى ضبَّاط مصر كلّهم. لن يضارّ ضابط واحد ما دام بينفِّذ الأوامر. على فكرة، أنا قرَّرت لك علاوة استثنائيَّة.

ـ شكرًا يا فندم. ربِّنا يخلِّيك.

صرفه اللواء وعادت حياة النقيب هيثم إلى طبيعتها. تعمل هادية في البنك ثم تأخذ إسلام ونادين من الحضانة، بينما ظلَّت مواعيد هيثم كالعادة متغيِّرة. يسهر أحيانًا في الخدمة طوال الليل، ويعمل أحيانًا في النهار ويعود ليتناول العشاء معهم. في ذلك اليوم، كانت الساعة تجاوزت الرابعة صباحًا عندما عبر بسيَّارته إلى طريق المقطم. كان الطريق خاويًا تمامًا، وكان النقيب هيثم متعَبًا فزاد في سرعة السيَّارة حتى يصل إلى البيت. كان يتوق إلى حمَّام ساخن وعشاء مع هادية التي تستيقظ دائمًا لاستقباله في أيّ وقت يعود. اجتاز الطريق حتى وصل إلى الهضبة الوسطى، وهنا حدثت المفاجأة. وجد حجرًا كبيرًا في وسط الطريق. لحسن الحظّ، انتبه في الوقت المناسب فاستطاع أن يوقف السيَّارة. بدا الأمر كأنَّ صخرة كبيرة قد انهارت من الجبل فسدَّت الطريق. ما إن توقَّف النقيب هيثم حتى لمح أشخاصًا يتحرَّكون نحوه. كانوا ثلاثة. تقدَّموا بسرعة نحوه، ورأى في أيديهم بنادق سريعة الطلقات. اقترب أحدهم من نافذة السيَّارة، وصاح:

ـ انزل.

فكَّر هيثم بسرعة في الطبنجة المعلَّقة على جنبه الأيسر، وكأنَّما قرأ الملثَّم أفكاره فأطلق وابل رصاصات من البندقيَّة مرَّت فوق السيَّارة تمامًا، ثم صاح:

ـ انزل لو عاوز تعيش.

فتح هيثم الباب ونزل ببطء، وتقدَّم الملثَّمان الآخران وصوَّب الثلاثة بنادقهم نحوه، وقال أحدهم:

ـ ارفع إيديك.

رفع هيثم يديه، فتقدَّم الملثَّم ومدّ يده وسحب الطبنجة منه، وقال:

ـ فين التليفون؟

ـ في العربيَّة.

هكذا قال هيثم بصوت بدا له غريبًا. كان الثلاثة يتحرَّكون بثبات كأنَّهم معتادون على ما يفعلونه، أو كأنَّهم تدرَّبوا عليه. دخل الملثَّم السيَّارة وأخذ التليفون وفتحه، ثم أخرج الشريحة، وتقدَّم بضع خطوات نحو الجبل وألقى بها بقوَّة ذراعه، فسقطت بعيدًا، ثم عاد إلى زميليه. قاد أحدهم السيَّارة ووضعوا هيثم في المقعد الخلفيّ وإلى جواره أحدهم وهو يصوِّب البندقيَّة إلى رأسه، بينما ركب الثالث إلى جوار السائق وقد استدار شاهرًا بندقيَّته. دارت السيَّارة وعادت من حيث جاءت كأنَّها ستغادر المقطم. تكلَّم هيثم مرَّة واحدة. قال بصوت مرتعش:

ـ لو عاوزين العربيَّة وفلوسي خدوا اللِّي إنتم عاوزينه.

ضحك عندئذ السائق وقال بنبرة ثقيلة:

ـ عيب يا باشا تخاف زيّ العيال. جمِّد قلبك.

أدرك هيثم من صوته أنَّه تحت تأثير المخدِّر فلاذ بالصمت. نزلت السيَّارة في منحنى، ثم سارت بسرعة نحو عشر دقائق وتوقَّفت أمام

مبنى نيد الإنشاء. كان هيثم قد قرَّر الإذعان لخاطفيه، وفكَّر في أنَّ ضغطة واحدة من أحدهم ستطلق دفعة رصاص ستقتله فورًا. قادوه إلى شقَّة نيد التشطيب في الدور الثاني. كانت الحوائط ودرجات السلّم من الإسمنت، ولا يوجد باب للشقَّة ولا كهرباء، لكنَّهم وضعوا مصباح كيروسين كبيرًا يُصدر ضوءًا أصفر شاحبًا عكس أجسامهم على هيئة أشباح تتحرَّك على الحائط. كان كلّ شيء مُعَدًّا. تولَّى اثنان من الملثَّمين تقييد هيثم بالحبال في المقعد الخشبيّ، بينما غادر الثالث المكان. تطلَّع إليهما هيثم وقال:

- أنا موافق على أيّ حاجة تطلبوها.

صاح أحدهم بصوت مخدَّر:

- اسكت. ما توجعش دماغي. لو نطقت تاني حاموّتك.

ظلَّ الملثَّمان صامتين والبندقيَّتان مصوَّبتان على رأسه، في حين بقي هيثم جامدًا في مكانه، وخشي أن تبدر منه أيّ حركة يفهمها خاطفوه خطأً فيطلقون النار. سمع بعد قليل وقع أقدام تصعد الدرج، وسرعان ما ظهر الملثَّم الثالث ومعه رجل يحمل حقيبة سفر متوسِّطة الحجم. لم يتبيَّن هيثم وجه القادم الجديد في الضوء الشاحب، لكنَّه لمَّا اقترب ووقف أمامه عرفه. كان عمّ مدني يبدو منفعلًا وعيناه تلمعان، وصاح:

- أهلًا يا هيثم باشا.

كأنَّما أدرك هيثم كلّ ما يحدث مرَّة واحدة، فقال بصوت متوسِّل:

- يا حاجّ أرجوك ما تقتلنيش.

أطلق مدني ضحكة بدا وقعها غريبًا، وقال:

ـ من قال لك إنّي حاقتلك؟ أنت باشا. حدّ يقدر يقتل الباشا.

حدّق هيثم في مدني واختلج وجهه، وارتفع صوت مدني من جديد:

ـ لازم أقول لك إنّك كلّفتني كثير. الرجّالة اللّي جابوك دول من عندنا من المعصرة. اسمهم القتالة. دول بيقتلوا بالطلب. أكل عيشهم. أنت عارف لو قتلوك دلوقتِ هم اللّي حيتصرّفوا في جثّتك. دي شغلتهم. عربيّتك دي بكره الصبح حتتفكّ قطع غيار وتنباع. لا حدّ حيعرف اللّي حصلّك ولا حيبقى لك أثر.

بدأ هنا هيثم في البكاء، وراح يتوسّل تغلبه دموعه:

ـ أرجوك يا حاجّ ما تقتلنيش. أنا عندي ولد وبنت محتاجيني. أنا معايا فلوس كثيرة. ممكن أدفع أيّ حاجة تطلبوها بس ما تقتلونيش.

حدّق فيه مدني، وقال:

ـ أقتلك إيه؟ أنا جيت مخصوص لأجل أقابلك. عندي حاجات عاوزة أورّيها لك. ممكن؟!

لم يكن هيثم في حالة تسمح له بالردّ. انحنى مدني وفتح الحقيبة، ثم أخرج أشياء منها، وراح يتحدّث بسرعة وهو يلهث:

ـ بُصّ بقى يا باشا. دي أوّل جزمة كوتشي جبتها لخالد وهو في ابتدائي... كان فرحان بيها قوي لأنّها بتنوّر. بُصّ أوّل ما تضغط عليها كده تنوّر. بُصّ دي... دي شهادة خالد لمّا طلع الأوّل على المنطقة في الابتدائيّة، ودي شهادته لمّا طلع الأوّل في الإعداديّة. إحنا كنّا معلّقينهم في الصالون بس أنا فكّيتهم وجبتهم أورّيهم لك... ده

كمان، يا سِيدي، إخطار التنسيق أنّ خالد قُبِل في كلّيّة الطبّ، ودي بقى أوَّل بدلة اشترتها له لمَّا دخل كلّيّة الطبّ. أنت عارف أوَّل يوم لمَّا شفته لابس البدلة ورايح الكلّيّة، بكيت من الفرحة، وأمّه، الله يرحمها، بكت وقعدت تدعي له. دَه بقى جهاز تسجيل مزّيكة بسمّاعات. بصراحة ما اعرفش انطق اسمه بالإنكليزي. دَه اشتريته لخالد عشان يسمع مزّيكا وهو بيذاكر.

ترك مدني الجهاز فجأة يسقط على الأرض، ثم اقترب من هيثم حتى صار في مواجهته، وصاح بصوت مشروخ:

ـ أنت قتلت ابني ليه؟!

راح هيثم يتوسَّل وهو يبكي:

ـ سامحني يا حاجّ. أبوس رِجلك ما تقتلنيش.

صاح مدني وكأنّه لم يسمع:

ـ قتلت ابني بالرصاص... الرصاصة اللّي ضربتها بإيدك دي خرقت دماغه. أنا خدت حتّة من مخّه بإيدي وأنا باغسّله. بإيدي دي أنا شلت مخّه.

٣تنهَّد عمّ مدني وأطرق، كأنّما تذكَّر شيئًا فجأة، ثم أشاح بوجهه وانحنى بهدوء، وراح يجمع الأشياء بعناية ويُعيدها إلى الحقيبة. بدأ بالحذاء الكوتشي، ثم شهادتي الابتدائيَّة والإعداديَّة، وإخطار التنسيق، ثم طبَّق البدلة ووضعها بعناية، ثم جهاز الموسيقى والسمَّاعة. وفي النهاية، أغلق الحقيبة، ومن دون أن يتكلَّم حملها وخرج. راح ينزل درجات السلَّم الإسمنتيَّة بحرص، وقبل أن يصل إلى البوَّابة، تناهى إلى سمعه فجأة دويٌّ وابل من رصاصات انطلقت متتابعة، ثم ساد الصمت.

(تمّت)

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

عن القاهرة ويناير: عن مازن، وأسماء، واللواء علواني، والشيخ شامل وكثيرين آخرين من الشخصيَّات التي شكَّلتْ فسيفساءَ الثورة ضدّ النظام. روايةٌ صادمة ومرعبة ومشوِّقة عن إحباط الثورة عبر التحالف الغاشم بين السلطة والإعلام والخطاب الدينيّ.

"جمهوريَّة كأن"، بقلم علاء الأسواني، قد يكون لها الوقع الكابوسيّ نفسه الذي أحدثته رواية أورويل "١٩٨٤".

ISBN: 978-9953-89-571-0

دار الآداب
بيروت - لبنان
هاتف: 795135 – 1861633 961+